تاريخ المصريين

٧٢

رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي

(٣٥٨ - ٥٦٧ هـ/٩٦٩ - ١١٧١ م)

د. أمينة أحمد امام الشوربجي



الهيئة المصرية العامة للكتاب



رئيس مجلس الإدارة
د. سمير سرحان
رئيس التحرير
د. عبد العظيم رمضان

نسيم

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية لمصر في العصر الفاطمي

(٣٥٨-٥٦٧هـ/٩٦٩-١١٧١م)

تأليف

د. أمينة أحمد إمام الشورنجي



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٤

تقـــديم

يسرنى أن أقدم للقارىء الكريم هذا الكتـــاب الهام الذى يعرض أحوال مصر المـــالية والاقتصـــادية فى العصر الفاطمى من خلال رؤية الرحـــالة المسلمين . وهو فى الأصـــل رسالة علميـــة حصـــلت بها صاحبتها الدكتورة أمينـــة الشوربجى على درجـــة الدكتوراه .

والكتاب يعالج عدة موضوعات على جانب كبير من الأهميـــة عن الرحالة المســـلمين فى العصور الوســـطى وكتاباتهم ، والنظم المـــالية التى كانت مطبقة بمصر ، وملاحظـــات الرحالة عليهـــا . ودواوين الادارة المـــالية فى الدولة الفاطمية ، والموارد المـــالية ، والمصادرات ، ووجوه الانفـــاق الرئيسية للدولة ، ونظـــام النقد الفاطمى ، وأوضاع مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى ، وثرواتها ، ونظام الرى ، والصناعات المصريـــة الرئيســـية فى ذلك العصر ، مثل صناعة السفن ، وصناعة النسيج وغيرها .

كذلك تعرضت المؤلفة لنشاط التجارة فى العصر الفاطمى ، ومركز مصر التجارى ، والمراكز التجارية فى الفسطاط والقـــاهرة والاسكندرية وغيرها فى الأقاليم ، والأسواق ، والاشراف عليها ، والمنشآت التجارية ، وعلاقات مصر التجارية الخارجية مع المدن الايطالية وغيرها فى الشرق والغرب والجنوب .

واخيرا قدمت الدكتورة امينة الشوربجى تقييما شاملا لكتابات الرحالة المسلمين ورؤيتهم للأحوال المالية والاقتصادية فى مصر فى العصر الفاطمى ، ومراحل ازدهار الاقتصاد المصرى ومظاهره ، وقصور الخلفاء الفاطميين ، والجامع الأزهر وغيره من الجوامع والمساجد ، وثروات الخلفاء والوزراء الفاطميين .

كما تحدثت عن مراحل انهيار الاقتصاد المصرى وأسبابه ، وازمات مصر الاقتصادية وصراعات الجيش وطوائفه ، وصراعات الوزراء ورجال الدولة .

والكتاب على هذا النحو يعتبر موسوعة للعصر الفاطمى تسد إفراغا هاما فى المكتبة العربية الاسلامية ، كما يعد من الأعمال العلمية الهامة .

رئيس التحرير

أ.د. عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عامة

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد ..

فلما كانت النواحي المالية والاقتصادية ذات اهمية كبيرة وذلك لارتباطها بحياة الناس ونشاطهم فى كافة ميادين العمل والانتاج وانعكاس ذلك على رفاهية المجتمع ومستوى معيشة الشعب ، بل وتحديد قوة وضعف الدولة مما ينعكس ولاشك على سياستها داخل البلاد وخارجها .

لذا رايت أن يكون هذا الجانب المالى والاقتصادى هو مجال دراستى فى هذا الكتاب الذى يتناول الأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى من خلال رؤية الرحالة المسلمين لتلك الأحوال فى ذلك العصر رغم ما يعترضه من صعوبات جمة . أما الهدف فهو القاء الضوء على فترة مهمة من تاريخ مصر الاسلامية ، وبيان الظواهر الاقتصادية التى سادت مصر فى

تلك الفترة . وكذا بيان الأثر الحضارى الذى تركته هذه الفترة فى وجدان الشعب المصرى .

ولقد واجهتنى صعوبات عدة فى دراستى لهذا الموضوع أهمها قلة المصادر والمراجع التى تتحدث عن النواحى الاقتصادية بالذات وذلك لأن مؤرخى التاريخ الاسلامى أولوا عنايتهم بالدرجة الأولى لدراسة النواحى السياسية والحربية التى كانت سريعة التغير .

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يكون تقسيم البحث الى ثلاثة أبواب رئيسية وكل باب منها يشتمل على عدة فصول . كذلك رأيت أن أقدم للموضوع بتمهيد يتناول تعريف المال والاقتصاد والعلاقة بينهما ثم آراء وكتابات الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى وما يتصل منها بالعصر الفاطمى . أما الأبواب الثلاثة فهى :

الباب الأول بعنوان « النظم المالية المطبقة بمصر وملاحظات الرحالة المسلمين عليها » .

والباب الثانى وهو عن « ثروة مصر فى العصر الفاطمى ومدى ادراك الرحالة المسلمين لازدهار مصر الاقتصادى » .

أما الباب الثالث والأخير فهو : « تقييم لكتابات الرحالة المسلمين ورؤيتهم للأحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى » .

وهكذا أقدم كتابى هذا راجية من الله تعالى أن أكون قد وفقت فى تقديم صورة واضحة وشاملة عن الأحوال المالية

والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى ورؤية الرحالة المسلمين لهذه الأحوال بكل ما حفلت به من ازدهار فى غالب الأحوال وانهيـــار فى بعضهـــا .

واخيرا أتمنى من الله العلى القدير أن أكون قد أوضحت قدر الامكان هـــذه الجوانب المهمة من حيـــاة مصر فى العصر الفاطمى وابرازها فى شكل علمى موضوعى .

واذا كان التوفيق قد جانبنى فى بعض النقاط فعذرى اننى أحاول أن أصل الى صورة هى الى الكمال أقرب ، والكمال لله وحده فهو نعم العون ونعم النصير ؟

دكتورة امينة أحمد امام الشوربجى

مدرس التاريخ والحضارة الاسلامية

كلية البنات ـ جامعة عين شمس

تمهيـــد

١ ـ المـال والاقتصـاد والعلاقة بينهما .

٢ ـ الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى وكتاباتهم .

١ ـ المـال والاقتصـاد والعـلاقة بينهما

لابد لنا بادىء ذى بدء من وضـع تعريف مبسط للمـال والاقتصاد حتى يمكننا ادراك كنه العلاقـة الوثيقـة التى تربط بينهما ، ورغم أن هذا ليس بالسهولة التى يتصورها القارىء ، الا اننـا مع ذلك نستطيع القول ـ بعد دراسـة متعمقـة لآراء المتخصصـين ـ ان المـال هو (الثروة) سـواء أكانت نقودا أم املاكا زراعية أم صناعية وما تغله أو تنتجه ، وأما الاقتصـاد فهو مجموعة المبادىء التى يقوم بسببها التخطيط لاستغلال المـال للصـالح العـام والخـاص لهـدف رئيسى هو رفـع مسـتوى المعيشـة (*) .

وعلى هـذا فان من أقدم التعريفـات لعلم الاقتصـاد ذلك التعـريف الذى يذكره الاقتصـادى الانجليزى آدم سـميث Adam Smith فى كتابه « ثروة الأمم » ـ المنشور عام ١٧٧٦ م

(*) هذا التعريف هو النتيجة العامة التى خرجت بها من دراسـتى للكتب التى تتناول موضوع المـال والاقتصاد .

والذى يقول ان علم الاقتصاد هو ذلك العلم الذى يهتم بدراسة الوسائل التى يمكن أن تزيد ثروة الأمم .

وهكذا كانت الثروة ووسائل زيادتها هى موضوع دراسة علم الاقتصاد . وقد تطور الأمر بعد ذلك فنرى الاقتصادى الشهير « ألفريد مارشال » فى كتابه « مبادىء الاقتصاد » المنشور عام ١٨٩٠ م وهو يعرف علم الاقتصاد ، يقول « بأنه دراسة للانسان فى أعماله التجارية اليومية وهو يتناول ذلك الجزء من حياة الانسان المتعلق بالنشاط الاجتماعى والمتصل بكيفية حصوله على الدخل » . وهذا التعريف قد انتقل من مجال دراسة الثروة والانتاج الى دراسة الدخل والتوزيع .

على أن أكثر التعاريف المتداولة لعلم الاقتصاد فى وقتنا الحالى هو ذلك التعريف الذى ذكره الاقتصادى « ليونيل روبنز » ويقول « ان علم الاقتصاد يعنى بدراسة النشاط الانسانى فى سعيه لاشباع حاجاته الكثيرة المتزايدة بواسطة موارده المحدودة » . ويعد هذا التعريف هو أكثرها انتشارا وهو يوضح أن علم الاقتصاد هو علم اجتماعى وليس علما طبيعيا فهو يهتم بدراسة السلوك الانسانى ولا يهتم بدراسة سلوك المادة . فهو اذن من العلوم الاجتماعية التى تدرس أعقد مخلوقات الله وهو الانسان . ومن هنا تنشأ صعوبة هذا العلم بقدر تنوع الأفراد وسلوكهم ، وبالتالى خضوعهم جميعا لنظرية عامة أو قاعدة عامة فى هذا السلوك . وهذا العلم الاجتماعى يدرس حاجات الانسان وهى متعددة ومتزايدة دائما وأبدا ولابد من اشباعها من الموارد المحدودة مهما كانت كميتها بالنسبة الى الحاجات المتزايدة ، وبالتالى فان المشكلة الاقتصادية تهتم ببيان القاعدة أو النظرية أو الأسلوب الذى يمكن به استخدام هذه الموارد لتلبية الحاجات المتزايدة .

وعلى هـذا فنستطيع القول ان علم الاقتصاد هو علم من العلوم الاجتماعية يختص بدراسة لجانب من السلوك الانسانى الذى له علاقة بانتاج واستهلاك وتبادل السلع والخدمات .

ومن المسلمات فى عصرنا الحاضر أن من أهم الأهداف التى تهدف اليها شعوب العالم ، الرغبة الجامحة فى رفع مستويات المعيشة أو قل الرغبة فى النمو الاقتصادى .

ولتحقيق ذلك يتخذ علم الاقتصاد الكثير من التنظيم ويضع المبادىء والأصول التى يبنى فوقها الهدف العام المشترك ، فيعنى بمشكلة « الندرة » اذ لولا ندرة المنابع الانتاجية لاستطاع كل امرىء أن يحصل منها على ما يريد . وارتقاء مستوى المعيشة لا يتأتى الا بحصول المرء أو الأمة على سلع وخدمات أكثر .

من اجل هذا تلعب مشكلة الندرة دورا مهما فى علمنا هذا اذ لابد من تعرف الأصول الخاصة بزيادة ثروة المجتمع وزيادة ثروة الفرد ليعيش الفرد فى مزيد من الرفاهية الاقتصادية .

ويبحث علم الاقتصاد أيضا دخول الأفراد كلهم أو قل الدخل الأهلى ومقدار ما تحصل عليه كل طبقة من طبقات المجتمع من دخول وبمقارنة ذلك نستطيع أن نقف على الجوانب الاقتصادية للنمو الاجتماعى . كما يبحث المقياس الذى تقوم به الأشياء ، ونعنى به النقود ، التى لا يرغب الناس فيها لذاتها بل لما تشتريه من سلع وخدمات . وعلم الاقتصاد لا يدرس الاقتصاد المحلى أو الأهلى فقط بل يذهب الى أبعد من ذلك فيدرس الاقتصاد الدولى وطرق انمائه وأسباب تأخره . كذلك يدرس اقتصاد الحكومات فيضع قواعد الانفاق العام ثم القواعد الخاصة بجباية انواع الضرائب المختلفة ويصوغ لذلك المبادىء العادلة التى تحقق قسطا كبيرا من العدالة الاجتماعية .

واخيرا يبحث علم الاقتصاد فى الأنظمة الاقتصادية والسياسية مثل النظام الشيوعى والاشتراكى والفاشى والراسمالى وما يخلفه كل من هذه الأنظمة من مشاكل .

وهكذا نصل الى نهاية المطاف بمناقشة الهيكل الاجتماعى للصورة التى يرتضيها او يريدها كل شعب .

وتعد مسألة « الملكية » وما يترتب عليها ، من المعالم البارزة التى تميز نظاما اقتصاديا عن نظام اقتصادى آخر . فبالنسبة للنظام الراسمالى فان من أهم خصائصه حرية التملك وحرية الاختيار فى مجال الانتاج والتشغيل والاستهلاك وفى اطار هذه الحريات يعمل « نظام الثمن » الذى يدعى انصاره أنه يحل العديد من القرارات المعقدة فى اسواق السلع والخدمات الاستهلاكية والانتاجية على السواء . ولعل المحرك الأساسى لنمو الراسمالية هو دافع الربح فى مجال الانتاج ، وزيادة الاشباع فى مجال الاستهلاك ، وزيادة الأجر والدخل فى ميدان التوزيع . وقد أضفى آدم سميث هالة من الاطراء والتمجيد على هذه الحركة الميكانيكية التى قال انها تحقق التوازن بين الصالح الخاص والعام ، بل ان الصالح العام فى نظره هو مجموع المصالح الخاصة، وفى هذا اعتبر « جهاز الثمن » أو « نظام السوق » اليد السحرية التى تمتد الى كل اعوجاج اقتصادى فتقومه .

اما الماركسية فترد كل الشرور الاقتصادية والاجتماعية الى وجود الملكية الفردية وتقرر ان كل فكرة تحمل فى طياتها بذور فنائها فيتولد منها نقيض النقيض ، وأن الصراع الطبقى بين الراسماليين والعمال سيستمر لأن الراسمالى يحاول تخفيض الأجور وزيادة فائض القيمة فيزداد البؤس وتندثر الصناعات الصغيرة ويتكون الجيش الاحتياطى من العمال فيطيح بالنظام

الرأسمالى وتتحول ملكية الوحدات الانتاجية الى العمال ومن ثم ينتهى الصراع الطبقى .

أما الاسلام فقد أقر الملكية الخاصة وأخذ بها وبنى كثيرا من أحكامه على الاعتراف بها والتشجيع لها . والملكية على قسمين فى الاسلام : تامة وناقصة ، وتتضمن الملكية التامة ملكية الرقبة والمنفعة معا ، أما الملكية الناقصة فتتضمن ملكية المنفعة وحدها أو ملكية الرقبة وحدها .

والواقع أن مفهوم الاقتصاد فى الاسلام يتجاوز المفاهيم السابقة جميعا والتى ركزت على اشباع حاجات الانسان المادية وحدها ، فالاسلام قد اشتمل على معالجة شئون الحياة كلها ومنها المسائل الاقتصادية ، ولكنه قد عنى بها كوسيلة للحياة الكريمة التى ترعى وتنمى خصائص الانسان العليا وتزكى ثواب الله فى الآخرة ، بمعنى أن اهتمامه دنيوى وأخروى ولهذا يقول الله تعالى : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** » .

وهكذا فان الاقتصاد الاسلامى يجمع بين الاقتصاد الفردى حاملا معالم الحرية الاقتصادية بحيث لا تخرج هذه الحرية عن القواعد الشرعية المقررة ، وبين الاقتصاد الاجتماعى وأساسه العقود الجماعية مثل عقد الزكاة وبيت المال لعلاج مشكلة الفقر وأن لا فقر فى الاسلام . ويعالج الاقتصاد الاسلامى شئون الجماعة من كل الوجوه فى استخدام فروض العين وفروض الكفاية وقضاء حاجة الجماعة وهو الاقتصاد القومى كبناء المستشفيات والمدارس والملاجىء وتنظيم التوزيع والتعاون ضد الأزمات والفواجع كالحريق والفيضانات . وعلى هذا فالاقتصاد الاسلامى اقتصاد

مختلط متوازن بين مصلحة الجماعة على قواعد الحق والعدل والتوازن بحيث لا يغلب مصلحة جهة على جهة أخرى .

اما الوسيلة الأساسية لموضوع النمو الاقتصادى فهى « النقود » ، وعن النقود والسياسات النقدية كتب جون ستيورات ميل يقول : « انها أداة للاسراع والتوسع فيما يمكن عمله بها ، ويترتب على عدم وجودها الابطاء وعدم التوسع فيما كان يمكن عمله بها » .

ويشير الاستخدام التقليدى لكلمة النقود الى كونها وسيطا عاما (مقبولا) للتبادل . فأى شخص يمكن أن يقبل النقود فى مقابل تنازله عن أى سلعة أو خدمة يمتلكها . وقد نشأت النقود أساسا للقضاء على الصعوبات التى قد تنجم عن نظام المقايضة فى تبادل السلع والخدمات . وتتمثل الصعوبات الأساسية للتبادل على أساس المقايضة فى عدم وجود مقياس تحدد على أساسه نسب المقايضة وعدم قابلية بعض السلع للتجزئة ، واحيانا قد لا يتوافر توافق متبادل فى رغبات طرفى عملية التبادل . وكل هذه المشاكل يمكن حلها عن طريق ايجاد وسيط عام للتبادل يكون مقبولا لدى الجميع وهذا الوسيط هو ما يطلق عليه الاقتصاديون (النقود) . وقد عرف الانسان منذ القدم نظام المبادلة والمقايضة، ثم ارتقى الانسان بارتقاء النظام الاقتصادى والاجتماعى ولم يعد نظام المقايضة كافيا فكانت معرفة الانسان بالنقود ، وقد استخدم المعادن كوسيلة فى البيع والشراء لسهولة حفظها ونقلها وتجزئتها فاستخدم الحديد ثم النحاس ثم البرونز وأخيرا الفضة والذهب فى سك النقود وذلك لأن الذهب والفضة لهما مميزات وخصائص لا تتوافر فى غيرهما من المعادن . وبالفعل فقد أثبتت المعادن النفيسة ، الذهب والفضة ، قدرتها الفريدة

على القيام بدور النقود ، فهذه المعادن تتمتع بعدة مزايا منهـا احتفاظها بحالتها رغم تعدد مرات استخدامها وسهولة حملهـا وتخزينها وقابليتها للتجزئة ثم ندرتها النسبية والتى تساعد على الاحتفاظ بقيمتها الحقيقية لفترات طويلة . وبالاضافة الى ذلك فانها تتمتع بقيمة ذاتية من حيث كونها سلعة عليهـا طلب كبير لذاتها حيث تدخل فى تصنيع التحف وأعمال الديكورات والحلى ، ولذا تم استخدامهـا كوسـيط للتبـادل واستخدمت فى كثير من المعاملات وذلك قبل اختراع العملات . ولذا كان من الضرورى فى المـاضى حمل تلك المعادن الى الأسواق ثم القيـام لاتمام كل عملية تبادل بوزن كمية المعدن المطلوبة لاتمام الصفقة ، وتطلب ذلك بطبيعة الحال اختراع موازين الذهب شـديدة الحساسـية والتى كانت كثيرة الانتشار فى الأسواق لدى التجار . الا أن مثل هذا النظام بالرغم من تفوقه على نظام المقايضة ، الا أنه كان يفرض بعض الصعوبات والتى أمكن التخلص منها عن طريق العمـلات المعدنية والتى أعفت المتعاملين من القيام بعملية وزن المعدن النفيس فى كل عملية تبادل . وقد تولى الحـاكم قديما القيام بهذه المهمة حيث يصـدر عملة معدنية تحتوى على وزن معين ومحدد من المعدن النفيس ومختومة بخاتمه ضمانا لاحتوائها على تلك الكميـة من المعدن النفيس .

وكان هذا هو النظام الذى ساد العالم أجمع فى العصـور الوسطى ، ولذا فقد زاد التهافت واشتد الطلب على هذه المعادن النفيسة خاصة الذهب ، ونشأ ما يسميه الاقتصاديون « بمشكلة الذهب » فى العصر الوسيط والتى يتناولها بالعرض البـاحث الاقتصادى المعروف مارك بلوك بقوله : ان النظام النقدى الذى وضعه الامبراطور قسطنطين وخلفاؤه وقام على الصلدى الذهبى استمرت فيه حكومات البرابرة الجرمان فى الغرب فضربت الذهب

والفضة فى بلاد القوط الغربيين واللومبارد والفرنجة والأنجلو سكسون حتى القرن التاسع الميلادى حيث حدث انفصال نقدى بين الشرق والغرب فاستمر الشرق فى نظامه النقدى القائم على الذهب وفل سك الذهب وامتنع فى الغرب واستخدمت فيه العملة الفضية المعروفة بالدينير أو الدانق وأصبح الصلدى الذهبى محرد عملة حسابية .

ويؤكد « لمبار » نفس هذا المعنى فى حديثه عن « الذهب الاسلامى » ويضيف قوله ان السيادة الاقتصادية للبلاد الاسلامية فى العصر الوسيط الأول ترجع أولا وقبل كل شىء الى امتلاك الذهب بل معظم الذهب الموجود فى العالم المعروف اذ ذاك . ويستطرد شارحا أثر الفتوح الاسلامية على هذا الموضوع ينتهى الى قوله : ونتج عن الفتح الاسلامى أمور ثلاثة هيأت سيادة المسلمين على موارد الذهب وهى :

١ ـ الاستيلاء على الذهب المخزون فى البلاد التى فتحوها ، وهى اما بلاد تخزن الذهب من فائض ربح تجارة المرور وتكنزه كمصر وسوريا ، أو بلاد تبتلع الذهب بصهر العملات الذهبية لاعتمادها على النقود الفضية كفارس . وقد عاد الذهب المخزون بعد الفتح الاسلامى الى التداول فى الشرق والغرب بصورة لم تحدث من قبل ، ويضاف اليه كنوز الكنائس والأديرة والمقابر الفرعونية القديمة ويوازى حاصلها العثور على مناجم جديدة .

٢ ـ استغلال المسلمين للمناجم القديمة بآسيا وافريقية (القوقاز وارمينيا وسواحل الهند وافريقية الشرقية والنوبة) .

٣ ـ ورود ذهب السودان أو غرب افريقية عبر الصحراء الكبرى بعد امتداد السيادة الاسلامية على شمالها ، وقد تصارعت

دول الغرب الاسلامية على سيادة الطرق الصحراوية للتحكم فى وصول ذهب السودان الغربى كالفاطميين فى مصر والأمويين فى الأندلس والمرابطين بالمغرب .

وقد هيأت هذه الأمور الثلاثة تفوق السكة الاسلامية بعد استقرارها فانتشرت الدنانير الاسلامية وضرب الذهب فى الشرق والغرب الاسلاميين على السواء ودخل فى التداول فى معظم البلدان . وعلى هذا فلو عقدنا مقارنة بين النظام المالى فى الاسلام والنظم المالية التى سادت أوروبا فى العصور الوسطى والعصر الحديث سنلاحظ أن الفرق شاسع بينهما فقد كانت تلك النظم نظما متخلفة ، على حين أن النظام المالى الاسلامى الذى نشأ فى القرن السابع للميلاد نجده متقدما يضارع أحسن النظم المالية التى ظهرت فى العصر الحديث بل يفوقها مع وجود الفارق الزمنى الكبير بينهما والذى يبلغ حوالى ثلاثة عشر قرنا من الزمان .

ونظرة الى النظم المالية عبر العصور الوسطى توضح بجلاء كيف أنه لم يكن هناك فاصل بين مالية الحكام ومالية الدولة فكانت ادارة الحاكم هى الادارة المطلقة فى الشئون المالية وهى التى تصدر القوانين المالية وتفرض الضرائب وتحدد مقاديرها وتتسلم حصيلتها وتنفقها كيف تشاء دون تمييز بين نفقات الحاكم الخاصة ونفقات الدولة . وكانت ايرادات الدواوين (أملاك السيد الاقطاعى) وحقوق الاقطاع المصدر العادى للموارد العامة اللازمة لتمويل الانفاق العام ، وبالاجمال كان النظام المالى فى العصور الوسطى يعكس طبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة حينذاك ، وهى العلاقات التى كانت تقوم على العبودية والتبعية والحكم المطلق .

وجاء الاسلام يحمل معه أفضل نظام مالى عرفه التاريخ حتى الآن : فمن ناحية الموارد المالية وضع ضوابط دقيقة عادلة لتقدير أوعية الزكاة (مثل زكاة النقود وعروض التجارة والماشية والثمار والحاصلات الزراعية) ولتقدير الجزية والخراج والعشور ، كما وضع دستورا للضرائب يتضمن قاعدة العدالة فى اشتراك كل مكلف فى نفقات الدولة بحسب مقدرته المالية ، وقاعدة اليقين فى فرض الضرائب بحيث ان الضريبة التى يكلف الممول أداءها تكون معلومة القدر ، وقاعدة الملاءمة التى تستلزم جباية الضرائب فى أكثر الأوقات ملاءمة للممول ، وقاعدة الاقتصاد فى نفقات الجباية حتى لا تلتهم تلك النفقات جزءا كبيرا من الحصيلة .

هذه القواعد يفخر الاقتصاديون المحدثون بأن (آدم سميث) هو واضعها فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وهى التى ظهرت فى كتابه (ثروة الأمم) مع أن الاسلام رعاها قبل ذلك بأحد عشر قرنا ووضع قواعد أكثر عدالة بما يوقظ الوعى الضريبى ويمنع من ازدواج الضرائب ويقلل من مجالات التهرب من أدائها .

واذا كان الاسلام قد اهتم بنواحى الموارد المالية ، فانه أيضا أولى أوجه الانفاق اهتمامه وترشيده واذا كان الاقتصاديون المحدثون يرون ضرورة توافر قواعد معينة فى الانفاق العام كقاعدة المنفعة بغرض تحقيق السلطة المختصة . اذا كان هؤلاء الاقتصاديون قد نادوا بمراعاة تلك القواعد فان الاسلام قد سبقهم اليها منذ بداية العصور الوسطى .

وفضلا عن ذلك فان الاسلام فصل مالية الحكام عن مالية الدولة : فمنذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب انشىء بيت المال وخصص لكل نوع من الايرادات بيت مال خاص به ، فخصص بيت مال للزكاة وبيت مال للفىء (الجزية والخراج والعشور)

وبيت مال لخمس الغنائم المستولى عليها فى الحروب ، وكانت ايرادات كل بيت مال تنفق فى الأوجه المخصصة لها .

وفى الختام تجدر الاشارة الى بعض المفاهيم الاسلامية التى تتصل بالمـال فيما يلى :

- لم يحتقر الاسلام المـال ولم يزهد فيه ، بل اعتبره نعمة من نعم الله الواجبة الشكر .
- حث الاسلام على الكسب الحلال .
- حرم الاسـلام السـؤال والاستجداء لمـا فى ذلك من مذلة وهوان .
- عمل الاسلام على التقريب بين الطبقات باعـادة توزيع الدخـل والثروة عن طريق الزكاة والصـدقات ففرض للفقير فى مال الغنى ما يزكيه ويطهره ، وقدر له حقـا معلوما ، وجعله فى كفالة الدولة وعليها أن تأخذ حـق الفقير من الغنى وتعطيه اياه حتى لا يشعر بالمهانة .

وأوضح أن المـال مال الله والانسان امين عليه ينفقه حيث أمره الله .

هذه هى نظرة الاسلام للمال ، فهو من جهة جعل له مركزا ممتازا لأنه عصب الحياة ، ومن جهة أخرى بين أن المـال مال الله وان الانسان خليفتة فيه ليصرفه على حسب الأصول الشرعية .

وهكذا كانت الدولة الاسـلامية منذ بدايتها تطبق تعـاليم السماء وتتطور بها حسب الأنظمة السائدة بالبلاد التى فتحهـا المسلمون والتى أخذوا منها وطوعوها لتعاليم الاسـلام وأنظمته حتى يخرج منها النظـام الأمثل لتقـدم الانسـان خليفـة الله فى أرضـه .

(٢) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى وكتاباتهم

تعد الرحلة جزءا أصيلا لحركة الحياة على الأرض ، فالرحلة قديمة قدم التاريخ الانسانى وهى وسيلة من أهم وسائل الاتصال بين الشعوب والتعرف على العالم الخارجى .

ورغم ان الرحلات بدأت فى أول الأمر بصورة بسيطة الا أنها مع مرور الوقت اتسع مجالها ، وأصبحت سمة من سمات الانسان المتحضر . ويعد المصرى القديم من أول من أقبل على ارتياد البحار ، والقيام برحلات عظيمة سجل بعضها على جدران معابده . ومن أشهر تلك الرحلات الرحلة التى قامت بها الملكة حتشبسوت فى عام ١٤٩٣ ق.م والتى دونت على جدران معبد الدير البحرى بمصر العليا زمن الأسرة الثامنة عشرة والتى ذهبت الى بلاد بونت (الصومال الحالية) من أجل التجارة .

ولم يغفل العرب قيمة الرحلة فى حياتهم وخصوصا بعد أن أخذ الاسلام فى الانتشار وأصبح لهم دولة اسلامية مترامية

الأطراف امتدت من الهند والصين شرقا الى المحيط الأطلسي وجبال البرانس غربا ، ومن التركستان وجبال القوقاز شمالا الى السودان جنوبا .

وقد ساعدهم على الاهتمام والتفوق فى مجال الرحلة ازدهار الحضارة وسيادة المسلمين على البر والبحر الى جانب التسامح الدينى الذى اشتهر به الدين الاسلامى . كل هذا شجع على كثرة الرحلة والترحال . بل أصبح لهم قصب السبق فى ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية .

ورغم أن الدولة الاسلامية فقدت كثيرا من سطوتها ووحدتها السياسية منذ منتصف القرن الثانى الهجرى الا أن الرحلات لم تنقطع بين مختلف أقاليم العالم الاسلامى فالروابط الدينية والثقافية واللغوية كانت قوية .

ومنذ القرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى ـ تبلورت قيمة الرحلة وعظم الاهتمام بها وكثر تدوين الرحلات فى كثير من الكتب القيمة التى تحمل بين طياتها المعلومة التاريخية والجغرافية والاجتماعية ، والاقتصادية . ورغم أن كثيرا من كتب الرحالة فى تلك الفترة فقدت الا أن بعضها وصل الينا عن طريق كتابات معاصريهم ، ومن خلال كتب تقويم البلدان وكتب التاريخ .

ومهما يكن من الأمر فان كتب الرحالة وأخبار رحلاتهم التى وصلت الينا تعد كنوزا ساعدت فى تقدم التاريخ البشرى وانتشار المعلومة الصحيحة وخصوصا ان كثيرا من الرحالة المسلمين اتصفت كتاباتهم ولو بدرجات متفاوتة بدقة الملاحظة ، والوصف والتقصى فى تسجيل مشاهداتهم بأمانة وصدق بل حرص معظمهم على التفرقة بين المشاهدة والرواية عند تسجيل معلوماتهم .

والحقيقة أن هناك عوامل متعددة ساعدت على ازدهـار وتقدم وتفوق العرب فى هذا المجـال فمنها على سبيل المثـال اهتمام العرب بوصف الاقاليم والعناية بها باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الفتوح والمغازى ، فالدولة الاسلامية المترامية الأطراف كانت تحتاج الى دراسـة تاريخية وجغرافية واقتصادية حتى تستطيع الدولة أن تطبق أحكام الشريعة الاسلامية على تلك البلدان .

ومن أهم أهداف وأغراض الرحلة عند العرب المسلمين ، الرحلة لطلب العلم فمن الطبيعى أن يسافر العرب ويرحلوا من أجل العلم فبلاد العالم الاسلامى تحفل بالعلماء والمكتبات وطلاب العلم ولهذا فان الرحلة الى المراكز الثقافية والتعليمية المنتشرة كانت تقوم مقام البعثات الدراسية والمكتبات والمراجع والمؤتمرات العلمية فى عهدنا الحـاضر ، فكان رجال العلم ينتقلون بين ارجاء العالم الاسلامى ويدرسون على أيدى مشاهير الأساتذة ويلتقون بأعلام الفكر والأدب ويلقون أعـلام الفقهاء والمحدثين واللغويين والأطباء والرياضيين والفلاسفة فى تلك المراكز الثقافيـة ، فقد تعددت المراكز الثقافية فى العالم الاسلامى فكانت فى البصرة والكوفة وبغداد ، وبخارى ، وسمرقند ، ومرو ، ونيسابور ، وقوص ، والفسطاط ، والقاهرة ، والاسكندرية ، وطرابلس ، والشام ، ودمشق وبعلبك ، وجدة ، وعدن وتونس ، والقيروان ، ووهران ، وسجلماسة ، وفاس ، وقرطبة ، وغرناطة ، واشبيلية ، والمرية ، ومالقة وغيرها من المدن الاسلامية التى عرفت بازدهارها الحضارى فى العصر الاسلامى .

وكان معظم الرحـالة المسـلمين يحرصـون على تدوين مشاهداتهم وتسجيل رحلاتهم وأسفارهم ووصف المسالك والطرق التى مروا بها وتحديد المسافات بين البلدان كما كانوا يصفون

الصعاب التى تحملوها أثنـاء مرورهم ببعض المناطق كما كانت كتاباتهم تشـتمل على كثير من أحـوال البـلاد الاقتصـادية والاجتماعية .

ولم تقتصر الرحلة لطلب العلم على تلقى العلوم المختلفـة فى المراكز الثقافية المنتشرة فى العـالم الاسلامى ، وانما حرص بعض الخلفاء المسلمين على تكليف بعض هؤلاء الرحـالة بالقيـام برحلات من أجل اعداد دراسات دقيقة لأحوال البلدان التى تحت حوزتهم ومعرفة أجناس سكانها وعاداتهم وتقاليدهم ، والاهتمام بالنواحى المـالية والاقتصادية والجغرافية لتلك البلدان وترجمـة أمهات الكتب فى بعض العلوم مثل علم الفلك .

فيذكر المسعودى أن الخليفة أبا جعفر المنصور أمر بترجمة بعض العلوم الى العربيـة وخاصة علم الفلك لأهميته فى معرفـة علم البلدان .

والى جانب السعى فى طلب العلم والاستفادة من العلمـاء كانت البواعث الدينية من أهم العوامل التى دفعت المسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر الى الرحلة والانتقال لاداء فريضـة الحج . فالحج كان ولايزال من أهم بواعث الرحلات الدينية فهى من أعظم الرحلات التى يتشوق اليها كافة البشر وليس علماؤهم أو فقهاؤهم فقط . ومن أجل أداء هـذه الفريضة وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة .

فالمسلمون يتجهون كل عام من شتى أنحاء العالم الاسلامى الى مكة والمدينة لتأدية هـذه الفريضة وكان بعض الحجاج عند عودتهم الى بلادهم يدونون مشاهداتهم ويصفون ما مروا به من البلدان . وقد تجلت هـذه الظـاهرة فى كتابات رحـالة كثيرين

استفدت منهم فى بحثى هـذا ، وعلى سبيل المثـال ما قـام به ناصر خسرو عند زيارته للأماكن المقدسة لتأدية فريضة الحج فقد وصف لنا كثيرا من البلدان التى مر بها بل عقد مقارنات دقيقـة بين أحوال تلك البلدان بعضها وبعض وأسهب فى وصف جغرافيتها وشئونها المـالية والاقتصادية وأحوالها الاجتماعية كما سنوضح عند الكلام عن تلك الرحلة بالتفصيل .

كذلك ابن جبير الذى مر بمصر وغيرهـا من بـلاد العـالم الاسلامى أثناء ذهـابه لتأدية فريضـة الحج وكذلك المقدسى . والادريسى وغيرهم كثيرون وكثيرون .

اذن الرحلة لأداء فريضـة الحج كانت من أهم العوامـل التى ساعدت على تقدم علم الرحلات وازدهار هـذا المجال بفضل الرحالة الذين تركوا لنا تراثـا حضاريا ووصفا شيقا لكثير من البلاد أثناء ذهابهم الى المناطق المقدسـة لتأدية تلك الفريضـة مما ساعد كثيرين غيرهم فى الاعتماد على ما دونوه من ملاحظات ومشاهدات . بل ان بعض تلك الملاحظات كان لها أثر كبير فى لفت أنظار بعض الحكام الى تغيير بعض الأوضاع الخاطئة أو الغاء بعض القوانين الجـائرة مثل ما ذكره ابن جبير عند كلامه عن المكوس التى كانت مفروضة على الحجاج المسلمين عند مرورهم بمصر ، وكتب بذلك الى السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى ألغى تلك المكوس فشكره ابن جبير فى رحلته التالية على تغيير تلك القوانين والغائها فيذكر ابن جبير « ومن مفاخر هـذا السلطان المزلفة (المقربة) من الله تعـالى وآثاره التى أبقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا . ازالة رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين .... » .

ويجب ألا نغفل الجهود التى بذلها كثير من أهـل الخـير لتسهيل رحلة الحج فقد عنى كثير منهم باقامة الرباطات والحبس والأوقاف للانفاق على حجاج بيت الله الحرام بل ان كثيرا من أهل الخير كان يستضيف الحجاج المارين على بلاده . ولم تقتصر دوافع الرحلة على التزود بالعلم ومقابلة الفقهاء والعلمـاء وكذلك لم تقتصر الرحلة أيضا على أداء فريضة الحج وهى الركن الخامس من أركان الاسـلام وانما كانت التجارة من أهم دوافع الرحـلة عند المسلمين . فالتجـارة اتسع نطاقها وانتشرت قوافلها تجوب أرجاء العالم المعروف وخاضت سفن التجارة بالمسلمين البحـار والمحيطات وأصبح العالم بين أيديهم وساعدوا فى ازدهار الطرق بين الشرق والغرب . فكانت سفنهم تبحر الى بلاد الصين وآسيا الصغرى وسواحل البلطيق والأندلس وشواطىء المحيط الأطلسى والبحر المتوسط وساحل افريقيا الشرقى وجزر المحيط الهندى بل والى صحارى افريقيا .

وكان التجـار يحملون الكثيرمن سلع البلدان التى يمرون بها ويقومون برحـلات طويلة متحملين فى سـبيل ذلك كثيرا من المصاعب والأخطار .

وقد سجل لنا المقدسى وصفـه لأنواع السـلع التى كان المسلمون يحصلون عليها من جنوبى الروسيا والبلاد الأوروبية .

ويأتى على رأس قائمة تلك السلع الفراء ، والجلود ، والشمع والنشاب والقلانس والغرا والعسل والسيوف والدروع والأغنام والبقر والعبيد .

أما السلع التى كان يحملها التجـار المسلمون الى تلك البلاد فأهمها المنسوجات والتحف الفنية والفاكهة وقد جنى التجار من وراء هذه الرحلات ثروات طائلة . وغالبا ما كان الرحالة يجمعون بين طلب العلم والتجارة فيذكر المقدسى « ولمـا ركبت الى اليمن اتفق

اجتماعى مع أبى على الحافظ المروزى فى الجلبة فلما تأكلت المعرفة بيننا قال لى : قد شغلت والله قلبى . قلت بماذا ؟ قال أراك رجلا على طريق حسنة ، تحب الخير وأهله ، وترغب فى جميع العلوم ، وقد قصدت بلادا قد غرت كثيرا من الناس وصدتهم عن طريق الورع والقناعة ، وأخشى اذا انت دخلت عدن ، فسمعت أن رجلا ذهب بألف درهم فرجع بألف دينار ، وآخر دخل بمائة ، فرجع بخمسمائة وآخر بكندر (*) فرجع بمثله كافورا ، طلبت نفسك التكاثر . قلت : أرجو أن يعصم الله . . . » .

فمن النص السابق يتضح لنا أن احد رفقاء المقدسى فى السفينة الى عدن صارحه بأنه يخشى عليه من دخول عدن أن ينشغل بالتجارة ويترك طلب العلم أو يجمع بينهما ولكن المقدسى دعا الله أن يعصمه من الانشغال عن العلم . ولكنه عندما دخل عدن هاله ثروة أهلها والمكاسب الجليلة التى يحصلون عليها من التجارة فعقد العزم على الجمع بين العلم والتجارة وانتوى السفر بتجارة الى بلاد افريقية وخصوصا ساحلها الشرقى واشترى فعلا مع شريكه ما يلزم التجارة والسفر الا أن موت صديقه ثناه عن هذه المهمة .

ولم يقتصر الأمر على المقدسى فقد رحل ياقوت صاحب معجم البلدان للتجارة وطلب العلم معا .

ومن أغراض الرحلة أيضا ارسال الرسل والسفراء من قبل أمراء المسلمين الى غيرهم من الملوك والأمراء فساعد هذا على نشاط الرحلات وتدوين أخبار تلك الرحلات . وتعد رحلة ابن فضلان الى جنوب الروسيا خير مثال على ذلك فقد أرسله الخليفة المقتدر العباسى سنة ٣٠٩ هـ (٩٢١ م) الى ملك البلغار

(*) الكندر : اللبان وهو ضرب من العلك .

بعد أن أسلم ودخل كثير من البلغار فى الدين الاسلامى ، على راس بعثة كطلب ملك البلغار الذى سأل الخليفة المقتدر « أن يبعث اليه من يفقهه فى الدين ، ويعرفه شرائع الاسلام ويبنى له مسجدا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة فى جميع بلده وأقطار مماكته ، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين .

وقد قام ابن فضلان بهذه المهمة على أكمل وجه وعاد الى بغداد بعد مدة فوضع كتابا فى وصف رحلته الى بلاد البلغار متضمنا المعلومات الدقيقة عن أحوال تلك البلاد الاقتصادية والسياسبة والعادات والتقاليد المنتشرة هناك ، ولم تقتصر رحلته على وصف اقليم البلغار بل ايضا أضاف اليها بلاد الخزر والروس . وتعد رحلة ابن فضلان من أهم المؤلفات التى اعتمد عليها كثير من مؤرخى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) كالاصطخرى والمسعودى . كما تعد رمزا لرحلات العرب المسلمين التى قاموا بها كنوع من السفارات ومصدرا من أهم المصادر التى تساعد فى الحصول على المعلومات التريخية والاقتصادية والاجتماعية من تلك البلدان التى زاروها . وبالاضافة الى الأسباب السابقة هناك بعض رحالة قاموا برحلات عديدة طلبا للرزق فبشير الأستاذ الدكتور زكى حسن الى الرحالة ابن الخياط البغدادى الذى قابله الرحالة ابن فضلان فى اقليم الفولجا وبعد من الرحالة الذين قصدوا تلك الاقاليم للبحث عن الرزق .

وهناك غير ابن الخياط البغدادى كثيرون قصدوا أقاليم العالم الاسلامى وتنقلوا هنا وهناك باعتبارهم عمال مهرة ساهموا فى عمارة هذه الأقاليم وتنفيذ كثير من المشروعات العمرانية وقد تركوا لنا كنوزا كثيرة من المعلومات التى دونوها عن مشاهداتهم لأحوال تلك البلدان .

وبعد أن استعرضنا تعدد أغراض الرحلة عند العرب المسلمين يجب ان نذكر أن معظم تلك الرحلات ساعد فى نجاحها عوامل كثيرة عملت على جعل المسلمين فى العصور الوسطى فى مقدمة الشعوب التى لها السبق فى هذا المجال منها على سبيل المثال التسامح الذى اتسم به الدين الاسلامى .

فيذكر الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن أن تسامح الدين الاسلامى وتخفيف بعض الواجبات الدينية على المسافرين ، وحث الاسلام على السفر كل هذا سهل الرحلات وشجع المسلمين على القيام بها . هذا الى جانب اباحة تعدد الزوجات فى الاسلام مما خفف جزءا كبيرا من عبء الرحلة على الرحالة فقد استطاع كثير من الرحالة المسلمين أن يتزوجوا بالبلدان التى استقروا بها مدة من الزمان فابن بطوطة تزوج بمصر مرتين على الأقل ، وتزوج بجزر الملديف أربع زوجات ، كذلك تزوج ببلاد اليمن .

وقد تميزت العادات والتقاليد فى تلك البلاد بالسهولة فالرحالة يستطيع أن يتزوج من البلد الذى يحط رحاله به ثم يطلق زوجته عند انتهاء مدة اقامته دون أيه التزامات مادية أو أدبية تجاه نساء تلك البلدان بل ان الزواج كان يضمن له اقامة مستقرة داخل المجتمع سواء ببلاد جنوب شرق آسيا أو فى بلاد اليمن وعدن وغيرها . ولهذه الأسباب مجتمعه كثرت الرحلات عند العرب وتعددت وتنوعت أسبابها بين سياسية ، ودينية واقتصادية وسجل التاريخ للرحالة المسلمين فى العصور الوسطى الكثير من الرحلات وخصوصا ما بين القرنين الثالث والتاسع بعد الهجرة (التاسع والخامس عشر الميلاديين) .

الباب الأول

النظم المالية المطبقة بمصر
وملاحظات الرحالة المسلمين عليها

الفصـــل الأول

الادارة المـــالية

منذ دخول الفاطميين مصر أصبحت البلاد مستقلة استقلالا تاما عن الخلافــة العباســية ومن هنا أصبحت مواردها المــالية المتعددة محل اهتمام كبير من جانب الخلفــاء الفاطميين ، ولذا اشتملت الادارة المــالية الفاطمية على عدد من الدواوين لكل منها اختصاصاتها المحددة ظاهريا وان كان لا يوجد فى واقع الأمر حد فاصل بين كل ديوان والآخر من الناحية الفعلية حيث لا استقلالية بين اختصاصات تلك الدواوين .

والحقيقة أن المسلمين لم يعرفوا نظام الدواوين الا منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب حيث يعد هو أول من وضــع الديوان فى الدولة الاسلامية فقد اضطر هذا الخليفة أن يدخل هذا النظام بعد ما توالت الفتوحات واخذت رقعة الدولة الاسلامية فى الاتساع واستولى المسلمون على ممتلكات الفرس وكنوزهم فعجز عمر عن توزيع تلك الأموال بالطريقة المتبعة قبل عهده ، فأشــار عليه أحد

مرازبة (١) الفرس بتدوين الدواوين لضمان ضبط دخل الدولة وخراجها .

وهناك رأى أورده الجهشيارى عن سبب اتخاذ عمر بن الخطاب الدواوين فى الدولة الاسلامية يقول ان السبب هو تلك الأموال الضخمة التى أحضرها أبو هريرة رضى الله عنه من بلاد البحرين والتى قدرت بخمسمائة ألف درهم فتحير عمر فى أمر توزيعها فأشار عليه بعض الصحابة باتباع نظم الفرس فى تدوين الدواوين فاستعان بأحد رؤساء الفرس فدون الدواوين وبهذه الطريقة استطاع فرض العطاء . وقد بدأ عمر فى الدواوين منذ سنة ٢٠ هى وبدأ ببنى هاشم ثم الأقرب فالأقرب لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والديوان موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال وفى تسمية ديوان وجهان : أحدهما أن كسرى اطلع ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجانين فسمى موضعهم بهذا الاسم ثم حذفت الهاء عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم فصار « ديوان » . والثانى أن الديوان بالفارسية اسم الشياطين فسمى الكتاب باسمهم لخدمتهم بالأمور وقدرتهم على الجلى والخفى وجمعهم لما شذ وتفرق ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم فقيل « ديوان » .

ومن أهم دواوين الادارة المالية الفاطمية :

---

(١) مرازبة جمع مرزبان ، وهى كلمة مركبة من : مرز ، بان وتعنى حافظ الحدود ، وتأتى بمعنى رئيس .

١ ـ ديوان المجلس :

يصف المقريزى ديوان المجلس بقوله انه أصل الدواوين قديما وفيه علوم الدولة بأجمعها فقد حفظت فيه جميع السجلات المالية الفاطمية . فهو المرجع الرئيسى لأحوال المال والاقتصاد فى العصر الفاطمى ، ولصاحبه حق مطلق فى مراسلة الدواوين الأخرى التى لها علاقة بشئون المال مثل ديوان التحقيق وديوان النظر لتمده بكشوف خاصة متضمنة ايرادات ومصروفات الدواوين المختلفة ويقوم هو بحفظها بحيث تكون جاهزة فى حالة طلبها من قبل الوزير للاطلاع عليها . وصاحب هذا الديوان هو المتحدث فى الاقطاعات ويخلع عليه وينشأ له سجل بذلك لاحق بديوان النظر وله دواة تخرج من خزانة الخليفة وحاجب يقف بين يديه ، وكان يتولاه عندهم أحد كتاب الدولة الأجلاء . وكان من أهم اختصاصات هذا الديوان تسجيل كل ما يرد اليه من الدواوين المختلفة بحيث يتضمن السجل جميع أوجه الايرادات والمصروفات فكان له الاشراف على خزانة الخليفة والنظر فى أموال « الزكوات والجوالى » أى الضرائب التى تجبى من المسلمين وغير المسلمين .

ويذكر المقريزى أن ذلك السجل « كان يتضمن الباطن من الانعام فى العطايا ، والظاهر من الرسوم المصروفة فى غرة السنة والضحايا ، والمرتب من الكسوات للأولاد والأقارب والجهات وأرباب الرتب على اختلاف الطبقات ، وصلات الرسل القادمين بالمكاتبات المختلفة » أى أن هذا السجل كان يدون به كل المصروفات سواء السرية مثل العطايا أو الانعامات التى يقدمها الخليفة مكافأة لمن يشاء ، أو المصروفات الظاهرة العلنية مثل ما يدفعه الخليفة

فى أول كل عام لرجال دولته وموظفيه على اختلاف رتبهم ، وكذا ما ينفق على الأولاد والأقارب والزوجات . كذلك ما يخرج من الأكفان لمن يموت من أربـاب الدولة أو الجهـات المحترمات ، فيذكر ابن ميسر انه « عندما ماتت السيدة العزيزية أم ولد العزيز كفنت بما مبلغه عشر آلاف دينار ، وأخذت الغاسلة ما كان تحتها من الفرش وعليها من الثياب فكان مبلغ ذلك ستة آلاف دينار . ودفع الى الفقراء فى سـبعة أيام الفا دينار ورثاها جماعـة من الشعرا فأطلقت لهم الجوائز وأجيز بعضهم بخمسمائة دينـار » ومن أهم أعمال المجلس أيضـا اعداد الميزانية العامة للدولة فى نهاية كل عام هجرى كما جرت العادة وكانت الميزانيـة تقدر عينا بالذهب والفضة والغلة ، وترفق بها كشوف تحرر فيها أسـماء المرتزقين وذوى الرواتب المختلفة ، وكان الوزير يأتى على رأس قائمة هؤلاء .

هذا ما كان يخص مصروفـات الدولة ، أما الايرادات فقد كانت جميع الدواوين على اختلافها تقدم الايرادات مفصلة ودقيقة وترفع الى صاحب ديوان المجلس . ويؤكد المقريزى هـذا القول حين يذكر مثلا انّ الوزير الناصر للدين أبو الحسن عبد الرحمن اليازورى وزير مصر زمن المستنصر امر باعداد كشوف الميزانيـة الخاصة بدخل الدولة وما عليها من النفقات فقام كل صاحب ديوان باعداد ما يخصه وقدمه لمتولى ديوان المجلس الذى راجعـه فوجد الدخل مليونى دينار منها مليون دينار دخل الشام وحده .

وهناك ميزانية قدمت لأمير الجيوش بدر الجمالى اشتملت على ايرادات الدولة من المـال الخراجي والهلالى بأنواعه (٢) .

وبعد الانتهاء من اعداد الميزانية ومراجعتهـا بما تشـتمل عليه من ايرادات ومصروفات كانت تقـدم الى صـاحب ديوان المجلس ليقدمها الى الخليفة للتوقيـع عليها ، وعـادة ما كان الخليفة يذيل توقيعه ببعض العبارات المـأثورة فمثلا نجد الخليفة المستنصر يذيل توقيعه بعبارة « الفقر مر المذاق ، والحاجة تذل الأعناق وحراسـة النعم بادرار الأرزاق فليجروا على رسومهم فى الاطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق » . أما الخليفة الحافظ لدين الله فكان يذكر عبارة « لا يستكثر فى ذات الله كثير الاعطاء ولا يكدره بالتأخير له والتسويف والابطاء » . وكان يتم تدوين هذه العبارات بخط الخليفة نفسه كنوع من تأكيد الانعام والمن .

واحيانا كان صاحب هذا الديوان يدعو الخليفة لمشاهـدة الأموال التى تم تحصيلها كنوع من التقرب للخليفة مثلما حدث فى عهد الأفضل ابن أمير الجيوش سنة ٥٠١ هـ عندما فتح ديوان المجلس وكثرت الأموال وبلغت سبعمائة ألف دينار عدا ما دفع من الرواتب والمخصصات « فجعلها فى صناديق فصل منها الدراهم عن الدنانير حتى يثلج صـدر الأفضل ولكن الأفضل ثار خوفـا من أن تكون تلك الأموال قد جبيت بطريق القهر أو نتيجة لاختصار

---

(٢) المـال الهلالى هو ما يجبى مشاهرة وكان يعرف فى زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعادن ويتم تحصيله على الكلأ وما يصـاد من السـمك ، واستمرت هـذه الضريبة معروفة بمصر الاسلامية منذ أن تولى أحمد بن المدبر خراج مصر سنة ٢٤٧ هـ الى أن تم الغاؤها زمن أحمد بن طولون . أما الخراجى فهو ما يؤخذ على الأرض التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة ، وما يؤخذ من المزارعين على سبيل الهدية مثل الغنم والدجاج .

فى الانفاق على المشروعات المختلفة فتوعد متولى ديوان المجلس اذا كان اهمل شيئا من أمور الدولة » وهـذا القول للمقريزى انما يدل على أن بعض الخلفـاء والوزراء كانوا يهتمون بجمع الأموال بقدر اهتمامهم بانفاقهـا فى المشروعات التى تعود على الرعيـة بالفـائدة .

٢ ـ ديوان النظـر :

يذكر المقريزى أنه من أجـل الدواوين المختصـة بشـئون المـال والاقتصـاد فله حق مراقبة جميع الدواوين المختصـة بالمـال . وكان يتقلده أجل رجالات الدولة ، وله الحق فى عزل من يرى عزله وتولية من يرى توليته من موظفى دواوين الأموال . وكان عليه أن يعرض الأوراق المختصـة بادارته على الخليفـة فى أوقات معروفـة ، ويقوم بندب الموظفين الذين يرسـلهم لطلب الأموال . وله الحق فى جمع أى بيانات أو احصائيات من موظفى الدولة لمقارنتها بعضها ببعض وعرضها على الخليفة أو الوزير . ويذكر المقريزى أيضا أن من اختصاصات صاحب ديوان النظر أنه يستطيع أن يحل فى كل مكان يتعلق بنواب الدولة وله مخصصات ممـيزة .

هذا هو كل ما وصل الينا من معلومات عن ديوان النظر . والحقيقة انها معلومات قليلة لا تفى بالغرض واذا أمعنا النظر فيها وجدنا أن هذا الديوان يبدو متداخلا فى اختصاصاته الى حد كبير مع ديوان المجلس . ويتفق معنـا فى هـذا الرأى الدكتـور عطية مشرفة الذى يرى أنه يتعذر مقارنته بغيره من دواوين المـال التى كان له على ما يظهر الاشراف عليهـا ، بل لم تتعرض الكتب القديمة التى وصلت الينا حتى بموازنة اختصاصـه « بديوان

النظر » أو « المكاتبات « أو « المراجعات » الذى كان موجودا أيام العباســيين .

٣ ـ ديوان التحقيــق :

يعد من **الدواوين** المهمة فى الادارة المــالية حيث يتم عن طريقة متابعة ومراقبة جميع الدواوين الأخرى ، والاشراف على تنظيم مصروفات الدولة . وكان يتولاه كاتب خبير ، وله الخلع والحاجب . ويذكر المقريزى أن صاحب هــذا الديوان غالبــا ما يلحق برأس الديوان ، ويقصد ديوان المجلس .

٤ ـ ديوان الرواتــب :

هو المختص بالنظر فى الرواتب والعطايا على مستوى الدولة، ففيه يتم تسجيل أسماء جميع موظفى الدولة حيث يتم تحديد رواتبهم الشهرية التى كانت تشتمل على جزءين : جزء نقدى ، وجزء عينى من القمح والشعير وغيره من المخصصــات التى كانت تصرفها الدولة لموظفيها . وكان تدوين تلك الأسماء فى كشــوف أو دفاتر مخصصة لهــذا الغرض يطلق عليها « استيمار » مقابل ما نسميه الآن « استمارة ، استمارات » .

ويذكر المقريزى أن هذا الديوان كانت تعرض فيه الاقتراحات الخاصــة بالميزانية مشتملة على كشــوف شاملة ودقيقة تتضمن أسماء موظفى الدولة ابتداء من الوزير ، وتشمل جميع موظفى الدولة حتى أقلهم درجة . « وصاحب هــذا الديوان يجب أن يكون كاتبا جليلا له مساعدون لا يقلون عن عشرة » . وهذا طبيعى نظرا لدقة الاجراءات التى يتم بها تدوين ومراجعة تلك الكشــوف

التى تشتمل على أسماء موظفى الدولة والعاملين فى جميع شئونها .

وكان موظفو هذا الديوان لا يمكنهم فتح اعتمادات مالية من ابواب لا أصل لها فى ميزانية الدولة ، اذ يجب عليهم الالتزام التام ببنود الميزانية ، الى جانب عدم المساس بالخطة العامة لتلك الميزانية . وقد خول لهؤلاء التصرف فى حدود اختصاصاتهم، بالاضافة أو الحذف أو التعديل لمرتبات بعض الأشخاص الذين يتم السخط عليهم من الخليفة ، أو من وافته المنية . وجميع تلك التعديلات تأتى بصورة دقيقة ومنظمة ، ويجب أن تكون سريعة أيضا لأنها لا تتعلق بالأرزاق فقط ، وانما أيضا بالمخصصات التى تمنحها الدولة لمستخدميها سواء من المواد الغذائية او الكسوات .

وقد امدنا المقريزى والقلقشندى برواتب وارزاق رجال الدولة مقسمة الى كشوف ذكر فيها أن راتب الوزير فى كل شهر خمسة آلاف دينار ، ومن يليه من ولد أو أخ من ثلثمائة دينار الى مائتى دينار ولم يقرر لولد الوزير خمسمائة دينار سوى الكامل ابن شاور . ثم حواشيه من خمسمائة دينار الى أربعمائة دينار الى ثلثمائة دينار خارجا عن الاقطاعات .

أما حاشية الخليفة فقد رتبت بحيث يأتى « الأستاذون المحنكون على رتبهم وجوارى خدمهم » فزمام القصر وصاحب بيت المال وحامل الرسالة وصاحب الدفتر ومشاد التاج وزمام الأشراف الأقارب وصاحب المجلس ، لكل واحد منهم مائة دينار فى كل شهر ، ومن دونهم ينقص عشرة دنانير حتى يكون آخرهم

من له فى كل شهر عشرة دنانير » (٣) . وبلغ عدد هؤلاء المستخدمين أكثر من ألف شخص . أما راتب الطبيب الخاص فلكل واحد منهم خمسون دينارا ولمن دونهم من الأطباء المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير . أما القسم الثالث من الرواتب فيتضمن « **أرباب الرتب بحضرة الخليفة ويشتمل على أسماء كاتب الدست** الشريف وراتبه مائة وخمسون دينارا ، ولكل واحد من كتابه ثلاثون دينارا ثم صاحب الباب وراتبه مائة وعشرون دينارا ثم

---

(٣) **الأستاذون المحنكون** : فئة من موظفى القصر الفاطمى وخدمه ، ومعظمهم من أصل صقلبى ولهم نفوذ عظيم بالقصر وكانوا ينقسمون الى عوال (أى أصحاب الرتب العالية) وأدوان (أى من هم دون ذلك فى الرتبة) ويعد الأستاذون المحنكون من أعلى موظفى القصر فى الرتبة . وقد عرفوا بالمحنكين لانهم يمررون طرف العمامة تحت الحنك ليصعد الى الجهة المقابلة وتلتف من جديد حول الراس . وهم يمثلون حاشية القصر (أو الخاصة) ولهم حق حمل لقب « أمير » وكانوا يساندون بعضهم البعض ويمدون الى اخوانهم الجدد يد المونة بأن يعطى كل واحد منهم بدلة من ثيابه وعمامة وسيفا وفرسا لزميله الجديد حتى يصبح عنده مثل ما عندهم . ولمكانتهم داخل حاشية القصر فغالبا ما كان الخليفة يشاركهم فى لبس الحنك وكذلك الوزير .

زمام القصر : هو المشرف العام على القصر ، وكان يتولى أمر نساء القصر كما يشرف على خدم القصر .

صاحب بيت المال : هو المشرف على بيت مال الدولة .

صاحب الدفتر : هو المسئول عن ادارة أموال الخليفة ، ويختار من كبار رجال المال والاقتصاد بالبلاد .

مشاد التاج : هو الذى يتولى شد العمامة المسماة « التاج الشريف » التى يلبسها الخليفة فى الأعياد الرسمية . وقد كان لشد عمامة الخليفة رسوم معينة يقوم هذا الموظف بتنفيذها بدقة ، فقد كانت العمامة تشكل حسب المناسبة ، فهناك « الشدة العربية » أو « شدة الوقار » وهناك شدة اخرى تعرف بالشدة الدانية أى غير العربية .

زمام الاشراف والاقارب : وهو احد الأستاذون المحنكون ، ويشرف على مصالح أقارب الخليفة من نسل فاطمة .

حامل السيف وحامل الرمح لكل منهما سبعون دينارا الى ثلاثين كلا حسب مرتبته » (٤) ثم يأتى قاضى القضاة وراتبه مائة دينار وكذلك داعى الدعاة . وكان مرتب كل قاض على قدر رتبتـــه . ويشير الرحالة المعروف ناصر خسرو الى أن راتب القاضى كان كبيرا وقد علل ذلك بقوله : « وذلك حتى لا يطمع القضـــاة فى أموال الناس أو يظلموا » وقد أيده فى هـــذا الرأى المؤيد فى الدين هبة الله الداعى الذى زار مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله اذ ذكر أن قاضى القضـــاة كان يتقـــاضى اكثر من الف دينـــار فى الشهر ولابد أن نضع فى الاعتبار المركز الحساس الذى كان يشغله قاضى القضاة أو داعى الدعاة فى تلك الفترة .

---

(٤) **كاتب الدست الشريف** : يأتى على رأس أرباب الأقلام ، ووظيفتـه من الوظائف المهمة بالقصر حيث يتسلم المكاتبات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة ويقوم بالرد عليها . ولا تسند هـذه الوظيفة الا لكبار رجال العلم والأدب ممن يتقنون فنون اللغة والبلاغة . ويلقب صاحب هـذا المنصب بالشيخ الأجل ، وله منزلة مميزة لدى الخليفة حيث يستشيره فى كثير من أمور الدولة باعتباره عالمـا ببواطن الأمور . وله الحق فى الاقامة بالقصر ، وله صاحب من أمراء الشيوخ ومجموعة من الفراشين لخدمتـه وأسـتاذ لحمل الدواة التى يستخدمها فى الكتابة فى حضور الخليفة .

صاحب الباب : وهو على رأس رجال الحاشية ، ومن اجل الأمراء أرباب السيوف ، وكان ينعت بالمعظم ورتبته تلى رتبـة الوزير ويقال لها « الوزارة الصغرى » ، وكان له أن يرأس مجلس « النظر فى المظـالم » ويقوم مقـام الخليفة فى استلام قصص المتظلمين ، كما كان من أعيان العدل وأرباب العمائم. ومن أهم وظائفه أيضـا استقبال الضيوف الأجانب والاهتمام بشئونهم وتقديمهم للخليفـة .

حامل السيف ، حامل الرمح : حامل السيف من يحمل سيف الخليفـة فى المواكب الرسمية ، ويشترط أن يكون أميرا عظيما . وحامل الرمح أمير مميز يحمل رمح الخليفة ودرقة منسوبة الى حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم .

أما قراء الحضرة (٥) فتبلغ مرتباتهم من عشرين دينارا الى خمسة عشر دينارا ، وكذلك خطباء المساجد من عشرين الى عشرة وللشعراء من عشرين دينارا الى عشرة دنانير .

أما أرباب الدواوين فيأتى فى مقدمتهم صاحب ديوان النظر ويبلغ راتبه سبعين دينار ، ويتقاضى صاحب ديوان التحقيق خمسين دينارا وصاحب ديوان المجلس أربعين دينارا ثم متولى ديوان الجيش وله أربعون دينارا ثم صاحب دفتر المجلس ويتقاضى خمسة وثلاثين دينارا ثم الموقع بالقلم الجليل(٦) وله ثلاثون دينارا. ولكل معين عشرة دنانير وبعضهم سبعة والآخرين خمسة .

أما المستخدمون بالقاهرة ومصر فى خدمة الخليفة فلكل واحد منهم خمسون دينارا ، والحرس بالأهراء والمناخات والجوالى

(٥) **قراء الحضرة** : هم الذين يقرءون القرآن الكريم فى الأعياد الدينية التى تحتفل بها الدولة ، وغالبا ما يبلغ عددهم أكثر من عشرة . وكانوا يأتون فى قراءاتهم بآيات مناسبة للحال فتقع موقع الاستحسان لدى الخليفة والحاضرين . غير أنهم كثيرا ما أتوا بآيات اذا روعى قصدهم فيها أخرجت القرآن عن معناه ، مثلما حدث يوم أن استوزر الخليفة المستنصر بالله الوزير بدر الجمالى ، اذ قرأ القراء (**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**) الآية ١٢٢ من سوة آل عمران . ولما استوزر الخليفة الحافظ رضوان بن الخشنى ، قرأ قارئهم (**يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم**) الآية ٢١ من سورة البقرة .

(٦) **الموقع بالقلم الجليل** : تعرف وظيفته بالخدمة الصغيرة لأنه يلى فى وظيفته الموقع بالقلم الدقيق (وهو الذى يقوم بدور الواعظ والمؤدب والمعلم للخليفة ولبعض أفراد أسرته) وكان الموقع بالقلم الجليل مهمته صياغة ما يوقع به صاحب القلم الدقيق على المظالم قبل عرضها على الخليفة .

والبساتين والأملاك وغيرها لكل واحد منهم ما يقوم به من عشرين دينارا الى خمسة عشر الى عشرة الى خمسة (٧) .

أما الفراشون بالقصـــور فيبلغ رسم جميـــع خدماتهم من ثلاثين دينارا الى ما حولها ولهم رسوم متميزة حيث يقربون من الخليفة فى الأسمطة التى يجلس عليها .

أما الرشاشون داخل القصر وخارجه ولهم عرفاء ويتولى أمرهم أستاذ من خواص الخليفـــة وعدتهم نحو الثلاثمائة رجـــل واعطياتهم عشرة دنانير الى خمسة دنانير (٨) .

أما صبيان الركاب ومقدموهم فلكل واحد فى الشهر خمسون دينارا ، وللركابية خمسة عشر دينارا الى عشرة الى خمسة (٩) .

ويتضح من كل هـــذا أن الرواتب كانت تتفاوت حسب نوع الوظيفة ومرتبة متوليها ، كما يتضح أيضا أن الحد الأدنى لأقـــل وظيفة هو خمسة دنانير شهريا ، بينما لا يوجد حد أقصى لذلك .

---

(٧) **المستخدمون بالقـــاهرة ومصر :** المقصـــود بهم هنـــا موظفو الدولة المعينون من قبل الخليفة لتولى أمور الدولة المهمة بمصر والقاهرة . أما الأهراء فهى أماكن خصصت لتخزين الغـــلال والأتبان الخاصـــة بالمـــاشية ، والبضـــائع التى تخص الطواحين . والمناخات هى ساحات كانت تواجه هـــذه المخازن ليبرك فيها البعير أى يستناخ حتى يضع أحماله أو يحمل من المخازن ما يريدون .

(٨) **الرشاشون :** مجموعة من خدم القصر يبلغ عددهم ثلاثمائة رجل من أجل الخدمة خارج القصر ، ومهمتهم نظافة الحدائق المحيطة بالقصر ورش المياه حوله ، وكان يتولى أمرهم أستاذ من خواص الخليفة .

(٩) **صبيان الركاب :** فرقة من حرس الخليفة يزيد عددهم على ألفى رجل ، ولهم اثنا عشر مقدما ، ولهم ملابس تميزهم عن بقيـــة فرق الحرس حيث يرتدون فى المواكب الرسمية العمائم الكبيرة ويشـــدون أوساطهم بالمناديل ويشهرون سيوفهم المذهبـــة المصقولة فى أيديهم ، وهم يسيرون حول الخليفـــة كأنهم جناحان ولا يتركون مكانا يستطيع أحد أن يصـــل الى الخليفة منه .

هذا مع ملاحظة أن هـذه الرواتب المذكورة هي المرسـومة فى الديوان ، أى لا يدخل فيها المنح والهبات والعطايا سـواء المـالية او العينية التى كان يغدقها الخليفة أو الوزير فى المناسبات المختلفة على موظفى وعمال الدولة .

٥ ـ ديوان الاقطـاع :

وهو حد الدواوين الملحقة بديوان الجيش ، أعد ليختص بشئون الاقطاعات (جمع قطيعة وهو ما يمنحه الامام من الأرض لبعض المتازين بفعالهم من رعيته) وقد نشأ هـذا الديوان بعد استيلاء المعز لدين الله على مصر وضم أملاك الدولة الاخشيدية الى أراضى الدولة العامة ، وأصبح للخليفة الفاطمى الحق فى اقطاع الأراضى لبعض أتباعه سـواء من المغاربة أو من المصريين « وكان هذا الاقطـاع اقطاع تمليك فامتلك منهم الشخص الأرض رقبـة ومنفعة تمليكا تاما ، أى انتفاعا مؤبدا وحقا يجرى على الأصـل والفرع » وغالبا ما كانت تصـدر بذلك وثيقة من ديوان الانشاء تسمى السجل . وأحياناً كان يتم هـذا عن طريق الاستغلال حيث يعطى الخليفة الأراضى العامة لبعض أتباعه ، ولكن ملكيتها لا تكون ملكية مطلقة بل يتمتع المقطع بحق الانتفاع بايرادها لمدة محددة أو لمدى الحياة ، ثم ترد فى حالة وفاة المقطع ، أو اذا أخل المقطع بشرط من شروط الخليفـة التى صـدر بها السجل . فاستغلال الاقطاع اذن لا ملكية مطلقة فيه ولا ورث .

ومعنى هذا ان الاقطاع جرى على نوعين :

١ ـ اقطاع التمليك : ويتم بمقتضـاه تمليك الأرض تمليكا كاملا للشخص ولورثته من بعده بمقتضى « سجل » وهى كلمـة جارية فى ذلك العصر يصـدر بذلك من الخليفة عن طريق ديوان الانشـاء .

٢ ـ اقطاع الاستغلال : ويمنح للشخص لينتفع به لمده محددة أو مدى حياته فقط أى أنه لا يورث ، فهو اقطاع يستغله لمنفعته الشخصية ثم يعود للدولة بعد انتهاء المدة المحددة أو بعد وفاته أو فى حالة اخلال المنتفع بشرط من الشروط المنصوص عليها فى سجل الاقطاع الذى أصدره الخليفة .

ومن المعروف ان نظام الاقطاع عرف فى مصر فى عصر الولاة كما تذكر الأستاذة الدكتور سيدة كاشف « ولكن بدءه وتطوره يختلفان عن نظام الاقطاع فى الغرب لأن من العوامل الأساسية فى نشأة الاقطاع فى الغرب وفى أسباب منحه ، رغبة الأمير أو الملك فى أن يحصل على عون حربى ممن دونه من الأمراء والأشراف ، بينما لم يدخل العنصر الحربى فى نظام الاقطاع الاسلامى فى مصر الا فى نهاية العصور الوسطى على يد الأيوبيين ثم المماليك » ويذكر المقريزى « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه اقطع ابن سندر منية الاصبغ فحاز منها لنفسه ألف فدان ، فلم تزل حتى مات فاشتراها الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان من ورثته » وتعد هذه أقدم قطيعة بمصر الاسلامية .

كما كان خلفاء بنى أمية وبنى العباس يقطعون الأراضى من ارض مصر لبعض اتباعهم . وقد استمر هـذا النظام طوال العصر الفاطمى ايضا ، وهو يختلف عن نظام الاقطاع المعروف منذ عهد صلاح الدين الأيوبى حيث تحولت أرض مصر كلها اقطاعا للسلطان والأمراء والأجناد .

ففى العصر الفاطمى عندما استولى الخليفة المعز لدين الله على مصر ضم الى أراضى الدولة العامة بمجرد الغزو أملاك الأسرة الاخشيدية وبذلك تمكن من ان يقطع بعض الأراضى العامة فى ملكه

نفرا من خواصــه سواء أكانوا من أصحاب السيوف أم الأقلام ، وغيرهم من الأتباع فأقطعهم اياها أحيانا اقطاع تمليك ، « فامتلك المقطع منهم الأرض رقبة ومنفعة تمليكا مخلدا وانعاما مؤبدا وحقا مؤكدا يجرى على الأصل والفرع » وتصــدر بذلك وثيقة من ديوان الانشاء للمقتطعين تسمى السجل فساعد بذلك على انتشار الملكيــات الخاصــة ، ولا غرو فقد كان الاسماعيليون واخوانهم القرامطة شــيوعيى الاســلام الذين قالوا بابطال ملكيــة الأرض وتوزيعها على المحتاجين اليها مجانا .

كذلك أقطع الخليفة الفاطمى أحيانا أخرى أراضى الدولة العامة لبعض خواصــه اقطاع استغلال وفيها لم يعط الخليفــة الأراضى العامة ملكية مطلقة ، بل منحهم فقط حق الانتفاع بايرادها فتبقى بيد من أقطعه اياها ويتمتع بغلاتها وايراداتها المدة المتفق عليها ، فاذا كان الاقطــاع لمدى الحياة وتوفى ، ردت الأرض الى الخليفة ، كذلك ترد بانتهاء المدة المتفق عليها أو اذا أخل المقطع بشروط الخليفة ، فهو على ذلك اقطــاع استغلال وهبة وانتفاع فلم تكن تنتقل ملكية الأراضى العامة الى المقطع اليه فيتوارثهــا أبناؤه بل كان يحل فى الاقطاع محل الخليفة فى الانتفاع والاستغلال.

وكان الخليفة يقطع خواصه الأرض العامة نفسها ســواء أكانت فى جهة واحدة أم فى جهات متعددة ، والأولى كمثل اقطاع الخليفة الظافر نصر بن عباس كل قليوب والثانيــة كمثل اقطاع الخليفــة العزيز بالله وزيره يعقوب بن كلس بعض أراضى بمصر والشــام .

وكان للخليفة مصـــادرة اقطاعات التمليك أو الاستغلال من ايدى أصحابها اذا سخط عليهم أو لم يقوموا بالتزاماتهم نحو بيت

المـال أو اذا اغتصبوا مواضـع مجـاورة لأملاكهم . ففى وزارة الأفضل ابن أمير الجيوش مثلا صـدرت الأوامر بحل الاقطاعات جميعها عندما جار الأمراء وكبار المقطعين على من حولهم ، وعند عدم تأدية كبار المقطعين المبـالغ المطلوبـة منهم الى بيت المـال كامـلة .

وكانت أراضى الدولة العامة تزيد أحيانا عندما تتحول بعض الملكيات الخاصـة نتيجة لعدم وجود الوارث الشرعى فى أيـام الوباء والقحط ، وبذلك يكثر عدد الاقطاعات . ومن الغريب أن الأوضاع انقلبت فى أواخر الدولة الفاطمية فأصبح الوزير هو الذى يمنح الاقطاعات حتى لسيده الشرعى الخليفـة ولغيره . فقد باع طلائع بن رزيك الولايات للأمراء وجعل لها أسعارا .

على أن الخلفاء الفاطميين لم يتبعوا سياسة منح الاقطاعات للأجناد مقابل الرواتب فهذا نظام أدخله الأيوبيون عندما حكموا البلاد واتبعه المماليك من بعدهم . ولكن يبدو أن منح الاقطاعات للأجناد مقابل الخدمة العسكرية قد بدأ بالفعل فى أواخر عهد الدولة الفاطمية كما يؤكد الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد حين يقول : « لدينا براهين عديدة على وجود أرض خصصت للاقطاع تعرف « بالاقطاعات » وأصحابها يسمون « بالمقطعين » فيعطى للأجنـاد أو للأمراء قطع من الأرض مختلفة المساحة لقاء خدماتهم العسكرية حسب درجاتهم » ويذكر المقريزى ان هذه الاقطاعات « كانت فى عهد الدولة الفاطمية قليلة الا أنها تضاعفت فى أواخر أيامها بسبب زيادة سلطة الجيش وان لم تبلغ الأهميـة التى أصبحت لها فى العهود التالية على الدولة الفاطمية » .

وقد قام المقطعون بمجهود يشكر فى اقطاعاتهم فأحيوا موات

الأرض منها واستخرجوا معادنها وانشـأوا بها بعض الصناعات الزراعية كمعاصر الزيت . وبذلك ازدحمت بالسكان وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم من يسكنها كما كان متبعا فى نظـام الاقطاع الذى شمل أوربا فى العصور الوسطى .

هذا ، وقد كان ديوان الاقطاع يتبع نظاما دقيقا حيث تتم ادارته بواسطة ذوى الخبرة وكانت اسماء أرباب الاقطاعات يتولاها كاتب ديوان الجيش ، وكان رئيس هـذا الديوان يحصل على مرتب شهرى يقدر بأربعين دينارا .

٦ ـ ديوان الأحبـاس :

يعد ديوان الأحباس من أهم الدواوين التى تخدم الأغراض الدينية وغير الدينية فى العصر الفاطمى ، فهو الديوان المختص بشئون الأحباس أو الأوقاف الخاصة أو العامة (١٠) . فهو يقوم بالاشراف على المؤسسات الدينية والخيرية من مساجد وجوامع ومدارس وأربطـة وزوايـا ، الى جانب الاشراف على الأراضى الزراعية والعقارات الموقوفة على بعض تلك المؤسسات . ويشبه هذا الديوان وزارة الأوقاف الحالية فى كثير من الدول الاسلامية . وكانت الدولة الفاطمية تحرص أشـد الحرص على اختيار موظفى هذا الديوان من ذوى السمعة الطيبة وذلك لحساسية اختصاصاته فى توزيع ايرادات الأحباس على المنشآت الدينية وغيرها من وجوه البر ، أو على المستحقين من ذرارى أصحاب الوقف .

وقد عرف ديوان الأحباس فى مصر الاسلامية منذ عهد الولاة، فمنذ سنة ١١٨ هـ/٧٣٦ م كان القضـاة يشرفون على هـذا

---

(١٠) الأوقاف الخاصة هى ما كان يتم وقفها من قبل الأفراد . أما الأوقاف العامة فهى الأملاك التى يتم وقفها من قبل الدولة لبعض المشروعات الخيريـة .

الديوان . وأول من وضع يده على الأحبــاس هو ثوبة بن نمر الحضرمى (١١٥ ــ ١٢٠ هـ) وكانت الأحباس قبل ذلك فى أيدى أهلها أو فى أيدى أوصيائها ، ولكن ثوبة هــذا وجد ضرورة وضع يده على تلك الأحباس للحفاظ عليها ، ومن ذلك التاريخ وعلى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك خضعت الأحباس لديوان خاص ووضعت تحت اشراف رجال القضاء . ومنذ دخول الفاطميين مصر أصبح قاضى القضــاة يتولى شئون الأحبــاس ، ويتولى الاشراف المباشر على توزيع ريع تلك الأحبــاس على ما حبست عليه ، وهكذا افرد الخليفة المعز لدين الله لهذه الأحبــاس ديوانا خاصا منذ ربيع الآخر سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م ونقل مال الأحباس الى بيت المــال من أجل الانفاق منه على وجوه البر . وقد أعدت كشوف خاصــة بتلك الأحباس ومقدار ما تدره من ريع كما دون بها الدخل والمنصرف .

وكان لا يخدم فى هذا الديوان الا أعيان كتاب المسلمين من المشهود لهم بالعدل والصلاح باعتبار أنها معاملة دينية ، ويساعدهم عدد من المديرين ينوبون فى اعداد الكشــوف الخاصة بشئون تلك الأحباس سواء فى الوجهين القبلى أو البحرى .

وقد أدخل الخليفة الحاكم بأمر الله بعض التعديلات الجوهرية على طريقة الانفاق من خــلال هذا الديوان حيث جعل هذا الديوان ينفق من ايراداته على الجوامع والمساجد وكافة المنشآت الدينية التى ليس لها ايراد ثابت ، فقد بلغ عدد المساجد والجوامع التى لا مورد ثابت للانفــاق عليهــا زمن الخليفــة الحــاكم بأمر الله ثمانمائة وثلاثين مسجدا تحتــاج من النفقة كل شهر تسعة آلاف ومائتين وعشرين درهما من أجل الاهتمام بعمارتها وصيانة مبانيها وجرايات روادها . وغالبا ما كان القضــاة يطوفون بجوامع مصر

فى خلال ثلاثة الأيام الأخيرة من شهر رمضان لحصر ما تحتاجه الجوامع من حصر وقناديل وعمارة ... الخ ويتضح من هـذا أن الخليفة الحاكم بأمر الله قد تنبه لهذا فوضع سنة جديدة وهى اشراف الحكومة منذ عام ٤٠٣ هـ اشرافا مباشرا على الشئون الخيرية العامة . بل ان الخليفة حبس بعض الأراضى الزراعيـة والضياع من أجل الانفاق على وجوه الخير . ويتضح هـذا من اصداره مرسوما فى سـنة ٤٠٥ هـ قرىء بالمساجد متضمنـا « تحبيس عدة ضياع وعدة قياسر على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، وعلى المصـانع والقوام بها ونفقة المـارستان وأرزاق المستخدمين فيه وثمن الأكفان » وكانت القاعدة المتبعة قبل ذلك تحبيس المبانى فقط مثل الرباع والقياسر والمنازل والحمامات وما فى حكمها .

وقد كثرت وتعددت الأحباس فى الدولة الفاطمية ، بل تعددت أنواعها فقد لجـأ البعض الى وقف كثير من ممتلكاته حتى يضمن عدم مصـادرة الايراد الناتج عن هذه الممتلكات اذ تعرض لسخط الحكومة ، وحتى يضمن لأبنائه وأعقابه مورد ايراد ثابت لا تستطيع الحكومة التدخل فى شئونه .

ويعد « الحبس الجيوشى » خير دليل على هـــذا النوع من الأحباس حيث أوقف الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى على عقبه أحباسا كثيرة فى البرين الشرقى والغربى ، هـــذا الى جانب البساتين الكثيرة الموجودة بضاحية باب الفتوح كما حبس الملك

طلائع بن رزيك (٥٤٩ ـ ٥٥٦ هـ ـ ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م) (١١) بلدة بلقيس من أجل أعمال البر والخير .

٧ ـ ديوان المفـــرد :

هذا الديوان استحدثه الخليفة الحاكم بأمر الله لأغراض اوجبتها الظروف فقد كان عصره عصر اصلاح وقضـــاء على الفوضى المتفشية بين رجالات الدولة ، وقد أخذ هـــذا الخليفة على عاتقه معاقبة المخطئين من رجاله والمستغلين لمناصبهم ، ولذا نجده يقوم بمصادرة أموالهم اذا غضب عليهم أو حين اصـــدار أوامره بقتلهم ورد هذه الأموال الى الدولة .

ورغم ان هذا الديوان استحدثه الخليفة الحاكم بأمر الله الا أن نظام المصـــادرة كان معروفا فى الدولة العباســـية وكان يعد مصدرا من أهم مصادر بيت المـــال فى ذلك العصر ، فمنذ عهد الخليفة العباسى القاهر (٣٢٠ ـ ٣٢٢ هـ) ونظـــام المصادرة من المبادىء المعروفة .

أما فى مصر فتذكر الأستاذة الدكتور سيدة كاشف أن عصر الاخشيد اشتهر بالمصادرات الكثيرة فقد صادر الخليفة أموال كثير من رجال دولته وموظفيها أو من لهم معاملات معها أصابوا منها مالا وفيرا . ومن الأمور الطريفة أن الناس غالبا ما كانوا يتوقعون

---

(١١) **طلائع بن رزيك** : هو أبو الغارات الملك الصالح ، قدم الى مصر وعمل بالقصر وترقى فى الخدمة حتى ولى منية بنى خصيب ، فلما قتل الخليفة الظافر على يد نصر بن عباس استعانت نساء القصر الفاطمى بطلائع ، فقدم =

المصادرة لذا فقد لجأ كثير منهم الى اخفاء ثرواتهم عن العيون فبعضهم اتخذ له فسقية دس فيها ماله أو بنى جزءا خاصا فى أحد حوائط منزله لهذا الغرض . كما تذكر الدكتورة سيدة كاشف أيضا أن الاخشيد « كان لا يعدم الحجج ليبرر أمام الناس ما يقوم به من المصادرات من وقت لآخر ، فكان يذهب الى أنه انما يفعل ذلك لسد نفقات دولته والانفاق على جيوشه ، ولمعاقبة الموظفين الذين يرتشون أو يسيئون استعمال ما لوظائفهم من النفوذ والجاه » .

وفى أيام الدولة الفاطمية أخذت المصادرات تظهر من جديد وخصوصا زمن الخليفة الحاكم بأمر الله فكان من الضرورى أن ينشأ من أجل ذلك ديوان يختص بمتابعة تلك الأموال والأملاك ويظهر هذا واضحا عندما سخط الحاكم على الحسين بن جوهر وأهله فضم أملاكهم الى ديوان المفرد .

وقد صادر الحاكم أيضا أملاك كثير من أعوانه فى فترة اربعة عشر عاما (٣٨٦ – ٤١١ هـ/٩٩٦ – ١٠٢٠ م) وقد وجد الحاكم أن تلك المصادرات ضرورية للصالح العام ، فنجده فى سنة ٣٨٩ هـ/٩٩٩ م يأمر بمصادرة أملاك ابن أبى نجدة المحتسب لأنه جمع أموالا كثيرة بدون وجه حق من الرعية ، بل انه أساء معاملة الناس فكان جزاؤه قطع يده ولسانه ثم ضرب عنقه . وفى عام ٣٩٠ هـ/١٠٠٠ م صادر أملاك وأموال برجوان بعد مقتله . ولم تقتصر هذه الاجراءات على عهد الخليفة الحاكم ، وانما ظهرت أيضا زمن الخليفة المستنصر الذى قام بمصادرة أملاك

= الى القاهرة فى سنة ٥٤٩ هـ – ١١٥٤ م وخلع عليه بالوزارة بعد فرار نصر بن عباس ونعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين ، واستقر فى الوزارة وحكم البلاد دون الخليفة الفائز بنصر الله لصغر سنه ، واستمر فى حكم البلاد الى أن قتل سنة ٥٥٦ هـ – ١١٦٠ م .

كثير من وزرائه ، وعلى سبيل المثال الوزير المعروف الحسين بن احمد الجرجرائى الذى أكثر من مصادرة أموال الشعب وضمها الى أمواله بدون وجه حق مما دعا المستنصر الى القبض عليه وطرده من الوزارة ومصادرة امواله . كما صادر ايضا اموال الوزير ابن الأنبارى وغيره من رجال الدولة .

وقد زادت أموال ديوان المفرد زمن الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ــ ٥٢٤ هـ/١١٠١ ــ ١١٣٠ م) نتيجة لمصادرته كثيراً من أموال وزرائه ، وعلى سبيل المثال مصادرته لأموال وزيره أبى نجاح الراهب النصرانى ؛ فقد جمع هذا الوزير كثيرا من الأموال واغتصب حقوق الشعب وصادر كثيرا من اموال التجار وعمال الأقاليم وامتدت يده الى أموال الدولة مما جعل الخليفة يصدر أوامره بقتله وضم ممتلكاته الى ديوان المفرد سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥ م .

ثم اتى دور الوزير البطائحى الذى عاقبه الخليفة الآمر عقاباً شديدا فقبض عليه واستصفى جميع أمواله وضمها الى ديوان المفرد ثم قتله وصلبه .

واستمرت المصادرات على هذا المنوال طوال عصر الخليفة الحافظ (٥٢٤ ــ ٥٤٤ هـ/١١٣٠ ــ ١١٤٩ م) ثم الخليفة الفائز (٥٤٩ ــ ٥٥٥ هـ/١١٥٤ ــ ١١٦٠ م) واستمرت حتى نهاية العصر الفاطمى .

ولم يقتصر دور ديوان المفرد على الاشراف على الأملاك المصادرة ، وانما اختص أيضا بأموال المواريث الحشرية وهى أموال من يموت ولا وريث له .

٨ ــ ديوان الهلالى والخراجى :

ابتكر احمد بن المدبر والى خراج مصر سنة ٢٥٠ هـ نوعا من الضرائب غير المباشرة عرفت بالمال الهلالى وهو يجبى مشاهرة ، والمال الخراجي وهو ما يجبى مسانهة ، فقد احتكر النطرون وقدر ضرائب على الكلأ الذى ترعاه البهائم ، وما يخرج من البحر ، واطلق عليها ضريبة المصائد .

وقد عرف المال الهلالى زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعادن ، وقد استمرت هذه الضرائب بعد عهد ابن المدبر الى ان ولى مصر احمد بن طولون فألغاها جميعا .

ولكن هذه الضرائب ظهرت من جديد بصورة أخرى زمن الدولة الفاطمية بل وأصبح لها ديوان خاص بها عرف بديوان الهلالى والخراجى ، وكان يختص بتقدير قيمة الضرائب اللازمة على الرباع وجباية الضرائب العقارية والضرائب غير المباشرة وخصوصا المكوس .

وكان يتولى هذا الديوان موظف كبير له الولاية فى الاشراف على فرض الضرائب على الأراضى الزراعية وتحديد طرق جبايتها واقرار أوجه الانفاق ، وكان يساعده مجموعة من العمال والجباة والكتبة ومن اختصاص هذا الديوان أيضا « وضع الترتيبات الخاصة بالنداء على الضياع بغرض التقبيل ومن حقه اعطاء الأوامر بروك الأراضى الزراعية كما يشرف على ربط الأموال عليها ، وكذا فان له الحق فى تخفيض الضرائب اذا قل المحصول نتيجة للكوارث الطبيعية » .

فمن المعروف أن العرب اتبعوا فى جباية الضرائب النظام الذى اتبعه البيزنطيون من قبل فكانت كل قرية مسئولة بالتضامن عن الضرائب المفروضة عليها ، وهذا يؤيد ما ذكره ابن عبد الحكم

والمقريزى والسيوطى من أنه لما استوثق الأمر لعمرو بن العاص « أقر قبطها على جباية الروم وكانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية وكثر أهلها زيد عليهم ، وان قل أهلها وخربت نقصوا » أما فى العصر العباسى فقد قام فى مصر نظام آخر لجباية الضرائب وهو نظام قبالات الأراضى ويشبه نظام الالتزام الذى وجد فى العهد الرومانى ، فيقول المقريزى : « ان متولى خراج مصر الذى يجلس فى جامع عمرو بن العاص من الفسطاط فى الوقت الذى تتهيأ فيه قبالة الأراضى وقد اجتمع الناس من القرى والمدن فيقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور والصفقات على من يتقبلها من الناس ، وكانت البلاد يتقبلها متقبلوها بالأربع سنين لأجل الظمأ والاستبحار وغير ذلك ، فاذا انقضى هذا الأمر خرج كل من كان تقبل أرضا وضمنها الى ناحيته فيتولى زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه وأهله ومن ينتدبه لذلك » .

ومن هذا النص نعرف أن نظام قبالة الأرض كان يتم باقامة مزاد علنى بجامع عمرو بن العاص حيث يعلن عن تقبيل الأرض أى ضمان خراجها لفترة محددة ، وكان التقبيل يتم لمدة أربع سنوات حتى يستطيع المتقبل تعويض السنوات التى تظمأ فيها الأرض أو تستبحر أو كما توضح ذلك الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف بقولها (حتى تتعادل سنو المحصول الضعيف بسنى المحصول الطيب) .

وقد استمر جلوس صاحب هذا الديوان فى جامع عمرو بن العاص الى ان عمر احمد بن طولون جامعه فنقل هذا الديوان اليه واستمر به الى أن نقل الى القصر بالقاهرة وكان متولى هذا الديوان يتشدد فى مراقبة الجباة ومعاقبتهم فى حالة التراخى ،

كما يقوم بعمل كل ما يتصل بميزانية ديوانه من تحديد الدخل والمنصرف وتدوينه . هـذا وقد سيطر أهل الذمة على ديوان الخراج واستمرت شـئونه تدار بالتاريخ القبطى الى أن أمر الأفضل بن بدر الجمـالى باستبدال التـاريخ القبطى بالتاريخ الهجرى ، وكان الهدف من ذلك القضاء على المؤثرات القبطيـة التى سيطرت على هـذا الديوان ، الا أنه أخطأ فى ذلك حيث ان السنة القمرية لا تصلح لاتباعها فى الحسابات الزراعية والخراجية ولا فى الحسابات المصلحية السنوية لعدم تكامل الفصول فيها .

٩ ـ ديوان الجوالى (الجزية) :

هو الديوان المسئول عن جباية الجزية المفروضة على اهل الذمة من اليهود والنصارى فقد كانت تلك الضريبـة موردا من الموارد المهمة فى الدولة الاسلامية من قبل قيام الدولة الفاطمية ، فبعد فتح العرب لمصر فرضوا على أهلها من القبط الجزية بواقع دينارين عن كل نفس . وهـــذه الضريبـــة فرضت فى الدولة الاسلامية عموما على النصارى مقابل حمايتهم والدفـاع عنهم فكانت تفرض على القادرين على حمـل الســـلاح مقابل انهم لا يشتركون فى الدفاع عن البلاد لأن الجيش الاسلامى لا ينتظم بين صفوفه ذمى ، ولذا فقد عرفت الجزية أيضـا بضريبة الرءوس أو الضريبة الشخصية . وكانت تؤخذ من الشخص القادر على حسب يساره مرة كل سنة ، وتدفع من المشتغلين بالتجـارة والصناعة فى المدن ، أما فى الريف فتدخل فى الخراج وكانت تجبى بحسب السنة الهلالية ولا تجبى الا مرة واحدة فى الســنة من اليهود والنصارى الذين لم يسلموا ، وتقدر على حسب أحوال الناس ويسارهم عن كل شخص قادر فكانت تؤخذ من اغنيائهم ومتوسطى الحـال منهم وفقرائهم ممن يكسبون . أما فقراؤهم ممن يتصدق عليهم ولا قدرة لهم على العمل من ذوى العاهات

فلا تؤخذ منهم الجزية ، كما لا تؤخذ من المرأة أو الصبى أو المجنون أو العبد أو الراهب . وكان يشترط فيمن تجب عليه الجزية الذكورة والبلوغ والحرية . وهى تسقط بالاسلام .

وأما عن مقدارها فيبدو أنها لم تكن محددة تحديدا قاطعا اذ تذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف فى كتابها « مصر فى فجر الاسلام » أن أوراق البردى حفظت لنا « كشوفا من القرن الثالث الهجرى دونت فيها أسماء أشخاص مختلفين ، وذكر فيها مقدار الجزية الواجبة على كل ، وقد اختلفت هذه الجزية باختلاف كل شخص ، وقلما نجد شخصين يدفعان جزية متساوية: فشخص يدفع دينارا وآخر دينارا ونصف ، وثالث ثلثى دينار ، ورابع دينارا وثلثا وهكذا . وهذا بلا شك راجع الى تقدير الجزية على أساس ثروة كل شخص » وكانت الجزية تجبى بروح العدل والرفق والانصاف ؛ وكانت متناسبة مع أهلية كل فرد للدفع فأعفى منها من هم فى حاجة الى العون والمساعدة كما كانت تحصل احيانا على أقساط وقد استخدمت فى وجوه المصلحة العامة ولكنها تقلصت بعض الشىء فى عهد الدولة الفاطمية نتيجة لاسلام كثير من أهل الذمة ، ولذا تحول اسمها من الجزية الى الجوالى .

وكان على رأس هذا الديوان موظف كبير (ناظر) تعرض عليه الأعمال المالية المتعلقة بالجزية يعاونه بعض الموظفين الآخرين لضبط ايرادات الجزية التى يدفعها أهل الكتاب . فاذا أسلم الذمى أو مات أثناء الحول الزمه من يتولى ديوان الجوالى بقدر ما مضى من السنة قبل اسلامه أو وفاته . وكان هذا الديوان ملحقا بديوان المواريث الحشرية وبذلك سمى « ديوان الجوالى والمواريث الحشرية » .

١٠ ـ ديوان الثغـور :

كانت حكومة العرب منذ الفتح الاسلامى لمصر تفرض ضرائب على الصناع والأجراء ، وتقدر هذه الضرائب بقدر احتمالهم . وكان العرب فى مصر كالبيزنطيين يفرضون ضرائب على التجـارة تعرف بالمكوس . « وأثر عن زريق بن حيان الذى كان على مكس مصر زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه قال ان الخليفة كتب اليه أن يراقب من مر عليه من المسلمين فيأخذ مما ظهر من أموالهم وما ظهر له من التجارات من كل اربعين دينارا دينارا وما نقص بحسابه حتى تبلغ عشرين دينارا ، فان نقصت عن ذلك تركهـا ولا يأخذ منها شيئا . واذا مر عليه أهل الذمة أخذ منهم من كل عشرين دينارا دينارا وما نقص فبحسابه ذلك حتى تبلغ تجاراتهم عشرة دنانير ، فان نقصت عن ذلك لا يأخذ منها شيئا . والا يأخذ من التجارة مرة أخرى قبل انقضـاء العام ، وأن يكتب لهم كتابا بما أخذ منهم » . وكان هذا هو ما يتصل بالضرائب التى تحصل على التجارة الداخلية .

« وكما اهتمت حـكومة العرب فى مصر بفرض ضرائب على التجارة الداخلية فى البلاد فانها لم تنس أيضا أن تفرض ضرائب على التجارة الخارجية التى تمر بثغورهـا أو التى ترد اليهـا أو تصدر منها . فيذكر المقريزى أنه كان يجبى من التجـار فى الثغور المصرية وهى دمياط وتنيس ورشد وعيذاب وأسـوان والاسكندرية ، ضرائب مقررة . فالمكس قبل الاسلام كان عبـارة عن حق فرض الضرائب على الأسواق أو حق فرض الضرائب التى تجبى فى الموانى والبلاد التى على الحدود المصرية ، وقد حافظ المسلمون على هذا الحق وقربوه من نظام الزكاة أو العشور » .

وقد اهتم الفاطميون بديوان الثغور لجباية الرسوم المقررة على الواردات (الرسوم الجمركية) فى مختلف الموانى المصريـة مثل الاسكندرية ودمياط والبرلس والفرما وتنيس وعيـذاب وأسوان والقلزم ، وهى الثغور المصرية التى تصل اليها التجـارة الخارجية من شتى البلدان حيث تؤخذ عليها الرسوم المقررة . ويلاحظ أنه كان هناك مشارف (رئيس)لكل من هذه الثغور وهو مسئول أمام الديوان الرئيسى .

١١ ـ ديوان العمـائر :

هذا الديوان كان يختص بكل ما يتعلق بشئون الأسـطول سواء الحربى أو التجارى وما يتصل بذلك من صناعة السـفن الحربية والتجارية ، وله ايراداته الخاصة للانفاق على كل ما يتعلق بشئون خاصـة وان جهود الفاطميين لم تقف عند حد اهتمامهم بتكوين الجيش بل رأوا على أثر تهديد البيزنطيين لبلاد الشـام التى كانت تابعة لمصر واستيلائهم على أمهات مدنها مثل أنطاكية وحلب انهم فى حاجة ماسـة الى أسطول قوى فأنشأ المعز لدين الله الفاطمى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وفى الاسكندرية ودمياط وكانت تسير بعض وحداتها للمرابطة فى الموانى الشامية مثل عكا وصور وعسقلان وكان للأسطول المصرى ميزانية ضخمة من مستغلات الاقطاعات المحبوسة عليه .

ونحن لو رجعنـا الى بداية العهد الاسـلامى نجد أن مصر ساهمت بنصيب وافر فى انشـاء الأسـاطيل الاسـلامية الأولى واشتهرت منذ البداية بصناعة السـفن . وقد غزا المسـلمون جزائر عدة مثل قبرص وصقلية ورودس وكريت وغيرها بل ان

معاوية بن أبى سفيان غزا مضيق القسطنطينية فى سنة ٣٢ هـ . كما أن عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر من قبل عثمان بن عفان قاتل البيزنطيين بحرا فى غزوة ذات الصوارى وانتصر عليهم . كل هذا يؤكد اهتمام العرب وافادتهم من خبرة المصريين البحرية ومن العمال المصريين أيما افادة فقد أصبحت مصر عقب الفتح مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة كما كانت تمد هذا الأسطول بخبرة الملاحين والعمال المصريين وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية. ويشير المقريزى والقلقشندى الى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست سنة ٥٤ هـ .

وقد ظلت صناعة السفن زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضا وكانت الخلافة تستخدم العمال المصريين فى دور الصناعة التى أنشأتها فى المشرق والمغرب وانتهى الأمر بأن أصبحت الدولة الاسلامية سيدة فى البحر المتوسط .

وقد ظلت عناية ولاة مصر بالأسطول الى أن قامت الدولة الطولونية وانشأ أحمد بن طولون أسطولا كبيرا من السفن الحربية . وظل الاهتمام بالأسطول الى عهد الفاطميين فيذكر ابن أبى طى أن المعز لدين الله أنشأ دار الصناعة بالمقس وبنى فيها ستمائة مركب ، ولكن المسبحى ينسب فضل انشاء دار الصناعة هذه الى الخليفة العزيز بالله . وقد تابع خلفاء المعز والعزيز العناية بالأسطول وكانت أهم مراكز انشاء السفن فى مصر والاسكندرية ودمياط . ولم يقتصر الأمر على الأسطول الحربى بل نشطت صناعة المراكب لأغراض النقل والتجارة نتيجة للتوسع التجارى الذى شهدته البلاد فى هذا العهد فكانت السفن تقلع الى موانى شمال افريقية وجنوب أوروبا وجزيرة صقلية والشام

وتعود محملة بالسلع اللازمة ، كما كانت السفن تملأ سطح النيل محملة بالغلال الى الفسطاط والمتاجر الشرقية من أسوان وقوص بعد وصول القوافل وهكذا .

وقد دهش ناصر خسرو من آلاف السفن التى رآها فى تنيس وساحل مصر .

وبطبيعة الحال كان انشاء المراكب الحربية من اختصاص ديوان العمائر وفى الوقت نفسه كانت الحكومة تبنى كثيراً من المراكب التجارية وتبيعها ، اى أن الحكومة الفاطمية كانت تستغل صناعة السفن باحتكار الأخشاب أو بناء السفن لحسابها وبيعها أو فرض الضرائب الكبيرة عليها .

وهكذا كانت مهمة ديوان العمائر تتعلق بهذا كله من بناء للسفن واشراف على الأساطيل الحربية والتجارية وتنظيم لأمورها ودفع رواتب رؤسائها ورجالها ... الخ .

وقبل أن اختتم كلامى عن تنظيم الدواوين التى تخص المال والاقتصاد بمصر الفاطمية يجب أن أذكر حقيقة مهمة ، وهى أنه على الرغم من اهتمام الرحالة بكثير من شئون مصر الاقتصادية الا أنهم لم يهتموا كثيرا بالهيكل الادارى والمالى بالدولة ، وربما كان هذا طبيعيا حيث ان الرحالة هو مجرد عابر سبيل لا يهمه أن يصل الى التفاصيل الدقيقة فى شئون المال والادارة بقدر اهتمامه بوصف ما يصادفه من الأمور الظاهرة فى مجال الحياة العامة من نظم اجتماعية وأحوال اقتصادية وذلك على عكس المؤرخ الذى يهتم بكل التفاصيل الدقيقة القائمة على التحليل العلمى فى أغلب الأحيان ، ولذا كان اعتمادى فى المقام الأول على ما أورده مؤرخو هذا العصر دون الرحالة .

الفصــل الثــانى

المــوارد المــالية

كانت النواحى الاقتصادية ولا تزال ذات اثر عظيم فى حياة الشعوب ، اذ أن المركز المــالى لأية دولة هو خط بيانى لمــا عليه تلك الدولة من قوة وضعف ، ولذا فقد نظم الفاطميون مواردهم المــالية منذ اليوم الأول لدخولهم مصر تنظيما دقيقا ليستفيدوا من ثروتها الاقتصــادية التى تساعدهم على نشر مذهبهم الشــيعى وحضــارتهم فى أرجــاء العالم الاســلامى ، ويستطيعون بذلك أن ينافسوا العباسيين فى هذا المجال . وكان لهم ما خططوا من أجله فلم يمض وقت طويل حتى كان سلطانهم قد فرض على بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، ثم أقيمت لهم الدعوة فى الموصل واليمن بل وبغداد نفسها لمدة من الزمن .

وقد تعددت موارد الدولة المــالية فى العصر الفاطمى ؛ وكان من أهم تلك الموارد :

١ ـ الخـــراج :

ويأتى الخراج على قائمة الموارد المـالية للدولة الفاطمية . وقـد أمدنا كثير من مؤرخى مصر فى العصر الفاطمى فضـلا عن الرحالة بمعلومات عن الخراج وتطوره عبر السـنين والأحـكام المختلفة التى أثيرت حول الخراج . الا أننا سنحاول هنا تحديد رؤية مؤرخى العصر للخراج من الناحية الاقتصادية باعتباره أهم الموارد المـالية . فالخراج هو تلك الضريبـة التى كانت تحصـل عليها الدولة من الأراضى المزروعة حبوبا وعنبا وفاكهة ونخلا أو من الفـلاحين كنوع من الهدايا العينيـة من الغنم والدجـاج وكل ما يستخرج من الريف . فقد كان الخراج يدفع غلة فى بلاد الصعيد وعينا فى الوجه البحرى . ويتضح هـذا من كلام المقريزى عن الهدايا التى سامحت بها الحكومة زمن الخليفة الآمر الفلاحين سنة ٥١٥ هـ . وهنـاك بعض البرديات التى تحمل ايصـالات بخراج بعض المناطق والتى يستشف منها أن بعض تلك الضرائب كانت نقدية والبعض الآخر كان فى صـورة متحصـلات عينيـة أو هدايـا .

اما الطريقة المتبعة فى جباية الخراج بمصر ومواعيد جبايته فقد أوردها ابن حوقل بالتفصيل حيث يقول : « ولمصر عـادة وسنة لم تزل من عهد فراعنتهـا فى استخراج خراجها وجبايـة أموالها واجتلاب قوانينها ، وذلك أنه لا يستتم استيفاء الخراج من أهلها الا عند تمام المـاء وافتراشه على سائر أرضها وتطبيقها ، ويقع اتمامه فى شهر توت . فاذا كان ذلك وربما كانت زيادة على ذلك أطلق المـاء فى جميع نواحيها من ترعها ، ثم لا يزال يترجح فى الزيادة والنقصان الى حين طلوع الفجر بالسماك وهو لثمان تخلو من شـهر بابة ، فـاذا انحسر المـاء وقعت باكورة البذور

بالأقراط والكتان والحبوب والقرط الرطبة . وبباية يتكامل رى الأرض عند ثمان تخلو منه وقد لا يستتم الماء فيه فيعجز بعض الأرض عن أن يركبها الماء فيرزح الخراج عن الكمال . وبهاتور يبدأ فى الحرث ويحصد الأرز ويكون الزرع البذرى فى أكثر نواحيهم وضياعهم . وبكيهك يزرع فيه من أوله الى آخره الزروع المتأخرة ولا يزرع بعده فى شيء من أرض مصر غير السمسم والمقاتى والعطب . وبطوبة يطلب الناس بافتتاح الخراج ومحاسبة المتقلبين عن الثمن من السجلات من جميع ما بأيديهم من المحلول والمعقود . وبأمشير يؤخذ الناس فيه باتمام ربع الخراج من السجلات . وببرمهات يطلب الناس فيه بالربع الثانى من الخراج ، ويزرع قصب السكر وما يشبهه . وببرمودة تقع المساحة على أهل الأعمال ويطلب الناس باغلاق نصف الخراج عن سجلاتهم ويحصد بذرى الزرع . وبشنس تقرر المساحة ويطلب الناس بما يضاف الى المساحة من أبواب وجوه المال : كالصرف والجهبذة وحق المراعى والقرط والكتان على رسوم كل ناحية ويستخرج فيه اتمام الربع مما تقررت عليه العقود والمساحة ويطلق الحصاد لجميع الناس . وبؤونة يستخرج فيه بتمام نصف الخراج مما بقى ولم يوزن بعد المساحة . وبأبيب تستتم فيه ثلاثة أرباع الخراج وهو أصل زيادة ماء النيل ويكون ضعيفا وفيه يزرع الأرز بالفيوم ويحصد فى هاتور وكيهك ومسرى يغلق فيه الخراج وفيه جمهور زيادة ماء النيل » .

أما نظام جباية الخراج فكان يتبع فيه نظام الالتزام أى التقبيل « فكان متولى الخراج بمصر يجلس فى جامع عمرو بن العاص فى الوقت المخصص لتقبيل الأرض ، ويجتمع الناس من القرى والمدن ويتم النداء على البلاد صفقة صفقة على حدة ويتم تدوين ما ينتهى اليه أمر كل منطقة على حدة ، ويتم تقبيل الأرض لمدة

اربع سنوات لأجل الظمأ والاستبحار » . واذا انتهى توزيع الأراضى على متقبليها يتولى كل متقبل أمور منطقته فيزرعها ويصلح جسورها ويتولى أمر أعمالها بنفسه أو من ينوب عنه ، ويحمل ما عليه من الخراج فى مواعيده المحددة وغالبا ما كان يتم هذا بأقساط ويحسب له من مبلغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وسد ترعها وحفر خلجانها بمقدار معين من المال يتم تقديره بديوان الخراج .

وكان الخلفاء يتشددون فى طلب الخراج وخصوصا عندما تتأخر بعض المبالغ ولا يستطيع الملتزم أن يفى بالتزامه أمام الدولة، وغالبا ما كان يحدث هذا بسبب وقوع الكوارث الطبيعية التى كانت تصيب البلاد بسبب ارتفاع ماء النيل أو انخفاضه عن المعدل الطبيعى ، ورغم هذا كانت الحكومة تتشدد فى طلب المتأخرات التى كان يطلق عليها البواقى . وأحيانا كانت الحكومة تتسامح فى طلب تلك البواقى وخصوصا فى العصر الفاطمى الثانى (٤٦٦ - ٥٦٧ هـ/١٠٧٣ - ١١٧١ م) ويظهر هذا من المنشور الذى أصدره الوزير المأمون البطائحى بخصوص قبالة الأرض والتسامح فى البواقى وذلك أواخر سنة ٥١٥ هـ .

ويذكر أن هذا التسامح يعده المقريزى الأول من نوعه حيث يقول فى أحداث سنة ٥١٥ هـ (وكان قد تقدم أمر الأجل المأمون بعمل حساب الدولة من الهلالى والخراجى وجعل نظمه على حملتين احداهما الى ستة عشر وخمسمائة الهلالية الخراجية والحملة الثانية الى آخر سنة ٥١٥ هـ هلالية وما يوافقها من الخراجية فعقدت على حملة من العين والأصناف وشرحت بأسماء اربابها وتعين بلادها فلما أحضرت أمر بأن يكتب سجل يتضمن المسامحة بالبواقى الى آخر سنة ٥١٥ هـ ونسخته بعد التصدير

ولما انتهى الينا حال العاملين والضمناء والمتصرفين وما فى جهاتهم من بقايا معاملاتهم أنعمنا مما تضمنه هذا السجل من المسامحة قصدا فى استخلاص ضامن طالت غفلته وخربت ذمته وانقاذ عامل أجحف به الديوان طلبته وتوفير الرغبة على عمارتها وجريها فيها على قديم عادتها ولما كان ذلك من جميل الأحدوثة التى لم نسبق اليها ولا شاركنا ملك فيها اقتضت الحال ايرادها فى الكتاب) .

وتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أن عصر الولاة شهد تسامحا فى بعض الأحيان فى تحصيل البواقى المتأخرة على جهات الضمان والمتقبلين فتقول (وكانت الولاة تتشدد فى طلب ذلك مرة وتتسامح به مرة) .

وغالبا ما كان المتقبلون يغالون فى تقدير الضرائب على الفلاحين ولذا نجد بعض الخلفاء يتدخلون للحد من سيطرة هؤلاء الملتزمين .

وقد اختلف تقدير الخراج فى العصر الفاطمى من منطقة الى اخرى . وقد أورد لنا الأمير عمر طوسون جدولا مفصلا يوضح لنا فيه مقدار الخراج فى عهد الخليفة المستنصر بالله فى الوجهين القبلى والبحرى ، وقد بذل جهدا مشكورا فى تحويل مقدار الخراج من الدينار الى الجنيه المصرى . ومن هذا الجدول نلاحظ أن الخراج يختلف من كورة الى أخرى وهذا شىء غير مستغرب فقد أورد لنا صاحب الأحكام السلطانية العوامل التى يراعيها واضع الخراج على كل أرض على حدة . وقسم الخراج على الأراضى الى ثلاثة أنواع : فالنوع الأول ما يختص بالأرض من جودة يذكر بها زرعها أو رداءة يقل بها انتاجها ، والثانى ما يختص بالزرع من اختلاف أنواعه من الحبوب والثمار ، فمنها ما يكثر

ثمنه ، ومنها ما يقل ثمنه فيكون الخراج بحسبه ، أما الثالث فهو ما يختص بالسقى والشرب لأن ما التزم المؤنة فى سقيه بالنواضح والدوالى لا يحتمل من الخراج ما يحتمله سقى السيوح والأمطار. ويوضح لنا هذا الجدول أيضـا أن خراج الوجه القبلى كان أقل من خراج الوجه البحرى ، وأعتقد أن هـذا راجع لاختلاف طبيعة الخراج فالوجه القبلى يدفع خراجه عينا ، ولكن الوجه البحرى يدفعه نقدا . كذلك اختلف الخراج باختلاف المحـاصيل الزراعية وقد أورد لنا ابن مماتى صورة وافية عن تقدير خراج الحاصلات الزراعية . استطعنا أن نستنتج منهـا أن الخراج المـأخوذ على الخضروات كان مرتفعا ويرجع هـذا الى الاقبال الشـديد على زراعة الخضروات لارتفاع ثمنها واعطائها أكثر من محصـول فى العام هذا الى جانب عدم بذل مجهود كبير فى زراعتهـا بالنسبة للحاصـلات الأخرى . ولم تعرف مصر الفاطمية تحديد نوعيـة الحاصلات الزراعية بل تركت الحرية للفلاح يزرع ما يشاء دون الالتزام بخطة محددة . وغالبا ما كانت الحكومة تلجـأ الى خفض الضريبـة على المنتجات الزراعيـة المستخدمة فى الصناعة كالقطن والكتان فالنسبة المئوية على تلك الحاصـلات لم تتعد ١٠٪ الى ١٢٪ وهـذا كنوع من التشجيع من قبل الحكومة للحصـول على المواد الخام اللازمة لمصانعها .

ونستنتج مما سبق اختلاف الضرائب من محصول الى آخر ويرجع هـذا لاختلاف نوع التربة ومدى خصوبتها وما تعطيـه من محصول .

ومن الواضح أن الضريبة على الحبوب كانت تقدر بالأرادب أما اذا اختلف المحصـول عن الحبوب فغالبا ما يدفع عنه نقد او غلة . ولم يكن هـذا فى صالح الفلاح حيث تركت حرية تقدير

الخراج الحكومة وموظفيها مما جعل هؤلاء الموظفين يتلاعبون فى تقدير قيمة الفرق بين ثمن المحصول ووزنه وقد كانت نسبة الضرائب كالآتى :

اسم المحصول	غلة الفدان	مقدار الضريبة
القمح	٢ ـ ٢٠ أردبا	٣ أرادب
الحمص	٤ ـ ١٠ أرادب	٢ أردب
الثوم	١٠ ـ ٢٠ دينارا	٢ دينار
الترمس	٢٠ أردبا	١ر٢٥ دينارا
اللفت	٤ ـ ٦ دنانير	١ دينار

ومن الجدول السابق نستنتج أنه اذا كان متوسط انتاج الفدان من ٨ ـ ١٠ أرادب كانت الضريبة فى الغالب ٣٠٪ فيما عدا الحمص حيث يرتفع مقدار الضريبة عليه من ٢٥٪ الى ٦٥ر٥٪ وفى اللفت ما بين ٢٥٪ و ١٧٪ واذن فاذا حاولنا أن نحسب النسبة المئوية على جميع المحصولات سنجدها فى المتوسط لا تزيد عن ١٠٪ من ثمن المحصول .

ولم تنج الأراضى البور من الضريبة المقررة عليها ففى حالة بوار اى قطعة أرض زراعية تلجأ الحكومة الى تحويلها الى مراع وتحصل مقابل هذا على ضرائب مقررة على رؤوس الحيوانات فكانت الضريبة المقررة على الجاموس من ٣ الى ٤ دنانير وأحيانا تصل الى ٥ دنانير . أما ابقار الخيس فكان يتحصل على الرأس منها ديناران . والأغنام على ثلاث درجات الكبش والنعجة دينار

واحـد ، والثنى والثنيـة ثلثـان ، والعبورة نصـف دينـار ، أما الشعار فكل ١٠٠ رأس من انتاج لبنها وشعورها ٢٠ دينارا . أما النحل فكان كل ١٠٠ خلية ١٠ أرطال بالمصرى و ٢٠ رحلا من الشمع الخـام .

وبعد أن استعرضنا مقدار الخراج المقرر على كل كورة على حدة ومقدار الخراج المقرر على الحاصـلات الزراعية واختـلاف تقدير الخراج من محصول الى آخر وجدنا أنه من الضرورى أن نتتبع بالتفصيل ما وصل الينا من كتابات الرحالة والمؤرخين بشأن تقدير خراج مصر منذ الفتح الفاطمى وحتى سقوط الدولة .

فنجد أن جوهرا عندما أتى الى مصر كان عامـل الخراج بمصر عند دخوله هو على بن يحيى بن العرمرم . السنى المذهب فأقره جوهر فى منصبه شهرا ثم أشرك معه رجاء بن صولاب (١) . ولكن عند قدوم المعز صرفهما من جباية الخراج وجعله نصفين أحدهما فى يد على بن محمد بن طباطبـا وعبد الله بن عطـا الله وثانيهما فى يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذبارى ووضعهم جميعا تحت اشراف يعقوب بن يوسف بن كلس وعسلوج ابن الحسن وكتب بذلك سجلا قرىء يوم الجمعة على منابر جامع أحمد بن طولون .

والحقيقـة الظـاهرة أن المعز عند دخوله مصر كان من أول أعماله اعادة ترتيب الهيكل الوظيفى والاستعانة ببعض الشخصيات التى لها ثقلها فى المجـال الاقتصادى حتى يستطيع اعـادة بنـاء

---

(١) رجاء بن صولاب هـذا كان مغربيا ، واشراكه فى الاشراف على جباية الخراج مع على بن يحيى بن العرمرم كان من التنظيمات الفاطمية التى أدخلها جوهر حيث أشرك مع كل موظف سنى آخر شيعيا .

الاقتصـاد المصرى وذلك لأن مصر كانت فى نهايـة عصر الدولـة الاخشيدية تعانى من الاضطراب والفوضى والصراع وتعـارض الآراء وكثرة التنافس على السلطة من ناحية واضطراب الأحوال الاقتصادية من ناحية أخرى فقد اشتد الغلاء واختفت الأقوات من الأسـواق وانتشرت الأوبئـة فقد وقـع الغـلاء بمصر فى سنة ٣٥٢ هـ واستمر تسع سنين متتابعة بسبب انخفاض ماء النيل . وكان للفوضى السياسـية دور كبير فى اضطراب أحوال البلاد الاقتصادية وانهيار هيكلها الادارى . وقد أدت كثرة الحروب بين الجند والأمراء الى اضطراب الأسواق ونهبها وحرق المنشآت التجاريـة . وزادت الاضطرابات والفوضى بعـد موت كافـور الاخشيد مما زاد فى اضطراب أحوال البلاد الاقتصادية وانهيـار الجهاز الادارى .

أما مقدار الخراج فقد جبـاه جوهر حين قدومه الى مصر سنة ٣٥٨ هـ مليون ومائتى ألف دينار . وفى رواية أخرى جبـاه ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار . وأعتقد أن التقدير الأول هو الأقرب الى الصـواب فليس من المعقول أن يصـل خراج مصر كما ذكر المقريزى وابن حوقل ألى ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار والبلاد فى حالة قحط واضطراب والوباء يحصـد أهل البـلاد حصدا والنيل فى حالة نقص شديد وهى كلها أسباب من الطبيعى أن تؤثر على ايرادات البلاد . ولكن ابن حوقل يفسر ارتفـاع قيمة الخراج سنة ٣٥٩ هـ (٩٦٩ م) الى ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف بأن جوهر رفع قيمـة الضريبة على الفدان من ثلاثة دنانير ونصف الى سبعة دنانير ولذلك توفر هـذا المبلغ الكبير فى وقت ما زالت البلاد تعانى القحط . وأعتقـد أن هـذا التبرير ليس صحيحا فلا يعقل أن يناقض جوهر نفسه باعطاء الأمان للشعب المصرى وتخفيف الأعبـاء الملقـاة على عاتقـه ، وفى نفس الوقت

يضاعف الضريبة . ثم تأتى سنة ٣٦٠ هـ ويأتى خراج مصر على يد جوهر ثلاثة ملايين ومائتى ألف دينار . ويعتبر هـذا المبلغ معقولا حيث كانت أحوال البلاد قد استقرت بعد القضـاء على الفوضى الاقتصادية التى سادت من قبل .

هذا ويحاول عمر طوسـون أن يلفت نظرنا الى أن خراج مصر لم يتغير كثيرا عن السنتين السابقتين ولكننا نشعر أن هـذا القول انما ينطبق على السنتين التاليتين اى سنة ٣٦٠هـ و ٣٦١هـ حيث كانت البلاد قد استقرت اقتصاديا وتشدد يعقوب بن كلس فى جباية الخراج فى سنة ٣٦٣ هـ ولذا فانى أعتقد أن الخراج الذى ذكره المؤرخون على انه لسنة ٣٥٩ و ٣٦٠ هـ انما هو خراج سنة ٣٦٢ و ٣٦٣ هـ حيث ان هـذا المبلغ الكبير انما هو مقدار الخراج مضافا اليه البواقى التى حاولت الحكومة التشدد فى جبايتهـا .

وهنـاك سبب آخر فى ارتفـاع الخر ج وهو أن ابن كلس وعسلوج بن الحسن رفضا قبول الخراج الا بدينار المعزى ورفضا الدينار الراضى (٢) . وكانت حكومة الخليفة المعز تأخذه بثلاثـة ارباع قيمنه فأدى هذا الى زيادة ايرادات الدولة من الخراج .

---

(٢) الدينار الراضى هو الدينار العباسى الذى ينسب الى الخليفـة الراضى (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) وقد استمر هـذا الدينار هو وسيلة التعـامل المعترف بها منذ أن ضرب باعتباره من أكثر الدنانير العباسية نقاء ، واسـتمر هذا بمصر حتى قدوم جوهر الصقلى ٣٥٨ هـ فأمر باصـدار دينار فاطمى يحمل اسم الخليفة المعز لدين الله وحمل الناس على التعامل به وأغرق الأسـواق بهذا الدينار وتحدد بذلك سعر منخفض للدينار الراضى فانحط سعر هذا الدينار القديم (الراضى) وأصبحت قيمته الشرائيـة ثلثى قيمته الحقيقية فكسبت الحكومة الفاطمية أموالا طائلة عندما دخلت كمشترية للدينار الراضى بسعره المنخفض وقيمته المرتفعة .

وقد جبى الخراج زمن الخليفة العزيز بالله ثلاثة ملايين دينار . ثم خراج مصر فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ثلاثة ملايين واربعمائة ألف دينار .

ويذكر المقريزى أن الوزير الناصر لدين الله أبو الحسن اليازورى وزير مصر زمن الخليفة المستنصر أمر بعمل ميزانية الدولة العامة فقدم كل رئيس ديوان ميزانية ديوانه لمتولى ديوان المجلس الذى نظم الميزانية العامة فوجدها ٢ مليون دينار ، منها مليون للشام ومليون لباقى الدولة .

ويذكر الأمير عمر طوسون أن هذا المبلغ ضئيل ويعتقد انه يمثل الفرق بين الايرادات والمصروفات . ثم انخفض الخراج سنة ٤٦٢ هـ زمن الشدة العظمى حتى بلغ ستمائة ألف دينار فقط ، وهذا أمر طبيعى فقد انخفضت ايرادات الدولة كلها نتيجة لما أصاب البلاد من اضطراب سياسى وفوضى وصراع بين فرق الجيش وطوائفه المختلفة . هذا الى جانب انخفاض منسوب مياه النيل وانتشار الوباء (فكان النيل يأتى دون أن تجد الأرض من يزرعها) .

وبلغ الخراج سنة ٤٦٦ هـ (١٠٧٠ م) ٢ مليون ، ٨٠٠ الف دينار وهو رقم مبالغ فيه اذا وضعنا فى الاعتبار أن البلاد ما زالت متأثرة بالشدة العظمى وويلاتها .

أما سنة ٤٨٧ هـ وبعد قدوم بدر الجمالى فقد تحسنت أحوال البلاد المالية وزاد خراج مصر فأصبح ٣ ملايين ، ١٠٠ الف دينار . وأما زمن الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش فقد بلغ الخراج خمسة ملايين دينار ، وكان متحصل الأهراء (مخازن الغلال) مليون أردب . وتقاصرت جباية الخراج

بعد ذلك الى أن جباها القاضي الموفق أبو الكرم بن معصوم العاصمي التنيسي عينا خالصا الى بيت المــال مليونا ومائتى ألف دينــار في سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥ م . وانحط خراج مصر بعده ولم يجبه أحد بصورة معقولة الى أن انقرضت الدولة الفاطمية .

ومما نقدم نستخلص حقيقة مهمة وهى أن ايرادات الدولة من الخراج لم تكن ثابتة بل كانت متقلبة من وقت الى آخر وترتبط الى حد كبير بأحوال البلاد الأمنية وباستقرار احوال النيل كمـا تأثرت بالصراع على السلطة بين الوزراء ورجال الدولة وخصوصا فى العصر الفــاطمى الثــانى المعــروف بعصر الوزراء العظــام (٤٦٦ ــ ٥٦٧ هـ/١٠٧٣ ــ ١١٧١ م) بسبب ضعف الخلفــاء وعــدم ســيطرتهم على شــئون البــلاد وفرض ســلطانهم على المستخدمين ، فكل هذه الأسباب كانت تؤثر على اضطراب جباية الأموال . وأحيانا كان الخراج يأتى مرتفعا ويرجع ذلك الى استقرار الأحوال الأمنيــة أو الى تشدد الخليفة ووزيره فى طلب البواقى مثلما حدث أيام يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن فى بدايــة عهد الدولة الفاطمية . ولذا يصف المؤرخون تلك الفترة بأنها كانت اكثر الفترات جباية للخراج . أو مثلما قامت حكومة الخليفــة المعز لدين الله بالغاء الدينــار الراضي وجمعه من الأهالى بثلاثة ارباع القيمة مما زاد من دخل الدولة . ومن العوامل التى كانت تساعد فى زيادة الخراج الاهتمام باصلاح الجسور وشق الترع وحفر القنوات وغيرها من الشئون الزراعية التى تساعد الفلاح على انتاج حاصلات زراعية على درجة عالية من الجودة والوفرة فيزيد قدر الخراج .

٢ ـ الجـوالى : (٣)

الجوالى هى الجزية المفروضة على أهل الذمة من الرجـال الأحرار والعقـلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صـبى ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذرارى . وكان يشترط فيمن تجب عليـه الجزية (الجوالى) البلوغ والحرية . وقد فرضت على الذميين مقابل فرض الزكاة على المسلمين ووجبت عليهم نظير قيام المسلمين بالدفاع عنهم وحمايتهم لأنهم لم يكونوا يشاركون فى الحروب مع المسلمين . وكانت الجزية « على ثلاث طبقات من الغنى أربعـة دنانير وسدس ، ومن المتوسط دناران وقيراطان ، ومن الفقير دينار واحد وثلث وربع وحبتان » . ويضـاف الى كل فئة من تلك الفئات درهمان وربع تدفع للقائمين على جبايتها . هـذا وقد أورد لنا المخزومى جـداول متصلة مشروحا فيها كيفيـة تدوين الجوالى وترتيب الطبقات ومواصفات كل طبقة باسهاب شديد . ورغم أن الجزية كانت تعتبر من أهم مصادر المـال فى عصر الدولة الاسلامية الا أننا نجدها فى العصر الفاطمى ليست ذات بال ، فقد كان تحول كثير من أهـالى البلاد المفتوحة الى الاسـلام سببا فى أن الجزية لم تعد مصـدرا مهما للدخل بحيث أصبحت تعرف بلفظة (الجوالى) .

وقد بلغ ارتفاع الجوالى سنة ٥٨٧ هـ أى بعد انقضـاء الدولة الفاطمية بنحو عشرين سنة ١٣٠ ألف دينار . ويعد هذا المبلغ ضئيلا جدا اذا ما قورن بالمبـالغ الكبيرة التى كانت تجبى

---

(٣) **الجوالى** : مفردها جالية ويرجع بعض مؤرخى التاريخ الاسلامى تسميتها بالجوالى الى عصر الخليفة عمر بن الخطاب حينما جلا بعض أهـل الذمة من بلاد العرب .

عند الفتح الاسلامى أو بعد ذلك بقليل ، وكانت الجوالى تجبى فى غرة السنة . وفى العصر الفاطمى كانت تدخل ضمن اختصاصات المحتسب فكان يقوم بجبايتها . ولم تتنازل الحكومة الفاطمية ابدا فى طلب الجوالى بشدة . والجوالى من أهم مصادر المال الهلالى وكانت تمثل جزءا مهما من ايرادات الدولة . ويدخل ضمن المال الهلالى أيضا ما عرف بالمعاملات وهى تشمل الزكاة والمواريث ودار الضرب ودار العيار ، والفروس والبساتين والأحكار ، والرباع والمراكب وغير ذلك .

٣ ـ الزكاة :

يقول الله تعالى فى كتابه العزيز ((**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**)) . والزكاة من أزكى الشىء يزكيه اذا نماه ؛ أو من زكاه تزكية اذا طهره . وانما سميت بذلك للاشارة الى أن اخراج شىء من مال الانسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وانزال البركة فيه . وأيضا لأن اخراج شىء من المال يطهره ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة . والزكاة فرضت على المسلمين وهى ضريبة لاصلاح أحوال المجتمع وهى الفريضة الرابعة من فرائض الاسلام وجب تقديرها على كل مسلم عاقل . وهى كل ما يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع بين فقرائهم ، وتقسم على الأشخاص المذكورين فى قوله تعالى ((**انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم**)) . والزكاة والصدقة شىء واحد ، وكان لها ديوان خاص بها فى دار الخلافة له فروع فى سائر الولايات ، فكان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع العشر (٢٫٥٪) عما يمتلكونه من المال وهذه هى زكاة النقد أو النقدين (الذهب والفضة) .

وتضيف الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أن الولاة بمصر الاسلامية كانوا يقومون بجباية فريضة الزكاة ويتسلم الأهالى ايصالا أو براءة بعد تأدية ما يجب عليهم من الزكاة بمقتضى الشريعة الاسلامية .

وقد اختلفت آراء المؤرخين حول جباية الزكاة فى زمن الدولة الفاطمية فنجد المقريزى يقرر أن الزكاة لم تجب الا زمن صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م أى بعد موت الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، بينما يذكر كثير من مؤرخى مصر الفاطمية أن الفاطميين اهتموا بأمر جباية الزكاة وأن المذهب الشيعى لا يخالف أهل السنة فى جباية الزكاة ، وأن الزكاة كان لها ديوان معروف تكلم عنه المخزومى بالتفصيل ، كما أسهب القلقشندى فيما كان يتم بشأن الزكاة ، وانها كانت يدفعها « أرباب الزكوات بأنفسهم ، أما الدولة فلم يبق لها من الزكاة التى تحصلها الا شيئان أولهما ما يؤخذ من التجار المسلمين وغيرهم على ما يدخلون به البلاد من الذهب أو الفضة ، فانهم يأخذون على كل مائتى درهم خمسة دراهم ، ثم اذا اشترى شيئا وخرج به وعاد بنظير المبلغ الأول لا يؤخذ منه شيء عليه حتى يجاوز سنة ، الا انهم انتقصوا السنة فجعلوها عشرة أشهر وخصوه بما اذا لم يزد فى المدة المذكورة على أربع مرار ، فان زاد عليها استأنفوا له المدة ، ثم انه اذا كان بالبلد متجر لأحد من تجار الكارم من بهار ونحوه وحال عليه الحول بالبلد أخذوا عليه الزكاة » . وينطبق ذلك على جميع ما يرد الى البلاد من جميع النوافذ الطبيعية . وأما الطريقة الثانية التى كانوا يحصلون بها على الزكاة فهى أخذهم الزكاة على المواشى التى تصل مع أهل برقة الى منطقة البحيرة بحثا عن المراعى فيؤخذ عليها الزكاة . ولدينا وصف آخر أورده لنا ابن جبير بالتفصيل حين يقول انه عند وصولهم الى

ميناء الاسكندرية « طلع أمناء الى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدى زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو لم يحل » كما أمدنا ابن مماتى بجدول مفصل عما تجب فيه الزكاة ومصارفها فى تلك الفترة ، فيذكر عن الذهب أنه « اذا بلغ نصابا وهو عشرون مثقالا ففيه نصف مثقال ، وفى كل ما زاد بحسابه . واذا اتخذه من يحوزه كحلية لا زكاة عليه . ومن صاغ منه آنية يستعملها وجبت فيه الزكاة ومن له حلية ذهب للكرى فلا زكاة عليها ، ومن حلى قوسه أو سيفه أو مصحفه بحلية من الذهب فلا زكاة عليه » . ومعنى هذا أن الذهب الذى يستخدم فى زينة النساء ، والذى يؤجر لاستخدامه فى تزيين العرائس (وهى عادة كانت شائعة فى المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى) وما يدخل فى تحلية بعض المصنوعات فلا يؤخذ عليه زكاة . وهذا يتفق ولا شك مع ما كان سائدا بمصر منذ الفتح الاسلامى من تحصيل ربع العشر زكاة عن كل مال زائد عن الحاجة وحال عليه الحول .

أما زكاة عروض التجارة فهى أيضا ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وأن يحول عليها الحول . وهذا ما يؤكده ابن مماتى والماوردى حين يقول « فمن اشترى عرضا من عروض التجارة من الرقيق أو الخيل فحال عليها الحول وبلغ نصابا من الذهب أدى عليها زكاة ، ومن اشترى عبدا للتجارة ونواه للخدمة فلا زكاة عليه حتى يبيعه ويمكث فى يده حولا ، ومن اشتراه لم يجب عليه زكاة » .

أما زكاة السوائم وهى الابل والغنم ويلحق بها العنز فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من أربعين فما فوق الى مائة ، ثم يبتدىء من

١٠١ الى ٢٠٠ بمقدار واحدة فى كل مائة . والابل عن كل خمس شاة الى اربع وعشرين فان كانت خمسا وعشرين فعليهـا بنت مخاض (ناقة صغيرة بنت سنة أو أقل) والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة بنت سنة ، فاذا بلغ العدد ستين كانت بمقدار واحدة بنت سنتين . والخيل اذا اعتبرت آلة من آلات الحرب فلا زكاة عليها . كل ذلك اذا كانت الحيوانات تأكل من الكلأ المباح، فان علفها صاحبها فلا زكاة فيها ، واذا دخلت فى التجـارة فتقوم وبدفع عنها زكاة التجارة .

وزكاة المعدن والركاز : وهو شرعا مال وجد تحت الأرض سواء أكان معدنا خلقيا خلقه الله تعالى بدون أن يضعه أحد فيها أم كان كنزا دفنه الكفـار ، فقد قـال الحسن البصرى فيه : ما كان من ركاز فى أرض الحرب ففيه الخمس ، وما كان فى أرض السلم ففيه الزكاة وهو ربع العشر .

أما زكاة الزرع والثمار فيجب فيها العشر اذا كانت خارجة من ارض تسقى بالمطر او السيح ، ونصف العشر اذا كانت خارجة من أرض تسـقى بالدلاء ونحوهـا وأن يكون الخـارج منهـا مما يقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها .

والى جانب الزكاة التى كان يؤديها السنة والشيعة على السواء فهناك مورد آخر كان يطلق عليه « أعمال المؤمنين » وكان يؤدى واجبل أهل الشيعة فقط . وكذلك « الفطرة » التى كانت تجبى من أتباع المذهب الفاطمى فى عيد الفطر . « والنجوى » وهى الضريبة الخاصـة بالدعوة الفاطمية . ورغم أن تلك الضرائب كانت اختياريـة الا أنها كانت تدر اموالا طائلة لخزانـة الدولة وخصوصا من الشيعة المتعصبين للمذهب ، فرغم أن النجوى كانت

تبلغ ثلاثة دراهم وثلث درهم الا أن أغنيـاء الشيعة كانوا يدفعون ثلاثة وثلاثين درهما . ومن كان يدفع هـذا المبلغ الأخير يحصل على مميزات أدبيـة كثيرة منها أنه يميز فى مجلس الدعـوة الى جانب حصوله على وثيقة خطية بيد الخليفة مكتوب عليها « بارك الله فيك وفى مالك وولدك ودينك » .

٤ ـ المكوس :

ومن الموارد المـالية المهمـة فى العصر الفـاطمى ضريبـة « المكس » وتدل فى معناها الضيق على الضريبة التى تجب على السلع الواردة والصـادرة الموجودة بالثغور . أما فى معناها الواسع فانها تدل على ضريبـة غير مباشرة زادت بصـورة مبالغ فيها فى العصر الفاطمى نتيجـة لانخفاض ضريبـة الخراج . وقد صارت هذه الضريبة متلازمة فى ذهن كثير من المؤرخين والرحـالة مع العصر الفاطمى حتى صارت سمة من سمات ذلك العصر .

ويحدثنا المقريزى عن ضريبة المكس فيقول بأنها كانت تفرض على كل شيء وأن الهواء وحده « أخلى سبيله » . وقد اتفق معه كثير من رحالة العصر ، فالمقدسى يصف تلك الضرائب بأنها كانت ثقيلة وبخاصـة بتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل بالفسطاط وغيرها من المدن التى مر عليها . ويقرر أن الضرائب كانت تؤخذ على البضـائع الواردة والصادرة فمثلا « الثياب الشطوية فلا يمكن للقبطى أن ينسج شيئا منها الا بعدما يختم عليهـا بختم السلطان ولا أن يباع الا على يد سـماسرة ، وقد عقدت عليهم وصـاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ثم يحمل الى من يطويهـا ثم الى من يشدها بالقش ثم الى من يشدها فى السفط والى من يحزمها وكل واحد منهم له رسـم يأخذه ثم على باب الفرضـة

يؤخذ أيضا شيء وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند اقلاعها ، ويؤخذ بتنيس على ذق الزيت دينار ومثل هذا وأشباهه ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال ، ورأيت بساحل تنيس ضرائبيا جالسا قبل قبالة هـذا الموضع فى كل يوم ألف دينار ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وبالفرما على مراكب الشام ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » .

اما ابن حوقل فانه ينتقد السياسة المالية التى كانت موجودة فى العصر الفاطمى ويخص ابن كلس بالذات بهذا النقد حيث يذكر أن الجزية (يقصد هنا الضرائب) كانت تفرض على جميع الداخلين والخارجين الى تنيس . ويذكر أيضا أنه كانت تؤخذ ضرائب على كل ما يحمل من الاسكندرية واليها من متاع البحر الى سائر أسباب التجارة . ويضيف أن جميع المدن والثغور التى مر عليها كان بها عامل مهمته جباية الضرائب المقررة ، ومعه عدد من موظفى الجهاز المالى للدولة وتحته فرقة عسكرية لتنفيذ تلك القرارات .

وتأتى المكوس المقررة على الثغور كمورد من الموارد المهمة فى العصر الفاطمى وكانت أهم الثغور المصرية فى ذلك العصر الاسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد والبرلس والفرما والقلزم (السويس) ويطلق على مكوس الثغور « الخمس » وهى عبارة عما يؤخذ من تجار الروم الواردين على الثغور المختلفة بمقتضى ما صولحوا عليه ، فكان يجبى منهم عما كان ثمنه مائة دينار خمسة وثلاثين دينارا وأحيانا عشرين دينارا ، وفى كلا الحالين يطلق عليه الخمس . وكانت هذه الضريبة تمثل الضريبة على قيمة السلع ، أما الضرائب على الصادرات نفسها فأقل من ذلك . وقد أطلق المخزومى على هذه الضريبة اسم « الخمس الرومى » وكان يتم جبايتها بواسطة

ناظر ومشرف وشاهد الخمس والعامل وكتابهم فيعدون الجداول لتحديد مقدار المكس على كل مركب ويثبته الناظر والمشارف، ويتم هذا كل يوم ويقدم الى الديوان حيث يتم تسجيله بالتفصيل . وغالبا ما كان يتم تحديد انواع المراكب وتعيين كل صنف فوق متنها ووزنه ، ويقوم كاتب الورد بالثغور باثبات ذلك .

وكانت الوسائل الأمنية ، تتخذ فى جميع الأحوال حيث يتم تفتيش المراكب بصــورة دقيقة وخصوصا المراكب القادمة من البلاد التى لا تنتمى للعالم الاسلامى .

اما تلك المكوس فكانت تستأدى مرة واحدة من كل قــادم بالتجارة فى كل سنة حتى لو رجع الى بلاده ثم عــاد بالتجارة فى سنته لا يؤخذ منه شيء . وغالبا ما كان التجــار يحصلون على تصاريح تعفيهم من دفع تلك الرسوم مرة ثانية أثناء العام الواحد. وقد بلغ المتحصل من الرسوم من ثغر الاسكندرية عام ٥٨٧ هـ أى بعد انتهاء الدولة الفاطمية بسنوات ٣٨ر٦١٣ دينارا . ولم تكن أسوان تقل شأنا عن ثغر الاسكندرية ففيها تصب القوافل الآتية من بلاد النوبة وتعد نهــاية المطــاف لكثير من القوافل المحمــلة بالبضائع والقادمة من مدينـــة عيذاب (٤) . ويذكر المقريزى أن ايرادها من الرسوم الجمركية فى عام ٥٨٥ هـ بلغ ٢٥ ألف دينار (٢٥ر٠٠٠) .

---

(٤) عيذاب بالفتح ثم السكون ، وذال معجمة ، وآخره باء موحدة : بليدة على ضفة بحر القلزم هى مرسى المراكب التى تقدم من عدن الى الصعيد .
ويذكر المقريزى أنها من أعظم مراسى الدنيا ، ويرجع هــذا الى كثرة السفن التى تصــل الى ساحلها من بلاد الهند واليمن محملة بالبضائع ، كما تقلع منها مراكب الحجاج الصادرة والواردة .
وهذا الميناء درس الآن وكان فى بلاد النوبة الحالية فى مقابل مدينة جدة .

٥ ـ المتجـــر :

اما المتجر فهو عبارة عما يبتاع للديوان من بضـــائع التجار الواردين ويكون المتجر الديوانى فى حاجـة اليها . حيث جرت العادة ان نلجأ الدولة الى شراء انواع معينة من البضائع للاحتفاظ بها فى المتجر ثم بيعها بعد ذلك للحصـــول على الفـــائدة لخزانـــة الدولة . وغالبا ما كانت تلك البضـــائع تمثل الحبوب مثل القمح حيث يعد من الحاصـــلات المهمـــة التى تعتمد عليها البلاد كغذاء رئيسي للشعب ، ولذا كانت تحتفظ به كاحتياطى غذائى يعتمد عليه فى حالة حدوث قصـــور للنيل يؤدى الى قحط ومجاعة . وقد ظهرت أهمية هـــذا المخزون الاحتياطى حينما انخفض النيل فى سنة ٤٤٤ هـ وانعدمت الغـــلال فى المخازن الخليفية فاشـــتدت المجاعة وانتشر الوباء ، وكان السبب الرئيسى وراء اختفـــاء الغلال فى المخازن التابعة للمتجر السلطانى أن الوزير أراد تغيير القمح ببعض السلع الأخرى التى لا تفسد فى حالة تخزينها مثل الخشب والصابون والحديد والرصاص والعسل حتى يضمن زيادة فى ربح المتجر عند بيعها مما يؤدى الى زيادة كبيرة فى ميزانية الدولة . ولكننى أعتقـــد ان الغرض الأســـاسى من هـــذا التخزين لم يكن الحصول على ربح كبير بقدر ما كان الاعتماد على هـــذا المخزون فى حالة القحط .

وكانت الحكومة تهتم بالمتجر وتحدد احتياجاتها من الأنواع المختلفة التى تحصـــل عليها من التجار القادمين الى البلاد ، فاذا زاد ثمن المبتاع من التاجر عما يجب عليه من الخمس أعطى به شيئا بحق الثلثين وذهبا بحق الثلث . وكان هـــذا يتم بواسطة موظفين وعمـــال تعينهم الدولة فى الثغور لاثبات وتدوين كل معاملة على حدة فى حجج ترســـل للديوان حتى يثبت حقوق التجـــار

بعد استيفاء الواجبات والحقوق ، ويتم اعتمادها من قبل الشهود المعدلين بالثغر .

٦ ـ المعــادن :

من الموارد المهمــة التى كانت تغذى خزانة الدولة المعــادن التى كانت تحتكر الحكومة الفاطمية مناجمها وتفرض عليها رسوما مختلفة ، ومن أهم تلك المعادن الشب . وكان الديوان يحتكره فلا يباع الا عن طريقه فهو المتصرف الوحيد فى بيعه وشرائه ، ولا يستطيع أحد أن يقوم بهذه المهمة والا كان عليه عقاب شديد .

ويستخرج معدن الشعب من صعيد مصر . وكان الديوان ينفق فى تحصيل كل قنطار منه بالليثى ثلاثين درهمــا وربما دون ذلك . ويهبط به التجار الى ساحل قوص والى ساحل اخميم والى البهنسا وان كان الاتيــان به من الواحــات ثم يحمل الى الاسكندرية . ويذكر المقريزى انه كان يحمــل الى الاسكندرية « فى أوقات النيل فى الخليج بالقنطار الليثى ويبــاع بالقنطــار الجروى فيباع منه على تجار الروم قدر اثنى عشر الف قنطار بالجروى بسعر أربعة دنانير لكل قنطار الى ستة دنانير ، ويبــاع منه بمصر على اللبوديين والصباغين نحو الثمانين قنطارا بالجروى سعر ستة دنانير ونصــف القنطــار » كمــا يبــاع منه فى المتجر بالاسكندرية خمسة آلاف قنطار بالجروى . ويفسر ذلك الأستاذ الدكتور راشــد البراوى حين يقول : « اختلفت المكاييل والموازين حسب نوع السلعة المراد وزنها فهنــاك رطل خاص لوزن الفلفل وآخر للحرير وهــكذا ، اى أن الاختــلاف مرجعــه رخص ثمن السلعة أو ارتفاعه أو ندرتها . ولم يكن وزن الرطل واحدا فى البلاد كلها بل كان لكل بلد ومنطقة رطلها الخــاص بها فالرطل

المصرى ١٥٥ درهما ، والجروى ٣١٢ درهما ، والليثى ٢٠٠ درهم ، والحريرى وهو خاص بوزن الحرير ١٢٠ درهما ، والفلفلى (لوزن الفلفل) ١٥٠ درهما ... وهكذا . أما القنطار فهو مائة رطل » . ويحدد ابن مماتى ثمن القنطار من الشب الذى يباع بمصر بسبعة دنانير ونصف . هذا وكان المحصول السنوى من هذا المعدن هو ١٢ ألف قنطار . فاذا قدرنا ثمن بيع القنطار خمسة دنانير فى المتوسط كان الايراد السنوى من ذلك حوالى ٦٠ الف دينار .

أما النطرون (كربونات الصوديوم) فمن المعادن التى احتكرتها الحكومة الفاطمية أيضا ، ولم يكن ذلك من ابتداعها على اية حال ، اذ أن الذى ابتدع ذلك هو أحمد بن المدبر عامل الخراج على مصر منذ سنة ٢٥٠ هـ . ويحدثنا المقريزى عن ذلك فيقول : « ان أحمد بن محمد بن مدبر لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين ومائتين ابتدع فى مصر بدعا صارت مستمرة من بعده فأحاط بالنطرون وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس » .

وقد تمركزت مناطق استخراج النطرون فى منطقة الطرانة بالبحيرة وفى البر الغربى بمنطقة الفاقوسية وهو على نوعين : أخضر وأحمر ، وكان الاقبال شديدا على النوع الأخضر منه ولذا فلا يتصرف فيه غير المستخدمين من قبل الديوان . وكان المستخرج منه ٣٠ الف قنطار فى السنة . ويذكر المقريزى أن الحكومة الفاطمية أتبعت مبدأ التضمين بالنسبة لمحصول النطرون فبلغ مقدار ضمانه ١٥٫٥٠٠ دينار فى سنة ٥٨٥ هـ .

٧ ـ المواريث الحشرية :

من أهم موارد بيت المـال أيضا ما عرف بالمواريث الحشرية، وهى مال من يموت وليس له وارث شرعى ، أو الباقى من مال من يموت بعد توزيع التركة ، وكانت هـذه الأموال تؤول الى بيت المـال فاذا كانت تلك الأموال فى صـورة عقارات أو أراض زراعية تقوم الحكومة باستثمارها عن طريق التأجير .

وتعد المواريث الحشريـة من المصـادر المهمـة لدخل بيت المـال وخصوصا فى فترات انتشار الأوبئة التى تنتج عن الأزمات الاقتصادية بسبب كثرة أعداد الموتى فى تلك الفترات وانتقـال أموالهم وثرواتهم الى بيت المـال . وتعد الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر خير دليل على هـذا فقد تزايدت الأموال التى آلت لبيت المـال فى الفترة من سنة ٤٥٧ الى ٤٦٤ هـ (١٠٦٤ ـ ١٠٧١ م) . ويعد عصر الوزير الأفضـل بن بدر الجمـالى من أزهى العصور بالنسبة للمحافظة على المواريث فيذكر ابن ميسر ان الأفضـل « أول من أفرد المواريث ومنع من أخـذ شىء من التركات على العادة القديمة ، وأمر بحفظها لأربابها فاذا حضر من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها فى الحـال ، وكانت هذه من حسناته التى تفرد بها دون من تقدمه » . وتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أن الاخشيد أول من وضـع ضريبة على التركات فكان يعمل على الاستيلاء على جزء من تركة كبار التجـار والموظفين ، فقد أخذ ضريبـة من ميراث أحد موظفيه مائة الف دينـار .

وقد اتخذ الفاطميون للمواريث ديوانا عرف بديوان المواريث الحشرية لا يتولاه الا شاهد عدل يساعده جماعة من الكتـاب يقومون بمتابعة تلك الأموال . كما خصص فى هـذا الديوان كاتب

لتدوين أسماء من يموتون بمصر والقاهرة كل يوم وتبليغ الديوان بهذه الأسماء ، فيقول القلقشندى ان المواريث الحشرية كان لها ديوان يتولاه ناظر وشهود يقومون بمتابعة هـذا المصـدر المهم وتوريد متحصله الى خزانة الدولة ، بل انه كان هنـاك كاتب مخصص لتدوين من يموت بمصر والقاهرة كل يوم وتفصيله من رجال ونساء وصغار ، ويهود ونصـارى ، وتكتب منه نسـخ للديوان . وكانت التقارير تستمر طوال اليوم ولا تختم الا عند صـلاة العصر .

٨ ـ المصـادرات :

ومن الموارد المهمة أيضا الأموال المصادرة فكانت الحكومة الفاطمية تصـادر أموال المغضوب عليهم من رجال الدولة ، ومن المحكوم عليهم بالاعـدام ، وتودع هـذه الأموال فى ديوان المفرد ويتصل هـذا الديوان اتصالا مباشرا بديوان المواريث الحشرية .

والمصادرات ليست ابتداعا فاطميـا وانما هى قديمـة فى الاسلام تتصل بعصر الراشدين ، وكان العمـال أول من وقعت عليهم المصادرات فكانوا اذا اكتسبوا مالا من تجـارة أو سبيل آخر غير مرتباتهم المفروضـة أخذ الخلفاء نصفه وأضافوه الى بيت المـال . كذلك فعل عمر بن الخطـاب بعماله فى الكوفـة والبصرة والبحرين . وكانوا يسمون ذلك مقاسمة أو مشاطرة . فلما أفضت الأمور الى بنى أمية وكان ما كان من استبداد عمالهم وطعمهم فى أموال الجبابـة أصبح الخلفـاء فى أواخـر الدولـة لا يعزلون عامـلا من عمله الا حاسـبوه على ما عنده من مـال واسـتخرجوا ما تصـل اليه أيديهم ، وكانـوا يسـمون ذلك (استخراجا) . وفى بداية عصر الدولة العباسية كانت المناصب

الكبرى لاخوانهم واعمامهم ولم يكن ثمة ما يدعو الى الاستخراج أو المقاسمة . ثم انتقلت الأعمال الى رجال الدولة من غير أهلهم ، فجنح العمال الى الطمع والعنف فى استخراج الأموال فعمد الخلفاء الى مصادرة أموالهم لاسترجاع ما استولوا عليه من غير وجه حق فكان بعض الخلفاء لا يفصل عاملا من عمال أقاليمه الا وقبض ماله ووضعه فى ديوان خاص عرف ببيت مال المظالم . وقد كثرت المصادرات للوزراء فى عصر الدولة العباسية ، وكان الخلفاء يعتبرون أموال أولئك الوزراء أو العمال حقا لبيت المال قد اغتصبوه فاسترجاعه لا يعد جورا أو اجحافا .

وقد عرفت مصر نظام المصادرات هذا بصورة واضحة منذ عهد الاخشيد ، فتقول الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف : « اشتهر عن الاخشيد اقباله على نكبة عماله وأغنياء دولته وفرضه الأموال عليهم ، وهو ما تعبر عنه المراجع التاريخية بالمصادرات » . وتقول فى موضع آخر « ومن مظاهر جشع الاخشيد ما استنه من مصادرة كبار الموظفين والأثرياء » . وممن صادرهم الاخشيد أبو بكر محمد بن على المادرائى ، وعلى بن محمد بن كلا ، وبارشكور . وعمران بن فارس . ولكن الواقع أن معظم من كانوا يصادرون كانوا من كبار موظفى الدولة ، أو ممن كانت لهم معاملات معها أصابوا منها مالا وفيرا . كذلك فان هذه المصادرات لم تفرق بين مسلم وذمى اذ ان عددا من رجال الدولة من النصارى تعرضوا لها أيضا زمن الاخشيد . أما فى عهد الدولة الفاطمية فقد امتلأت خزانة ديوان المفرد بالأموال المصادرة ، خاصة زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الذى صادر أموال كثير من رجال دولته المشكوك فى أمرهم من موظفى الحكومة ومن المغضوب عليهم لسبب أو لآخر . ولم يكتف الخليفة الحاكم بأمر الله بمصادرة أموال رجال دولته فقط ، ولكن مصادراته امتدت أيضا لتشمل الأملاك العقارية لوالدته وأخته وزوجته وعماته وخواصه من

النساء ، وكان متحصل هذا الكثير من الايرادات التى دخلت خزانة الدولة . هـذا وقد تعددت المصادرات طوال عهد الدولة الفاطمية سواء للمسلمين أو المسيحيين ، ويرجـع كثير من مؤرخى مصر الفاطمية كثرة هذه المصادرات الى أسباب اقتصادية بحتة سببها تناقص ايرادات الدولة نتيجة الاضطرابات المـالية والدينية التى مرت بها ، وكذلك كانت كنوع من معاقبة كبار موظفى الدولة على استغلالهم الشعب أو للحد من سيطرتهم واضعاف شـوكة بعض الشخصيات المهمة فى الجهاز الحكومى كنوع من الردع المعلن .

٩ ـ دار الضـرب :

كان من جمـلة موارد بيت المـال الايرادات التى كانت الحكومة تحصلها من دار الضرب على كل ما يسبك فيها وما يحمل اليها من الذهب والفضـة والمعادن النفيسة والمصاغ وغيره .

وكانت دار الضرب بالاسكندرية من أهم دور الضرب فى مصر قبل الفتح العربى وذلك منذ أعـاد الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ضرب نقود مصرية فى عاصمة البلاد المصرية . ويبدو أن هـذه النقود كانت تقتصر فى ضربها على معدن البرونز ، ولم تصـدر عن دار الضرب هذه اى عملة فضية او ذهبية منذ العصر الرومانى (٥) . وقد ظلت دار الضرب بالاسكندرية تسك بها النقود بعد الفتح الاسلامى . وفى عهد معاوية بن ابى سفيان (٤١ ـ ٦٠ هـ/٦٦١ ـ ٦٨٠ م) بدأ الصناع يضربون سكة ذهبية على الطراز البيزنطى فى هـذه الدار كما حدث فى العاصمة الأموية

---

(٥) تشير أوراق البردى الى العمـلات النحاسية والبرونزيـة والى التعامل بالأفلاس ابان الفتح العربى والى انه كانت تسك فئات مختلفة من العملة البرونزية فقط .

دمشق . وهكذا أصبحت دار الضرب بالاسكندرية تسك بهـا النقود على أنواعها المختلفة منذ أوائل العصر الأموى ، واستمر بها الضرابون والنقاشــون وغيرهما من الصناع فى عصر الولاة . ثم أنشئت دار أخرى للضرب فى الفسطاط فى عهد الأمويين ، وكان من أســباب انشــائها رغبــة الخليفـــة عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ) فى ضرب العملة ونقشها بالصيغة الاسلامية ونهيه عن أن يضربها غير المسلمين فى بيزنطــة وغيرها . وقد كان أساس المعاملات المـالية بين الناس الدينار الذهبى والدرهم الفضى ، وكانوا يفضــلون الذهب والفضة فى جميع الأحوال وذلك لسرعة سبكها وطرقها وتشكيلها بأى الأشكال مع حسن الرونق . وكانت الدنانير فى العصر العباسى تحمل اسم الخلفــاء العباسيين على أحد وجهى العملة المضروبة بمصر وغيرها من الأمصار الاسلامية .

وفى عهــد الطولونيين انعكس الرواج الاقتصــادى الذى أصابته مصر على عملتها القوية آنذاك فقد سك أحمد بن طولون دينارا ذهبيا خاصــا به ومستقلا عن الدينــار العبــاسى وذلك سنة ٢٢٦ هـ عرف بالدينار الأحمدى .

كذلك فقد اهتم الاخشــيد بأمر دار الضرب وكان يشرف عليها بنفسه أحيانا وعنى بالنظــام فيها ، وقد حسن حــال مصر على يديه وأمر بضرب الدينار الاخشيدى .

وكان متولى دار الضرب له الاشراف المباشر على العمــال والصناع بها ، ولم يكن هنــاك ثمة تعارض مع اشراف القاضى عليها من الوجهة الادارية . بل كثيرا ما كان القاضى يكتفى باختيار من يريده من نواب الحكم لمباشرة أعمال دار الضرب . ويظهر أن اسناد الاشراف الرسمى على دار الســك أو الضرب الى القاضى

انما كان هدف الحكام والولاة منه هو ضمان شرعية الدنانير والدراهم التى تصدر عن الدار بأسمائهم . ومن الملاحظ أنه لم تضرب الدنانير باسم مؤسس الدولة الاخشيدية وانما باسم الخليفة العباسى ، أما نقش اسمه على الدنانير بمفرده فقد حدث سنة ٣٢٩ هـ حينما فكر الاخشيد فى الاستقلال التام عن الخلافة العباسية واتخاذ نقش السكة كاحدى شارات الملك .

أما فى عهد الدولة الفاطمية فقد بدأ القائد جوهر يضرب الدينار المعزى منذ فتحه للبلاد سنة ٣٥٨ هـ كما يؤكد المقريزى . كما شجع على ذلك ما حمله المعز لدين الله من السبائك الذهبية فى هيئة أحجار الطواحين المستديرة وذلك حين قدومه الى القاهرة عام ٣٦٢ هـ . وقد قدرت هذه السبائك الذهبية بنحو ثلاثة وعشرين مليون دينار اعاد المعز ضربها من جديد فى دار الضرب المصرية بالفسطاط . وهكذا نشطت حركة سك الدنانير والعملات الأخرى بعد أن حملت السياسة الفاطمية الناس على التعامل بالدنانير الفاطمية والعمل على الاكثار من ضربها حتى تغمر الأسواق . كما عمل الفاطميون على ضرب عملات جديدة من الذهب هى ربع الدينار أو « الربع » وأصدروا منها الكميات الضخمة .

وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله تم ضرب دراهم جديدة من الفضة تم تحديد قيمتها بالنسبة للدينار فكانت كل ثمانية عشر درهما بدينار ، وكان الهدف منها تيسير التعامل فى السلع القليلة الثمن . ولا شك ان الحاكم كان يسعى الى الاصلاح بعد أن تزايدت الأسعار واضطربت أمور الناس . وقد أمدنا ابن مماتى بعيار الدراهم التى كانت تضرب بها حيث كان يتم سبك ٣٠٠ درهم من الفضة مع ٧٠٠ درهم من النحاس الأحمر « ويسبك ذلك حتى

يصير ماء واحدا ثم يصب قضبانا ويقطع من اطرافها خمسة عشر درهما ثم تسبك فان خلص منها أربعة دراهم ونصف درهم من كل عشرة دراهم والا أعيدت الى أن يصح العيار تم تختم » . كما أوضح لنا قيمة أجرة الضرابين وغيرهم من الصناع فى دار الضرب ، وقد بلغت نحو أربعة وثلاثين دينارا وربع وذلك حتى عام ٥٨٦ هـ أى الى ما بعد زوال الدولة الفاطمية .

أما دار الضرب فقد كان يتولاها فى العصر الفاطمى قاضى القضاة تعظيما لشأنها ، ويقيم لمباشرة ذلك من يختاره من نواب الحكم ، وبقى الأمر كذلك حتى بعد زوال الدولة الفاطمية . وقد تميزت العملات الصادرة من دور الضرب فى العصر الفاطمى بزيادة النقوش والزخاف اذ عمل الصناع على نقش كل وجه من وجهيها بثلاث دوائر داخل بعضها ، وكانت الكتابة على النقود بالخط الكوفى البارز كما يتضح من الدنانير الفاطمية التى تم سكها فى دار الضرب بالاسكندرية . وقد حافظ الأيوبيون على طراز الكتابة الكوفية الفاطمية فوق سكتهم التى ضربت بالاسكندرية حتى عهد السلطان الكامل حين بدأت تشيع الكتابات النسخية فى دنانير الأيوبيين . ولاشك أن نشاط حركة سك النقود ظل مقرونا بسياسة الخلفاء الفاطميين ونقش أسمائهم وصورهم على الدنانير والنقود الأخرى طوال عهدهم . ففى سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م ضرب الخليفة الآمر بمصر نوعا من المسكوكات الفضية المشهورة بالآمرية ، يتحدث عنها المقريزى فيقول : « ثم اشتهر فى كتب الأخبار أن الفضة صارت تضرب نقودا بمصر وانها سميت بين الدراهم باسم المسودة وبها كانت معاملة أهل مصر والقاهرة والاسكندرية وتعرف بنقد مصر » والواقع أننا نشهد نشاطا ملحوظا فى عهد الخليفة الآمر منذ توليه الخلافة فلم يقتصر اهتمامه على سك النقود التى حملت اسمه بل تم تأسيس دار بن

للضرب فى عهده ، وأظهر مدى حرصه على عيار الذهب بهما وبدور الضرب الأخرى ، فقد ذكر ابن ميسر انه فى شوال سنة ٥١٦ هـ أمر الوزير المأمون بعمل دار ضرب بالقاهرة وان يكون دينارها أعلى عيارا من جميع ما يضرب فى سائر الأمصار ، وقد أطلق عليها الدار الآمرية (٦) . كذلك تشير المصادر الى أن الخليفة الآمر أمر ببناء دار لسك النقود الذهبية بمدينة قوص وذلك فى سنة ٥٢٤ هـ .

وهكذا تعددت دور الضرب فى أواخر أيام الفاطميين فأصبحت فى كل من الاسكندرية والفسطاط والقاهرة وتنيس وقوص من المدن المصرية ، كما كانت فى كل من صور وعسقلان ودمشق من بلاد الشام .

ومن الجدير بالذكر أن دور الضرب فى العصر الفاطمى لم يقتصر دورها على سك النقود للدولة وحدها بل كان مصرحا لسائر الأفراد بالالتجاء الى هذه الدور لضرب ما معهم من سبائك ذهبية حيث تسك لهم نقودا وذلك فى مقابل رسوم مقررة . وقد أمدنا ابن مماتى بما يؤيد هذا الرأى بالنسبة لما كان يتم ضربه من دنانير بدار الضرب بالقاهرة حيث قال : « وأجرة كل ألف دينار تضرب بالقاهرة ثلاثون دينارا يخرج من ذلك أجرة الضرابين ثلاثة دنانير ، ورسم المشارفة ربع وسدس وثمن وحبة وثلثى دينار » . وقد استمر الحال هكذا الى أن بدأت موارد الذهب فى النضوب بمنطقة العلاقى وذلك فى عهد الخليفة الفاطمى

---

(٦) يذكر المقريزى أن هذه الدار كانت بحى القشاشين بالمكان الذى يشمل اليوم مجموعة المبانى التى يحدها من الشمال شارع الصنادقية ومن الغرب شارع الغورية ومن الجنوب شارع الأزهر ، وكانت هذه أول دار للضرب بالقاهرة المعزية .

العاضد ، كما حرمت خزائن الدولة من حوالى عشرين الف دينار كانت تحصــل من مدينة تنيس سنويا لمــا كانت تصــدره من الثياب والأقمشة وذلك نتيجة لنهب الصليبيين لهذه المدينة فى اواخر أيام الفاطميين . وهــكذا يصف المقريزى اختفــاء النقد الذهبى فى نهاية العصر الفاطمى فيقول : « وعمت بلوى المصارف بأهل مصر لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا وعدما فلم يوجدا ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك وصاروا اذا قيل دينــار أحمر فكأنما جاءت بشــارة الجنة له » . ولا شــك أن انعدام الذهب والفضـــة كان السبب الرئيسى فى تعطــل دور الضرب المصرية ، ولم تجد من المعادن النفيسة أو من المقادير ما يسمح لها باستمرار نشاطها وضربها للدنانير الذهبية والدراهم الفضية . ولم تجــد تلك الدور من مناص فى ضرب تلك الدراهم الســود وهى تختلف عن الدراهم الفضــية التى ضربت فى عهــد الحــاكم بأمر الله حيث كان الصناع يسبكونهــا من النحــاس مع اليسير من الفضـــة . ولم تزل دور الضرب تصــدرها حتى اســتولى الأيوبيون على البــلاد وتقــدم الســلطان محمــد الكامــل فى ذى القعدة من ســـنة ٦٦٢ هـ وأمر بضرب دراهم مســتديرة غير التى كان يطلق عليها المصريون (الورق) (٧) .

١٠ ـ دار العيــار :

أما دار العيــار فقد كانت تمد خزانــة الدولة بمبالغ طائلة لأنها المكان الوحيد الذى يشرف على مراقبــة المكاييل والموازين . وقد اعتنت الدولة الفاطمية عناية خاصـــة بالاشراف على دار

---

(٧) الورق مثلثة (اى الورق ، الورق ، الورق) الدراهم المضروبة ، والجمع أوراق ، وراق ، والوراق : الكثير الدراهم والورق محركة : المــال من ابل ودراهم وغيرها .

العيار حتى تحمى الشعب من الاستغلال ، ولذا كانت الدار تقوم باصلاح الموازين والمكاييل ، وبيع السنج (الصنج) والموازين والمكاييل الجديدة وختمها بختم الدولة بحيث لا يستخدم غيرها فى الأسواق . وكان الديوان يمدها بأثمان المواد الخام اللازمة للتصنيع مثل النحاس والحديد والخشب ، ويشرف المحتسب على اعداد تلك المواد وعدم تغييرها وبيعها للتجار واعدام صنجهم غير المطابقة للمواصفات ، وكانت الحكومة تحصل على مبالغ طائلة مقابل ذلك . ويقول المقريزى : ثم سومح الناس وصار يلزم من يظهر فى ميزانه أو صنجه خلل باصلاح ما فيها من فساد فقط والقيام بأجرته فقط ، وما زالت هذه الدار باقية جميع الدولة الفاطمية فلما استولى صلاح الدين على السلطنة اقر هذه الدار » .

١١ ـ الأحكار :

أما الأحكار فهى الأجور المقررة على الساحات الكثيرة التى كانت منتشرة بمدينة مصر والقاهرة . وهذه الأراضى الفضاء اقيم عليها بمرور الوقت بعض المنشآت التجارية أو المساكن او الحدائق والبساتين ، فتركتها الحكومة فى أيدى مستغليها مقابل دفع أجرة مقررة الى بيت المال فى مقابل استغلالها . وكانت هذه الأحكار تمثل احد الموارد التى تمد خزانة الدولة بدخل لا بأس به . ويقول المقريزى : « وأما الأحكار فانها أجر مقررة على ساحات بمصر والقاهرة فمنها ما صار دورا للسكنى ومنها ما أنشىء بساتين، وكانت تلك الأجر من جملة الأموال السلطانية » .

١٢ ـ الفروس :

أما الفروس فهى الأراضى التى لا تصل اليها المياه بسهولة فيصعب زراعتها الا بقدر ، وقد اقتصر وجودها على منطقة الغربية

دون سواها من الأعمـال . وكانت الحكومة تعاملهـا معاملة الأراضي الخاضعة للتقبيل ، فهى تعرضها للتقبيل مقـابل مبلغ محدد من المـال عن كل فدان ويشترط تحديد المساحة فان زادت عن الحد المقرر للتقبيل يؤخذ عنها بنسبة معينة ، وكانت تعامل معاملة الأحكار فى بعض الأحيان .

١٣ ـ مقرر الجسـور :

أما مقرر الجسور فكانت ضريبة مقررة على عدة نواح تحددها الحكومة من أجل المنفعة العامة والاهتمام بما فى هـذه النواحى من الجسور واصلاحها وصيانتها . ولذا كانت تقرر قطيعة معينة. تشتمل على العلف والمؤن والحبوب والحشائش والأتبان . ثم فرض على كل قطعـة عشرة دنانير . وكانت تلك المقـررات يلتزم الفـلاحون بتسـديدها الى بيت المـال وكأنهـا جزء من الخراج المقرر على الأرض وكان يتم جبايتها بنسبة ما يزرع فيها ، وبنـاء على هـذا تقوم الحكومة بالانفاق على تلك الجسـور وعمارتها . ويذكر ناصر خسرو « أن خزانة السلطان كانت تصرف فى كل سنة للعامل المعتمد عشرة آلاف دينار مغربى لتجديد عمارة الجسور » وكانت تلك المبالغ تحددها الدولة للانفاق على جسور معينة فى مناطق محددة وهى الغربية وجزيرة قويسنا والشرقية ، وما عدا ذلك من جسور كان يتولاه المقطعون والمزارعون كل فى ناحيته .

١٤ ـ ضريبة الحراج : (٨)

عنى الفاطميون بزراعـة الأشجار عناية كبيرة حتى يتسنى

---

(٨) الحرج بالضم ثم السكون جمع (حرجه) وهى كل شجر ملتف ، وأكثرهم يجمعونه على (حراج) ، حرج : مكان حرج بكسر الراء وفتحها ، اى ضيق كثير الشجر . والقصود هنا الاحراج أو الأحراش وهى الغابات .

لهم الحصول على حاجة الأسطول والسفن التجارية من الأخشاب وكذلك ما يلزم لبناء القصور ، واشتهرت زراعة الأشجار فى « منطقة البهنسا حيث كان يزرع بها وحدها ما مساحته ثلاثة عشر الف فدان » . كما كانت لهم البساتين الواسعة التى بها الأشجار التى يتخذون منها الأخشاب الثمينة . « فى ضواحى الجيزة والفسطاط وقليوب وكان لها حراس وادارة خاصة للاشراف عليها » .

كما كان لأصحاب الضياع الواسعة البساتين التى كانوا يستخدمون أشجارها فى عمل السواقى والمعاصر وعينوا للمزرعة نجارا خاصا دائما يدفع حسابه وكيل الضيعة . ومن الأشجار التى كثرت زراعتها بمصر أشجار السنط ، وقد عد السنط « من فضائل مصر ، وبنيت كثيرا على هيئة أحراج » (٩) ويكثر بالوجه القبلى بالبهنسا والأشمونين وأسيوط واخميم وقوص لأنه يحتاج للجو الحار . وكانوا يحتاجون اليه لبناء القناطر على النيل والترع ، وعمل المعديات والقوارب . وورد فى أوراق البردى العربية ، ما يفيد أن أشجاره كانت منتشرة فى بلاد الصعيد خاصة وذات اهمية كبيرة حتى ان التجار كانوا يشترونه من هناك ويحملونه فى المراكب الى الفسطاط والقاهرة ، وكانت الدولة تهتم به وتحتكره وتمنع الاتجار فيه . ولأهمية ذلك فرضت الحكومة حراسة مشددة على الغابات والأحراج حتى تضمن حمايتها من العبث ، وكانت تفرض ضريبة تسمى « رسم الحراج »

---

(٩) السنط : شجر تستخدم أخشابه فى عمل السفن ، وأطرافه لاستخراج الفحم ، وهو لا رماد له وفحمه جاف وثمرته تسمى « القراظ » ويكثر فى مصر وتكبر شجرته حتى تفوق شجر الجميز المشتهربضخامته ، وكانت ثمرته غالية الثمن لانها تستخدم فى الدباغ .

نظير ما يقطعه أهل تلك النواحى من الأشجار وما يأخذونه من أطراف عيدان الخشب لاستخداماتهم الخاصة ، « مقابل أجرة من يباشر قطعها على سبيل النيابة عنهم » ، وكان كل مائة حمل (أى حمل جمل) يباع لهم بأربعة دنانير .

وكان الديوان لا يبيع المحصول الا بعد الحصول على احتياجاته من هذه الأخشاب أولا ، ولا يتصرف فى الفائض الا عن طريق مستخدمى الديوان . وكان العقاب شديدا على من يعثر معه على شيء منه اشتراه عن غير طريق الديوان .

وكانت أسعار « القرظ » غير مستقرة وخصوصا المطحون منه الذى كان يبلغ سعر المائة اردب منه سبعين دينارا ، وأحيانا ثلاثمائة دينار . ويرجع السبب فى تغير سعره الى تقدير مستخدمى الديوان من ناحية ، ونوعية المحصول من ناحية أخرى.

١٥ ـ ضرائب الانتاج الحيوانى :

كانت الحكومة الفاطمية تحصل مبالغ طائلة على الانتاج الحيوانى بأنواعه المختلفة فقد كانت تأخذ ضريبة على الماشية التى ترعى فى ارض المراعى فتحصل على الجاموس عن كل رأس فى السنة من ثلاثة الى خمسة دنانير . أما أبقار الخيس وهى الأبقار التى تربى للحصول منها على اللبن ، فيحصل على كل راس ديناران . وأما الأغنام فيؤخذ عنها من دينار الى نصف دينار فى السنة وكذلك كانت هناك ضريبة على التبن وهو علف الماشية وغذاؤها الرئيسى .

أما النحل فضريبته عن كل مائة خلية عشرة أرطال بالمصرى. ومقدار ما يتحصل منه فى السنة من خمسة قناطير عسل الى ستة قناطير ، وعشرون رطلا من الشمع .

وقد حصلت الحكومة الفاطمية ايضا على الضرائب من مصايد الأسماك ، وهى ضريبة كانت معروفة فى مصر منذ عصر الولاة وقد ابتدعها احمد بن المدبر وسماها المصائد ثم الغاها احمد بن طولون بعد استقراره بمصر ومن الواضح أن الدولة الفاطمية أعادتها وحصلت من ورائها على أموال طائلة .

١٦ ـ الايرادات العقارية :

ومن الموارد المهمة ايضا تلك الأموال التى كانت تدخل خزانة الدولة من ريع الحوانيت والخانات والرباع والقياسر ، والأفران والحمامات سواء بمصر أو بالقاهرة حيث امتلكت الحكومة عددا كبيرا منها ، فيذكر ناصر خسرو « أن فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين الف دكان كلها ملك للسلطان ، وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية فى الشهر ، وليس بينها ما تقل اجرته عن دينارين والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها ملك للسلطان » .

ويذكر ايضا أن للسلطان ثمانية آلاف بيت فى القاهرة ومصر وانه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر « ويؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتقاضون الأجر فلا يجبر شخص على شىء » .

ومن كلام ناصر خسرو هذا يتضح لنا حقيقة مهمة ، وهى أنه على الرغم من أن ناصر خسرو عاش بمصر لمدة اربع سنوات تقريبا . ويعد شاهد عيان لكثير من الأحداث التى مرت بها البلاد الى جانب أنه تطرق فى كتاباته للكثير من الأمور المتعلقة بالأحوال الاجتماعية ، والاقتصادية ، الا أن المعلومات التى أوردها والخاصة بالنواحى المالية يشوبها عدم الدقة ، فالأرقام التى ذكرها مبالغ فيها ولاشك خاصة ما يتصل منها بعدد الدور

التى يمتلكها السلطان بمصر والقاهرة وكذا ريع تلك الدور كما أنه ذكر القيمة الايجارية بالدينار فى الوقت الذى ذكرت فيه فى أوراق البردى العربية بالدراهم فقد ذكر فى احدى البرديات أن القيمة الايجارية كانت بالدراهم وأن ايجار الواحد من الحوانيت كان ثلاثة دراهم . وأعتقد أن هذا هو الأقرب الى الصواب اذا قيس بمستوى ما كان من الأجور والأسعار السائدة آنذاك . ولعل الرحالة الفارسى قصد التقدير بالدراهم فدفعه حماسه الى جعله بالدنانير .

وعلى كل حال فيجب التحفظ الشديد فى هذه الأرقام التى أوردها عن الحوانيت والايجار فهو لم يتحر على ما يبدو الدقة فى التقدير ولم يعتمد على سجلات رسمية وانما هى أخبار تسقطها من هنا وهناك وقيدها فى كتابه .

ولم تقتصر الضرائب العقارية على الحوانيت والمنازل بل ان بعض الوزراء أقام دورا على شاطىء الخليج ليتم تأجيرها الشعب مقابل أجر للتفرج منها على احتفالات كسر الخليج « ففى سنة ثمان عشرة وخمسمائة أمر الوزير المأمون البطائحى ببناء دار واسعة ليتفرج فيها الناس عند كسر الخليج بالقاهرة بكراء وذلك لأن الناس عند كسر الخليج كانوا يعملون أخشابا يركبون بعضها على بعض ليتفرجوا على الاحتفالات » . وغالبا ما كانت تقع كوارث بسبب هذه الطريقة ، ولذا فقد كان بناء دار تؤجر للناس لمشاهدة فتح الخليج أمرا ضروريا حتى تتفادى الدولة تلك الحوادث . وهكذا ، فان الفاطميين لم يدعوا فرصة لزيادة مواردهم المالية الا انتهزوها .

١٧ ـ غلات المراكب :

لم يقتصر امتلاك الخليفة للعقارات فى مصر والقاهرة والحصول من وراء تأجيرها على مبالغ طائلة ، بل امتلك ايضا أعدادا وفيرة من المراكب التجارية التى كانت تجوب بحار العالم المعروفة فى ذلك الوقت حيث لعبت مصر دور الوسيط التجارى بين العديد من الدول .

ويذكر ناصر خسرو أنه شاهد فى مدينة تنيس وحدها الف مركب بعضها ملك للتجار والغالبية العظمى ملك للسلطان . وكانت هذه المراكب تدفع ولا شك رسوما على حسب نوع التجارة التى تحملها . ولنا أن نتخيل حجم العائد المادى من وراء هذا العدد الضخم من السفن التجارية التى تجوب بحار المشرق والمغرب .

١٨ ـ خراج الحبس الجيوشى :

الحبس او الوقف مبدأ من المبادىء المعروفة منذ فجر الاسلام حيث كانت هناك أراض زراعية فى مصر الاسلامية تحبس او توقف على مشروعات خيرية أو على أشخاص حسب رغبة صاحب الوقف . وقد انشىء لهذه الأوقاف ديوان خاص منذ سنة ١١٨ هـ عرف بديوان الأحباس وكان لا يتولاه الا القضاة . ثم تولاه قاضى القضاة أيام الفاطميين .

يقول المقريزى : « واما الحبس الجيوشى فكان فى البر بين الشرقى والغربى ، وهذه النواحى حبسها أمير الجيوش بدر الجمالى على عقبه هى والبساتين ظاهر باب الفتوح ، فلما مات

وطال العهد استأجرها الوزراء بأجرة يسيرة طلبا للفائدة ، ثم أدخلت فى الديوان .

وكان هذا الحبس يشتمل على أراض زراعية كثاة ، فكانت تؤجر للمزارعين الذين يدفعون ايجارها عينا من غلات الأرض ، ويتم مسحها فى كل سنة ليتحدد الجزء المنزرع ويحصل الخراج من هذا الجزء بعد بيع المحصول . وكانت أهم الحاصلات التى تزرع الكتان ، وتبلغ قطيعة الفدان ثلاثة دنانير ونصفا وربعا (أى ٣ ¾ دينار) وكان دخل الدولة كبيرا من هذه الأراضى ومن البساتين التابعة لهذا الحبس وخاصة فى البر الغربى .

١٩ ـ رسوم التنقيب عن الآثار :

ومن الموارد المهمة أيضا الأموال التى كانت تحصل عليها الدولة من التنقيب عن الآثار حيث نظمت الحكومة الفاطمية عملية التنقيب ووضعت لها شروطا وقوانين . ويذكر ناصر خسرو أن من كان يقوم بمهمة البحث فى تلال مصر عن الكنوز والدفائن يسمى مطالبا .

وقد تدفق المال على خلفاء مصر الفاطميين من كنوز مصر الدفائن ، اذ كان أغلب حكام مصر الاسلامية يسعون الى التنقيب عنها . ومنذ عهد الفاطميين نظمت عملية التنقيب عن الآثار المصرية القديمة .

ولعل هذا التنظيم تقرر بعد أن تم العثور صدفة فى أيام أحمد بن‌طولون على كنز قدر بمليون دينار (قدر وزنه بأربعة آلاف كيلو من الذهب) .

وكان البحث يتم تحت اشراف الحكومة حيث يحصل الخليفة على الخمس من شيخ المطالبين مقابل السماح له بالتنقيب. وكان هذا الشيخ يعمل تحت يده مجموعة من الحفارين . وعلى سبيل المثال كان الخليفة يأتى برجال من المغاربة والمصريين واهل الشام ينفقون المال الكثير ويتحملون المشاق فى تلال مصر ومحاجرها فأحيانا يجدون الدفائن والكنوز واحيانا لا يهتدون . ويعد عصر الخليفة المستنصر لله من أزهى العصور فى البحث والتنقيب عن الآثار ، فقد دخلت خزانة الدولة فى عهده أموال كثيرة بحيث استغرق نقلها من خزائنه الى خزائن السلطان شهرين، وكان من جملتها ثلاثمائة جارية اكثرهن كالبدور .

٢٠ ــ ضريبة البراطيل :

وهناك نوع آخر من أنواع المال كان يؤدى على هيئة ضريبة تغذى بيت المال وتسمى ضريبة البراطيل . وقد ذكر المقريزى بأنها عبارة عن ضريبة تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها (اى موظفى الدولة) وقد عرفتها مصر قبل دخول الفاطميين اليها ، والدليل على ذلك أن جوهرا عندما استقر بمصر فى ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ « أمر برفع البراطيل » . اى انه ألغى هذه الضريبة . هذا ويذكر المقريزى أيضا أن اول من فرض هذه الضريبة أيام الفاطميين هو الوزير الصالح طلائع بن رزيك (تولى الوزارة فى عهد الخليفة الفائز ٥٤٩ ــ ٥٥٥هـ ١١٥٤ ــ ١١٦٠ م) فى ولاية النواحى فقط . بمعنى انه أعاد هذه الضريبة فى ولاية النواحى فقط . حيث « فرض الأموال على المستخدمين بالدولة والأمراء ، وباع ولايات الأعمال بأسعار محددة وجعل مدة كل متول ستة أشهر » . وهذا يعنى أن هذه الضريبة تؤدى مرتين فى السنة . وقد استمر الحال على ذلك الى أن بطل العمل بها فى أيام العزيز بن صلاح الدين .

الفصل الثالث

وجوه الانفاق

بعد أن تكلمنا عن مصادر الدخل فى العصر الفاطمى وتعددها نتتبع الآن أهم وجوه الانفاق فى ذلك العصر . ورغم أن المعلومات التى حصلنا عليها ينقصها الدقة فى بعض الأحيان نتيجة لعدم ورودها فى سجلات مفصلة تعبر عن ميزانية الدولة ، الا أننا من تتبعنا لكتابات مؤرخى تلك الفترة استطعنا أن نحصل على كثير من المعلومات الخاصة بوجوه الانفاق من خلال استعراض هؤلاء لأبواب الانفاق فى المناسبات المختلفة أو تحديد رواتب العاملين فى الدولة أو عند الكلام عن مصروفات القصور الفاطمية وما تحتويه من خزائن الا أن السجلات الرسمية الخاصة بهذه المصروفات لم تصل الينا بطريقة منظمة وأعتقد أن هذا يعود الى اعدام كثير من هذه السجلات بعد القضاء على الدولة الفاطمية واحلال المذهب السنى محل المذهب الشيعى فى البلاد ، وقيام الدولة الأيوبية بعد اسقاط الدولة الفاطمية .

وقد اتبع فى الدولة الفاطمية تخصيص كل ايراد معين لنفقة بعينها ، ولا يحتفظ فى بيت المـال (١) الا باحتيـاطى الميزانيـة . وكان ديوان الرواتب ينظم هذه العملية .

ومن وجوه الانفاق الرئيسية أيضـا نفقات الخزائن والدور ، ونفقات قافلة الحجاج والجيش والأسطول ونفقات المواسم والأعياد، وما ينفق على المواكب الخليفيـة ، وكذا الصرف على المنشـآت والقصور والمساجد وعطايا الأدباء والشعراء وغيرهم مما سنتناوله بالتفصيل فى الباب الثالث من هذه الرسالة ، وذلك فى حديثنـا عن مراحل ازدهار الاقتصاد المصرى ومراحل انهياره .

ومن وجوه الانفاق البارزة تلك النفقات الضخمة التى كانت تنفق على الجيش ، فقد كان الجيش فى العصر الفـاطمى يتألف من طوائف وفرق مختلفة .

فهناك « الكتاميون » وهم من القيروان أتوا فى خدمة الخليفة المعز لدين الله وقيل ان عددهم عشرون الف فارس ، « الباتليون » وهم رجال من المغرب دخلوا مصر قبل مجىء الفاطميين اليها وقيل ان عددهم خمسة عشر الف فارس ، وفرقة تسمى « المصامدة » وهم سـود من بلاد المصامدة بالمغرب قيل ان عددهم عشرون الف رجل ، وفرقة تسمى « المشـارفة » وهم ترك وعجم وقـد ولد اكثرهم فى مصر وكانوا ضخام الجثة وقيل ان عددهم عشرة آلاف

---

(١) يصف لنا النويرى بيت المـال بأنه مكان مميز داخل المسجد له قبة محمولة على أعمدة من الرخـام له باب مصنوع من الحديد الصـلد يغلق بأقفال محكمة ، يتم الصعود اليه بواسطة قنطرة مصنوعة من الخشب ويشرف عليه موظف كبير يسمى « مباشر بيت المـال » يتم بواسطتـه تدوين الوارد والمنصرف بكل دقة .

رجل . أما « عبيد الشراء » فكانوا ثلاثين الف رجل ، وفرقة « البدو » وهم من أهل الحجاز ويقال لهم « الرماة » وهم خمسون ألف فارس . هذا عدا فرقة تسمى « الأستاذون » وكلهم خدم بيض وسود اشتروا للخدمة وهم ثلاثون ألف فارس ، وكذا فرقة « السرائيين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ولهم قائد خاص يتولى رعايتهم كل منهم يستعمل سلاح ولايته ، وعددهم عشرة آلاف رجل ، وفرقة « الزنوج » الذين يحاربون بالسيف وحده ، وكان عددهم ثلاثين ألف رجل . وكانت نفقة هذا الجيش الضخم من أموال الخليفة فلكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال الذين كانوا يسلمون للخزائن أموال ولايتهم سنة بسنة ومنها تصرف أرزاق الجند فى وقت معين بحيث لا يرهق وال او احد من الرعية بمطالبة الجند . هذا وقد جرت العادة فى العصر الفاطمى أن يخصص جزء من خراج البلاد للانفاق على الجيش حدده البعض بثلث الخراج فيذكر ابن الأثير أن رواتب الأتراك كانت عشرين الف دينار فى الشهر . أما المقريزى فيحدد تلك الرواتب أيام الخليفة المستنصر (سنة ٤٢٧ ــ ٤٨٧هـ) بثمانية وعشرين الف دينار فى الشهر ، ويضيف قوله « ان رواتب الجيش بلغت فى أواخر عهد هذا الخليفة أربعمائة الف دينار فى السنة » وعلى وجه العموم فلو قدرنا ان رواتب الجند قد بلغت ثلث ميزانية الجيش ، كما سبق أن ذكرنا ، فاننا نستنتج أن ميزانية الجيش بلغت أكثر من مليون دينار سنويا ، وذلك عدا ما كانت تنفق الدولة على هؤلاء من الطعام والملبس والسلاح وغيره .

وقد ذكرت لنا بعض المصادر أن مرتب صاحب ديوان الجيش كان أربعين دينارا فى كل شهر ، وان ازمة العساكر كانوا يتقاضون

مبلغا يتراوح بين خمسين وثلاثين دينارا ، كما أن حملة الركاب كان يتراوح مرتبهم ما بين خمسة الى خمسة عشر دينارا . وأنا لا أعتقد أن يكون مرتب الجندى خمسة دنانير فى الشهر فهذا المبلغ ضئيل جدا اذا ما قورن برواتب بقية فئات موظفى الدولة ، فالخمسة دينارات ما هى الا الحد الأدنى لمرتب أقل مستخدمى الدولة كما سبق أن ذكرت عند الحديث عن رواتب موظفى الدولة عند ذكر ديوان الرواتب . وقد ذكر ابن ميسر حادثة وقعت زمن الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ) ـ (٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م) نستطيع من خلالها استنتاج رواتب فئة من فئات الجيش وهى فئة الكتاميين . فيذكر ان طائفة من الكتاميين تخلفت عن الحضور لبيعة الخليفة الحاكم بأمر الله وخرجوا نحو المصلى . فجاءهم ابن عمار وجماعة من رؤوسهم فشكا الكتاميون اليهم سوء معاملة الوزير عيسى بن نسطورس الوزير النصرانى ، وطالبوا بصرفه على أن يتولى الوساطة للخليفة رجل من المغاربة ، وخصوصا أن هذا الوزير كان يحاربهم فى ارزاقهم .

وبعد مشاورات مع الخليفة الحاكم بأمر الله استقر الراى على أن تنظم الطريقة التى يتم بها صرف رواتب هؤلاء الجند فأمر الخليفة الحاكم ان تصرف ارزاقهم على ثمانى دفعات فى السنة لكل دفعة ثمانية دنانير ، وأن يتم هذا فى حضرة الخليفة وتم احضار المال وصرف لكل منهم عشرون دينارا حتى يضمن الخليفة ولاءهم . ولكن أعاد الخليفة النظر فى هذا الأمر وأمر أن يصرف لهم سبع أعطيات فى السنة بدلا من ثمان وقد استفاد من هذا نحو ألف فارس .

ونستنتج مما أورده ابن ميسر أن الكتاميين حصلوا على أعطياتهم زمن الخليفة الحاكم بأمر الله على مرحلتين الأولى فى أول

عهد هذا الخليفة وكانت ثمانية دنانير تدفع على ثماني مرات في السنة فيصبح مرتب الواحد منهم أربعة وستين دينارا فقط . ثم خفضت تلك الأعطيات بعد ذلك فأصبحت سبع مرات فقط يحصل فيها الجندي على ستة وخمسين دينارا سنويا . طبعا هذا عدا ما كان يصرف لهم من مكافآت وما يمنحه الخليفة من هبات لا تحسب ضمن الراتب .

وقد حرص كثير من خلفاء الدولة الفاطمية على توصيل مرتبات الجند في مواعيدها المحددة خوفا من استفحال ثوراتهم ، واحداث اضطرابات داخل البلاد ، ويتضح هذا من خلال احداث الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر بالله حيث أحدث الأتراك كثيرا من الفوضى السياسية .

اما نفقات الأسطول :

فقد كان عدد سفنه في أواخر عهد الدولة الفاطمية عشر شوان بحرية عليها عشرة آلاف مقاتل ، هذا عدا الأسطول النهري الذي كان يحمل الغلات السلطانية والأحطاب وغيرها من المواد المختلفة كما كان يتألف من خمسين عشاريا ، وعشرين ديماسا ، لكل منهم رئيس ونواتي لا يبرحونها وقد امتدت سيطرة أسطولهم على مدينة صور وعكا وعسقلان ، وقد عسكر هناك عدد من الشواني والشلنديات والمسطحات جريدتها ١٠ قواد و ٥٠٠ بحار.

وكان راتب الجندي فيها يتراوح بين دينارين وعشرين دينارا شهريا . ويذكر البعض أنها بلغت في المتوسط ١١ دينارا شهريا فان مجموع رواتبهم ٥٠٠٠ × ١١ = ٥٥٠٠٠ دينارا شهريا عدا النفقات الأخرى .

وكان يتم دفع رواتب الأسطول طبقا لرسوم معينة حيث يجلس الخليفة ومعه الوزير ويحضر ديوان الجيش ويجلس عند عتبة المجلس والى جانبه كاتب الجيش ويفرش الحصر وتوضع الدراهم أمامهم ويتم وزنها بواسطة وزانين من بيت المال ويتم ادخال البحارة مائة مائة حسب نوعياتهم ويقفون بين يدى الخليفة ويقرأ كاتب الجيش الأسماء المدونة فى الكشوف السابق اعدادها فى ديوان الجند ، ويتم وزن الرواتب لكل عشرة بحارة على حدة ويعطى كل منهم خمسة دنانير وكل دينار يساوى ستة وثلاثين درهما . وبعد اتمام التوزيع يتم اعطاء الأوامر الخليفية باعداد السفن وتجهيزها للسفر . واذا تتبعنا ظروف البلاد الخارجية زمن الفاطميين وخصوصا فى العصر الفاطمى الثانى يتبين لنا مقدار ما كان ينفق على الأسطول الفاطمى حيث تعددت الاضطرابات فى ممتلكات الدولة وخصوصا فى فترات ضعف الخلفاء وصراع الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى وانسلاخ جزء كبير من جسم الامبراطورية عنها الى جانب الحروب الصليبية وما كان ينفق على الأسطول من اموال ونفقات طائلة لمواجهة هذا البلاء .

نفقات المواسم والمواكب والأعياد :

امتازت الدولة الفاطمية بكثرة ما كانت تنفقه من اموال طائلة فى المواسم والأعياد على المواكب والهبات التى كانت تمنح لطبقات مختلفة من الشعب . فقد كانت النفقات التى تنفق على المواكب فى موسم فتح الخليج عظيمة الشأن ويتضح هذا من وصف مؤرخى ورحالة العصر لمراسم الاحتفال بهذا اليوم فقد اورد لنا ناصر خسرو وصفا للسرادق الذى يقام من أجل الاحتفال بيوم فتح الخليج ووصفه بأنه من الديباج موشى كله بالذهب ، ومكلل بالجواهر كما أحسن اعداده لاستقبال الخليفة وحاشيته

ويتسع ظله لمائة فارس ، كما يصف الخيمة المصنوعة من البوقلمون والتى أقيمت امام هذا السرادق الضخم ، كما يصف الفرسان وملابسهم المذهبة وأطواقهم المرصعة وخيولهم المعدة أحسن اعداد فعلى كل حصان درع أو جوشن ، وعلى قمة السرج خوذة وجميع الأسلحة مرصعة بالمعادن النفيسة أو شبه النفيسة . . الى آخر هذا الوصف الذى اذا دل على شيء فانما يدل على الترف ومقدار البذخ الذى كانت تحيا فيه البلاد ومدى الانفاق على تلك المناسبات المختلفة .

ويعد وصف ناصر خسرو لعظمة الاحتفالات من ادق واصدق ما ذكر فى هذا المجال باعتباره شاهد عيان حضر تلك الاحتفالات وشارك فيها . ولم يكتف بوصفه لعظمة المكان المعد لاستقبال الخليفة بل وصف وحدات الجيش والأسطول وعدتها ويقرر أن تلك النفقة العظيمة كانت من خزانة السلطان .

كما يذكر المؤرخ المعروف استانلى لينبول ان نفقة بعض الرجال المشاركين فى المواكب كانت تبلغ نحو ٣٠٫٠٠٠ درهم هذا عدا نفقات الجيش والخيول والجمال والأطعمة وغيرها . ولم يقتصر الأمر على تلك النفقات فقط بل ان هناك بعض النفقات التى كانت تنفقها الدولة على فئات معينة فى يوم فتح الخليج مثل الهبات التى تعطى للأدباء والشعراء والفقهاء وقراء القرآن الكريم ولكل فئة منهم ارزاق معينة لا يقل رزق الواحد من ابناء الأمراء عن خمسمائة دينار وقد يبلغ الألفين وليس لهم عمل الا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حيث يركب ثم يعودون . ويقال ان نفقات يوم فتح الخليج بلغت ٢٠٠٠ دينار (غير الطعام) .

موسم شهر رمضان وسماط عيد الفطر والنحر :

كان مبلغ ما ينفق على اعداد سماط شهر رمضان لمدة سبعة وعشرين يوما ثلاثة آلاف دينار فضلا عن تكاليف الأطعمة الممدودة على سماط عيد الفطر ، هذا بالاضافة الى الكسوة الموزعة على رجال الدولة والأقارب والجهات . فيذكر المقريزى انه فى سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) أى زمن الوزير المأمون البطائحى وخلافة الخليفة الآمر بأحكام الله ، بلغ ما يعطى ويوزع (التفرقة) مبلغ ٣٧٠ر٣ دينارا والأسمطة ٣٣٣ر١ . أما ما أنفق فى عيد النحر فقد بلغ فى سنة ٥٤٥ هـ ٣٧٠ر٣ دينارا خلاف ما تم منحه فى أيام العيد الثلاثة .

واعتقد ان هذه التقاليد كانت تتم بنفس المستوى طوال العصر الفاطمى فيتم الانفاق على نفس النمط فى جميع الفترات باستثناء فترات القحط والمجاعة واضطراب أحوال البلاد الاقتصادية اذ كانت مظاهر الترف تتراجع قليلا أمام انهيار الميزانيــة .

أما خميس العهد :

فقد جرت عادة الخلفاء الفاطميين على ضرب خمسمائة دينار من الذهب وتحويلها الى عشرة آلاف (خروبة) وهى عملة تذكارية صغيرة الحجم خفيفة الوزن حيث يبلغ وزنها ١٩٤ر٪ جرام لتفريقها على جميع رجال الدولة فى هذا اليوم .

أما الانفاق على الاحتفال بيوم غدير خم (٢) :

فقد بلغ أموالا طائلة سواء ما كان ينفق لاعداد الكسوة التى تعد من أجل توزيعها على رجال الدولة أو المبالغ المالية التى تقدم كهبات وهدايا وعطايا . فكان القاضي يحصل قبل القاء خطبة العيد على بذلة مميزة يلبسها للخطبة وخمسين دينارا . الى جانب انفاق الخلفاء مبالغ طائلة من أجل توزيعها على الفقراء فى ذلك اليوم .

وقد أورد لنا المقريزى احتفال الخليفة الآمر بأحكام الله ووزيره المأمون البطائحى لذكرى يوم عيد غدير خم سنة ٥٢٦ هـ حيث يذكر أنه بلغ الانفاق على ما يختص بأزمة العساكر سبعمائة وتسعين دينارا (٧٩٠) ومن الكسوات مائة وأربع وأربعون (١٤٤) قطعة .

أما ما يوزع على الوزير ورجال الدولة فيصل الى مبالغ كبيرة . ونبلغ الأسمطة فى هذا اليوم مبلغ الأسمطة فى عيد الأضحى من حيث النفقة ، بل ان الذبائح التى تنحر فى هذا اليوم تفوق

---

(١) من الأعياد الخاصه التى يحتفل بها الشيعة الفاطميون حيث يعد ذكرى دعامة مهمة من دعائم دعوتهم التى تؤيد أحقية على بن أبى طالب فى الخلافة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأحقية الخلفاء الفاطميين بالتالى بهذه الخلافه بسبب انتسابهم الى على وزوجته فاطمة ويجرى الاحتفال بهذا العيد فى يوم ١٨ من ذى الحجة ففى هذا اليوم أوصي النبى صلى الله عليه وسلم لابن عمه على بالامارة على المسلمين من بعده فيرى المؤرخون أن الرسول عند عودته من حجة الوداع سنة ١٠ هـ — ٦٣٢ م نزل بمكان بين مكة والمدينة عرف بغدير خم وبعد الصلاة اخذ بيد على بن أبى طالب وقال « من كنت مولاه فعلى مولاه » ... الى آخر العبارة المعروفة .

مثيلاتها فى عيد النحر هذا الى جانب المبالغ التى تنفق على الفقراء والمساكين من أهل البلاد . والأموال التى تنفق فى طلب الحلال وتزويج الأيامى ، الى جانب العطايا والهبات التى يحصل عليها الشعراء وقراء القرآن الكريم .

اما نفقات عيد النيروز :

فيذكر المقريزى أنها بلغت فى سنة ٥١٧ هـ ٤٠٠٠ دينار ؛ ١٥٠٠٠ درهم ومن أوجه المصروفات أيضا الانفاق على المنشآت وهو من البنود المهمة فى الميزانية الفاطمية فقد خصصت للعمائر فى هذه الميزانية ١٠٠٫٠٠٠ دينار سنويا ويشتمل هذا البند على صيانة الجسور الممتدة بحذاء النيل والتى كان ينفق عليها ١٠٫٠٠٠ دينار سنويا .

كما خصص جزء كبير من الانفاق للصرف على تطهير الترع واعمال الرى ويتضح هذا من كثرة حفر الترع واقامة بعض المشروعات المهمة مثل اعادة حفر خليج الاسكندرية زمن الخليفة الحاكم بأمر الله وقد أنفق على هذا المشروع الضخم ١٥٫٠٠٠ دينار . وكذلك أنفق على اتمام حفر خليج أبى النجا زمن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى اموال طائلة . فيذكر القلقشندى أن هذا الخليج كان ينتسب الى أبى النجا بن شعيا اليهودى الذى كان مشرفا للأعمال بالشرقية وقد عهد اليه الأفضل بن بدر الجمالى بحفر هذا الخليج الذى عرف فيما بعد باسمه الا أن الأفضل غضب عليه واعتقله بسبب التجاوزات المالية التى قام بها اثناء متابعته لاتمام هذا المشروع فقد اتبع سياسة مالية خرقاء أدت الى انفاق اموال كثيرة من الميزانية المخصصة للمنشآت .

والحقيقة أن السياسة التى اتبعها الخلفاء الفاطميون والاهتمام بأعمال الرى والصرف وحفر الترع والقنوات واقامة الجسور وحفر الخلجان كلها أدت الى ازدهار النشاط الزراعى بالبلاد ، فلم يبخل هؤلاء بامداد المشروعات الخاصة بالصرف والرى بكل ما تحتاجه من أموال . وهنا يذكر المقريزى « أن تلك الأعمال كانت تلتهم ثلث خراج مصر » .

اما نفقة بناء القصور والجوامع والمشاهد والمكتبات وغيرها :

فقد بلغت مبالغ كبيرة ، فمثلا بناء القصر الغربى تكلف مليونى دينار .

وقد بلغت نفقة بناء أو اتمام جامع الحاكم بأمر الله ٤٠٫٠٠٠ دينار .

أما جامع الأقمر الذى تم بناؤه فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله فقد بلغت تكاليف بنائه مائتى الف دينار .

أما جامع الفيلة المطل على بركة الحبش والذى بناه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى شعبان سنة ٤٧٨ هـ فقد بلغت تكاليف تشييده ستة آلاف دينار .

وهناك بعض النفقات التى كانت تخرج من خزانة الدولة فى مناسبات مختلفة وتمثل جزءا من ميزانيتها . على سبيل المثال ما كان ينفقه الخليفة على الشعراء ورجال الدولة من هبات ومنح . الى جانب الأموال الطائلة التى تنفق على دار الضيافة التى أقامتها الحكومة من أجل الاشراف على الاستقبالات الرسمية للرسل الواردين الى البلاد ، وقد بلغت جملة ما كان ينفق عليها مائة الف دينار .

كما كانت الحكومة تنفق مبالغ طائلة من أجل الحفاظ على سلامة الطرق وتأمين البريد والثغور .

ومن وجوه الانفاق أيضا ما كان يمنحه الخليفة نتيجة عادة متوارثة اذ كان يقدم دينارا واحدا لكل موظف من موظفى المساجد التى يمر عليهـا فى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من شهر رمضان . ولنا أن نعرف أن هذه المساجد كانت أعدادها كبيرة جدا . فعلينا أن نتصور مقدار ما كان ينفق خلال الجمع الثلاث من المال . وان كانت المصادر لم تمدنا بمقدار هذا الانفاق .

ويضاف الى هذا المبالغ التى كان الخلفاء يعطونها للعاملين عند زيارتهم للخزائن مثل خزانة الفرش فكان يعطى للخازن خمسة عشرة دينارا ولأمين خزانة الأسلحة خمسة وعشرون دينارا، وصاحب خزانة السروج عشرون دينارا ، وصاحب خزانة المشروبات ومعاونيه ثلاثون دينارا ، وعند زيارة الخليفة لخزانة الكتب كان يعطى الشاهد عشرين دينارا .

ومن عادة الخلفاء عند ركوبهم للمناظر ان يجعلوا أحد الموظفين يحمل كيسا من الحرير فيه خمسمائة دينار لتوزيعه على من يمر عليه الخليفة فى الطريق من فقراء القوم ، وقراء الحضرة الذين يقرءون القرآن على جانبى الطريق اثناء مرور الخليفة .

نفقات الخزائن الفاطمية :

١ ــ خزانة الكسوة :

اورد لنا المقريزى وصفا شاملا لخزانة الكسوة وما كان ينفق فيها من اجل اعداد كسوة الشتاء والصيف . فبلغت قيمة الانفاق ستمائة الف دينار ٦٠٠ر٠٠٠ دينار .

وبضيف ان تذكرة الطراز فى الأيام الأفضلية (يقصد هنا الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى) واحد وثلاثون الف دينار

۳۱٫۰۰۰ دينار . ثم اشتملت فى الأيام المأمونية (المأمون البطائحى) على ثلاثة واربعين الف دينار ۴۳٫۰۰۰ دينار وتضاعفت فى الأيام الآمرية .

٢ ـ خزانة الكتب :

بلغت خزانة الكتب فى العصر الفاطمى قدرا كبيرا من العظمة حيث احتوت على كثير من أمهات الكتب قدرت بما يزيد على مائتى الف مجلد تشتمل على أنواع العلوم المختلفة . وقد عشق الخلفاء الفاطميون شراء الكتب ولذا نجدهم ينفقون الأموال الطائلة سواء على اقتنائها أو اعادة نسخها أو اعداد قاعات خاصة بتلك الكتب . والاهتمام بعمارتها من وقت الى آخر . ورغم عظمة حجم الانفاق الا أن المصادر لم تمدنا بمقدار هذا الانفاق . وقد اكتفى كثير من مؤرخى تلك الفترة بذكر عدد الكتب ولنا أن ندرك مقدار الانفاق من حجم الكتب وتنوعها . وكان من عادة الخليفة عند زيارته لخزانة الكتب اعطاء الشاهد والمشرف عليها عشرين دينارا .

٣ ـ خزانة الفرش والأمتعة :

رغم فخامة خزانة الفرش واحتوائها على الكثير من الفرش النادرة واهتمام الخلفاء الفاطميين بأمر هذه الخزانة ووصف المؤرخين لمحتوياتها باسهاب شديد . الا اننا لم نحصل على دليل واحد يرشدنا الى ميزانية تلك الخزانة ومقدار المنفق عليها . الا أن المقريزى يذكر أن الخليفة كان اذا مر على تلك الخزانة اعطى مستخدميها خمسة عشر دينارا .

٤ ـ خزانة السلاح :

هى من الخزائن المهمة التى كان الخلفاء يهتمون بها أما مقدار الانفاق فلم يصلنا عنه شىء ولكن المقريزى يذكر أن الخليفة كان يعطى مستخدميها خمسة وعشرين دينارا ويخلع على المتقدم بها فى المناسبات .

٥ ـ خزانة الشراب :

يذكر المقريزى أن مقدار الانفاق عليها فى السنة بلغ ٦٥٠٠ دينار .

٦ ـ خزانة التوابل :

يبلغ المنفق عليها كل عام ٥٠٫٠٠٠ دينار .

٧ ـ دار التعبئة :

كان ينفق فيها عشرة دنانير كل يوم وفى هذا الصدد يذكر المقريزى أنها كانت تشتمل فى الأيام الأفضلية (الوزير الأفضل بن بدر الجمالى) على مبلغ يسير فانتهى الى عشرة دنانير كل يوم .

٨ ـ خزانة البنود :

كان ينفق عليها فى السنة من سبعين ألف دينار الى ثمانين ألف دينار من وقت دخول جوهر الصقلى فى سنة ٣٥٨ هـ الى نهاية عصر الدولة الفاطمية .

٩ ـ دار الفطرة :

كان الانفاق فيها عشرة آلاف دينار خارجا عن جوارى

المستخدمين . هذا وقد تحدث المقريزى بالتفصيل عن مخصصاتها من المواد الخام لتصنع ما يلزم الفطرة (٣) .

١٠ - الأهراء السلطانية :

بلغت محتوياتها ثلاثمائة الف أردب فلو جعلنا ثمن الأردب ربع دينار كان ما ينفق فى هذا السبيل ...ر٧٥ دينار فى السنة.

١١ - دار العلم .

يبلغ المنصرف على دار العلم مائتين وخمسة وخمسين دينارا (٢٥٥) عدا الأوقاف التى كان قد أوقفها الخليفة الحاكم بأمر الله عليها لشراء ما يلزم من حصر وورق ومحابر وأقلام لطلاب العلم .

(٣) يعد الخليفة العزيز بالله أول من رتب الفطرة وأمر بأن تعمل بالديوان ، وتوزيعها على رجال الدولة كل حسب قدره .

الفصل الرابع

نظام النقد

نظام النقد الفاطمى :

منذ ان فتح العرب مصر والبلاد تسير على نظام العيار الذهبى مقررا بالدينار ، ويظهر هذا بجلاء من النصوص التى أوردها لنا المقريزى اذ يقول : « أما مصر من بين الأمصار ، مما برح نقدها المنسوب اليه قيم الأعمال وأثمان المبيعات ذهبا فى سائر دولها جاهلية واسلاما ، ويشهد لذلك بالصحة أن مبلغ خراج مصر فى قديم الدهر وحديثه انما هو الذهب » .

واذا تتبعنا السياسة النقدية لمصر الاسلامية نجد أنه منذ

دخولها ضمن الدولة الاسلامية وهى تستخدم السكة (١) التى ضربت فى دار الخلافــة ، ما عدا فترات بسيطة تمتعت فيهــا بالاستقلال النسبى عن الدولة الاسلامية وذلك على أيام الطولونيين والاخشيديين .

ففى أثناء ولاية أحمد بن طولون على مصر ضرب ما يعرف بالدنانير الأحمدية وتمتعت تلك الدنانير بجودة عيارها حتى أصبح الدينار الأحمدى لا يصاب بأجود منه ويوضح المقريزى السبب فى جودة الدينار الأحمدى حين يروى لنا القصة التى تدور أحداثها حول الكنز الذى عثر عليه من الآثار المصرية القديمة ، والتى يرجع كثــير من مؤرخى تلك الفترة ســبب اقامــة دار الضرب زمــن ابن طولون اليها .

فيذكر المقريزى « ان أحمد بن طولون ركب يوما الى الأهرام فأتاه الحجاب يقوم عليهم ثيــاب صوف ومعهم المساحى والمعاول فسألهم عن ما يعملون فقالوا نحن قوم نطلب المطالب فقال لهم

---

(١) السكة : عرف ابن خلدون السكة بأنها الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطــابع حديد ينقش فيه صــور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم ، فتخرج رسوم تلك النقوش عليهــا ظاهرة مستقيمة، بعد أن يعتبر عيــار النقد من ذلك الجنس فى خلوصــه بالسبك مرة بعد أخرى، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليــه ، فيكون التعامل بها عددا ، وان لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنــا . ولفظ السكة كان اسما للطــابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ، ثم نقل الى أثرها ، وهى النقوش المــاثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل الى القيــام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفــة فصــار علما عليها فى عرف الدول وهى وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخــالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات ويتقون فى سلامتها الغش بختم الســلطان عليها بتلك النقوش المعروفة .

لا تخرجوا بعدها الا بمشـــورتى أو رجل من قبلى واخبروه أن فى سمت الأهرام مطلبا قد عجزوا عنه فضم اليهم العمال لمعاونتهم وإمدادهم بالنفقات وانصرف فأقاموا مدة يعملون حتى ظهر لهم فركب أحمد بن طولون اليهم وهم يحفرون فكشفوا عن حوض مملوء دنانير وعليــه غطــاء مكتوب عليه بالبيزنطية فأحضر من قرأه فاذا فيه أنا فلان بن فلان الملك الذى ميز الذهب من غشه ودنسه فمن أراد أن يعلم فضـــل ملكى على ملكه فلينظر الى عيار دينارى على عيار ديناره فان مخلص الذهب من الغش مخلص فى حياته وبعد وفاته فقال أحمد بن طولون الحمد لله ان ما ينتهى عليه هذه الكتابة أحب الى من المــال » .

ويضيف ابن الداية أن هذه الدنانير قدرت بحوالى مليون دينــار .

أما الدكتور توفيق اسكندر فيضيف أن هــذا الكنز يساوى أربعة آلاف كيلو جرام من الذهب . ومن نص المقريزى وابن الداية وكذلك الدكتور اسكندر تتجلى لنا حقيقة مهمة وهى أن أعمــال البحث والتنقيب عن الآثار أو كنوز مصر الدفائن أصبحت منذ عهد أحمد بن طولون تخضـــع لاشراف مبــاشر من الدولة فلا يستطيع أحد ان يقوم بهذه المهمة الا بعد موافقـــة الحكومة التى تعين له من يقوم بالاشراف على عملية التنقيب وقد ظهرت للوجود نقابة جديدة عرفت بنقابة المطالبين وخضعت تلك النقابة للضريبة التى عرفت بضريبـــة الحرف . وكانت الدولة تستولى على خمس الكنز المكتشف الذى يجرى التنقيب عنه .

وقام الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى بدراســة دقيقــة لقطع العملة الطولونيـــة التى تم الكشف عنها مؤخرا والموجودة

حاليا بمتحف الآثار الاسلامية واستطاع تقدير عيار تلك السكة من خلال دراسته لعشرين قطعة فأثبت انها جميعا من عيار ٢٣ر٥ قيراط من ٢٤ قيراطا على حساب العيار القيراطى او (٩٧٩ر٠ ٢ر٢) على الحساب الألفى وهو أعلى عيار وصلت اليه السكة الاسلامية ورغم أن أحمد بن طولون سك الدينار الذى عرف بالأحمدى وذكر اسمه عليه الا أنه لم يغفل اسم الخليفة العباسى المعتمد على الله . ويعنى هذا اعترافا صريحا بالخلافة العباسية .

أما فى عهد الدولة الاخشيدية فقد ضرب محمد بن طغج الاخشيد الدينار الاخشيدى على عيار كامل « وصلحت النقود فى عهده بعد فسادها مدة من الزمن » والمقصود بذلك هو أن الفترة التى توسطت سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الاخشيدية والتى استغرقت ثلاثين سنة انحط فيها عيار السكة .

وكانت النقود التى ضربت فى ولاية محمد بن طغج الاخشيد من سنة ٣٢٣ هـ الى سنة ٣٢٩ هـ ـ (٨٣٧ م ـ ٨٤٣ م) . تحمل اسم الخليفة العباسى وحده وهذا دليل على أن الاخشيد كان يشعر بالتبعية الكاملة للخلافة العباسية . وبعد سنة ٣٢٩هـ اخذت السكة تحمل اسم محمد بن طغج الاخشيد وحده دون اسم الخليفة العباسى ويدل هذا على أن الاخشيد أخذ فى التفكير بالاستقلال التام عن الخلافة العباسية الا أنه تراجع واكتفى بالاستقلال الذاتى ، واخذت العملة منذ تلك الفترة تحمل اسم الخليفة واسم الاخشيد معا واستمر الحال بعد موت الاخشيد فحملت السكة الاخشيدية اسم أبناء الاخشيد مع اسم الخليفة العباسى . أما فى عهد كافور الاخشيد فلم ينقش السكة باسمه بل اكتفى باسم الخليفة العباسى واستمرت هكذا بعد موت كافور

الاخشيد تحمل اسم الخليفة العباسى واسم الأمير احمد بن الاخشيد . الى أن دخل جوهر الصقلى مصر سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩ م .

ورغم أنه فى أول الأمر لم يغير شيئا من قيمة الدنانير الموجودة واستمر التعامل بها فى بداية الفتح الا أنه فى الأمان الذى اعطاه للشعب كان من أهم بنوده تجويد السكة . ولم يمض وقت الا وكان جوهر قد سك مقادير من الدنانير أطلق عليها الدينار المعزى (نسبة للخليفة المعز لدين الله الفاطمى) . وقد ساعده على ذلك الذهب الذى حمله معه من بلاد المغرب سواء أكان دنانير ذهبية أم ذهبا على هيئة سبائك خام . لذا نجد أن الفتح الفاطمى ساعد على زيادة كميات الذهب الموجودة بالبلاد (٢) . وبفضل هذه الدنانير والسبائك استطاع جوهر أن يحل جزءا كبيرا من مشكلات البلاد الاقتصادية ، ورغم سك الدينار المعزى الا أن التعامل بالدينار الراضى (نسبة الى الخليفة العباسى الراضى من سنة ٣٢٢ هـ ــ ٣٢٩ هـ) استمر حتى أتى الخليفة المعز لدين الله الى مصر سنة ٣٦٢ هـ وكانت الأمور قد استقرت الى حد كبير فأمر باحلال الدينار المعزى محل الدينار الراضى وبهذا تحولت العملة المصرية من العملة السائدة فى الدولة العباسية السنية الى عملة تحمل شعارات الدولة الجديدة الشيعية . فنجد على وجه الدنانير المعزية عبارات تمجد على بن أبى طالب فقد نقش على

---

(٢) يذكر كثير من مؤرخى تلك الفترة أن جوهر حمل معه ألفا ومائتى صندوق من الذهب الى جانب الدنانير المغربية التى تقرر نقلها فتم صهرها وحملت على الجمال على هيئة الطواحين المفرغة من الوسط . على كل جمل اثنان فوق ظهره وقدر بعض المؤرخين هذه السبائك الذهبية بثلاثة وعشرين مليون دينار اعاد المعز لدين الله ضربها من جديد بدار الضرب (دار السكة المصرية) .

وجه الدينار ـ المعزى ـ ثلاثة أسطر احدها « دعـا الامام المعز لتوحيد الأحد الصمد » وتحته سطر فيه هـذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة وفى الوجه الآخر « لا اله الا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين » .
وفى سنة ٣٦٢ هـ ـ ٩٧٢ م عهد الخليفة المعز لدين الله الى يعقوب ابن كلس وعسـلوج بن الحسن بالاشراف على الخراج حيث يذكر ابن ميسر « انهما امتنعا أن يأخذا الا دينارا معزيا فاتضـع الدينار الراضى وانحط الى نحو ثلثى دينار ونقص من صرفه أكثر من دينار فخسر الناس كثيرا من أموالهم فى الدينار الأبيض والدينار الراضى . وكان صرف الدينار المعزى خمسة عشر درهما ونصف » وتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أن الدينار الراضى كان مشابها الى حد كبير لوزن الدينار الهرقلى الذى أقره الرسـول صلى الله عليه وسلم فى بداية عهد الدولة الاسـلامية فقد كان الدينار الهرقلى أو الاكسرا « يزن مثقالا من الذهب اى ٤ر٢٦٥ من الجرامات ، أو ٦٦ حبة . وكانت زنة المثقال ٢٢ قيراطا الا حبة ، وكان وزن الدينار يقدر أيضا ٧٢ حبة شعير أو ستة آلاف حبة خردل من الوسط » .

ولكن رغم جودة عيار الدينار الراضى كما سبق أن ذكرت الا أن الجميع تخلص منه لنقص قيمته مما جعل الخسارة فادحة بالنسبة لكثير من طبقـات الشـعب المصرى وفى نفس الوقت ضاعفت الحكومة مكاسبها حيث دخلت كمشترية للدينار الراضى المرتفع الوزن فقد بلغ كما ذكرت وزن الدينـار الهرقلى وأحيانا اقل بشىء يسير فقد بلغ وزنه ٤ر٢٥ جراما بينما الدينار المعزى لم يصـل الى هذا الوزن فكانت الحكومة تقوم باعادة صهر تلك الدنانير مرتفعة الوزن وتعيد صكها من جديد وبذلك أصبحت

مستفيدة من هذا التغير من الناحية المـالية الى جانب استفادتها من الناحية المذهبية حيث احـلال العملة الشيعية محل السنية دليل واضح على سـيطرة الفاطميين على مصر واقتصـادها . والقضاء على كل مظهر من مظاهر السيادة العباسية أو السنية على مصر .

وكان أهم ما يميز العملة الفاطمية العبارة التى تدل على جودتها فكان ينقش عبارة (عال) أو (عال غاية) وهـذه العبارة هى العلامة أو الرمز الذى يبين صرف العملة على العيار الرسمى.

وتختلف النقود التى ضربت فى عهد الدولة الفاطميـة من حيث الشكل عن العملات السابقة التى صـدرت طوال خلافـة العباسيين فجميع العملات فى العصر العباسى كتبت فى وسطها على الوجهين معا صيغة الشهادة بالخط الكوفى وتحتها اسم الخليفـة ويحيط بذلك كتابة هامشية بخط صغير على شكل دائرة بينمـا العملات الفاطمية تميزت عنها بزيادة النقوش والزخاف اذ يوجد على كل وجه من وجهيها ثلاث دوائر داخل بعضها ، كتب بالخط الكوفى وعلى وجه واحد فقط من العملة شهادة (لا اله الا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر كتب اسم الخليفة مع بعض العبارات المذهبية .

وقد وصلت الينا مجموعة من الدنانير التى تم صكها فى الدولة الفاطمية . فى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ضربت دنانير ذهبية وصل عيارها الى ٢٣٫٥ قيراط وتسمى بالدينـار المعزى وهى تحمل السمة المذهبية الشيعية كما سبق أن ذكرت اما فى عهد الخليفة العزيز بالله فقد ضربت نقود فى دار الضرب بالقاهرة سنة ٣٧٦ هـ (٩٨٦ م) تشبه نقود أبيه .

كما حفظت لنا مجموعة دنانير صكت زمن الخليفة الحــاكم بأمر الله الفاطمى اشتملت على نقوش تحمل اســمه وعلى الوجه الآخر العبارات الشيعية ومكان الضرب .

وقد وجد بعض الدنانير التى تحمل اسم ولى العهد الى جانب اســم الخليفــة الحــاكم فيــذكر المقريزى فى أحــداث سنة ٤٠٢ هـ انه فى شهر رمضان ضربت السكة باسم عبد الرحيم ولى عهد المسلمين (ابن عم الخليفة الحاكم بأمر الله) . وقد أمر الخليفة الحــاكم بتوليته أمر المسلمين وقرىء سجل على المنابر كما أرسل سجل الى افريقيا وبلاد الشام واثبت اسمه مع اسم الخليفة على البنود « والسكة ، والطراز » (٣) . كما وجد دينار

---

(٣) الطراز من شارات الخلافة المهمة وهى تلك العلامات أو العبــارات التى يرسمها الملوك والخلفــاء والسلاطين على أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج بحيث تظهر وكأنها كتابة خطت فى نسيج الثوب لحاما وســدى بخيط من الذهب ، وانما يخــالف التوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، بحيث تعتبر الثياب الملوكية معلمــة بذلك الطراز ، للدلالة على أن لابسها من أهل الدولة وقد أخذ العرب عن الفرس والروم الطراز واستمرت العــلامات الفارسية والرومية تستخدم فى الطرز الاســلامية حتى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ) (٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) فيعتبر هــذا الخليفة أول من جعل ملابسه وملابس اجناده ورجاله تحمل العبارات الاسلامية بدلا من العبارات الرومية ، فاستبدلت عبــارة (بسم الأب والابن والروح القدس) بصورة (لا اله الا هو) الى جانب اسم الخليفــة ولقبه واستمرت للطراز أهميــة كبرى حيث بقاء اسم الخليفة على الطراز معناه بقاء سلطانه وهيمنته فاذا أراد أحد الولاة الخروج من طاعة الخليفة قطع الخطبــة وهى من شارات الخلافة أيضا واسقط اسم الخليفة من على الطراز . أما البنود فهى الرايات التى تحمل فى المواكب الرسمية والاحتفالات وأيضــا الحروب وقد عرفت منذ أقدم العصور ولها شأنها فى الحروب قديمــا وقد كان للطراز والبنود أهميــة فى الدولة الفاطمية فقد اهتم الفاطميون بالطراز فأنشأ الخلفاء الفاطميون دورا فى قصــورهم تسمى دور الطراز لنسيج أثوابهم .

من العصر الفاطمى الثانى اشتمل على نقوش تحمل اسم الخليفة وعلى الوجه الآخر عبارات الدعاء واسم مكان الضرب ويرجع الى سنة ٥٢٩ هـ ففى الوجه الأول ذكر : الامام عبد المجيد ابو الميمون الحافظ لدين الله أمير المؤمنين وعلى الوجه الآخر : بسم الله الرحمن الرحيم ، ضرب هذا الدينار بمصر سنة ٥٢٩هـ ولده أبو على ولى عهد أمير المؤمنين ، عال . لا اله الا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله وعلى ولى الله .

ويظهر هنا بوضوح اشتمال النقود على اسم الخليفة واسم ولى العهد الى جانب سنة الضرب وكنية الخليفة فمثلا ابو الميمون كنية الخليفة الحافظ ، كانت أبو تميم كنية الخليفة المستنصر . ونلاحظ أن العملة اشتملت أيضا على كلمة (عال) وهى العبارة التى تدل على جودة العملة وخصوصا أن هذه الفترة كانت العملة جيدة فمنذ عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالى والدينار الفاطمى فى أحسن حالاته فقد حرر هذا الوزير عيار الدينار فى المحرم سنة ٤٩٠ هـ ـ ١٠٩٦ م وضربت أيضا نقود فى عهد الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله بن الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٢٥ هـ ـ ١٠٣٥ م تشبه الى حد كبير نقود أبيه وان كانت أكبر منها حجما وأكثر جاذبية .

اما فى عهد الخليفة المستنصر بالله فقد ضرب ثلاث عملات من النقود الذهبية فى تواريخ متقاربة وبأشكال مختلفة فقد ضربت العملة الأولى فى القاهرة ٤٢٨ هـ ـ ١٠٣٧ م وضربت الثانية فى مدينة صور سنة ٤٤٢ هـ ـ ١٠٣٠ م أما العملة الثالثة فقد ضربت سنة ٤٦٥ هـ ـ ١٠٧٢ م .

أما السكة فقد كانت تتأثر دائما بالأحداث السياسية والصراع الداخلى ويظهر هذا بوضوح بعد موت الخليفة المستنصر

بالله واعلان ابنه نزار أنه أحق بالخلافة من أخيه المستعلى وفراره الى الإسكندرية ولالتفاف كثير من الاتبــاع حوله وظهور الدعوة النزاريــة .

اخذت تظهر الى الوجود بعض العملات من الدنانير لاتبــاع هذا المذهب . وكذلك فى عهد الخليفة الحافظ بعد أن تولى الخلافة بعد مقتل ابن عمــه الخليفة الآمر على يد فريق من النزاريــة واعلانهم رفضهم لتوليته أمر الخلافة ، واعلان البيعة لابن الخليفة الآمر وكان طفلا ، فلقب بالامام الطيب ونقشت الدنانير باســمه سنة ٥٢٥ هـ ــ ١١٣٠ م .

ويوضح لنا نموذج الدنانير التى وصلت الينا والمحفوظة بدار الكتب المصريــة هــذا الرأى فقد وجــد على أحد وجهيهــا :

الامــام محمــد

أبو القاسم المنتظر بأمر الله أمير المؤمنين

بسم الله الرحمن الرحيم ــ ضرب هــذا الدينر بالاسكندرية خمس وعشرين وخمسمائة .

ويتضح بوضوح أن تلك الدنانير قــد استخدمت للدعــوة والمطالبة بالخلافة الى جانب ان النص السابق يوضح لنا أن تلك الدنانير كانت تسك بالاسكندرية وهى مقر أنصــار الطيب وهو نفس المكان الذى اتخذته الدعوة النزارية مقرا لها .

والى جانب الدنانير الفاطمية المضروبة بمصر كان هناك نوع آخر مجلوب من الخارج أخذ يظهر بالبلاد بكميات كبيرة واكتظت به الأسواق فى فترة الحروب الصليبيــة وهى تلك الدنانير التى تم

ضربها بعد قيام الامارات الصليبية الأربع فى الرها ، وانطاكية ، وبيت المقدس ، وطرابلس . فقد احتاج الصليبيون الى عملات تخدمهم فى المعاملات التجارية ، وشئون الحجاج والفرسان سواء المتنقلون منهم أو المقيمون ولذا فقد ضربت نقود للتداول فى الأراضى المقدسة وعرفت بالعملة البيزنطية العربية ويذكر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى أن العملة البيزنطية العربية تعد أقدم عملة ضربها اللاتين للتعامل بها فى البلاد الاسلامية وهى تحمل نقوشا عربية وآيات قرآنية وقد زاد حجمها بعد سنة ٥١١ هـ فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله عندما استولى الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس على الفرما وحاول الاستيلاء على تنيس .

وفى هذه الفترة تم اصدار عملة زائفة باسم الخليفة الآمر بأحكام الله استمر تداولها ثلاث سنوات تحمل كتابات النقود الفاطمية ولكنها تختلف عنها من حيث الاتقان فالنقود الصليبية تحمل نقوشا عربية غير متقنة بعكس الفاطمية التى كانت نقوشها وكتاباتها تحفة فنية لانها كتبت بيد عربية . وما زالت قطع من تلك العملة محفوظة فى دار الكتب المصرية .

ولم يقتصر التداول فىالأسواق المصرية علىالعملات التىضربها البيزنطيون أثناء الحروب الصليبية وانما كذلك عرفت العملات المغربية طريقها الى الأسواق المصرية بكثرة فقد تدفقت على البلاد فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى نتيجة للرواج الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب من ناحية الى جانب نشاط طرق الحج بين بلاد المغرب ومصر حيث كان الحجاج المغاربة يفضلون الطريق عبر مصر فى الذهاب الى بلاد الحجاز وكان هؤلاء يدفعون مكوسا بالدنانير المغربية الذهبية عند مرورهم بثغر عيذاب فكان الحاج يدفع ثمانية دنانير وكذلك كان التجار

الأوربيون يدفعون قيمة ما يشترونه من منتجـات مصر بالنقد الذهبى الى جانب تسديدهم الضرائب المقررة عليهم أيضـا بالنقد الذهبى .

ولم تكن مصر تحتفظ بكل تلك الكميات من النقد الأجنبى الذهبى بل انها كانت تنفق جزءا كبيرا منها لشراء احتياجاتها من الخارج . ولكن على الرغم من هـذا فقد كانت القاعدة الذهبية فى العصر الفاطمى راسخة قوية .

ولم يكن الدينار فى العصر الفاطمى ثابتا من حيث الوزن فقد تأثر بالأحداث السياسـية تأثرا كبيرا الى جانب تلاعب بعض الخلفاء فى تحديد وزن الدينار فنجده فى فترات الرخاء الاقتصادى يزداد وزنه ويكتب عليه عبارة (عال) أما فى فترات الاضطراب السياسى والاقتصادى فكانت اليد تمد اليه لتنقص من وزنه بعض الشيء . فعلى سبيل المثال زاد وزن الدينـار الفاطمى فى بداية عهد الدولة نتيجة للكميـات الكبيرة من الذهب التى أتى بهـا المعز لدين الله من افريقيـا كما سـبق ان ذكرت . الى جانب استخراج الذهب بكميات وفيرة من وادى العلاقى واستيراد التبر من بلاد التكرور ، وتشديد الرقابة على دور الضرب وعلى موظفى تلك الدور ، الى جانب الكميـات الضخمة التى كانت تحصـل عليهـا الدولة من الكنوز المخبوءة فى المقـابر الفرعونيـة فيذكر الأستاذ الدكتور توفيق اسكندر « أن تلك الكنوز كانت هى السبب الرئيسى فى ثروة الفـاطميين وترفهم ويضيف انهم اسـتمدوا مواردهم من الكنوز التى استخرجها الحاكم بأمر الله من أرض مصر التى كثرت بها فى قديم الزمان المعابد والمقابر » ولم تكن هذه سنة ابتدعها الفاطميون وانما عرفت منذ زمن الفتح وتبلورت زمن احمد بن طولون حيث أصبحت أعمـال البحث عن تلك الكنوز تقوم على أسس منظمة كما سبق أن ذكرت .

بينما نجد الدينار يصل الى أقل وزن له زمن الأزمات الاقتصادية والمثال على هذا الشدة المستنصرية حيث انخفض الدينار الى أدنى مستوى ، كذلك زمن خلافة المستعلى وبداية عهد الخليفة الآمر فقد أصاب الدينار أقل عيار فى تلك الفترة حيث توالت الأزمات الاقتصادية على البلاد وخصوصا فى سنة ٤٠٥ هـ حيث يذكر ابن ميسر ان البلاد « اصابها وباء وغلاء عظيمان » فأدى هذا الى اضطراب أحوال البلاد وانهيار لاقتصادياتها ولم تسلم من الهجمات المتكررة من جهة بلاد الشام حيث تعددت الغارات البيزنطية على البلاد واستمرت أحوال الدينار مضطربة الى أن تم تحريره على يد الوزير الأفضل ابن أمير الجيوش وذلك فى سنة ٥٠٤ هـ .

ولم يخل الدينار الفاطمى فى بعض الأحيان من الغش فى العيار أو أصدار دنانير جديدة أقل قيمة واجبار الناس على التعامل بها وفى كلتا الحالتين كانت الحكومة الفاطمية هى المستفيدة من الفرق .

وقد انخفضت كميات الذهب فى العصر الفاطمى الثانى بصورة ملحوظة ، وكان السبب فى هذا يرجع الى اهمال استغلال مناجم الذهب فى وادى العلاقى بالصحراء الشرقية وتقاعس الحكومة عن الاشراف عليها وتركها لاستغلال الأفراد ولم يعد لدى المطالبين أدنى رغبة فى البحث عن كنوز مصر الفرعونية نتيجة لعدم قدرة الحكومة لتوفير الأمن والأمان لهم الى جانب انتشار الفوضى السياسية نتيجة لصراع الوزراء العظام من ناحية ، واضطراب أحوال البلاد نتيجة الصراع بين فرق وطوائف الجند فى صفوف الجيش كما سبق ان أوضحت هذا الى جانب النزاع على الخلافة ، وتولى خلفاء لا حول لهم ولا قوة من ناحية أخرى

هـذا ولا ننسى انخفـاض الصادرات المصريـة نتيجـة للحروب الصليبية وخصوصا المنسوجات التى كانت تأتى بالعملة الذهبية من الخارج بكميات وفيرة وخصوصا ما كان يصـدر منها الى بلاد الشام والعراق واليمن وحوض البحر المتوسط .

كما سيأتى ذكره بالتفصيل عند الكلام عن انهيار الاقتصاد المصرى .

وقد لعب الانفاق على الجيش والأسطول وتوظيف جميـع مصادر المـال فى تلك الفترة لتجهيز الجيش لصد خطر الصليبيين كل هذا لعب دورا جعل الذهب يضطرب وتنقص كمياته فى البلاد مما دعا بعض مؤرخى تلك الفترة الى القول ان بعد سقوط الدولة الفاطمية خرج الذهب من مصر ولم يعد اليها مرة ثانية .

انظر الجدول الذى يوضـح أحوال الدينـار طوال العصر الفاطمى فى الملاحق الموجودة فى نهاية الرسالة .

ولم تستمر الدنانير الذهبية هى العملة الوحيـدة طوال العصر الفاطمى فقد أخذت تظهر الى الوجود الدراهم الفضـية منذ الخليفة الحـاكم بأمر الله ٣٨٦ هـ ـ ٤١١ هـ فقد أخـذت الحكومة منذ تلك الفترة تتوسع فى ضرب الدراهم من الفضـة وهنا تحولت مصر الى نظـام المعدنين وتوضح الأستاذ الدكتورة سيدة كاشف نظام المعدنين بقولها « ان نظام المعدنين عبارة عن قاعدة نقدية مزدوجة ترتبط بمقتضاها قيم النقود بعلامة ثابتـة مع قيمة الذهب وقيمة الفضـة فى نفس الوقت ويتحقق ذلك الارتباط باجتماع ثلاثة شروط :

تحديد الوزن المعدنى الذى تساويه وحدة النقد فى كل من المعدنين على التوالى بما يترتب على ذلك من انشاء علاقة ثابتـة بين قيمة الذهب والفضة .

الاعتراف للمسكوكات المصنوعة من كل من المعدنين بقوة ابراء غير محدودة فى الوفاء . اطلاق حرية الأفراد فى تحويل سبائك أى المعدنين الى مسكوكات وبالعكس » .

فمنذ عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أصبحت الدراهم الفضية نقودا قانونية وذلك للاحتياج اليها فى المعاملات التجارية حيث ان المعاملات التجارية الضخمة كانت تحتاج الى الدنانير الذهبية ، أما المعاملات اليومية البسيطة فكانت تحتاج الى عملة أقل شأنا ، يقول المقريزى « أما الفضة فكانت بمصر تتخذ حليا وأوانى ، وقد ضرب منها الشيء للمعاملات التى يحتاج اليها فى اليوم لنفقات البيوت : وأول ما رأيت للدراهم ذكرا بمصر فى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى » .

ورغم أن تلك العملة فى البداية كانت عملة مساعدة فقط الا أن المسبحى يقرر أن تلك العملة حددتها الحكومة وقررت أمرها ليصبح كل ثمانية عشر درهما بدينار .

ويرجع تمسك الحاكم بأمر الله بأن تصبح العملة الفضية احدى دعائم النقد فى مصر فى تلك الفترة لتيسير التعامل وخصوصا فى السلع قليلة الثمن . وتسهيل المعاملات التجارية الى جانب أن بعض أجور العمال كانت جزءا من الدينار هذا الى جانب السبب الأساسى وهو نقص الذهب كعملة فى الأسواق لها دعائمها نتيجة للاستخدامات المختلفة كنوع من الحلى والأوانى . وقد ساعدت حياة الترف على قلة الذهب كدنانير هذا الى جانب أن مناجم الذهب فى وادى العلاقى اخذت فى النضوب لاهمالها .

والدراهم نوعان : الدراهم النقر . والدراهم السوداء (٤) وتبلغ نسبة الدرهم الأسود الى النقر ١ : ٣ فالدرهم النقر يساوى ثلاثة دراهم من السود . ولم تعرف الدراهم السود الا فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٤٩٧ هـ وعرفت بالدراهم الآمرية .

كذلك يذكر المقريزى « أن الدراهم السود كانت معاملة أهل مصر والقاهرة والاسكندرية وتعرف (بنقد مصر) وأهلها لا يتعاملون الا بها ويسمونها الورق واستمرت المعاملة بهذه الدراهم الى أن استولت دولة بنى أيوب على مصر » .

وفى سنة ٣٩٧ هـ فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله زاد عدد الدراهم زيادة كبيرة مما أدى الى انهيار قيمتها فيذكر المقريزى « أنه فى شهر ربيع الأول من سنة ٣٩٧ هـ تزايد أمر الدرهم القطع المتزايدة . فبيعت أربعة وثلاثون درهما بدينار ، ونزع السعر واضطربت أمور الناس فرفعت الدراهم ، وانزل بعشرين صندوقا من بيت المال فيها دراهم جدد تفرقت فى الصيارف وقرىء سجل برفعها والا يتعامل بها ، وانظر من فى يده شيء منها ثلاثة أيام وأن يورد جميع ما تحصل منها الى بيت دار الضرب » .

---

(٤) الدراهم النقر يكون ثلثاها من النحاس وتطبع بدور الضرب ويكون منها دراهم صحاح ، وقراضات مكسرة ، والعبرة فى وزنها بالدرهم وهو يعتبر بأربعة وعشرين قيراطا وقدر ست عشرة حبة من حب الخروب ، فتكون كل خروبتين ثمن درهم ، وهى أربع حبات من حب البر المعتدل ، والدراهم من الدينار نصفه وخمسه أى سبعة أعشاره ، فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم .

اما الدراهم السود فاسماء على غير مسميات كالدنانير الحبشية ، وكل درهم منها معتبر فى العرف بثلث درهم نقرة .

وقدرت الدراهم القديمة كل أربعة دراهم بدرهم جديد .

ومما تقدم نستنتج من نص المقريزى الذى أورده نقلا عن المسبحى أن الحكومة تدخلت لتحديد قيمة الدرهم الجديد بالنسبة للدرهم القديم وهو كل دينار يساوى ثمانية عشر درهما .

وقد حفظ لنا مجموعة من الدراهم التى ضربت فى عهد الخليفة المستنصر بالله أوردها لنا لينبول :

على الوجه الأول منها : محمد رسول الله أرسله الله ـ وعلى أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين . لا اله الا الله محمد رسول الله .

وعلى الوجه الثانى بسم الله ضرب هذا الدرهم بمصر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة دعا الامام معه لتوحيد الاله الصمد .

المستنصر بالله امير المؤمنين :

وفى عهد الوزراء العظام ٤٦٦ ـ ٥٦٧هـ (١٠٧٣ ـ ١١٧١م) سيطر هؤلاء على شئون البلاد الاقتصادية والمالية وقد ضرب الوزراء فى العصر الفاطمى الثانى اسماءهم على الدراهم الى جانب اسم الخليفة كما كان الحال فى الدنانير . وقد حفظت لنا دراهم من عهد الخليفة الحافظ لدين الله ولكن ضرب عليها اسم أبو على احمد بن الأفضل وزير الحافظ ونقش عليها الله الصمد ـ الامام محمد . وكانت الدراهم يصل اليها يد الغش والزيف وكان يطلق عليها المزيفة او الزيوف ، فكان البعض يزيف الدراهم ببردها، أو خلطها بالنحاس مما يجعلها تفقد صفة الجودة ، واذا وجدت اعيدت الى بيت المال الذى يعيدها لتضرب من جديد .

واقتصر التعامل بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية على

المدن الكبرى حيث يؤكد المقريزى أن مدن اقليم الصعيد كان أهلها يتعـاملون فى « محقرات المبيعـات بالكودة وهى نوع من الودع يستخرج من البحر كما يتعامل أهل الاقاليم الساحلية مثل ثغر الاسكندرية فيجعلون فى مقابله الخضرة والحوامض والبقول ونحو ذلك من كسر الخبز لشراء ما يلزمهم ، وفى ريف مصر يشترون الكثير من الحوائج والمـأكولات ببيض الدجـاج وبنخال الدقيق .

وقد أقرت الحكومات المتعاقبة على مصر منذ الفتح الاسلامى هذا الوضع الاقتصادى حتى ان خراج الصعيد كان بعضه يجبى عينـا .

أما الفلوس فلم يصل الينا منها شيء يؤكد نوعيتها الا اننـا لا نشك ابدا فى وجودها وخصوصا أن التعامل بالدنانير والدراهم كان لابد له من عملة مساعدة كجزء من الدرهم ، وبعض الوثائق البردية تحدد اجور العمال بجزء من الدرهم كسدس أو ربع أو غيره . اذن هـذه الأجور كانت تدفع بالفلوس . والفلوس لفظ مشتق من اليونانيـة وقد استعاره العرب عن البيزنطيين وكان كل ثمانية واربعين فلسـا منهـا معتبرة بدرهم نقر حتى سنة ٧٥٩ هـ .

واذن فالفلوس لم تكن الا جزئية تغيرت قيمتها بسبب الغش الذى يحدث فيها عن طريق الصيارفة اليهود ، مما جعل الحكومة تفرض رقابة مشددة على التعامل بالفلوس او العملات الحقيرة ويذكر المقريزى « أن الفلوس ما هى الا نقود نحاسـية ضربت لتكون عملة مساعدة فى اجراء المعاملات التجارية البسيطة فهى صنعت لمـا كانت فى المبيعات محقرات تقل من أن تبـاع بدرهم او جزء منه باحتياج الناس من اجل ذلك فى قديم الزمان وحديثه الى شيء نقدى غير الذهب والفضـة بازاء هذه المحقرات » .

والى جانب العملة الرسمية التى اعتمدتها الدولة لتكون كقاعدة للتعامل النقدى نجد الدولة الفاطمية تبتدع عملة جديدة تذكارية ضربتها من الذهب مختلفة الأحجـام والأوزان ، وكان الغرض من هــذا هو الانعام بها على الشعب فى بعض المواســم والأعيــاد .

وقد اقتدى الفاطميون بالعباسيين فى هذه الناحية . فقد ذكرت المصــادر أن خلفــاء بنى العبــاس كانوا يضربون العمــلة التذكارية لتوزيعها على الأمراء ورجال الدولة فى الأعياد المختلفة ، ورغم أن الدنانير العباسية أخذت طابع مضاعفة وزنها لتفريقها على الشعب فى عيد النيروز والمهرجانات المختلفة ، كذلك دنانير الخريطة للانعام على المغنين وغيرهم .

الا أن الفاطميين عندما اقتدوا فى هذا المجــال ببنى العباس جعلوا عملتهم اصغر وزنا من العملة الرسمية وقد وجدت قطع من العملة التذكارية يرجع ضربها قبل دخول الفاطميين الى مصر سنة ٣٥٨ هـ ويرجــع مؤرخو تلك الفترة وجود تلك العمــلة التذكارية الى الدعاة الفاطميين الذين أتوا الى مصر زمن الدولة الاخشيدية فقد حملوا معهم كثيرا من تلك النقود لتوزيعها على أتباعهم ، وقد عثر على دينار ضرب باسم الخليفة المعز لدين الله سنة ٣٤١ هـ ويحمل الصيغة الشيعية على أحد وجهيه ورغم أن زمن ضربه يرجع الى سنة ٣٤١ هـ أى قبل دخول الفاطميين مصر بسبعة عشر عاما الا اننا نرجع ذلك الى أن المعز كثيرا ما كان يجتذب قلوب اتباعه بالذهب .

ومن النقود التذكارية التى ابتدعها الفاطميون بعد دخولهم مصر ما كان يضرب منها فى أول العام ، وكانت العادة المتبعة أن

تقوم دار الضرب باعداد الدنانير والدراهم المدورة فى خلال عشرة الأيام الأخيرة من شهر ذى الحجة من كل عـام فيتم اثبات تاريخ السنة التى ركب فى أولها الخليفة وعرفت تلك العمـلة بالغرة فيحمل منها الى الوزير تلثمائة وستون دينارا ، وثلثمائة وستون رباعيا ، وثلثمائة وستون قيراطا .

والى أولاده واخوته من كل صنف من ذلك خمسون ، والى أرباب الرتب وأصحاب السيوف والأقـلام عشرة دنانير وعشرة رباعيات وعشرة قراريط الى دينار واحد ورباع واحد وقيراط واحد ، وكان هؤلاء يحتفظون بتلك العملة كنوع من البركة المنعم بها من الخليفة على رجال الدولة ، ويقول المقريزى ان مبلغ ما كان ينعم به الخليفة أول العام هو ما يقرب من ثلاثة آلاف دينار .

ومن العمـلات التذكارية التى ابتدعهـا الفاطميون فى مصر الخراريب الذهبية وهى عملة خفيفة من الذهب تزن ١٩٤ر٪ جرام كانت تضرب لتوزيعها على رجال الدولةكنوع من الهدايا فى يوم خميس العهد . وهو من الأعياد التى يعملها النصـارى ويأتى قبل عيد الفصح بثلاثة أيام ويحتفل الأقباط به فى كنائسهم بأن يحضروا اناء مملوءا بالمـاء ويرتل عليـه رجـال الدين ويتلون الأدعيـة المناسـبة ثم يقوم البطريرك بغسل أرجل الحـاضرين فى هـذا الاناء . وفى اعتقادهم أن المسيح عليه السلام قد قام بهذا العمل مع تلاميذه فى هذا اليوم . بهدف تعليمهم التواضـع ، ثم أخذ عليهم العهد بألا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض .

ويذكر المقريزى « ان الوزير المـأمون (البطائحى) أحضر كاتب الدفتر وأمره بالكشف عما كان يضرب برسم خميس العدس (خميس العهد) من الخراريب الذهب ، وهو خمسمائة دينـار

عن عشرين ألف خروبة . واستدعى كاتب بيت المـال ودفع له باطلاق ألف دينار وأمره باحضـار مشارف دار الضرب وسلمها اليه فاعتمد ذلك وضربت عشرون ألف خروبة ، وأحضرها فأمر بحملها الى الخليفة ، فخص المأمون منها ثلثمائة دينار .

ورغم انتظام خلفاء الفاطميين فى العصر الفاطمى الأول على ضرب تلك الخراريب لتوزيعها يوم خميس العهد الا أنهـا منذ عهد الخليفة الحـافظ لدين الله فى العصر الفاطمى لم تضرب الا مرة واحدة ثم أبطل ضربها بعد ذلك » .

وبعد أن تكلمنـا عن العملة زمن الفاطميين يجب أن نذكر وسيلة مهمة اتبعت فى المعاملات المـالية الضخمة حيث يتطلب الأمر وسائل للدفع أكثر امنا من حمل مبالغ ضخمة من النقود ومن أهم تلك الوسائل السفاتج والصكوك والسفتجة (الكمبيالة) ورقة يكتب فيها المقترض قيمـة دينه للمقرض وتاريخ استحقاق الدين وقد يكون الوفاء فى بلد آخر . وقد عرف العرب فى معامـلاتهم التجارية السفاتج ، ولمـا جاء الاسلام أمر الله سبحانه وتعالى بكتابة الديون جاء ذلك فى قوله تعـالى **« يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه »** .

أما الصكوك فهى احـدى الوسـائل المعروفـة فى النقود الائتمانية ، وهو أمر خطى بدفع مقدار من النقود الى الشخص المسمى فيه .

وقد زاد اسـتعمال السفاتج والصكوك فى القرن الرابـع الهجرى ــ العاشر الميـلادى ــ لأهميتها فى المعـاملات المـالية ولتسهيل وسائل الدفع بين التجار بعضهم وبعض أو بين التجار والحـكومة .

وكان أهم ما يميز التعامل بهذه السفاتج سهولة حملهـا ، وكان استعمالها يتم لتصفية حسابات كبار التجـار بين الأقطار المختلفة ، أو تسوية الديون المعلقة بينهم فيذكر الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورى « بأن السفاتج والصكوك كانت تقبل من قبل التجار خارج نطـاق الأراضى الاسلامية . وقد ظهرت مؤسسات مصرفية تقوم بدور البنوك فى العصر الحاضر ، وهى بيوت الجهابذة الذين خدموا التجـارة كما دعموا اقتصاد الدولة فى بعض الفترات اذ كان الاسلام يحرم الربا واخذ الفائدة فى النقد على المسـلمين فان أهل الذمة تولوا ذلك . هـذا بالاضافة الى اللجوء الى بعض المخارج والحيل الفقهية لتيسير بعض أنواع التعامل الائتمانى » .

وقد وجدت سفاتج أو حوالات أو رقـاع يكتبها الجهابذة للتجار بقيمة المبالغ التى يريد الجهبذ امداد التاجر بها فى خارج البـلاد (٥) .

ويذكر الرحالة ناصر خسرو فى هذا الصدد تجربة شخصية مرت به اذا يقول « حينما كنت فى أسوان كان لى صديق هو أبو عبد الله محمد بن فلج ، فلما ذهبت من هنـا الى عيذاب كتب من اخلاصه

---

(٥) منذ سنة ٢٧٨ هـ كثر استخدام لفظ الجهبذ وهو لفظ مستورد دخل الى مصر بحكم ارتباطها بالخلافة العباسية ، وتمشيا مع وحدة الوطن العربى وتداخل الكثير من الالفاظ والكثير من مظاهر الحيـاة والحضـارة فى العالم العربى آنذاك ولفظ جهبذ كان يستعمل فى العراق بمعنى المشرف على المـالية أو الخبير المـالى .

لى لوكيله بها كتابا يقول فيه : أعط ناصرا ما يريد ، وهو يعطيك صكا للحساب ، فلما بقيت ثلاثة أشهر (يقصــد امتدت اقامته بعيذاب ثلاثة أشهر) وأنفقت ما معى ، اضطررت أن أعطى هذه الورقة للوكيل فأكرمنى وقال : ان له والله لدى أشياء كثيرة وانى معطيك ما تريد ، واعطنى صكا به فتعجبت من حسن صنع هذا الرجل محمد بن فلج الذى أظهر كل هــذه الطيبة بغير سابقــة منى اليه ولو كنت دنيئا واستملكت لنفسى لأخذت بهذه الورقــة اشياء كثيرة وقد أخذت مائة من من الدقيق وهو مقــدار كبير هناك وأعطيته صكا به أرسله الى أسوان وقبل رحيلى من عيذاب ورد خطــاب من محمد بن فلج لوكيله يقول له فيه أعط ناصرا ما يريد مهما تكن قيمته مما لى عندك واذا اراد فأعطه من مالك وانا اعطيك عوضا عنه » ومن هــذا النص نستنتج أن الخطــاب الأول الذى أعطــاه لناصر خسرو كأن صكا (ويعنى كمبيــالة فى العصر الحديث) . والخطاب الثــانى الذى ارسله لوكيله كان سفتجة (حوالة) .

ولم يقتصر التعامل بالصكوك والسفاتج بين التجار وأفراد الشعب بل امتد التعامل بها الى الدولة فقد كان كثير من الصكوك تكتب وتسحب على بيت المــال او على التجار أو على من يتقاضى عمولة نظير عمل معين .

فقد استخدم الصــك أيضا كنوع من المعــاملات المعروفــة داخل دوائر الحكومة لدفع رواتب الجند .

أما السفاتج فكانت تسحب عادة على التجار والباعة ولكل سفتجة موعد محدد لاستحقاقها .

وكان يمكن لصاحب السفتجة الحصــول على ماله دفعــة واحدة أو على أقساط محددة ضمن نصــوص السفتجة من قبل . وقد أورد لنا الأستاذ جرومان من خلال أوراق البردى العربيــة بعض تلك السفاتج التى استخدمت كوسيلة من وســائل الدفع وترجع الى عام ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) .

• البــاب الثــانى

ثروة مصر فى العصر الفاطمى
ومدى ادراك الرحالة المسلمين لازدهار
مصــر الاقتصــادى

الفصـــل الأول

الثروة الزراعية وما يتصل بها

تعتبر الثروة الزراعية من أهم مصـــادر الحياة الاقتصادية فى مصر منذ أقدم العصور . وقد أدرك العرب الفاتحون أهميـــة ثروة مصر الزراعية .

كما عرفوا قدر ثرواتها وخيراتها الوفيرة فتذكر الأســتاذة الدكتورة سيدة كاشف أن « العرب حين أتوا الى مصر لفتحهــا كانوا يعرفون ثروتها الزراعيـــة وخيراتهـــا . وكثيرا ما اظهـــروا اعجابهم بتلك الخيرات والنعم التى خص الله بها مصر والمصريين. ومن هـــذه الخيرات الوفيرة كانت مصر تقـــدم للفـــاتحين المـــال والطعام . فلا عجب اذ قال عمرو بن العاص ــ قائد فتح مصر ــ « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة » .

والحقيقة أن العرب قبل فتح مصر كانوا يدركون أهميـــة ثروة مصر الزراعية وأن هذه الثروة الضخمـــة كانت من أسباب

فتح العرب لمصر للاستفادة من خيراتها لخدمة الخلافة الاسلامية.

ومن هذا المنطلق اهتم العرب بشئون مصر الزراعية حتى يحافظوا على هذا المصدر الهائل لبيت مال المسلمين ، فاهتموا بحفر الترع وانشاء الجسور .

واستمرت البلاد تحظى باهتمام العرب طوال عصر الولاة . ولكن زاد هــذا الاهتمــام زمن الدولة الطولونيــة فقد اهتم أحمد بن طولون بشئون مصر الزراعية فاهتم بحفر الترع والقنوات واصلاح الجســور ، بل اهتم أيضا بشئون الفلاح المصرى فاهتم بحمايته من ظلم جباة الضرائب ، وأمده بالتقاوى الجيدة والآلات الزراعية اللازمة حتى يتسنى له الحصــول على محصــول وفير . وقد ظهرت نتيجة هذا الاهتمــام الكبير من قبل ابن طولون فى صورة زيادة الرقعة الزراعية ــ بمصر فتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف « أنه استغل فى الزراعة نحو مليون فدان » ــ ويعتبر هذا أعظم استغلال شهدته مصر لاستغلال الأرض الزراعية .

ونستنتج من هذا أن العصر الطولونى كان العصر الذهبى للفلاح المصرى وقد استمرت النهضــة الزراعية زمن الاخشيديين أيضــا . فاهتموا بشــئون الزراعــة واعتنوا بالأرض الزراعيــة فتعددت انواع الحاصلات الزراعية فى عصرهم واستمرت الزراعــة مصدرا مهما من مصادر دخل الدولة فى تلك الفترة .

أما عن ثروة مصر الزراعية زمن الدولة الفاطمية فقد أمدنا كثير من رحالة ومؤرخى تلك الفترة بمعلومات ضافية عن الزراعة باعتبارها العمود الفقرى للاقتصــاد المصرى ، فتكلموا عن الأرض الزراعية ومدى جودتها وانواع ونظام الرى المتبع والنيل ومقياسه واهمية فيضان النيل وتأثيره على أحوال الزراعة .

وبعضهم وصف الحاصلات الزراعية وقارن بينها وبين الحاصلات الزراعية فى بعض البلدان الاسلامية الأخرى وأضاف البعض الآخر الوسائل المتبعة لتحسين تلك الحاصلات وتفرد مصر ببعضها ، كما وصفوا لنا المشروعات الخاصة بالرى والصرف فى البلاد وأهم تلك المشروعات ، بل ان البعض أمدنا بالصناعات الزراعية وأهميتها فى زيادة دخل الفلاح المصرى . الا أن معظم رحالة العصر الفاطمى أغفلوا بعض الجوانب المهمة التى تخص الزراعة فمنها على سبيل المثال تحديد الرقعة الزراعية بالنسبة للمساحة الكلية للبلاد وكذلك نظام الملكية الزراعية .

ملكية الأرض :

قبل أن أتكلم عن الملكية الزراعية فى العصر الفاطمى وجدت أنه من الضرورى لكى تتضح الصورة أن أتتبع الملكية فى مصر بشىء من الايجاز منذ الفتح الاسلامى حتى ندرك مدى التغيير الذى حدث خلال العصر الفاطمى الثانى .

فمنذ الفتح العربى لمصر وبعد معاهدة بابليون الأولى فى أوائل سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) وكذلك معاهدة بابليون الثانية فى أواخر سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) . اعترف العرب بالملكية الشخصية وترك أملاك المصريين وابقائها فى أيديهم ولم يتم تقسيمها بين الفاتحين . بل ان معاهدة بابليون الأولى كانت بمثابة تنظيم العلاقة بين الفاتحين العرب من ناحية والمصريين أهل البلد من ناحية أخرى .

وقد وضع العرب فى اعتبارهم أنهم لم يأتوا لمحاربة أهل البلاد بل انهم أتوا لمحاربة الروم ولذا لم يدخل المصريون طرفا فى هذا الصراع .

وقد أورد لنا الطبرى ومن نقل عنه من المؤرخين مثل ابن تغرى بردى وغيره نص الأمان الذى منحه عمرو بن العاص لأهل مصر ومضمونه « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم ونسائهم وصلبهم وبرهم وبحرهم لا يدخل عليه شيء من ذلك ولا ينتقص ولا تساكنهم النوبة وعلى أهل مصر ان يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح ، وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليهم ماضى لصوتهم (لصوصهم) فان أبى احد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن أبى بريئة وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا عليهم ما عليهم ثلاثا فى كل ثلث من السنة جباية ثلث ما عليهم لهم على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة وذمة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين » .

ومن هذا النص تتضح لنا الأمور حيث لم يغير العرب من الأوضاع السائدة قبل الفتح اذ احتفظوا بالحالة الراهنة كما هى عليه من قبل واعترفوا بالملكية الخاصة وتركوا للمصريين أراضيهم بأيديهم . ويعتبر هذا منتهى الذكاء والحنكة السياسية من الخليفة عمر بن الخطاب حيث أراد أن يبقى العرب أمة حربية لا يشغلهم بأمر الزراعة والاستقرار من ناحية الى جانب ادراكه أن العرب لم يكن لديهم دراية كافية بالزراعة ، هذا الى جانب كسب ود أهل البلاد وضمهم الى صف المسلمين الفاتحين .

ولكن حكومة العرب استولت على الأراضى التى كان يمتلكها الأباطرة امتلاكا خاصا .

اذن فقد أصبحت الدولة العربية الاسلامية مالكة لأراض آلت اليها عن طريق استيلائها على أملاك الأسرات الحاكمة السابقة وكان من حق العرب أن يتصرفوا فى هذه الأراضى بالصـورة التى يرغبون فيها فنجدهم يقطعون جزءا من هذه الأراضى الى بعض الشخصيات لأسـباب مختلفة وهذا لا يمس الملكية الفردية التى اعترف بها عمرو بن العاص عند دخوله مصر .

اذن فليس هناك اختلاف على أن العرب لم يمسوا الملكيـة الفردية ، ولم يغيروا من نظام الملكية الزراعية التى كانت سـائدة قبل الفتح ، وانما ترك العرب الأرض فى أيدى أصحابها يمتلكونها امتلاك رقبة ومنفعة واقتصر دور الحكومة على تلك الملكيـة على حق السيادة العليا والحصول على الضرائب المقررة .

واستمر هذا النظام سائدا طوال عصر الولاة فى مصر فلم يتغير شيء منه وكذلك فى عصر الدولة الطولونية والاخشيدية . ولذا عندما أتى جوهر الصقلى الى مصر وجد أن هنـاك أراضى ملكا للدولة وأراضى الامتلاك الخـاص . فما كان منه الا أن أقر الأوضاع على ما هى عليه من قبل وتعهد باحترام الملكية الخاصة وعدم نزع ملكيتها من يد أصحابها نظير الطاعة ودفع الضرائب المقررة .

واعطى الشعب أمان يتضمن هذا المبدأ مضمونه « لكم على أمان الله التام والعام ، الدائم المتصـل الشامل المتجدد المتأكد على الأيـام وكرر الأعوام ، فى أنفسـكم وأموالكم ، وأهلـكم ، وضياعكم ، ورباعكم ، وقليلكم ، وكثيركم على أن لا يعترض عليكم معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب » .

· واذن فهذا الأمان يقر مبدأ احترام الملكية الخاصة وعدم التعرض لها بأى صورة من الصور ، وقد اكتفى الفاطميون بالاستيلاء على أملاك الأسرة الاخشيدية واراضى الدولة .

واصبح لهم مطلق الحرية فى توزيع تلك الأملاك التى حصلوا عليها ، على ذويهم وهو ما عرف باقطاع الاستغلال ، وهبة الانتفاع أى أن الخليفة يمنح المقطع حق الانتفاع بايراد الأرض مدى الحياة أو مدة متفقا عليها وبعدها تسترد الدولة الأرض وممكن للدولة أن تسترد اقطاع الاستغلال أيضا اذا أخل المقطع بشروط الخليفة .

وتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف فى هذا الصدد « أن مصر عرفت الاقطاع الذى عرف باقطاع (تمليك) يمنح للأفراد لاصلاح الأرض مقابل خدمات خاصة وكان يحدث نتيجة لانتقال الحكم فى مصر الاسلامية من أسرة الى أسرة أن تضم الأسرة الحاكمة الجديدة اليها أملاك الأسرة السابقة كما حدث. عندما استولى الفاطميون على مصر اذ ضم المعز لدين الله الفاطمى أملاك الأسرة الاخشيدية الى أراضى الدولة العامة .

وتؤكد العقود التى حصلنا عليها من أوراق البردى العربية على أن الملكية كانت ملكية رقبة ومنفعة (ملكية مطلقة) بين أفراد الشعب فكان للمالك حق التصرف المطلق فى أرضه سواء بالبيع أو الرهن أو الهبة أو الوقف .

ومن الملاحظات المهمة أن المراة كانت لها حرية التصرف فى ممتلكاتها بالبيع أو الرهن أو الشراء مثلها مثل الرجل تماما ففى أوراق البردى العربية كثير من عقود البيع والشراء باسم نساء

فهناك عقد بيع كشف بمدينة الأشمونين بين سيدة تعرف بسارة بنت قلته القزاز قامت ببيع عقار لرجل ونص العقد « هذا ما اشترى ريحان بن نشوان الساكن بمدينة الأشمونين من سارة ابنة قلته القزاز النصرانية الساكنة .... » .

وهناك بردية عليها عقد وقف يرجع تاريخها الى سنة ٤٠٢هـ ونص الوقفية « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوقف الفقيه عبد الله بن محمد بوقفيته هذه الضيعة بحدودها وحقوقها وطايرها ووعرها وبنائها ومعايرها وخبائها وشجرها ومجازها وكل حق هو فيها لها وكل حق فيها خارج منها حبسا ثابتا ما دامت الأرض ومن عليها » .

وهناك بردية اخرى ترجع الى شهر رجب سنة ٤٤٨ هـ (١٠٦٠ م) زمن الخليفة المستنصر بالله عبارة عن عقد بيع أملاك عقارية المشترى فيه يدعى « المكنى أبو السوى بن هليعة بن رمز قيل النصرانى » « والبائع » ثيروس بن كبل هلستوك الأجير » ومن الاسماء السابقة يتضح لنا أنهما من أهل الذمة اذن فقد تمتع أهل الذمة بحرية البيع والشراء والهبة والوقف مثل المسلمين تماما .

ومما تقدم يتضح لنا أن الدولة الفاطمية أقرت مبدأ الملكية الخاصة سواء للمسلمين من أهل البلاد أو أهل الذمة ـ بل الأكثر من ذلك فقد أقرت الدولة حق العبيد فى امتلاك العقارات والأراضى الزراعية والتصرف فيها . وهناك عقود بأوراق البردى العربية تؤكد ما ذكرناه فهناك عقد بيع ينص على أن « ريحان ابن نشوان » (المعروف بالعجلان من جملة العبيد البربر اشترى بمركز الأشمونين من اسطوراس التنيسى بن بيسيه النصرانى

الساكن يومئذ بهذه المدينة المذكورة فى هذا الكتاب لنفسه الذى انعم الله عز وجل به عليه جميع المنزل بأسره وكماله الذى أعلمه أنه له ويملكه) .

ولكن بعد كل تلك الحقائق التى أوردها لنا مؤرخو ورحالة العصر الفاطمى يأتى المقدسى ليفجر لنا قضية غاية فى الغرابة يعارض بها آراء الجميع وينفرد برأى مخالف لكل من سبقه أو عاصره من مؤرخي ورحالة تلك الفترة اذ يذكر ما نصه (سألت بعض المصريين ببخارى عن الخراج فقال ليس على مصر خراج ولكن يعمد الفلاح الى الأرض فيأخذها من السلطان ويزرعها فاذا حصد ودرس وجمع رشمت بالعرام وتركت ثم يتخرج الخازن وأمين السلطان فيقطعون كرى الأرض ويعطى ما بقى للفلاح قال وفيهم من يأخذ من السلطان تقوية فيزاد عليه فى كرى الأرض بمقدار ما أقتطعه قلت فلا يكون لأحد ثم ملك وضيعة قال لا اللهم الا أن يكون رجل قد اشترى ممن أقطعه السلطان فى القديم ووهبها فاحتاج هو أو ذريته الى ثمنها فباعها لعامة الناس . قلت فهذا الذى يقال ان أرض مصر لا تملك لأن أهلها باعوها من يوسف قال هذا كلام ألم تعلم أن الاسلام يهدم ما قبله أو لم تعلم أن يوسف رد على الناس املاكهم لما اخصبت مصر وانما هذا شيء صالحوا عليه المسلمين وقت فتوحها قلت فلم لم يصالحوا كما صالح اهل الشام وكلاهما فتحا عنوة قال الشام بلد يمطر فى كل سنة فلا يتعطل الزرع الا انه ربما أخصب وربما أجدب ومصر معمولة على النيل ربما لا جرى وربما بلغ اربعة عشر وستة عشر وربما زاد على ذلك ....) .

والحقيقة أن الرواية السابقة التى ذكرها المقدسى لا تصدر عن رحالة معروف بالدقة فى كتاباته ومشاهداته . فالمقدسى زار مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى فى عهد الخليفة

الفاطمى العزيز بالله وأقام بها مدة من الزمان ووصف لنا من خلال كتاباته الكثير والكثير عن أحوال البـلاد الاقتصادية سواء الزراعية أو الصناعية أو التجاريـة فقد اهتم بكل ما يتعلق بالاقتصـاد المصرى فى تلك الفترة اذن فمن الغرابة ان يأتى المقـدسى بالنص السابق ويقرره كحقيقة رغم ما به من اشتطاط وبعد عن الحقيقة فمن نص المقدسى نستلخص الآتى :

أن المقدسى زار مصر وأقام بها مدة من الزمن وكمـا سبق ان اوضحت فتكلم عن أحوالها الاقتصادية وثرواتها وخراجها وغير ذلك فما الداعى اذن أن يسأل المقدسى رجلا مصريا مقيما ببخارى عن خراج مصر وعن الملكية الزراعيـة بها ويأتى راى هـذا الرجل مخالفا لـا ذكره مؤرخو ورحالة وجغرافيو العصر الفاطمى وغيره (فيذكر أن ارض مصر لا خراج عليها) ويعتمد هـذا الرجل المقيم ببخارى فى رأيه على أن المساحة المنزرعة بمصر يتم مراجعتهـا كل سنة ويرجع ذلك لانعدام الملكية الزراعية ، وهـذا أيضـا جنوح عن الحقيقة . فمراجعة المساحة المنزرعه بمصر كل سـنة أمر طبيعى يتم كاجراء مالى بحت بغرض معرفة الأراضى الزراعية التى غمرها ماء الفيضـان غمورا تاما أو التى غمر جزءا منهـا أو عجز عن الوصول اليها اذ على أساس هذا الاجراء يتم تحديد فرض الخراج ولكننى اعتقد أن المقدسى قد وقع فى خطأ عندما اعتمد فى تقرير حقيقة ثابتة اعتماده على رجل خلط بين الأمور فكثيرا ما كان العامة يخلطون بين الأراضى التى يمتلكهـا الأفراد امتلاكا خاصا وبين تلك الأراضى التى تمتلكها الدولة والتى كانت تعرف بأراضى الحوز وعدم التمييز بين الملكية والقبالة ، فنظـام التقبيل كان عملا ماليا بحتا الغرض منه تسهيل جباية الضرائب

ولا علاقة له بالملكية الزراعية كما أن ارض الحوز التى تمتلكها الدولة كان يتم تأجيرها وفق نظام محدد يحدده بيت المال ويخضع لشروط معدة قبل ذلك فاما أن يتم وفق نظـام المزارعة أو المقاسـمة فى المحصول ـ وهو ما ذكره المقدسى فى غير موضعه ـ أو أن يتم مقابل ايجار محدد تحدده الحكومة ويقبله المستأجر . وهو ما عرف بنظام المساحة ويعنى أن تحدد الدولة خراجا معينا على مساحة محددة من الأرض ، تجبيه فى كل عام ، دون النظر الى ما يحدث من اختلاف كميات المحصـول ، أو أى اعتبارات أخرى ، وهذا يخالف نظام المقاسمة والذى كان يتم فيه توزيع المحصـول بنسبة معينة دون اعتبار للمساحة فيتغير الخراج بطبيعة الحـال بتغير المحصول الذى ينتج .

انواع الأراضى الزراعية :

أما انواع الأراضى الزراعية فقد تعددت فى مصر الفاطميـة وذلك يرجـع الى تباين الأراضى الزراعيـة من حيث الارتفـاع والانخفاض والجودة والرداءة . الى جانب عنصر مهم وهو مدى وفرة مياه الرى أو ندرتها ووصولها الى مناطق دون أخرى كل هذا أدى الى تعدد انواع الأراضى الزراعية . ورغم أن الرحـالة أسهبوا فى وصف الحاصـلات الزراعية الموجودة فى كل بقعة من ارض مصر الا انهم لم يتـكلموا عن انواع الأراضى المعروفـة فى تلك الفترة .

ولذا سنتتبع أنواع الأراضى الزراعيـة من خـلال كتابات مؤرخى تلك الفترة وقد امدنا ابن مماتى والمقريزى والقلقشندى وابن بصال وغيرهم بأنواع الأراضى الزراعية التى بلغت ثلاثة عشر نوعا متباينا من حيث قيمتها الانتاجية .

ولكن ابن بصال قسمها الى عشرة انواع هى اللينة والغليظة والجبلية والرملية والسوداء والبيضاء والصفراء والحمراء والخرث (الخرس) والمضرســــة والأرض المـائلة الى الحمـرة وغالبـا لا تختلف هذه الأنواع التى ذكرها عن ما ذكره بقية المؤرخين الا من حيث الاسماء وخاصة ان ابن بصال هذا ليس مصريا .

النوع الأول ــ الباقي ويعتبر من أخصب الأراضى الزراعية ولذا اعتمدت عليه الدولة فى زراعة القمح والكتان لجودة ارضـه . ويعتبر من أعلى الأراضى الزراعيــة قيمة وأوفرها سعرا واغلاها قطيعــة .

النوع الثانى ــ ارض الشراقى وهى الأرض التى ظمئت اى لم يصل اليها ماء فى السنة المـاضية لمدة طويلة جدا ويوجد بها شقوق نتيجة للعطش ويطلق عليهـا أيضـا الأرض العطشانــة اشتدت حاجتها الى المـاء فلما رويت حصل بها من الرى بمقدار ما حصل اها من الظمــأ وكانت مستريحة وزرعت فأتت بمحصول طيب وهى تتبع الباقى من حيث الجودة .

النوع الثالث ــ ارض البرايب أو البروبيه وهى أقل مرتبة من أرض الشراقى حيث تأتى زراعتها بعد زراعة محصــول القمح والشعير مما يجعلها مجهدة فلا تغل مثل سابقتها بمحصــولات جيدة ولذا تعتبر اقل مرتبة وبتم زراعتها بنوع من الحاصــلات التى لا ترهقها مثل القرظ والمقاتى والقطانى لكى تستريح فتخصب فى السنة التالية لها حيث تكون الأرض قد استراحت .

النوع الرابع ـ البقماهة وهى الأرض التى زرعت بمحصول الكتان واستمر فيها حتى نضج فأجهدها لانه من النباتات المجهدة ولذا فعند زراعة القمح بعده يأتى محصـوله هزيلا ضعيف الحبة ولونه غير طبيعى ويكون انتاجه رديئا .

النوع الخامس ـ الأراضى الشتونية وهى الأراضى التى لم يصل اليها المـاء خلال العام المـاضى نتيجة لانخفاض ماء النيل فظمئت وتشرقت وأصبحت لقلة وصـول الميـاه اليهـا بورا ثم اضطروا لزراعتها فيأتى محصولها ضعيفا وتستمر فى حالة البوار الى العام التالى ولذا نجدها دون الشراقى من حيث المحصول .

النوع السادس ـ السلايح شق شمس السلايح وهى الأرض التى رويت ثم حرثت أو رويت ثم بارت وتركت فحرقت وتعطلت وغالبا ما يترك الفلاح هذه الأرض الى العام المقبل ويحرثها أكثر من مرة لتهويتها وتعريض باطنها لأشعة الشمس مما يجعلهـا فى العام التالى من الأراضى الجيدة التى تأتى بوافر المحصول وغالبا ما تكون تلك الأرض بها شقوق كثيرة وهذا النوع من التربة ينتشر بصعيد مصر .

النوع السابع ـ البرش النقاء وهى الأرض المحروثة بعناية وخالية من الحشائش والأعشاب المضرة بالزراعة فتأتى زراعتهـا بعد ذلك جيدة المحصول .

النوع الثـامن ـ الوسخ المزروع وهى الأرض التى لا يتم ازالة كل ما بها من أنواع العشب والحلفاء التى تضر بالزرع وتم حرثها وزراعتها فيأتى محصولها غير جيد تختلط فيها الأعشاب ولذا أطلق عليها هذا الاسم .

النوع التاسع ـ الوسخ الغـالب وهى الأراضى التى غلبت فيها الحشائش والأعشاب مما جعل محصولها لا يذكر ولذا نجدها تتحول من أراض زراعيـــة الى مراع للماشـــية حتى يتم ازالة ما بها من حشائش وحلفا . ويعتبر هـذا النوع من الأراضى مرحلة من مراحل التدرج بين العامر والغامر .

النوع العاشر ـ الخرس وهى الأرض الفاسدة ذات قلويـة زائدة لونها أزرق وفيها قلاقيل (الطمى والطين متجمعين كتلا) وهى أيضا زادت فيها الحشائس والحلفا الى درجة توغلها فى الأرض فأصبح من العسير ازالتها بسهولة مما يجعل تلك الأرض لا تتقبل أى نوع من المزروعات الأخرى وهى أشد من الوسخ الغالب فى التعامل معها حيث لا تصلح بالمرة للزراعة الا بعد مدة طويلة ولذا تتحول الى مراع للدواب .

النوع الحـادى عشر ـ الشراقى وهى تـلك الأراضى التى تشرقت نتيجة لعدم وصول المـاء اليها لارتفاعها عن منسوب المياه أو حجب المـاء عنها فى وقت الفيضان أو لأسباب أخرى فلم يصل اليها المـاء ولذا نجدها لا تغل محصـولا يذكر وهى تختلف من حيث نوعيتها عن النوع الثانى الذى ذكره المقريزى لأنها تزرع فى نفس السنة ولا تترك للعام الثـانى ولكنهـا لا تعطى محصـولا جيـدا .

النوع الثانى عشر ـ المستبحر وهى الأرض التى غمرها ماء الفيضـان واسـتمر فيها مدة أطول من اللازم حتى يأتى وقت الزراعة ولم ينصرف هـذا المـاء الى المصارف الطبيعية وغالبا ما تكون أرضا واطئة ولذا تتعطل زراعتها موسما كاملا كمـا أن نمو النبات بها يكون ضعيفا لعدم توافر المكونات الطبيعيـة لتربتها

نتيجة لغمرها بالمياه مدة طويلة ويضيف ابن مماتى أن هـذا النوع من الأراضى ممكن الاستفادة منها كمصـدر من مصـادر المـاء حيث تركب عليها السواقى وتسقى منها الأراضى المحتاجة للسقيـة .

النوع الثالث عشر – أرض السباخ (التسبيخ) وهى الأرض التى ارتفعت فيها نسبة الأملاح (كلوريد الصوديوم) وكذلك كمية كبيرة أيضـا من السماد التقليدى حتى أصبحت غير صالحـة لزراعـة الحبوب وأحيانا يقطع منها جزء لاستخدامه كنوع من السباخ واذا لم يستحكم منها الأملاح فيمكن زراعتها بأنواع معينة من الحاصلات مثل الهليون والباذنجان والقصب الفارسى .

الحاصلات الزراعية :

تعددت الحاصلات الزراعية بمصر منذ أقدم العصـور فقد عرفت مصر من قبل الاسـلام كثيرا من أنواع النباتات والمزروعات فكانت تنتج الحبوب بكثرة وخصـوصا القمح والشعير والذرة كما عرفت أيضا البقول المختلفة والخضروات هـذا الى جانب الفاكهة المتعددة والورود والريحان والزهور وعندما دخل العرب مصر استمرت السياسة الزراعية كما هى فلم يدخل العرب أنواعا جديدة من الحاصلات الزراعية بل استمرت امتدادا لمـا كانت عليه قبل الفتح الاسلامى .

اما فى عصر الدولة الفاطمية فقد استمرت تلك الحاصـلات الا أنها تبلورت وتحسنت طريقة زراعتها وزاد انتاجها مما لفت انظـار كثير من رحـالة العصر فأمدونا بمعلومات وفيرة عن تلك الحاصلات ومواسم زراعتهـا وطرق زراعتها بل ان بعضهم عقد مقارنة بين بعض الأنواع ومثيلاتها فى البلاد الأخرى التى مر بها .

وقد ساعد على تعدد الحاصلات الزراعية واستمرار تواجد بعضها فى الأسواق فى غير مواسم زراعتها الأصلية اتساع رقعة الأرض الزراعية بمصر من ناحية والتباين الواضح فى سطح التربة الزراعية من ناحية أخرى . الى جانب اختلاف المناخ والجو من منطقة الى اخرى كل هذه العوامل ساعدت على تعدد الحاصلات الزراعية واجتماع الحاصلات فى وقت واحد . ولذا نجد بعض الرحالة يذكر هذه الظاهرة ويحاول تعليلها ومثال ذلك ما ذكره ناصر خسرو وما ذكره المؤرخون مثل الكندى والمقريزى حيث اتفقت نصوصهم جميعا على هذه الظاهرة التى لا تتوافر الا فى القليل من البلاد فنجدهم يذكرون « يوجد بمصر كل وقت من الزمان من المأكول والمأدوم والمشروب والمشموم وسائر البقول والخضر وجميع ذلك فى الصيف والشتاء لا ينقطع منه شيء لبرد ولا حر » ويرجع البعض تلك الوفرة فى الحاصلات الى تمتع البلاد بالاستقرار الاقتصادى والأمنى وخصوصا فى فترات الاستقرار السياسى .

ولم يقتصر الأمر على هذا فقط وانما أيضا أعتمدت تلك الوفرة فى الحاصلات على الخدمات التى تقدمها الحكومة للمزارعين من حيث امدادهم بالتقاوى المنتقاة والاشراف الشامل على المشروعات الزراعية الخاصة بالرى والصرف والمسامحة فى الضرائب فى أوقات الأزمات مما جعل بعض الرحالة يضيف حاصلات زراعية بعينها ويذكر انها لا يوجد لها مثيل فى بلدان اخرى من حيث جودة الانتاج ووفرته .

وعلى الرغم من أن الفاطميين لم يدخلوا انواعا جديدة من الحاصلات الزراعية الا ان الحكومة الفاطمية اعتمدت على الموجود من الحاصلات بالبلاد منذ أقدم العصور بالبلاد وأولته عظيم الاهتمام .

وقد ساعد على انتظام أمور الزراعة فى البلاد اعتماد الفلاح المصرى منذ أقدم العصور على مواسم زراعيـــة يحددها انتظـــام ماء الفيضان للنيل من ناحية ويؤثر فيها الظواهر الطبيعية من ناحية أخرى .

ولذا نجده يعتمد على تحديد مواعيد بداية مواسمه الزراعية على الشهور القبطيـــة وهى التى تتفق الى الآن مع منـــاخ مصر وزراعتها ـ حيث قسمت السنة الى أربعة فصول متساوية هى فصل الخريف وأوله شهر توت (١٢ سبتمبر) ، فصل الشـــتاء وأوله شهر كيهك (ديسمبر) ، فصل الربيع وأوله شهر برمهات (١٠ مارس) ، وفصل الصيف وأوله شهر بؤونة (٨ يونية) .

وكانت الأرض الزراعية تتميز فى كل فصل من تلك الفصول الأربعة بمظهر مختلف وصفت بأنها ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضـــاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء . فاللؤلؤة البيضاء زمان فيضان النيل وغمره للأراضى الزراعية كلها فتبدو مع انعكاس أشـــعة الشمس كأنهـــا لؤلؤة .

أما المسكة السوداء فهى تلك الفترة التم يتم صرف مـــاء النيل الى الترع والمصـــارف تاركا خلفـــه الطمى الأســـود الذى يكسب التربة النماء مما يجعلها تبدو كأنها سوداء لها رائحـــة ذكيـــة .

أما الزمردة الخضراء فهى تلك الفترة التى يكســـو فيهـــا الزرع الأرض فتبدو من كثرة خضرتها ونماء حاصلاتها كأنها زمردة جميلة وهـــذا يدل على مدى خصوبة الأراضى الزراعية فى مصر حيث الانتاج الجيد الصحى .

أما المقصود بالسبيكة الذهبية فهى تلك الفترة التى يتم فيها نضوج الزرع ويحل موعد حصاده أو جنيه .

ويحضرنى هنا ما ذكره عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب عن مصر فيذكر « اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ويكتنفها جبل ورمل اغبر يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر . له أوان يدير صلابة . فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذا هى عنبرة سوداء فاذا هى زمردة خضراء فاذا هى ديباحة قشاء فتبارك الخالق لما يشاء » .

وقد قسمت السنة الزراعية فى العادة الى قسمين فصل للزراعة الشتوية وآخر للزراعة الصيفية ولكل منهما مواعيده وغلاته التى يتميز بها .

أما الزراعة الشتوية فهى تلك التى تبدأ بعد انحسار ماء النيل عن الأرض الزراعية ويكون هذا فى نهاية شهر بابة (١٢ اكتوبر) حيث يبدأ الفلاح المصرى فى وضع باكورة البذور .

وتعتمد الزراعة الشتوية على الرى عن طريق فيضان النيل وغالبا ما كانت الزراعة الشتوية تسود معظم مناطق مصر العليا والوسطى ويستثنى من هذا اقليم الفيوم الذى كان يتم ريه ريا دائما .

وهذا لا يمنع أن هناك أراضى تعتمد فى زراعتها على الرى الصناعى حيث لا يغمرها ماء النيل بصورة كلية ولذا يلجأ الفلاح الى حفر بعض الآبار وغالبا ما يحاول الابتعاد عن هذا النوع من الزراعة لارتفاع تكاليف الرى ولذا يعتمد فى الغالب على الأراضى التى يغمرها ماء الفيضان .

أما الزراعة الصيفية فهى تلك المحاصيل التى تم زراعتها بعد حصاد المحاصيل الشتوية وهى فى الغالب يتم زراعتها فى المناطق القريبة من النهر لكى يتم ريها بواسطة رفع المياه من مجرى النهر بالسواقى والقواديس والآلات الخاصة برى الأرض .

وهناك أراض زراعية يتم زراعتها بواسطة رفع المياه من الآبار مثل المناطق الزراعية فى الواحات .

أما الحاصلات الشتوية فيتربع القمح على قائمة تلك الحاصلات حيث يعتبر المحصول الأساسى فى غذاء الشعب المصرى ويشمل الجزء الأكبر من المساحة المنزرعة للأراضى الخصبة بالدلتا والصعيد وان كانت أماكن اشتهرت بزراعته بحيث ذكرها الرحالة وأسهبوا فى وصف محصولها ومن تلك المناطق منطقة منفلوط التى كانت تنتج القمح الجيد ذا الحبوب الطيبة وتقوم بتصديره الى المناطق الأخرى فى البلاد فيتهافت عليه تجار الحاصلات الزراعية فيصعدون فى المراكب لاستجلابه .

أما القمح اليوسفى فيعتبرونه أجود الأنواع على الاطلاق ويذكر الكندى « أنه يوجد فى مصر القمح اليوسفى وليس هو فى الدنيا الا بمصر » .

حيث يعتبر أطول شكلا وأثقل وزنا .

أما منطقة الفيوم فانتاجها من القمح غاية فى الجودة حتى ان بعض المؤرخين أطلق على قمحها القمح الموصوف .

وهناك بعض المناطق فى الواحات تزرع القمح بحيث يفيض انتاجه عن الاستهلاك المحلى فتقوم بتصديره الى المناطق الأخرى من البلاد وخصوصا لمدينة الفسطاط والقاهرة حيث تعتمدان على هذه المناطق فى الحصول على احتياجهما من القمح .

ويرجع ابن حوقل وفرة انتاج القمح الى استقرار الحيـاة السياسية فى الواحات تحت رعاية قبـائل بنى عبدون من ناحية وأخذ الهدنة بينهم وبين ملك النوبة من ناحية أخرى . وكانت قبائل عبدون تدين بالولاء للدولة الفاطمية وتؤدى الخراج والجزية بانتظـام .

ومن المناطق التى اشتهرت بوفرة انتاجها من القمح منطقـة المشتول حيث كانت تمد بلاد الحجـاز بالغـلال والدقيق فيذكر المقدسى الذى زار مصر فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى زمن الخليفـة الفاطمى العزيز بالله « أن تلك المنطقة كانت عامرة بالطواحين ومنها تحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك ويضيف بانه قام بعمل احصـائية لعدد الجمال التى تخرج محملة بالدقيق فوجدها تبلغ ثلاثة آلاف جمل فى كل أسبوع كلها محملة حبوبا ودقيقا وفى طريقها الى بلاد الحجاز » .

فقد عرف منذ الفتح الاسلامى أن مصر تمير أهل الحرمين وتوسع عليهم .

فتذكر الأستاذة الدكتورة سـيدة كاشف أنه « منذ الفتح الاسلامى كان القمح من أهم ما ترسله مصر الى الخلافة الاسلامية، فبعد أن كانت ترسل القمح سنويا الى روما ثم بيزنطة أصبحت بعد الفتح العربى ترسل القمح الى الحجـاز وقد استمرت عادة ارسال القمح الى الحجاز حتى بعد أن انتقل مركز الخلافة من الحجاز الى بلاد الشام ثم العراق .

أما مناطق وسط الدلتا فيصفها ابن حوقل الذى زار مصر فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميـلادى) بأنها كانت كثيرة القمح ومن أهمها منطقة (صخا) سخا حيث يزرع فيهـا نوع من القمح الجيد .

وغالبا ما كان يتم زراعة محصول القمح فى آخر شهر توت (١٢ سبتمبر) الى شهر بابة (١٢ أكتوبر) ويتم حصده فى شهر كيهك (١١ ديسمبر) وتأتى زراعته اثر الباق والشراقى . وفى الصعيد يزرع القمح فى اثر القمح لكثرة الطرح .

ويحتاج الفدان من بذر القمح من اردب الى خمس ويبات وأحيانا أربع ريبات وهناك أراض زراعية تحتاج الى أقل من هذا وخصوصا فى منطقة الصعيد ، ويبلغ محصول الفدان الواحد من أردبين الى عشرين أردبا ويأتى هذا التفاوت فى انتاج الفدان الواحد للاختلاف فى جودة وخصوبة الأراضى الزراعية من منطقة الى أخرى فى مصر ومقدار ما يصل اليها من مياه النيل واستقرار احوال البلاد .

وتبلغ قطيعة فدان القمح ببلاد الصعيد زمن الدولة الفاطمية ثلاثة أرادب فلما مسحت البلاد سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) بعد سقوط الدولة الفاطمية وقيام دولة بنى أيوب بوقت قصير تقرر على الفدان أردبان ونصف ثم تقرر أردبان عن الفدان .

الشعير :

من الحاصلات التى امتدت زراعتها على طول البلاد ويرجع السبب فى هذا الى أنه من الحاصلات التى لا تحتاج لأرض جيدة بل انه ينمو فى جميع أنواع التربة وغالبا ما يزرع قبل القمح بأيام ويحصد قبله ايضا وهو لا يختلف فى ما يعطيه الفدان من محصول .

ويعتبر من الحاصلات المهمة التى يحتاجها الفلاح المصرى .

فيتم تحويله الى دقيق فى المناطق الفقيرة واستخدامه فى صنع الخبز الى جانب استخدامه كعلف للحيوانات المختلفة .

والحقيقة أن رحالة العصر لم يهتموا بذكر هذا النوع من الحبوب فلم يرد اسمه عند الكلام عن الحاصلات الزراعية ذات الأهمية فى حياة الشعب الا اننى اعتقد أن كلمة « قموح » كانت تعنى القمح والشعير .

الفـــول :

تكثر زراعته فى منطقة الدلتا والصعيد أيضا وغالبا ما يزرع فى أثر القمح وقد لاحظ الرحالة كثرة زراعته بضواحى القاهرة ويزرع فى شهر بابة (١٢ أكتوبر) ويستخدم كنوع من الغذاء قبل نضجه فى شهر كيهك (١١ ديسمبر) وغالبا ما يحتاج الفدان الى ثلاث ويبات من البذور . ويغل الفدان ما يقرب من عشرين أردبا ، ويعتبر من الحاصلات المهمة التى تدخل فى غذاء الشعب المصرى الى جانب استخدامه كنوع من العلف للحيوانات .

ويحتاج الفدان من نصف أردب الى ما حول ذلك . وتبلغ غلة الفدان من اردبين الى عشرين اردبا وقطيعة الفدان ثلاثة أرادب الى أردبين ونصف والفول من الحاصلات المهمة التى يعتمد عليها الشعب المصرى فى غذائه وقد ورد ذكره فى كثير من كتابات المؤرخين كغذاء شعبى مهم تأتى أهميته بعد القمح ، وكان رحالة العصر يصفونه عندما يتكلمون عن الحاصلات الزراعية ضمن البقول التى تجود زراعتها فى ضواحى القاهرة الى جانب انتشار زراعته أيضا فى مناطق متفرقة من البلاد وقد جاء ذكره فى أوراق البردى العربية على انه كان من الحاصلات المهمة فى القرن الرابع الهجرى.

وتتم زراعته فى شهر بابة (١٢ اكتوبر) ويؤكل أخضر فى شهر كيهك ويتم نضجه وحصـــده فى شهر برمودة (٩ ابريل) . وغالبا ما يحتـــاج الفدان الى ثلاث ويبات كتقاو ويبلغ محصـــول الفدان الواحد ما بين عشرين اردبا وأحيانا أقل من ذلك حسب جودة الأرض الزراعية .

العـــدس :

وقد اهتم الفلاح المصرى بزراعتـــه باعتباره غـــذاء رئيسيا للطبقات الشعبية الى جانب استخدامه كغذاء فى بعض المناسبات الدينية حيث كان يستخدم منه كميات وفيرة فى عيد خميس العهد او خميس العدس عند المسيحيين ويتم زراعتـــه فى شهر هاتور (١١ نوفمبر) ويتم حصده فى شهر برمودة (٩ ابريل) ويبلغ مقدار التقاوى المستخدمة فى زراعـــة الفدان ويبتين من البذور ويعطى الفدان محصولا يصل الى عشرين أردبا .

الحمـــص :

وتتم زراعته فى شهر توت (١٢ سبتمبر) ويدرك أخضر فى برمهات (١٠ مارس) ويتم نضجه فى شهر برمودة (٩ ابريل) .

الجلبـــان :

من النباتات المهمـــة فى العصر الفاطمى كثرت زراعتهـــا لاستخدامها كعلف للحيوانات وخصوصا الجمال . وكانت زراعته تنتشر فى الصعيد والفيوم وخصـــوصا فى الأراضى التى لا تجود تربتها لزراعة القمح أو غيره فكانت تستخدم كمراع ويؤخذ عنها ضريبة تعرف بضريبـــة المراعى وقد ورد ذكر تلك الضرائب فى

أوراق البردى العربيــة حيث وردت بعض الايصالات التى يذكر فيها أصحابها سدادهم لضريبة المراعى .

كما ورد أيضا ذكر الجلبان كنوع من النباتات مما يجعلنــا نشعر أن زراعته كانت منتشرة . ويتم زراعة كل فدان من الجلبان بما يقرب من أربع ويبات من الحبوب ويتم الحصــول على ما يقرب من عشرة أرادب من حبوب الجلبــان . وكانت غالبيته تباع فى الأسواق كتقاو ويبلغ خراج الفدان أردبين ونصف .

الكتـــان :

ويعتبر من الحاصــلات المهمــة التى ازدهرت فى العصر الفاطمى واهتمت بها الحكومة الفاطمية نتيجة لاهتمامها بالتقدم الصناعى حيث أولت هــذا المحصول عناية خاصــة لاحتياجها له فى الحصــول على المنتجات الكتانيــة من ناحية وكسلعة مهمة من السلع التى يتم تصــديرها الى الخارج من ناحيــة أخرى ولذا اقامت المصانع الكبرى لنسيج الأنواع الجيدة منه فى مناطق زراعته وقد تمركزت زراعته فى المناطق الواطئة او المنخفضــة التى يستمر فيها ماء النيل أطول مدة من العام حيث يحتــاج الى كمية كبيرة من المياه الى جانب احتياجه الى التسبيخ للحصول على نوعيــة جيدة منه وقد انتشرت مناطق زراعتــه فى تنيس ودمياط وشطا ودبيق والقيس ودميرا والبهنسا وأهناس وأسيوط والفيــوم .

وهناك أنواع عديدة من الكتان ذكرها لنا الرحالة من أجودها ما يزرع فى منطقة بوصير حيث الأنواع الرفيعة والجيدة منه وقد انتشرت زراعته فى منطقة الفيوم ولكن الأنواع المزروعة منه أقل جودة من انتاج منطقــة بوصير ولو أنها أوفر انتاجا . ويذكر

ابن حوقل ان الكتـــان كان من الحاصـــلات المهمة فى الأشمونين وكتان أخميم من أجود أنواع الكتان . ويتم زراعته فى شهر هاتور (نوفمبر) ويتم نضجه فى شهر برمودة . أما بذوره فيتم تحويلها الى نوع من الزيوت يستخدم فى الطعام وهو المعروف باسم الزيت الحـار . وبعطى الفدان من تلك البذور ستة أرادب فى المتوسط كما يعطى محصولا يبلغ فى المتوسط ثلاثين شدة .

ونتيجة لأهمية الكتان فقد ارتفعت القيمة الايجارية للفدان الى اربعة دنانير وينفرد الكتـــان بهذا حيث ان ايجار فدان البقول أو القموح لا يتعدى ٥ر٢ دينار .

أما خراج الفدان فقد بلغ ثلاثة دنانير ويصـــل أحيانا الى خمسة دنانير هذا وببلغ خراج الفدان فى منطقة دلاص ١٣ دينارا ويرجع ذلك الى جودة ووفرة انتاج فدان الكتان بمنطقة دلاص .

اما القرظ (البرسيم) :

فيعتبر من الحاصـــلات المهمـــة حيث يعتمد عليه الفـــلاح المصرى كغذاء رئيسى للماشية وذلك لندرة المراعى الطبيعيـــة من جهة هذا الى جانب اهميته للتربة من جهـــة أخرى حيث تكون زراعته ضرورية لاعادة خصوبة بعض أنواع التربة .

ويتم زراعته بعد انحســـار ماء الفيضـــان ولا يجوز تأخير زراعته عن شهر بابة (أكتوبر) حيث يؤثر هبوب الرياح الجنوبية على وفرة محصوله . وهناك نوع يسمى الحراثى يزرع فى شهرى كيهك وطوبة ويزرع احيانا فى شهر هاتور . ويتم بذر ما يقرب من ويبتين ونصف فى كل فـــدان ويتم الحصول عليـــه كعلف أخضر للحيوانات فى شهر كيهك والحراثى فى شهر طوبة وأمشير ويتم

الحصول على بذور من الفــدان الواحد ما بين ويبتين الى أربعة أرادب .

اما البصــل والثوم :

فقد تبدأ زراعتهما من شهر هاتور (نوفمبر) الى نصــف شهر كيهك ويحتاج فدان البصل فى البذور الى ثلاثة ارباع ويبة كاملة . اما الثوم فيتم استخدام مائة وخمســين حزمة كتقــاو للفدان الواحد ، ويتم ادراك محصــوله فى شهر برمودة بعد أن يكون قد مضى على زراعته سبعون يوما وأحيانا تسعون يوما ويرجع اختلاف مدة بقاء البصــل والثوم فى الأرض الى اختلاف درجــة الحرارة بين الوجه البحرى والقبلى ومن هنا جاء اطلاق السبعينى او التسعينى على المحصول تبعا لمدة بقائه فى الأرض .

وهناك بصل يتم اخراجــه من الأرض ليزرع زريعة فيتم زراعته فى شهر كيهك ويتم اخراج عشرة أرادب فى الزريعة من الفــدان .

ويكون هــذا خلال شهر بشنس (مايو) ويذكر المؤرخون والرحالة انه فى العصر الفاطمى بلغت غلة الفــدان ما بين عشرة دنانير الى عشرين دينارا ويبلغ خراج فدان البصل دينارين .

الترمــس :

يتم زراعته خلال شهر طوبة ويحتاج الفدان من البذور الى اردب ليحصل الفلاح فى نهاية الموسم خلال شهر برمودة (ابريل) على عشرين اردبا ويبلغ خراجه دينارا وربع الدينار .

وعلى الرغم من وفرة حاصلات مصر الزراعية فى فصل الشتاء الا أن الرحالة لم يهتموا بذكر معظمها واكتفوا بذكر الحاصلات الرئيسية كالقمح والشعير والكتان باعتبارها حاصلات مهمة مؤثرة فى اقتصاد البلاد أما بقية الحاصلات فلم يعطوها أى نوع من الاهتمام ولذا انفرد المؤرخون دون الرحالة بذكر الحاصلات التى ذكرتها هنا .

أما الحاصلات الصيفية فتبدأ زراعتها بعد حصاد الحاصلات الشتوية وتعتمد على الرى الصناعى أى الرى برفع المياه من مجرى نهر النيل بواسطة الشادوف حيث يكون ماء النيل فى حالة التحاريق ولذا كانت تجود فى الأراضى المنخفضة والقريبة من مصادر المياه وخصوصا فى المناطق المنتشرة فى وسط الدلتا ومن أهم الحاصلات الزراعية القصب والقطن ، والقلقاس والسمسم واللوبيا والباذنجان والكرنب والنيلة واللفت والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ .

ويأتى قصب السكر على رأس قائمة الحاصلات الصيفية بمصر منذ العصر الاسلامى فقد أدخلت زراعته فى مصر زمن الخليفة عمر بن الخطاب الا أن الحكومة الفاطمية اهتمت بزراعته اهتماما كبيرا وذلك لحاجتها المتزايدة للسكر ولذا توسعوا فى زراعته وتجويد أنواعه لاستخدامه فى المطابخ السلطانية فى عمل الحلوى فى المناسبات والأعياد المختلفة وقد أمدنا رحالة العصر بالكثير عن قصب السكر بمصر فنجد ناصر خسرو يلفت نظره كثرة قصب السكر بمصر فيذكر أن مصر تنتج عسلا وسكرا كثيرا وهذا دليل على وفرة ما كان ينتج منه فى مصر وتجود زراعته فى منطقة أبنود حيث تنتشر معاصر السكر فى تلك المنطقة وكذلك

تجود زراعته فى أسيوط حيث يذكر القزوينى أن بها « سائر أنواع السكر ومنها يحمل الى جميع الدنيا » ويدل هذا على وفرة انتاج هذا المحصول المهم وكذلك يتفق ياقوت معه فى هذا الراى حيث يذكر أن مدينة أسيوط فيها أنواع من السكر « لا تخلو منه بلد اسلامى » وهذا دليل قاطع على وفرة الانتاج من ناحية واعتبار السكر من المحصولات المهمة التى تصدرها مصر الى بقية دول العالم الاسلامى .

ويتم زراعة محصول القصب فى نصف شهر برمهات (مارس) ويحتاج الى ١/٨ فدان من القصب الذى يقطع ويدفن فى الأرض زوجا زوجا ولا يكون فى القطعة اقل من عينين وينضج القصب الراسى أى الذى يزرع لأول مرة فى طوبة . أما القصب الخلقة وهو الجيل الثانى فينضج فى هاتور (نوفمبر) ويحمل الى المعاصر ويعطى الفدان محصولا يبلغ نحو أربعين الى ثمانين أبلوجة كما يغل ما قيمته عشرون دينارا الى مائة دينار من عسل وقند وسكر العسل أو السكر الجلاب . ويبلغ خراج القصب الراسى خمسة دنانير والخلقة دينارين وخمسة قراريط .

القطـــن :

وعلى الرغم من اغفال الرحالة فى العصر الفاطمى لذكر القطن كمحصول زراعى ضمن الحاصلات الزراعية الصيفية الا أن أوراق البردى العربيـة من جهة والأستاذة الدكتورة سيدة كاشف من جهة أخرى أوردا هذا المحصول كأحد الحاصلات الصيفية الموجودة بمصر منذ عصر الولاة الا اننا نعتقد أن هذا المحصول لم يكن منتشرا بصورة كبيرة فى القطر المصرى وكانت مساحته محدودة حيث اعتماده على الرى الدائم وعلى هذا فمن المحتمل زراعته بمنطقة الفيوم حيث وفرة المياه طوال العام مما ساعد

على رى الأرض المنزرعة بهذا المحصول أو يتم زراعته أيضا بالمناطق الواطئة او القريبة من مجرى النهر فيسهل حملَ الماء الى الأرض المنزرعة قطنا بانتظام .

واعتقد أن المساحة المنزرعة قطنا كانت محدودة . وهذا يفسر عدم ذكر الرحالة لهذا المحصول الا أن ابن مماتى وكذلك المقريزى ذكرا هذا المحصول عند ذكرهما للحاصلات الزراعية الصيفية .

فيذكر المقريزى أنه كان يوجد فندق للقطن فى العصر الفاطمى تأخذ عليه الدولة رسوما معينة كل عام وبعد سقوط الدولة الفاطمية الغيت هذه الرسوم ضمن ما أسقطه صلاح الدين الأيوبى من رسوم سنة ٥٦٩ هـ بل أن المقريزى يضيف ان القطن كان من الحاصلات القديمة بمصر ـ وأعتقد أن سبب وجود فندق القطن هذه الكميات من القطن الخام التى كانت تستوردها الدولة لسد حاجة البلاد من القطن الخام .

ويزرع القطن الخام فى برمودة (ابريل) ويحتاج الفدان الى أربع ويبات من البذور ويجنى المحصول فى شهر توت (سبتمبر). ويغل الفدان قنطارين الى ثمانية قناطير ويبلغ خراج الفدان قنطارا واحدا .

الأرز :

من الحاصلات الصيفية التى عرفتها مصر منذ القدم . وقد ورد ذكره فى كتابات رحالة العصر الفاطمى كما ذكره المقريزى على انه من الحاصلات الغذائية المهمة التى اعتمد عليها الفلاح المصرى وتأثرت أسعارها فى أيام الأزمات الاقتصادية وخصوصا أيام الخليفة الحاكم بأمر الله . وتمركزت زراعة الأرز بمنطقة

الفيوم ويرجع السبب فى ذلك الى وفرة المياه حيث يحتـاج الأرز لمياه وفيرة ومستمرة الى جانب تربة الاقليم ومناخه وملاءمتهما لهذا المحصـول ، حيث يعتمد على التربة الجيدة والمناخ الحار . ويعتبر من أكثر غلات الفيوم ولم تقتصر زراعته على أقليم الفيوم بل كان يزرع أيضـا فى منطقـة الواحات حيث يأتى بعد القمح والشعير ويرجع سبب زراعته فى منطقة الواحات الى وجود الآبار الصالحة للرى طوال العام ووفرتها الى جانب الارتفـاع النسبى فى درجات الحرارة مما جعل انتاج الأرز وفيرا بمنطقة الواحات ويتم تصدير الفائض منه الى المناطق الأخرى فى القطر المصرى .

النيـلة :

من الحاصلات التى عرفتها مصر منذ أقدم العصـور واهتمت الحكومات المختلفة بمحصولها لحاجة البلاد اليها ، أما الحكومة الفاطمية فقد اهتمت بزراعتها وذلك لاحتياج مصـانع النسيج الكبرى لها لاستخدامها فى صباغة الثياب الفاخرة ولذا نجـدهم يشجعون زراعتهـا ويوفرون التقاوى المنتقاة منها بل انهم غالبا ما كانوا يقدمون بعض المساعدات للفلاحين لزراعة هذا المحصول وذلك لأنه من الحاصـلات التى لا يقدم على زراعتهـا غير ملاك الأراضى الموسرين حيث يبقى فى الأرض ثلاث سنوات .

وقد انتشرت زراعتهـا فى منطقـة الصعيد الأعلى وكذلك بالواحات . ويتم زراعتها فى شهر بشنس (مايو) وبؤونة (يونية) وحاجاتها من التقاوى ما بين ويبة كاملة وثلاثة أرباع الويبـة ومتحصلها ستة وعشرون دينارا فى المتوسط . وخراج الفدان ثلاثة دنانير .

وغالبا كانت تجود زراعتهـا فى الصعيد الأعلى وفى منطقـة

الواحات حيث وفرة مياه الرى من الآبار طوال العام لأن هــذا المحصول يترك فى الأرض ثلاث سنوات كمــا سبق ان ذكرت ويحتــاج فى السنة الأولى الى الرى كل عشرة أيام دفعتين وفى السنة الثانية ثلاث دفعات وفى الســنة الثالثة أربع دفعــات . ويتم حصده بعد مائة يوم ويترك ويعاد حصده بعد مائة يوم أخرى ويعتبر من النباتات باهظة التكاليف وغالية الثمن .

السمســم :

ضمن الحاصلات التى احتاجت الدولة الفاطمية لزراعتهــا والاهتمام بها وذلك للحصــول منها على زيت الشيريج . لكن يبدو أن المساحة المنزرعة منه كانت قليلة . ولذا أصبح زيتــه مرتفع الثمن ويرجع السبب فى صغر المساحة المنزرعة سمسم رغم حاجة الدولة لمحصوله ، المجهود الكبير فى زراعته الى جانب ارتفــاع تكاليف تلك الزراعة كل هــذه الأسباب جعلت الفــلاح المصرى يحجم عن زراعة هــذا المحصول . وتتم زراعتــه فى شهر برمودة (ابريل) ويحتاج الى ويبة من البذور ويتم حصــاده فى شهرى أبيب ومسرى (يونيه واغسطس) ومتحصل الفدان من أردب الى ستة ارادب . وخراجه دينار واحد للفدان .

الفاكهـــة :

كانت مصر منذ اقدم العصور حديقة غناء تحوى بين جوانبها مختلف أنواع الفاكهة ســواء أكانت فاكهة المناطق الحارة أم المناطق الباردة ويرجع السبب فى هــذا الى اتساع رقعة الأراضى الزراعية الى جانب اختلاف المناخ من منطقة الى أخرى ، هــذا الى جانب اهتمام الحكومات المختلفة بتجويد الانتــاج والاهتمام بالبساتين واستخدام الوسائل الحديثة فى زراعة البساتين مما جعل مؤرخى

مصر الاسـلامية يقفون أمام ظاهرة اتصـال البساتين بين المدن بعضها وبعض ويصفون هذه الظـاهرة على انهـا ظاهرة تتفرد بها مصر .

وقـد زاد هـذا الاهتمـام زمن الدولة الفاطميـة فيذكر ناصر خسرو أن البسـاتين كانت منتشرة فى البلاد بصورة واسعة الى جانب اتصالها بعضها ببعض بحيث اتصلت بساتين مدينتى مصر (الفسطاط) والقاهرة . هذا الى جانب وفرة الانتـاج واجتماع الأنواع المختلفة المواسم فى يوم واحد وفى احدى أسواق القاهرة فيذكر انه رأى فى احدى أسواق القاهرة الفاكهة التى ينتمى بعضها الى المناخ الشتوى وبعضها الى المناخ الربيعى والآخر للخريفى وبعضها للصيفى ويقف أمام هـذه الظاهرة ويحـاول أن يعللها باتسـاع رقعة الأرض الزراعية مما يؤدى الى وجود جميـع الأجـواء فيـذكر « وفى اليـوم الثـالث من شـهر « دى » القـديم (ديسمبر ـ ينـاير أى شـهر كيهـك وشـهر طوبـة) من السـنة الفارسـية سـتة عشر وأربعمائة رأيت فى يوم هـذه الفاكهـة والرياحـين : الورد الأحمـر والنيلوفر ، والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكى والسفرجل ـ والرمان والكمثرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليلج (الأهليلج) والرطب والعنب وقصب السـكر والباذنجـان والقرع واللفت والكرنب والفـول الأخضر والخيار والقثاء والبصـل والثوم والجزر والبنجر .. وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشـياء التى بعضها خريفى وبعضهـا ربيعى وبعضها شتوى لا يصدق هذا ، ولكن ليس لى قصـد فيما ذكرت ولم اكتب الا ما رأيت وأما ما سمعته ثم كتبته فليست عهدته على فولاية مصر عظيمة الاتسـاع بها كل أنواع الجو من البارد والحار . وتجلب كل الحاجيات لمدينة مصر من جميـع البلاد ويباع بعضها فى الأسواق » .

ويضيف ناصر خسرو أن التجارة الداخلية كانت نشيطة فكانت الفاكهة تنقل من اقليم الى آخر بسرعة فمثلا كانت هناك بعض المدن مثل الاسكندرية تقدم فائض انتاجها من الفاكهة الى المناطق المجاورة لها كما كان يتم هذا ايضا بمدينة الفيوم والتى وصفها البعض بأنها حديقة غناء ووصفها البعض الآخر بأنها حديقة مصر الفاطمية .

وقد عرفت مصر نظام الصوبات الزراعية واستخدموها فى انتاج الفاكهة بحيث استطاعوا زراعة ما تحتاجه البلاد من فاكهة فى أى وقت من السنة بعد توفير الظروف الملائمة للنبات ويعتبر هذا النظام من أحدث الطرق المتبعة حاليا فى مصر وغيرها فى هذه الأيام كنوع من السيطرة على قلة الحاصلات فى بعض النباتات وخصوصا الفاكهة وتوفير جميع الأنواع على مدار العام.

وقد أمدنا ناصر خسرو بتفاصيل تلك الصوبات الزراعية حينما ذكر (أن من جملة ما رأيت فى مصر انه اذا اراد أحدهم غرس حديقة ، يستطيع ذلك فى أى فصل من فصول السنة ، فانه يحصل دائما على الشجر الذى يريد فيزرعه مثمرا . أو بغير ثمر وهناك تجار الذلك يقدمون كل ما يطلب منهم ، فقد زرعوا الأشجار فى أصص ووضعوها فوق الأسطح وكثير من سقوف بيوتهم حدائق اكثرها مثمر من النارنج والترنج والرمان والتفاح والسفرجل والورد والريحان والزهر فاذا اشترى أحدهم شجرا حمل الحمالون الأصص بالشجر بعد شدها على لوح من خشب ونقلوها الى حيث يشاء . ثم يحفر الزراع الأرض لغرس الشجر اما بكسر الأصص أو بنزع الشجر منها من غير أن يضار الشجر بهذا ولم ار هذا النظام فى أى مكان آخر . كما أنى لم اسمع به والحق انه نظام جميل جدا) .

والحقيقة أن هذه الظاهرة كانت من سمات العصر الفاطمى فقد انتشرت انتشارا واسع النطاق بمصر رغم انهــا كانت سائدة قبل ذلك زمن الدولة الطولونيــة والاخشيدية الا أن انتشارها بمصر زاد خــلال العصر الفــاطمى . ويأتى وصف ناصر خسرو ليؤكد هــذا فهو يصف سطح بيت أبى سعيد التسترى كدليل على مدى اهتمــام الطبقة المترفة باقتناء حدائق غناء مثمرة فوق منازلهم فيذكر أنه كان على سقف هــذا الرجل اليهودى ثلاثمائة جرة من الفضة فى كل منها شجرة كأنها حديقــة وكلها أشجار مثمــرة .

أما أهم الحاصلات الزراعية من الفاكهة والتى كان لها وزنها الاقتصادى فى البلاد فيأتى على رأسها النخيل ، والكروم وهنــاك انواع أخرى مثل الحمضيات والبطيخ والموز وغيرها من الأنواع التى اسهب جميع الرحالة الذين زاروا مصر فى وصف كل نوع منها على حدة ذاكرا أهم مناطق زراعته ومدى اهتمــام المزارع المصرى بانتاج هذه النوعية من الثمار .

النخيــــل :

يعتبر شجر النخيل من أكثر المحصولات انتاجا فى العصر الفاطمى وقد انتشرت زراعته بطول البــلاد وعرضها مما لفت انظار الرحالة والجغرافيين فلم يمر أحد منهم بمصر الا ووصف نخيلها وتغنى بجودته وشهد بوفرة انتاجه وقد ساعد على انتشار النخيل بمصر وخصــوصا ببلاد الصعيد تمتع البــلاد بالمنــاخ الصحراوى، هذا الى جانب العناية الخاصة التى كانت توليهــا الحكومة من أجل زيادة انتاج المحصول .

وتعتبر مدينة اسوان من أهم البــلاد انتاجا للتمور حيث

تعددت أنواعه وانفردت ببعض الأنواع التى لا توجد الا بها فيذكر ياقوت « أن بأسوان رطبا أشد خضرة من السلق . وأن الخليفة هارون الرشيد أمر أن تحمل اليه أنواع التمور من أسوان من كل صنف تمرة واحدة فجمعت له ويبة وهذا يدل على وفرة انتاج التمور بأسوان الى جانب جودة أنواعها مما جعل مدينة أسوان تتفوق من حيث الانتاج على بلاد العراق والحجاز هذا الى جانب انتاجها من بعض الأنواع التى يتحول من البسر الى التمر مباشرة ولا يرطب .

كما تمتعت مدينة الفرما بنوع من التمور يبلغ وزن البسر منه عشرين درهما وأكثر ومنه ما يكون طول البسرة منه ما يقرب من فتر .

أما مدينة أدفو فقد انفردت بنوع من التمور شديدة الحلاوة بحيث لا يستطيع أحد تناوله الا بعد تحويله الى مسحوق لاستخدامه كبديل للسكر ويرش على العصائر .

ولا يقل انتاج مدينة اسنا من التمور عن انتاج ادفو وأسوان . ولم تقتصر زراعة النخيل على بلاد الصعيد بل امتدت أيضا لتشمل منطقة الواحات ومنطقة البحيرة كما كثرت زراعة النخيل فى الصحراء الغربية وخصوصا فى المناطق التى تحيط بالأديرة والكنائس .

الكروم :

انتشرت زراعته فى مناطق عدة فى القطر المصرى وخصوصا فى البساتين الملحقة بالأديرة حيث اعتمد على محصوله فى صناعة الخمور وغالبا ما كان يقوم الأقباط وأهل الذمة بتحويله الى خمور وقد أمدنا ناصر خسرو بصورة واضحة عن أحوال الكروم

فى القطر المصرى وخصوصا فى أوقات الصحوات الدينية . فبرغم ما كان لهذه الصناعة من أهميـــة مؤثرة فى الاقتصـــاد المصرى الا أن بعض الخلفاء كان يحـــارب زراعته خوفا من تحويله الى خمور ، ويظهر هذا بوضوح فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الذى حارب زراعة الكروم واعدم كميـــات كبيرة منه وخصـــوصا بعد ما أخذ الفساد والانحلال ينخران فى كيان المجتمع المصرى . وقد أمر بمنع شرب الخمر واعدم كل ما تم العثور عليه خوفا من عمل « السيكى » وهو نوع من الشراب المسكر .

الى جانب الكروم والتمور فقد انتشرت أيضا زراعة البطيخ حيث عرفت مصر أنواعا نادرة من البطيخ مثل البطيخ العبدلاوى نسبة الى عبد الله بن طاهر والى مصر فى عهد الخليفـــة المـــأمون العباسى وهو الذى جلبه معه من خراسان عند قدومه الى مصر ، وجادت زراعته بمنطقة تعرف بدميرة . هـــذا الى جانب انتـــاج الليمون والسفرجل أو النـــارنج وغيرهـــا من الثمـــار التى كانت موجودة منذ الفتح الاســـلامى ولكنهـــا ازدهرت خـــلال العصر الفـــاطمى .

البلســـــان :

ويعتبر من النباتات الطبيعيـــة المشهورة منذ القـــدم وقد ازدهرت زراعته والاهتمام به زمن الدولة الفاطمية وترجع أهميته الى استخراج الزيوت الطبيعية منه الى جانب احتكار مصر لزراعته فلا يوجد فى أى مكان فى الدنيا غير مصر وتتركز زراعتـــه فى منطقتى عين شمس والمطرية حيث يسقى من بئر هناك ويعتقد أن السيد المسيح اغتسل منها .

ويتم احتكار هذا النبات من قبل الحكومة حيث يتم جمع المحصول فى وقت ادراكه ويتولى هـــذا أناس من قبل السلطان

ويتم حمله الى الخزانة السلطانية حيث يصـدر الى بلاد الشام والمـارستان ويتم استخدامـه كعـلاج ولا يخرج منه شيء من الخزانة الا بعد اصـدار مرسوم بذلك وغالبا ما كان الخليفـة يهدى بعضه أو يبيعه لملوك الحبشة والشام والفرنجـة ويذكر المقريزى ان دهن البلسان كان مرتفع الثمن وكان يتم تصـديره الى الخارج للحصول على دخل مرتفع لخزانة الدولة .

الغابـــات :

اهتمت الحكومة الفاطمية بزراعة الغابات والمحافظة عليهـا ولذا نجد الغابات تقع تحت اشراف مباشر للديوان ولها ادارة خاصة بها . وقد انتشرت الغابات فى مصر فى مناطق البهنسـا والأشمونين وسفط وشبين واسيوط واخميم وقوص .

وكانت الحكومة تشدد فى حراسـة تلك الغابـات وذلك لاحتياج البلاد للأخشاب الجيدة من أجل صناعة الأسطول سواء الحربى أو التجارى الى جانب استخدام الأنواع الأقل فى صناعة الأثاث فقد عرف المصريون منذ أقدم العصور أشجار خشب الجميز والأثل (*) والصفصاف وخشب السنط والسدر ـ شجر النبق ـ والصنوبر كمـا أمدنا الفريد لوكاس بجـداول توضـح أنواع الأخشاب التى استعملها المصريون فى التجارة وصناعة السـفن ايضا فذكر أن اهمها السنط واللوز والخرنوب والجميز ، والأثل (طرفـا) والصفصاف والبلح والنبق وذكر أيضا أن خشـب

(*)الاثل : شجر من الفصيلة الزيتونية ينبت بالجبال ويسمى الزيتون الجبلى ويطول ويعمر .

السنط كان يستخدم فى التسقيف ولعمل جوانب السـفن وكانت مدينة طيبة القديمة مشهورة بخشب السنط .

ولم يقتصر احتياج البلاد للخشب على الصناعات الخاصـة والأسطول سواء الحربى أو التجارى وكذلك صنع الأثاث وانما كانت البلاد تستهلك كميات كبيرة من الخشب لاستخدامه كوقود وقد كان التجار يحصـلون على هذه النوعية من الأخشاب من مندوب الحكومة حيث كانت‌الحكومة تبيع حطب النار بما مبلغه أربعة دنانير حمل جمل .

وهنا نص للمقريزى يبين مدى أهميـة الغابات واهتمـام الحكومة الفاطمية بها فيذكر « ان أشجار السنط كانت لا تحصى، لها حراس يحملونها حتى يعمل منها مراكب الأسطول فلا يقطع منها الا ما تدعو الحاجة اليه وكان منها ما تبلغ العود الواحدة منه مائة دينار وكان يستخرج من هـذه النواحى ـ يقصـد هنا البهنسـا ، وسفط ، الأشـمونين ، والسيوطيـة والأخميميـة والقوصية ـ مال يقال لم رسم الحراج ـ الغابات ـ ويحتج فى جبايته بأنه نظير ما نقطعه أهل النواحى وتنتفع به من أخشـاب السنط فى عمـائرها ومقرر آخـر كان يجبى منهم يعرف بمقرر السنط فيصرف من هـذا المقرر أجرة قطع الخشب وحزه بضريبة عن كل مائة حمل دينار ، وعلى المستخدمين فى ذلك الا يقطعوا من السنط ما يصلح لعمل مراكب الأسـطول ولكنهم انما يقطعون الأطراف التى ينتفع بها فى الوقود فقط ويقال لهذا الذى يقطع حطب النار فيباع على التجـار منه كل مائة حمل جمل بأربعة دنانير » .

ورغم أن المقريزى فى النص السابق يتكلم عن حال الغابات بمصر وخصوصا فى عصر دولة المماليك الا اننا نستطيع أن نشعر

بمدى اهتمام الحكومات المختلفة بالغابات وخصوصا زمن الدولة الفاطمية .

عمارة النيل ونظام الري :

اهتم المصريون منذ فجر التاريخ اهتماما خاصا بوسائل الرى ومصادر الماء باعتباره متطلبا من أهم متطلبات الزراعة . التى يعتمد عليها الاقتصاد ولذا نجدهم يدرسون مصادر الماء والمشروعات التى تساعد على المحافظة على تلك المصادر . وبما أن الحياة الزراعية ارتبطت فى مصر ارتباطا وثيقا بماء النيل فقد اهتمت الحكومات المختلفة بنهر النيل باعتباره شريان الحياة فى مصر منذ بدء الخليفة والمؤثر الوحيد فى تحديد اقتصاديات البلاد فانتظامه يعنى الرخاء ونقصانه يعنى القحط والوباء ولذا حملوا على عاتقهم الاهتمام بالمشروعات الخاصة بالرى والصرف والمشروعات الأخرى التى تساعد على الحفاظ على ماء النيل لكى يصل بالقدر الكافى للأرض الزراعية وتحديد زيادته ونقصانه والعناية بمقياسه وعمارته الى جانب تطهير الترع والقنوات والاهتمام بالسدود .

وقد اهتم المؤرخون والجغرافيون والرحالة بامدادنا بالكثير عن أحوال نيل مصر كمصدر أساسى لمياه الرى فى البلاد هذا الى جانب اسهاب كثير من الرحالة فى ذكر المشروعات المقامة للاستفادة من ماء النيل وقد وضعوا بين أيدينا احصائيات تمدنا بأحوال النيل تحدد لنا زيادته ونقصانه ومتابعة احواله لما له من اثر كبير على الاقتصاد القومى .

وقبل أن اسهب فى الحديث عن نظام الرى فى مصر فى العصر الفاطمى وجدت انه من الضرورى تتبع أحوال نيل مصر منذ الفتح

الاسلامى لمصر واهتمام العرب بالنيل باعتباره شريان الحياة الاقتصادية فتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أن عمرو بن العاص عندما أرسل للخليفة عمر بن الخطاب يصف له نيل مصر قال « اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها شهر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يحط فى وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات تجرى فيه الزيادة والقصان كجرى الشمس والقمر له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه دبابه تمده عيون الأرض وينابيعها حتى اذا ما اضلخم عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب والزوارق كأنهم فى المخايل ورق الأصائل ، فاذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درته ».

وقد أولاه المؤرخون والجغرافيون والرحالة وغيرهم اهتماما كبيرا فابن حوقل يصف أهمية ماء النيل للزراعة ، فيذكر أن مصر لا تمطر ولا تثلج كما يذكر أيضا أن « زروعهم بماء النيل تمتد من حد أسوان الى حد الاسكندرية والباطن » .

اما المقدسى فانه يزيد أن نهر النيل من أعظم الأنهار التى مرت عليه أثناء ترحاله وتحضرنى هنا جملة نقلها لنا المقريزى عن القاضى الفاضل حيث يذكر عن نيل مصر « وأما نيل مصر فقد ملأ البقاع من الاصبع الى الذراع فكأنما غار على الأرض فغطاها واغار عليها فاستقعدها وتخطاها فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ولا مرغوب مرهوب الا اياه » . والحقيقة أن العبارة السابقة تعبر بصدق عن أحوال نيل مصر وتأثيره على أحوال البلاد الزراعية اذ يتوقف اقتصاد البلاد على فيضان نيلها فاذا كان منخفضا حل القحط والوباء بالبلاد واذا زاد عن الحد أدى الى

اغراق البلاد واتلاف الزرع والقضاء على الحاصلات الزراعية ولذا اهتم رحالة العصر بمنسوب ماء النيل وتحديد الحد اللازم لرى الأرض الزراعية وامدادها بكمية معينة من ماء الفيضان يساعدها على تجنب القحط هذا الى جانب تحديد المنسوب الذى يؤدى الى الغرق والاستبحار .

ويذكر المقدسى « أن زيادته من شهر بؤونة (يوليو) الى شهر توت (سبتمبر) وقت عيد الصليب . وأن الزيادة المثلى بالنسبة له ستة عشر ذراعا فاذا وصلت هذا الرقم استبشر الناس وكانت سنة مقبلة ، فان جاوزها كان خصب وسعة وقد وافقه فى هذا الرأى المسعودى فقد حدد الحد بين الرى والاغراق فذكر انه عندما يصل ماء النيل الى ستة عشر ذراعا يعنى هذا تمام الخراج وخصب الأرض والنماء واذا زادت الى سبعة عشر زاد نفع البلاد فتروى جميع الأراضى الصالحة للزراعة أما اذا زاد عن هذا الحد وبلغ ثمانية عشر ذراعا أدى الى استبحار (غرق) ربع أراضى مصر الزراعية وتعتبر هذه كارثة تؤدى الى الاستبحار أما المقريزى فقد ذكر فى هذا المقام قوله « وما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنا عشر ذراعا فى النقصان وثمانية عشر ذراعا فى الزيادة هذا والبلد فى ذلك الوقت محفور الأنهار ومعقود الجسور » .

ويذكر ناصر خسرو أن الزيادة المثلى لماء النيل يجب أن تكون ثمانية عشر ذراعا فاذا انخفض عن هذا أصبحت غير

طبيعية . ويمتنع السلطان عن أخذ الخراج باعتبار أن البلاد فى حالة قحط .

ويذكر أن مقدار الزيادة تستمر أربعين يوما ثم تتدرج فى النقصان أربعين يوما أخرى حتى يصل الى الحد الذى كان عليه فى الشتاء .

واما عبد اللطيف البغدادى فقد شرح ذلك بطريقة أخرى لتقسيم ماء النيل حيث اعتبر أن هناك نهايتين هما (نهاية الضرورة ونهاية الافراط) وبدايتين هما (بداية الضرورة وبداية الافراط) واعتبر ثمانية عشر ذراعا هى الحد اللازم لرى البلاد اما عشرون ذراعا فهى نهاية الافراط وأحيانا يذكر أن هذه النهاية قد تصل الى احدى وعشرين ذراعا أما بداية الافراط فهى ما يقل عن ستة عشر ذراعا ويعتبر هذا بداية الضرر حيث يعتبر أن ما قل عن هذا يؤدى الى القحط لأن الستة عشر ذراعا هى البداية التى بها يستطيع السلطان أن يجبى مال الخراج .

ويعتبر الستة عشر ذراعا بداية لرى ما يقرب من نصف الأراضى الزراعية أما ما زاد عن الستة عشر ذراعا فهى تروى بقية الأراضى الزراعية أما اذا وصلت ثمانية عشر ذراعا فقد عم الماء جميع الأراضى الزراعية وبناء عليه يحدث النماء والرخاء ويستطيع الفلاح أن يحصل على محصول وافر ومن هذا يتضح لنا أن معظم الرحالة والمؤرخين قد حددوا ستة عشر ذراعا تمام الخراج وخصب الأرض وفى سبعة عشر وثمانية عشر ذراعا استبحار الربع من المساحة المنزرعة أما اذا زاد عن ثمانية عشر فهذا معناه اغراق البلاد ووقوع الوباء والضرر بالبهائم لأن هذا معناه اغراق الكلأ والمراعى .

مقياس النيل :

نشأ الاهتمام بمقياس النيل وفيضانه منذ عهد الفراعنة فيذكر المقريزى نقلا عن ابن عبد الحكم ان أول من قاس النيل بمصر يوسف عليه السلام فوضع مقياسا بمنف ثم وضعت العجوز دلوكة مقياسا بأنصنا (*) ومقياسا بأخميم . وبعد دخول العرب مصر واستقرارهم بها استمروا فى استخدام تلك المقاييس القديمة الا انهم أقاموا مقاييس أخرى جديدة فقد أقام عمرو بن العاص مقياسا بأسوان وآخر بدندرة (**) .

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان اقيم مقياس آخر بمنطقة أنصنا ثم بنى عبد العزيز بن مروان فى ولايته على مصر (٦٥ ـ ٨٦ هـ/٦٨٥ ـ ٧٠٥ م) مقياسا بحلوان التى اتخذها مقرا لاقامته وهو مقياس صغير الذرع ، وفى ولاية سليمان بن عبد الملك بنى اسامة بن زيد التنوخى صاحب خراج مصر فى ولاية عبد الملك بن رفاعه على مصر (٩٣ ـ ٩٨ م) = (٧١٢ ـ ٧٧١ م) مقياسا بجزيرة الروضة فى سنة ٩٧ هـ ثم بنى الخليفة المتوكل العباسى مقياسا آخر بجزيرة الروضة فى سنة ٢٤٧ هـ ـ ٨٦١ م وعرف بالمقياس الجديد أو بالمقياس الهاشمى وكان ذلك فى ولاية يزيد بن عبد الله التركى ويعتبر المقياس الهاشمى من اشهر المقاييس الاسلامية على الاطلاق وأمر بعزل النصارى عن مقياسه فعين يزيد بن عبد الله التركى (والى مصر من قبله) للاشراف على المقياس أبا الرداد المعلم من أهل البصرة فقدم الى مصر وكان يتقاضى سبعة دنانير فى كل شهر نظير قيامه بقياس النيل وفى هذا

(★) أنصنا : مدينة من نواحى الصعيد على شرقى النيل .

(★★) دندرة : بفتح أوله وسكون ثانية ، ودال أخرى مفتوحة ويقال لها أيضا أندرة بليدة على غربى النيل من نواحى الصعيد دون قوص .

الصدد تذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف انه عثر على مقياس الخليفة المتوكل على الله فى جزيرة الروضة وقد كتبت عليه السنة وهى سنة ٢٤٧ هـ كما كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين أمر عبد الله جعفر الامام المتوكل على الله أمير المؤمنين ببناء هذا المقياس الهاشمى لتعرف به زيادة النيل ونقصانه واطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام له العز والتمكين والظفر على الأعداء وتتابع الاحسان والنعمان وزاده فى الخير رغبة وبالرعية رافة وكتبه أحمد بن محمد الحاسب فى رجب سنة سبع واربعين ومائتين » وقد اهتم أحمد بن طولون بأمر مقياس الروضة فأمر باصلاحه وأنفق عليه الف دينار .

أما فى العصر الفاطمى فقد ذكر لنا رحالة ومؤرخو هذا العصر اهتمام الخلفاء الفاطميين بالعناية بمقياس النيل حيث يذكر ناصر خسرو « انهم رتبوا عاملا وظيفته ألف دينار للمحافظة عليه ولتسجيل الزيادة » .

أما المقريزى فانه يذكر ان للمقياس فى الدولة الفاطمية رسوما لكنس مجارى الماء خمسين دينارا فى كل سنة تطلق لابن ابى الرداد .

كما يذكر فى أحداث سنة ٣٥٨ هـ ان جوهر الصقلى فى هذه السنة خلع على بن أبى الرداد وحمله فأجازه وذكر ابن ميسر فى أحداث سنة ٥٢٢ هـ ان الخليفة الآمر رتب قاضى القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر مشارفا على ثقة الدولة ابن أبى الرداد(*)

(*) ابن أبى الرداد : هو متولى أمر المقياس وكان أمر هذا المقياس يتولاه قبل عصر المتوكل العباسى نصارى من أهل الذمة فأمر الخليفة المتوكل بحصر الاشراف على القياس على شخص مسلم فاستقر أمر المقياس فى عائلة بنى الرداد التى استمرت تتولى هذا العمل حتى القرن التاسع عشر .

فى قياس وعمارة المقياس وعمل مصالحة فاستمر الى أن قتل فلم ينظر بعده احد على هذه الجهة واستمر ابن أبى الرداد بمفرده واطلق له فى كل سنة مائة قنطار جيرا لعمارة المكان .

من خلال كتابات مؤرخى ورحالة العصر نجد أن الخلفاء الفاطميين كانوا يخلعون دائما على المشرف على مقياس النيل وغالبا ما كان يحصل على مخصصات يحملها موكبه بعد كسر الخليج .

واما ابن جبير فيذكر انه شاهد بجزيرة الروضة مقياس النيل .

« يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة ؛ واستشعار ابتدائه فى شهر يونية ومعظم انتهائه فى شهر أغسطس وآخره أول شهر أكتوبر وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثمن فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه وهو مفصل على اثنين وعشرين ذراعا مقسمة على أربعة وعشرين قسما تعرف بالأصابع فاذا انتهى الفيض عندهم الى أن يستوفى الماء تسعة عشر ذراعا منغمرة فيه وهى الغاية عندهم فى طيب العام وربما كان الغامر منه كثيرا بعموم الفيض والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعا وهو الأحسن عندهم فى الزيادة المذكورة » .

ويذكر المقدسى : « ان المقياس بركة وسطها عمود طويل فيه علامات الأذرع والأصابع وعليه وكيل وأبواب محكمة يرفع الى السلطان فى كل يوم مقدار ما زاد ثم ينادى المنادى زاد الله اليوم فى النيل المبارك كذا كذا وكانت زيادته عام الأول فى هذا اليوم كذا وكذا وعلى الله التمام ولا ينادى عليه الا بعد أن يبلغ اثنى عشر ذراعا الا ما يرفع الى السلطان والاثنا عشر ما يعم ضياع الريف

فاذا بلغ اربعة عشر سقى أسفل الاقليم فاذا بلغ ستة عشر استبشر الناس وكانت سنة مقبلة ،فان جاوزها كان خصب وسعة » .

وقد أتى وصف ابن دقماق موافقا لما ذكرة الرحالة فى وصف مقياس النيل فهو يصفه بانه برج عظيم فى جزيرة الروضة من الناحية القبلية حيث يوجد دائرة بها بسطتان مبنيتان تردان عنه جريان المـاء وبداخل البرج أبنية كثيرة على عمد ودائرة شبابيك وعلى صدره من المشرق شـباك كبير وفى جانب الدار فسقية عظيمة عميقة بينها وبين الدار باب وهذه الفسقية ينزل اليها بدرج دائرة الى أسفل وفى وسطها عمود المقياس قائم وهو قاطع رخام مفصـل كل قطعة ذراع وفيها رسوم اعداد الأصابع وعدة القطع تسع عشرة قطعة وقاعدة طولها ذراع وبوسط هـذا العمود حديد يمسـك القطع الرخام وبأعلى القاعدة سقالة خشب مجوفة محشوة رصاصا تثقل العمود ويصـل ماء النيل الى هذه الفسقية من ثلاثة سروب بعضها فوق بعض طول كل منها نحو السبعين ذراعا والحكمة فى ذلك لأن السرب اذا كان قريبا يتحرك المـاء داخل الفسقية واذا كان بعيدا لا يتحرك داخلها ووفاء النيل ستة عشر ذراعا فاذا وفى الستة عشر يعلق على الشباك الكبير الذى تجـاه مصر ستر أصفر فيكون ذلك علامة الوفـاء والذى يعلق هـذا الستر متولى الفسطاط وتكون تلك الليلة بمصر ليلة عظيمة توقد أهل مصر وأهل الروضة القناديل والشموع ... » .

ويضيف المقريزى أن بالمقياس ذراعين يسميان منكرا ونكيرا وهما الذراعان الثالث عشر والرابع عشر فاذا انصرف المـاء عن هذين الذراعين وزيـادة نصف الذراع الخـامس عشر استسقى الناس بمصر فكان الضرر الشامل لكل البلاد واذا تم خمس عشرة ودخل ست عشرة كان صـلاح لبعض الناس ولا يستسقى منه وكان ذلك بعضا من خراج الخليفة .

واهتم الخلفاء كذلك بأمر النداء على وفـاء النيل واتبعوا سنة جديدة فى هذا الشأن فبعد ان كان يقوم المنادى بالنداء على الزيادة يوميا بعد أن يبلغ منسوب الميـاه عند المقياس حدا معينا ويعلم العامة بهذه الزيادة أمر الخليفة المعز لدين الله بعد دخول الفاطميين مصر بأن تحجب هـذه الزيادة عن العامة ولا يتم الاعلان عنها الا بعد ان يصل المـاء أمام المقياس الى ستة عشر ذراعا .

وهناك رأى آخر للمقدسى حيث يذكر أنه لاينادى عليه الا بعد أن يبلغ اثنى عشر ذراعا . الا ما دفع للسلطان حسب الاثنى عشر ما يعم ضياع الريف فاذا بلغ أربعة عشر سقى أسفل الاقليم فاذا بلغ ستة عشر استبشر الناس وكانت سنة مقبلة فان جاوزهـا كان خصب وسعة .

وقد أوضح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى الفرض من وراء حجب اخبار النيل فى أيام الوفـاء عن العامة بأنه لاحظ اضطراب وقلق أهل البلاد فى حالة عدم طلوع النيل فيسارعون بالقبض على ما بين أيديهم من الغلال ويمتنعون عن بيعها رجاء ارتفـاع السعر أو يجهدون فى خزن الغلة اما لاستخدامها كقوت أثنـاء القحط أو كنوع من التجارة والاحتكار ويحدث هذا أيضا فى حالة زيادة منسوب المياه عن الحد مما يؤدى الى اضطرابات اقتصـادية وتكالب على جميع المواد الغذائية ولذا نجد خلفاء الفاطميين وأولهم المعز لدين الله يصـدر أوامره بعدم الاعلان عن منسـوب النيل للعامة ولا يطلع على المنسوب غير الخليفة وقائده جوهر الصقلى.

واذا دل هـذا الاجراء على شيء فانما يدل على مدى رجاحة عقل الخليفة المعز لدين الله . ويذكر المقدسى فى هذا الصدد أن المقياس كان له وكيل وأبواب محكمة يرفع الى السلطان فى كل يوم مقدار ما زاد ثم ينادى المنادى زاد الله اليوم فى النيل المبـارك كذا وكذا كانت زيادته عام الأول فى هذا اليوم كذا وكذا .

ويضيف ناصر خسرو ان أول يوم للفيضان يطوف منادون فى المدن منادين بأن الله تعالى قد زاد النيل كذا أصبعا ويذكرون مقدار زيادته كل يوم ويأتى وصف ناصر خسرو ليوضح لنا مدى اهتمام الخلفاء بوفاء النيل ــ وهو اهتمام عرف بمصر منذ فجر التاريخ ــ ويضيف أيضـا ما كان يحدث أثناء فتح الخليج من احتفالات وذلك فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فيذكر أنه « حين يبلغ النيل الوفاء أى العاشر من شهر (يور) أغسطس وسبتمبر الى العشرين من (أبان) أكتوبر ونوفمبر يبلغ ارتفـاع المـاء ثمانية عشر ذراعا من مستواه فى الشتاء وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة فى البلاد كلها يحضر الخليفـة (السلطان) راكبا ليفتح هذا النهر الذى يسمى الخليج » ويضيف أن هـذا « اليوم يعرف بعيد ركوب فتح الخليج حيث تقـام المهرجانات الشعبية والاحتفالات العامة بمناسبة وفاء النيل وتخليق المقياس وكسر الخليج . وغالبا ما كانت تلك الاحتفالات تستمر ثلاثة أيام يتم فيها اقامة الزينـات والنفخ فى الأبواق وضرب الكؤوس واقامة السرادق ويبدأ الاحتفال بركوب الخليفة يرافقه أكثر من عشرة آلاف فارس على خيولهم المزينة والمذهبـة الى جانب رجالات الدولة والشعراء وسفراء الدول المعتمدة فى البلاد . ويكون قراء الحضرة قد ختموا القرآن الكريم فى الليلة السابقة للركوب لكسر الخليج » .

ويتم تخليق المقياس حيث يذهب الخليفة أولا الى المقياس فيضع عليه الزعفران الموجود بالطاسة الفضية التى يقدمها له ابن أبى الرداد ثم يقوم ابن أبى الرداد باتمام تلك المهمة ويحصل على الخلع . الى جانب حصول رجال الدولة على الخلع أيضا والهبات وكذلك قراء الحضرة والشعراء ثم يذهب الخليفة ومعه الوزير مع قاضي القضاة وقوم من أهل العلم وأركان الدولة الى القنطرة المقامة على فتحة الخليج فيأمر بكسر السد (١) .

ويخرج جميع أهل مصر فى هذا اليوم للتفرج على فتح الخليج ويقيم كثير من أهل البلاد حول النيل أو يستخدمون المراكب فى النزهة . ويحدث هذا غالبا فى السنوات التى يكون فيها مقياس النيل فى حالته الطبيعية ولكن هناك سنوات كثيرة كانت البلاد تصاب فيها بانخفاض فى منسوب ماء النيل مما يؤدى الى اضطراب أحوال البلاد . ويصف لنا المسبحى يوما من هذه الأيام التى عم فيها البلاء البلاد حيث انصرف ماء النيل انصرافا متداركا فاحشا ولم ترو الضياع ولم يصل ماء النيل الى الأراضى الزراعية مما جعل الناس فى حالة ضجيج واستغاثوا بالله من هذا البلاء . خرجوا جميعا يحملون المصاحف .

وتعذرت الأقوات فى الأسواق وارتفعت أسعار المنتجات الزراعية واحتكر كثير من الباعة المواد التموينية .

---

(١) المقصود بالسد هنا هو ذلك الساتر الترابى المدعم بالحلفا والذى كان يتم تشييده قبيل الفيضان بوقت فاذا كان وقت الفيضان وزاد الماء رد هذا السد الماء فزاد ارتفاعه فيؤدى ذلك الى رى الضياع التى خلف السد وكان يسمى سد خليج أمير المؤمنين . وكان بظاهر القاهرة من جانبها الغربى فيما بينها وبين المقس وعرف بخليج القاهرة زمن الدولة الفاطمية ويطلق عليه العامة الخليج الحاكمى أو خليج اللؤلؤة .

وقد تظاهر الناس أمام موكب الخليفـة الحـاكم بأمر الله وتحت قصر الزمرد يستغيثون بالحاكم بأن ينظر فى أحوالهم السيئة وما يواجههم من بلاء وغلاء فاحش فتجاوب معهم الخليفة وقال لهم : « اذا كان الغد اتوجه الى جامع راشده واعود فان وجدت فى طريقى مكانا خاليا من الغلة ضربت عنق صاحب هـذا المكان على بابه » وعند عودته من جامع راشدة خاف المحتكرون وأخرجوا الغلال ووضعوها فى الطريق خشية العقاب المنتظر فقضى بهـذا على استغلال التجار وانفرجت الأزمة التى كانت تعقب الاضطراب فى منسوب مياه النيل وقضت على الاحتكار والمتاجرة فى أقوات الشعب واصبح الجميع سواسية فلا يدخر أحد فى بيته الا القوت الضرورى ويوزع الباقى على المحتـاج من الشـعب بأسـعاره الأساسية دون مغالاة . ولم يكتف بهذا بل أيضا حدد أسـعار السلع الغذائية حتى قضى على جشع التجار .

وبهذه الطريقة عالج الخليفة الفوضى الاقتصادية فى البـلاد أثناء القحط واضطراب أحوال النيل . والحقيقة ان الخليفـة الحاكم بأمر الله كانت له مواقف كثيرة من هـذا القبيل بل انه كان يهتم بالقضاء على الاضطرابات الاقتصادية .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر ما أقدم عليه الخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) عندما أخذ ماء النيل فى الثبوت عند حد معين فلم يزد لا كثيرا ولا قليلا مما جعله يشـك أن لحاكم الحبشة يدا فى هـذا التغير غير الطبيعى فى منسوب مياه النيل وقد عرف أن هذا الحاكم قد سد مجرى نهر النيل وغير اتجاه مجراه . فأخذ على عاتقه تحسين العلاقة مع حاكم الحبشة حتى يكسب وده ويحافظ على وصـول منسوب مياه النيل اللازم للزراعة . فأرسـل اليه البطريرك (ميخائيل الحبيسى) بطريرك

الأقباط ومعه هدية قيمة فلما وصل الى بلاد الحبشة استقبله حاكمها استقبالا مشجعا مما جعله يضع أمامه صورة واضحة لما وصلت اليه أحوال مصر الاقتصادية نتيجة لعرقلة وصول ماء النيل بصورة طبيعية . فأمر بفتح السد الذى كان يمنع انسياب ماء النيل فزاد النيل فى تلك السنة وأوفى وانتهت المسغبة .

وفى هذا الصدد يذكر المقريزى « كان الخليفة المستنصر بالله قد أرسل البطريرك ميخائيل الحبيسى فى بعثة الى بلاد الحبشة بهدية سنية عندما نقص نيل مصر فتلقاه ملكها وسأله عن سبب قدومه فعرفه نقص النيل وضرر أهل مصر بسبب ذلك فأمر بفتح سد يجرى منه الماء الى ارض مصر ففتح وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت » .

الجسور وأنواعها :

لم يقتصر اهتمام الفاطميين بالنيل ومقياسه بل اهتموا أيضا بالمشروعات التى تساعد على المحافظة على مياهه وعلى رى الأرض . ومن هنا نجد الاهتمام الكبير بشبكة الترع والقنوات والجسور المنتشرة فى أنحاء البلاد والاهتمام بتطهيرها واقامة القناطر وتشييد الجسور وكلها مشروعات أساسية الغرض منها المحافظة على مياه النيل لاستخدامها فى رى أكبر مساحة ممكنة من الأراضى الزراعية . ويذكر المقريزى أن الاهتمام بحفر الترع والخلجان وانفاق اقامتها وعمارتها كانت من المهام الأساسية التى يضعها الخلفاء على عاتقهم للمحافظة على كل قطرة مياه لاستخدامها فى الزراعة . ولم يكن هذا من مستحدثات الدولة

الفاطمية وانما حرصت الحكومات المتعاقبة على مصر منذ أقدم العصور على الاهتمام بشئون الرى والزراعة فقد حفر المصرى القديم الترع والقنوات وأقام الجسور لكى يدفع خطر الفيضان ويحافظ على مياه النيل وقد استمر هذا الاهتمام بعد فتح العرب لمصر فقد اهتمت حكومة العرب منذ دخولها مصر بحفر الترع واقامة الجسور وبناء القناطر وغير ذلك مما يلزم مشروعات الرى والصرف فى البلاد . فتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أن أعمال الزراعة والرى كان يستخدم فيها صيفا وشتاء حوالى ١٢٠ر٠٠٠ عامل .

وقد استمر الاهتمام باقامة الجسور وحفر الترع وبناء القناطر طوال عصر الولاة وكذلك عصر الطولونيين والاخشيديين .

أما فى الدولة الفاطمية فقد زاد الاهتمام بهذه الأمور فنجد أن خلفاء الفاطميين يهتمون ببناء القناطر واقامة الجسور ويظهر هذا من خلال ما ذكره المقريزى من أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أمر باصلاح جسر الفسطاط بعد أن استمر سنين معطلا دون استخدام .

هذا الى جانب قيامه بتفقد أحوال الجسور من وقت الى آخر حيث كان يسير على شاطىء النيل ويعبر الجسر المؤدى الى الجزيرة .

ويذكر ناصر خسرو أن الفاطميين شيدوا على شاطىء النيل من أول الولاية الى آخرها جسرا من الطين ليعبر عليه الناس وتصرف خزانة السلطان فى كل سنة للعامل المعتمد عشرة آلاف دينار مغربى لتجديد عمارته .

كما كانت الحكومة تفرض الضرائب على النواحى من أجل عمارة الجسور والمحافظة عليها الى جانب الزام كل منطقة بمقدار

معين من العلف والمؤن والحشائش والأتبان الى جانب عشرة دنانير ومع مرور الوقت أصبحت هــذه الضرائب والمقررات تؤخذ كأنها جزء من الخراج .

وهذا الى جانب ما يخرج من ميزانية الدولة وكانت الحكومة تهتم بالجسور الموجودة فى أعمــال الغربيــة وجزيرة قويســنا والشرقيــة . اما ما عدا ذلك فكان يتولاه المقطعون والمزارعون فى منطقته . وغالبا ما كانت الحكومة تسخر أهل البــلاد فى اقامة الجسور حتى يتسنى لها المحافظة على ماء النيل ولم يكن هــذا من مستحدثات الدولة الفاطميــة وانما عرفته مصر منذ فجر الاسلام فتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف « ان العمال كانوا يكلفون العناية بالترع والجســور واقامة القناطر وكانوا يعملون بطريقة السخرة كما كان الحــال قبل الفتح العربى كما كان بعد الفتح حتى العصــور الحديثة . بل ان السخرة ظلت تفرض على الأهالى فى مصر فى أوقات الفيضان ويعرفها الأهالى باسم المعونة للعناية بالجسور وللمحافظــة عليها حتى الغيت فى عام ١٩٣٧ م واصبح الأهــالى يتقاضون اجورا عن أعمالهم بعد أن كانون يعملون بدون أجر » وقد ذكر المقريزى نقــلا عن ابن عبد الحــكيم أن « فريضة مصر بحفر خليجها واقامة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة الف وعشرين الف منهم المساحون والطوريات والادارة يتعقبون ذلك ولا يدعون شتاء ولا صيفا .

وكانت الجســور نوعين : جسور سلطانية وهى الجســور الرئيسية وجسور بلدية وهى الجسور الفرعية .

فالجسور السلطانية هى الجسور التى تقيمها الدولة لتنظيم الانتفاع بماء النيل فيذكر المقريزى أن الجسور السلطانية (هى

العامة النفع فى حفظ النيل على البلاد كافة من حين يستغنى عنه) .

ويتم الانفاق عليها من الديوان السلطانى بالوجهين القبلى والبحرى ويعين لها موظفون على الأعمال الشرقية والأعمال الغربية الى جانب تعيين مشرف أو أمير للاشراف العام على عمارة الجسور الى جانب تعيين مهندسين وخوله لكل عمل ، يقومون بالاشراف على عمارة تلك الجسور ويخصص لكل جسر جراريف ومحاريث وأبقار من أجل المساعدة فى عمارة تلك الجسور .

ويذكر المقريزى ان الحكومة كانت تصرف على هذه الجسور ربع خراج البلاد .

أما الجسور البلدية فهى الجسور المحلية التى تقام فى منطقة دون أخرى أو تخدم منطقة بعينها وكان يتولى عمارتها المقطعون والفلاحون بالبلاد والأمراء والأخيار .

وكان يتم الصرف على عمارتها من أصل مال الناحية وكانت أموال عمارة تلك الجسور تخصم من الخراج الذى يتعين على أهل الناحية دفعه وكان يتم توزيع الأموال المنصرفة فى هذه الأمور على الأفراد بالسوية ويلتزم صاحب كل دار برعاية جزء معين من الجسر .

ومحل الجسور السلطانية من العزب محل سور المدينة الذى يتعين على السلطان الاهتمام بعمارته وكفاية الرعية أمره ، ومحل الجسور البلدية محل الدور التى من داخل السور فيلزم صاحب الدار ان يصلحها ويزيل ضررها .

ومن العادة ان المقطع اذا انفصل وكان أنفق شيئا من مال اقطعه فى اقامة جسر لأجل عمارة السنة التى انتقل الاقطاع

عنه منها فان له الحق فى استعادة تلك الأموال من المقطع الثانى .

والى جانب الاهتمام بالجسور سواء البلدية أو السلطانية فقد اهتم الفاطميون أيضـــا بعمارة السدود الموجودة على نهر النيل حيث كان على نهر النيل فى جزئه الأول سدان أحدهما بعين شمس وكان ســدا ترابيا مدعما بالجلف ويتم تشييده قبيــل الفيضان بوقت فاذا كان وقت الفيضـــان وزاد المـاء رد هــذا السد المـــاء فزاد ارتفاعه فيؤدى ذلك الى رى الضياع التى خلف السد ، وهــذا كان يسمى سد خليج المؤمنين وكان يتم فتحه فى يوم عيد الشهيد (٢) ويعطى الخليفة أوامره فيتم فتح جميع السدود الصغيرة على الترع المتصلة بالنهر .

أما السد الآخر فكان بمنطقة سردوس (٣) وهى منطقة أسفل عين شمس . والى جانب الســدود اهتم الفــاطميون أيضـــا بالخلجان وقد بلغ عدد الخلجان بمصر ثمانية وعدد الأبحر خمسة وعشرين . أما الترع فقد بلغت عدتها مائة وسبع عشرة فى الوجهين

---

(٢) عيد الشهيد من الأعياد التى يحتفل بها أقباط مصر فى الثامن من شهر بشنس (السابع عشر من شهر مايو) ويرتبط الاحتفال بنهر النيل مصدر الحياة والنماء والنصــارى يعتقدون أن النيل لا يبلغ زيادته وتمام فيضانه فى كل عام الا اذا ألقوا فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع أســلافهم الموتى ويحتشد أهل البلاد على ضفتى نهر النيل وينصبون أعدادا كبيرة من الخيام ويكثرون من اللهو وشرب الخمر ، والاستمتاع بالغناء والطرب ولم يكن هذا العيد يخص ديانة أو عقيدة معينة رغم ارتباطه بالقاء التابوت كما سبق ان ذكرت وانما كان احتفالا شعبيا لجميع طبقات الشعب المصرى .

(٣) ويقع هذا السد على خليج سردوس الذى يخرج من الضفة الشرقية للنيل عند قرية باسوس ـ وهى احدى قرى مركز قليوب ـ واستمر هــذا الخليج يمد المناطق المحيطة به بالمـاء طوال العصر الفاطمى الأول فقد كان من أكبر الترع ولكنه فقد أهميته وخصوصا بعد حفر خليج أبو المنجا .

البحرى والقبلى . وهنـاك ملحوظة مهمة وهى ان أكثر الخلجان والترع والجسـور والأخوار كانت بالوجه البحرى أما الوجـه القبلى وهو بلاد الصعيد فكان به منها أعداد قليلة .

واهتم الفاطميون أيضا بمواعيد صيانة الجسور والسـدود والترع وتحديد مواعيد فتحها وغلقها وتطهيرها حتى يحافظوا على الانتاج الزراعى .

فالطريقة المنضبطة تجاه تلك الأمور تساعد على المحافظـة على مياه النيل مما يؤدى الى زراعة أكبر قدر من الأراضى الزراعية فيزيد المحصول ويوفى الخراج .

أما نظام الرى المتبع فقد تحكم فيه نهر النيل منذ أقدم العصور اذ فرض على البلاد نظام الحياض وهى الطريقة المثلى التى كانت متبعة فى رى الأرض الزراعية بمصر منذ فجر الاسلام . ويتم ذلك بتقسيم الأراضى الزراعيـة الى أحواض يغمرها مـاء الفيضان وقت زيادته المعهودة ويستمر المـاء فوق سطحها منذ امتداد الحر الى الخريف .

وأمدنا ناصر خسرو برؤية واضحة فى هذا الصدد حيث ذكر أن ماء النيل يتزايد أربعين يوما من بدء الفيضان الى أن يبلغ ثمانية عشر ذراعـا ويبقى على هذا أربعين يوما لا يزيد ولا ينقص ثم يتدرج نحو النقصـان مدة أربعين يوما أخرى فيصل الى الحد الذى كان عليه فى الشتاء وحينما يبدأ المـاء فى النقصـان يتبعه الزرع .

وبناء على ذلك فان زرعهم الصيفى والشتوى لا يتطلب مـاء آخر غير ماء الفيضان وغالبا ما كان ماء النيل يغطى الأراضى بعمق متر ونصف ويرسب ماء الفيضان السطحى الذى يساعد على خصوبة الأرض وقد كان يساعد على نجـاح هذا النظام الجسور

التى تقام على طول شاطىء النهر الى جانب السـدود التى تحجز المياه أمامها وهذا اضافـة الى جانب السـدود التى تقام على أفواه الترع والقنوات .

وتعتمد معظم أراضى مصر على نظام رى الحياض عدا بعض المناطق التى تروى بمياه الآبار فيذكر المقدسى أن هناك أراضى على النيل تروى بالدواليب وقت نقصان النيل .

أما مناطق الواحات فانها تعتمد فى زراعتهـا على ميـاه الآبار والعيون وهـذا فى المناطق الصحراوية التى يقيم فيها الرهبان وقد أمدنا أبو صالح الأرمنى بالكثير عن تلك الأديرة والمناطـق الزراعية التى تتبعها واستخدام السـواقى التى تدار بواسـطة الأبقار وغالبا ما يتم زراعة أرضها بأكثر من محصـول فى السنة لتوفير المياه طوال العام من هذه الآبار .

انفردت مدينـة الفيوم بنوع آخر من الرى فهى المنطقـة الوحيدة التى تحصل على مياه الرى من النيل طوال العام وذلك لوفرته فى تلك المنطقة مما أدى الى تعدد حاصلاتها الزراعية طوال العام وفى ذلك يقول ابن حوقل « ليس بأرض مصر مدينـة يجرى فيها المـاء من غير حاجة الى زيادة النيل الا الفيوم ولذا نجدها تنفرد بزراعة الأرز الفائق والكتان الدون » ، وقد لفتت هـذه الظاهرة نظر كثير من الرحالة مما جعلهم يصفون هـذا الاقليم بشىء من الاسهاب حيث وفرة انتاجه الزراعى وجودته .

الثروة الحيوانيـة :

اهتمت الحكومة الفاطمية بالثروة الحيوانية باعتبارها عاملا مساعدا للتقدم الزراعى الى جانب اعتبارها مصـدرا من مصادر الدخل القومى للبلاد . ولذا نجد اهتمام بعض الخلفاء بسن قوانين

تحمى تلك الثروة من عبث بعض الفلاحين فكانت الحكومة تمنع ذبح اناث الحيوانات كما تمنع ذبح الحيوانات التى تساعد فى فلاحة الأرض الزراعية الى جانب الاهتمام بجلب انواع وسلالات جيدة لتحسين السلالات الموجودة بمصر ولتوفر للفلاح المصرى وسيلة من أهم وسائل مساعدته فى الزراعة الى جانب توفير اللحوم الجيدة لغذاء الشعب . وغالبا ما كانت الثروة الحيوانية تصاب بخسائر فادحة وخصوصا عند ارتفاع ماء فيضان النيل الى أعلى من منسوبه المعتاد فيؤدى هذا الى موت المراعى التى تعتمد عليها تلك البهائم .

وقد انتشرت أنواع مختلفة من الحيوانات كالبقر وخصوصا فى منطقة الصعيد حيث تحمله لحرارة الجو .

أما الجاموس فكان بالدلتا والوجه البحرى لعدم تحمله حرارة الجو أما الأغنام فقد انتشرت فى المناطق المختلفة من الوجهين القبلى والبحرى الى جانب منطقة الواحات . هذا الى جانب الأنواع المختلفة من الدواب والجمال التى تساعد الفلاح فى تيسير وسائل الزراعة ورغم وجود هذه الأنواع الا أن تأثيرها على الدخل القومى كان محدودا حيث قلة المراعى الصالحة للرعى. وأحيانا كانت الحكومة تتدخل من أجل الحفاظ على الثروة الحيوانية وذلك بسن القوانين التى تحافظ على تلك الثروة من أجل توفيرها للزراعة ومن هذا ما أصدره الخليفة الحاكم بأمر الله بمنع ذبح البقرة الولود أو العاملة حتى يتوفر بذلك من الانتاج الحيوانى ما يسد حاجة البلاد من حيوانات الحقل وما يمكن الفلاحين من العناية بالمزروعات وتحسين محصولها . ويذكر المقريزى فى أحداث سنة ٣٩٥ هـ ــ ١٠٠٤ م « أنه قرىء سجل يمنع ذبح البقر التى لا عاقبة لها الا فى أيام الأضاحى وما سواها من الأيام لا يذبح منها الا ما يصلح للحرث » .

أما الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ) (١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م) فقد أصدر مرسوما فى سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) نودى فى مدينة مصر بالا يتعرض أحد لذبح شىء من الأبقار بوجه ولا سبب فان تعرض لذلك حل دمه وماله لأن الناس عدموا العوامل فى هذه السنة ويعنى هذا المرسوم المحافظة على الثروة الحيوانية وخاصة حيوانات الحقل التى تساعد الفلاح فى القيام بأعمال الحقل فقد تأثرت تلك الأعمال بسبب نقص الحيوانات وأحيانا كانت طائفة من الجزارين تستغيث بالخليفة فى محاولة منهم للحصول على استثناء فيذكر المقريزى أن بعض الجزارين استغاث بالخليفة الظاهر من أجل ذبح الأبقار التى ابتاعوها وانفقوا عليها وهى غير صالحة للزراعة فأعطاهم الخليفة ثلاثة أيام فقط من أجل التخلص منها وبعد ذلك تصدى المحتسب لهذه الطائفة .

الثروة السمكية :

وتأتى الثروة السمكية كمصدر للدخل فى العصر الفاطمى حيث تكثر البحيرات سواء أكانت بالفيوم أم أبو قير أم نستروة(٤) أم بحيرة تنيس ، كما تمتد سواحلها لمسافات كبيرة سواء على البحر المتوسط أو البحر الأحمر الى جانب مجرى النيل الذى يجرى بطول البلاد من الجنوب الى الشمال كل هذا ساعد على توافر الثروة السمكية . وقد تعددت مراكز صيد الأسماك بكثير

---

(٤) ذكرت أيضا باسم مسطورة ونستروية ونسترانى واسترو وأوستربونيس ، وهى من البلدان المندثرة حيث كانت واقعة غربى البرلس على الساحل الرملى الفاصل بين البحر المتوسط وبحيرة البرلس ، ومكانها يعرف الآن بكوم مسطورة بشبه جزيرة البرلس الغربية بأراضى ناحية الفقهاء البحرية بمركز دسوق بمحافظة كفر الشيخ .

من المدن الساحلية . ويأتى وصف ابن حوقل للمصائد السمكية كدليل على عظمة تلك المصائد وكثرتها حيث يذكر الكثير عن تلك المصائد وخصوصا بمنطقة البرلس فيصفها بأنها مزرعة سمكية ، وكذلك منطقة البشمور (٥) .

أما السيوطى فيذكر أن مصر من بين بلاد العالم التى يأكل أهلها صيد البحر طريا وتعتبر شـواطىء مدينـة الاسكندرية من أعظم مناطق صيد السمك بمصر .

الطيـــور :

والى جانب الثروة السمكية كانت هناك أنواع من الطيور انتشرت تربيتها بمصر ومثلت مصـدرا مهمـا من مصـادر دخل البلاد فقد عرفت مصر نظام تربية الدواجن منذ أقدم العصـور متبعة نظـام المزارع الخاصـة بها أو الحضانات الخاصـة بالمزارع وهى طريقة انفردت بها مصر ولم تعرف فى غيرهـا من البلاد الأخرى حيث يتم قيامهم بعمليـة التفريخ بطريقة الترقيد الصناعى فى معامل كالتنانير فيتم اعداد حظـائر مصنوعـة من الفخار ذات أبواب ويرص بها البيض بطريقة معينة تشبه الطريقة التى تتم فى الطبيعة ويكون هـذا تحت درجـة حرارة مماثلة لدرجة الحرارة الطبيعيـة لفقسه وتخرج الفراريج من البيض بكميات كبيرة ويذكر المقريزى أن هذه الطريقة هى الطريقة المثلى لانتاج الفراريج فى مصر الاسلامية .

---

(٥) البشمور : بالضم كورة بمصر قرب دمياط ، وفيها قرى وريف وغياض وبها مصائد سمك وفيرة .

وكانت معامل تفريخ البيض منتشرة بمصر فى جميع انحاء البلاد وقد أمدنا عبد اللطيف البغدادى بتفاصيل حول هذه المهنة فيذكر أن المعامل كانت واسعة وكانت تتسع لألف بيضة وتوضع فى أماكن تعرف ببيت الترقيد يتم فيها فقس البيض بالطريقة الصناعية وهى طريقة ما زالت معروفة وشائعة فى كثير من قرى مصر وخصوصا بمنطقة الصعيد .

وقد زاد اهتمام الفاطميين بهذه الحرفة وشجعوا انتشارها للحصول على الكميات الكافية من الدواجن لموائد قصورهم ومطابخهم . ولسد حاجة القصر الفاطمى فى المناسبات والأعياد حيث كانت الفراريج أو الدجاجات من الوجبات الرئيسية على أسمطة الأعياد والمواسم .

ويذكر المقريزى أن التنانير او المعامل الخاصة بالتفريخ كانت خاضعة لضرائب زمن الدولة الفاطمية وقد استمرت هذه الضرائب الى أن تم الغاؤها من السلطان صلاح الدين الأيوبى ضمن قائمة الحكومة التى الغيت سنة ٥٦٧ هـ ــ ١١٧٧ م .

النحــل :

عرف عسل النحل بمصر منذ أقدم العصور ، وكان لعسل النحل المصرى شهرة كبيرة منذ القدم ، وقد أعجب الرسول عليه الصلاة والسلام بالعسل الذى اهدى اليه من المقوقس حاكم مصر وبارك فيه .

وبعد الفتح الاسلامى لمصر كان العسل (ويقصد هنا عسل النحل) كان يدخل ضمن ما يدفعه الأقباط المصريون من جزية وقد اهتم المسلمون طوال عصر الولاة بتشجيع اقامة المناحل وكذلك طوال العصرين الطولونى والاخشيدى وقد اشتهرت مدن كثيرة بهذه الحرفة مثل مدينة بنها التى اشتهرت فى العصر الاسلامى ببيعها العسل .

أما فى العصر الفاطمى فقد اهتمت الحكومة الفاطمية بالمناحل وانتاجها باعتبارها مصدرا مهما من مصادر الدخل للبلاد فانتشرت وتعددت المناحل بكثير من مدن وقرى مصر المختلفة وخصوصا فى المناطق التى تحيط بالحدائق والبساتين وقد تمركزت بمدينة الفسطاط لكثرة البساتين والحدائق بها كما اشتهرت أيضا مدينة قليوب الى جانب بنها التى استمرت شهرتها زمن الدولة الفاطمية أيضا وكان الطلب على العسل شديدا فى العصر الفاطمى ويرجع ذلك الى احتياج الحكومة لكميات وفيرة منه لاستخدامه فى صنع الحلوى فى المناسبات المختلفة مثل الحلوى التى تصنع فى دار الفطرة فى شهر رمضان وكذلك الحلوى التى تعد من أجل الأسمطة فى المناسبات الدينية المختلفة وغيرها كما سبق أن ذكرت عند الكلام عن دار الفطرة والأسمطة التى تقام بالقصر الفاطمى .

ولم يكن هذا هو السبب الرئيسى فى تشجيع حرفة النحالة والاهتمام بالنحل لانتاج العسل وانما أيضا حياة الترف التى كان

يحياها الشعب المصرى خصوصا فى فترات الرخاء الاقتصادى ساعد على شدة طلب كميات كبيرة من عسل النحل . كل هذه الأسباب جعلت أهل الريف يقبلون على انتاج كميات كبيرة من العسل عن طريق زيادة مناحل وخلايا النحل .

وقد ذكر ابن مماتى أن محصول العسل والشمع كان كثيرا مما جعله مصدرا من المصادر المهمة للاقتصاد وغالبا ما كان يقطف فى برمودة . ويستمر الى بؤونة ويتم الحصول على ما تبقى من المحصول فى ابيب ، وكانت كل مائة خلية تعطى عشرة أرطال بالمصرى وغالبا ما يتحصل منها فى السنة من خمسة الى ستة قناطير وعشرين رطلا من الشمع .

الفصـــل الثـــانى

الصناعات المصرية الرئيسية

تعتبر الصناعة من أهم أعمدة الاقتصاد المصرى منذ فجر التاريخ فقد عرفت مصر صناعات مهمة كانت لها شهرتها العالمية مثل صناعة المنسوجات ، والورق ، والزجاج ، والبلور ، وصناعة الأخشاب الى جانب صناعة المعادن ، والحلى ، وأدوات الزينة ، وكذلك صناعة الزيوت والعطور وغيرها من الصناعات المختلفـة التى ازدهرت فى مصر منذ عصر الفراعنـة وازداد تقدمها خـلال العصر البيزنطى .

وساعد على تقدم هذه الصناعات وفرة المواد الخـام بمصر وسهولة استيراد المواد الأخرى غير المتوفرة بها مثل الخشـب والحديد والجلود والحرير الى جانب اهتمام وتشجيع هـذه الصناعات ومساعدتها على الاستمرار والتقدم والازدهار .

فلما فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ على يد عمرو بن العاص وجدوا الصناعة المصرية فى قمة تقدمها ورقيها فزاد تشجيعهم لها والاهتمام بها مما ساعد على تقدم فن التصنيع المصرى الذى اقترن بسمات الاسلام .

ولم يهمل العرب الاهتمام بالصانع المصرى بل اهتموا بأحوال الصانع المالية والاقتصادية وتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة الكاشف « أن معظم الصناع فى مصر فى عصر الولاة كانوا من المصريين سواء اكانوا من بقى على دينه من الأقباط أم من أسلم منهم فالعرب لم يتدخلوا فى الصناعات ولا غيرها من المهن وانما كان بيدهم السياسة والحكم والحرب » .

ولم يقتصر الاهتمام بالصناعة على عصر الولاة بل زاد الاهتمام بها منذ عصر الدولة الطولونية فقد اهتم أحمد بن طولون بالصناعة باعتبارها مصدرا مهما من مصادر الاقتصاد المصرى فازدهرت فى زمنه صناعة النسيج وبلغت أوج عظمتها وتقدمها خصوصا الأقمشة الثمينة التى كانت تغزو أسواق العالم والتى كان يحملها التجار الى بلاد روما وبيزنطة ويبيعونها للبابوات لتقديمها كهدايا للكنيسة .

لم يقتصر الأمر فى عصر الدولة الطولونية على تقدم المنسوجات وصناعتها بل نجحت الدولة الطولونية فى صناعة الأسلحة فبنى ابن طولون مصانع الأسلحة ليمد جيشه واسطوله بها ، كما اهتم بالصناعات الغذائية مثل صناعة الزيوت المستخرجة من السمسم وغيره من البقول .

واشتهرت مصر فى عهده أيضا بصناعة الورق من نبات البردى حيث احتكرت مصر صناعته منذ أقدم العصور ، وزاد

الاهتمـام به منذ بداية عصر الولاة حتى نهايـة العصر الطولونى فكثرت زراعة البردى فى المستنقعات المنتشرة فى الدلتا والفيوم ، كما اهتم الطولونيون أيضـا بصناعة السكر ، وذاع صيتهم فى صناعة المنتجات الخشبية والحـلى والأثاث والتحف النادرة ، وكذلك ازدهرت صناعة الأوانى المصنوعة من الخزف والصينى ويذكر علماء الآثار والمؤرخون أن أحمد بن طولون أدخل الخزف ذا البريق المعدنى الى مصر نقـلا عن سامرا فمن المعروف ان أحمد بن طولون كان متأثرا الى حد كبير بما كانت تجرى صناعته فى سامرا بالعراق ، والتى عاش فيها شطرا كبيرا من حياته وكانت سامرا احدى اهم المراكز التى تنتج الخزف ذا البريق المعـدنى بالاضافة الى الفضائر الصينية .

ولم يقتصر اهتمام دولة بنى طولون على الصناعة وتقدمها بل اهتموا أيضا بأحوال الصـناع وذلك باهتمـامهم بالنقابات العمالية خلال العصر الطولونى . فكانت كل طائفـة من طوائف العمال تشكل شبه نقابة ويرأسها عريف أو شيخ للمطالبة بحقوقها وتنظيم العلاقة بين الحكومة وأفراد جماعته (١) .

أما فى العصر الاخشيدى فقد اسـتمر اهتمـام الحـكومة بالصناعة وخصوصا صناعة النسيج الذى بلغ درجة كبيرة من

---

(١) عرف العرب نظـام النقابات منذ فتحهم لمصر فقد ورثوا هذا النظام عن الدولة البيزنطية التى وضعت الأسس لنظـام النقابات العمالية . ولم يتم أى تعديل على هـذا النظام سوى تغيير الاسم من نقابة الى طائفة فيذكر اليعقوبى أن أهل الحرف فى المدن الاسـلامية يشار اليهم بالأصناف وأصحاب المهن وأهل الصنايع وبالطوائف حيث قويت الرابطـة بينهم وصار كل يشعر بالارتباط الوثيق بزملائه من أهل حرفته وصار من أقوالهم المـأثورة فى مصر وفى غيرها من المصادر الاسلامية « الصناعة نسب » .

التقدم والرقى ، وكذلك ازدهرت صناعة الحصر التى تشبه فى دقتها وجمالها صناعة الحصر العبادانى (٢) .

وكذلك ازدهرت صناعة الجلود ، أما صناعة الورق فقد تدهورت نتيجة لتدهور صناعة القراطيس من البردى واصبحت مصر تستورد الورق من بلاد الصين ، وسمرقند ودمشق وطبرية، وطرابلس الشام .

اما فى مصر الفاطمية فقد ازدهرت الصناعة وبلغت أوج عظمتها وتقدمها حتى غدت مصر مركزا من أهم مراكز الصناعة فى العالم الاسلامى ، مكملة بذلك مسيرة الطولونيين والاخشيديين.

وقد تضافرت عوامل كثيرة ساعدت على التقدم والرقى فمنذ دخول الفاطميين الى البلاد وهم يضعون نصب أعينهم ضرورة استغلال ثروات البلاد ، وقد ساعدهم على هذا الهدوء والاستقرار السياسى والاقتصادى الذى وفره الخلفاء الفاطميون ومحاولتهم التفوق على عاصمة الخلافة العباسية ببغداد هذا الى جانب حب الشعب المصرى للهدوء والاستقرار وهو ما لفت أنظار كثير من الرحالة الذين أسهبوا فى وصف حياة الاستقرار السياسى فى البلاد فى عهد الفواطم . فالمقدسى يذكر أن الشعب كان يحيا حياة عدل وأمن ويرجع هذا لقوة الدولة الفاطمية ويزيد على ذلك قوله ان حياة الترف التى كانت تعيشها الرعية ساعدت على الهدوء والاستقرار الأمنى . مضافا الى هذا الاهتمام بالطبقة العاملة وأحوالها وتوفير وسائل الاستقرار لهذه

---

(٢) تعتبر مدينة عبدان من أشهر مراكز صناعة الحصر فى بلاد العالم الاسلامى .

الطبقة ، الى جانب استيراد العمالة المدربة من الخارج ومنحهم مميزات جعلتهم يستقرون ويتفوقون ، فقد أمر الخليفة المعز لدين الله بعد قدومه الى مصر واستقراره بها باحضار كل ما هو فى صنعته وأفرد لهم مكانا خاصا برسمهم .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت مصر فى العصر الفاطمى صرحا من صروح الصناعة الراقية المتقدمة فى العالم الاسلامى ، بل ان بعض المراكز الصناعية بها أصبحت عالمية السمعة . وقد ساعد على ذلك أيضا وجود المواد الخام اللازمة للصناعة بوفرة فى البلاد مما دفع عجلة الانتاج فقد كانت هناك مواد خام أولية محلية مثل الكتان وقصب السكر والكروم والزيتون والنباتات العطرية وغيرها من المواد الأولية التى تتوفر بمصر كذلك وجود الأصواف والجلود المأخوذة من الماشية والماعز والابل الى جانب المعادن ، ولم تعدم الحكومة الفاطمية الوسيلة فى استيراد بعض المواد الخام التى لا تتوفر فى البلاد مثل الحرير وكانت تأتى به من جنوب شرق آسيا ليتم تصنيعه فى المصانع المصرية وخصوصا فى فترات الرخاء الاقتصادى .

اولا ـ صناعة النسيج :

عرفت مصر صناعة النسيج منذ أقدم العصور فقد اشتهرت منطقة وسط الدلتا وكذلك منطقة الفيوم بانتاج الأقمشة الكتانية الراقية كذلك ازدهرت صناعة الصوف بمصر الفرعونية ويرجع ذلك لكثرة تربية الأغنام وتوفر المراعى فى تلك الفترة ، وتعددت مناسج الصوف فى صعيد مصر بمنطقة أسيوط وأخميم وكان انتاج تلك المناطق يصدر الى بلاد بيزنطة وروما فى عصر الدولة البيزنطية لاستخدامه فى الكنائس والأديرة ، وازدهرت

أيضا صناعة الأقمشة الحريرية فى مصر البيزنطية وتمركزت صناعته فى دبيق والاسكندرية ، وكانت بيزنطة تحتكر صناعة الحرير المصرى لحاجة الأباطرة له .

فمنذ عصر الفراعنة أخذت صناعة المنسوجات تزدهر وزاد ازدهارها بعد الفتح العربى فى منتصف القرن السابع الميلادى ، فكان العرب يعرفون قدر المنسوجات المصرية ويطلقون عليها اسم القباطى نسبة لأقباط مصر واستمر هذا الازدهار طوال عصر الولاة ثم عصر الدولة الفاطمية والاخشيدية .

أما فى العصر الفاطمى فيعتبر النسيج من أهم الصناعات التى ازدهرت وتنوعت أصنافها فقد اهتمت الحكومة الفاطمية اهتماما كبيرا بصناعة النسيج التى تقدمت تقدما كبيرا وبلغت من الدقة والاتقان الشىء الكثير وزاد انتاج البلاد من الصناعات المنسوجة بمصر الى هذا الاهتمام محاولة الفاطميين اتخاذ المنسوجات كنوع من الدعاية المذهبية حيث كانت العبارات المذهبية (الشيعية) تنسج على تلك المنسوجات التى توزع على رجالات الدولة وعامة الشعب فى المناسبات المختلفة من أجل كسب ودهم والتأثير فى معتقداتهم ولذا نجد خلفاء الفاطميين يهتمون اهتماما خاصا بصناعة النسيج منذ دخولهم مصر ، فالمعز لدين الله الفاطمى يصدر أوامره باقامة دار الكسوة ويمدها بأمهر الصناع ويوفر لهم سبل العيش الكريم حتى يحصل على أجود الأقمشة والملابس حيث كانت دار الكسوة تمد البلاط الفاطمى بالكسوات الخاصة بالشتاء والصيف الى جانب الخلع والثياب التى يمنحها الخليفة لرجال دولته فى المناسبات الدينية والوطنية المختلفة فقد جرت العادة أن يقدم الخليفة كسوة الشتاء والصيف لرجالات الدولة ، الى جانب تقديم الخلع فى غرة شهر رمضان وأول العام

وأعيـاد الفطر والنحر وكسر الخليج رعيد الغدير وغـيرها من المناسبات الكثيرة التى تميز بها البـلاط الفاطمى ، وقد أسهب المقريزى فى الحديث عن تلك الكسوات التى كانت تخرج لتوزيعها فى الشتاء والصيف ووصلت قيمتها ستمائة ألف دينار وزيادة ، ورغم أن عادة توزيع الكساوى والخلع على رجالات الدولة لم تكن من مستحدثات العصر الفاطمى اذ عرفها العباسيون من قبل ، وقد شاركت دور الطراز المصرية من قبل فى عصر الولاة فى انتاج مثل هذه الكسوات وارسالها الى بغداد ، وفى عهد الطولونيين والاخشيديين أيضا شاركت دور الطراز المصرية فى ارسال الكثير من تلك الكسوات الى بغداد أيضا الا أن خلفاء الفاطميين أضـافوا اليها كثيرا من الابهة والفخامة واعتبروها كنوع من الدعاية المذهبية من ناحية وكنوع من التقدير المـادى والأدبى من ناحية أخرى ، وهو ما نسميه فى عصرنا الحـالى توزيع الأوسمة والنياشين على بعض رجالات الدولة وغالبا ما كانت الخلع يرفق بها مكتوب صادر من ديوان الانشاء ومن العادات التى كانت متبعة فى العصر الفاطمى أن يقتنى أفراد الطبقة المترفة عددا كبير من قطع النسيج النادرة ، وقد أمدنـا مؤرخو العصر بوصف لبعض الخـزائن الخاصـة بالأميرات أو الوزراء وخصوصا عندما تتم مصـادرة ممتلكاتهم نتيجة لغضب الخليفة أو للوفاة فيتم اعادة ما بداخل تلك الخزائن الى القصر الخليفى ، وغالبا ما كانت تلك القطع من الأنواع النادرة وكثيرة العدد ولا تقل قيمتها عن قيمة الجواهر والأحجار الكريمة.

كذلك فقد اهتم الخلفاء باعداد الكسوة الخاصـة بالكعبـة المشرفة حيث جرت العادة بان ترسـل مصر كل عام كسوة الكعبة المشرفة الى بلاد الحجاز فتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف « أن الخلفاء عنوا منذ الفتح العربى لمصر باتخـاذ كسوة الكعبة من المنسـوجات النفيسـة التى كانت تصـنع بها فتـذكر أن

عمر بن الخطاب كسا الكعبة القباطى من بيت المـال ، وكان يكتب الى مصر لتصنع له فيها ، وكذلك فعل عثمان من بعده فلما كان معاوية بن أبى سفيان كساها كسوتين كسوة من القباطى وكسوة ديباج . فكانت تكسى الديباج يوم عاشـوراء وتكسى القباطى فى آخر شهر رمضان (٣) .

وقد عملت حياة الترف التى عاشها خلفاء الدولة الفاطمية ورجال دولتهم على ضرورة الاهتمام بأنواع مختلفـة من النسيج حتى يستطيعوا أن يفوا بمتطلبـات حياتهم اليومية فكانت صناعة الفرش وعمل الخيام والبنود والرايات وغيرها من أنواع النسيج التى تخدم حياة الترف والأبهة التى تميز بها العصر الفاطمى . هذا الى جانب ما كان يحتاجه رجـال الجيش من الملابس التى تستخدم فى المناسبات الخاصـة بالاحتفالات والأعياد .

وقد لعبت العلاقات التجارية الوثيقة بين الدولة الفاطمية وبعض بلاد البحر المتوسط من جهة وبلاد النوبة من جهة أخرى على زيادة انتـاج النسيج من أجل تصـديره ، وقد بلغت شهرة الأنواع المختلفة من المنسوجات درجة كبيرة دعت بعض تلك الدول الى عقد صفقات تجـارية كبيرة من أجل الحصـول على أجود المنسوجات التى تخصصت مصر فى صناعتها دون غيرها من دول العالم الاسلامى فى تلك الفترة .

---

(٣) كانت كسوة الكعبة المشرفة غالبا ما تصنع من قماش عرف بالقباطى وهو خليط من أجود أنواع الكتـان المصرى الأبيض وبه زخارف كتابية على شكل دوائر ، كمـا كانت تكسى نوعا آخر من القمـاش عرف بالديباج الأحمر المعروف بالخسروانى وعليه آيات قرآنيـة ، وذلك وقت الحج .

ومن العوامل التى ساعدت أيضا على صناعة النسيج أن الحكومة الفاطمية أشرفت اشرافا مباشرا على المصانع الحكوميه الى جانب الاشراف غير المباشر على المصانع الأهلية واحتكار ما تنتجه تلك المصانع .

ولم يكن هذا من مستحدثات العصر الفاطمى وانما عنى المسلمون منذ الفتح الاسلامى لمصر بالمحافظة على تقدم تلك المصانع واستمرارها . ولذا فقد عرفت مصر الاسلامية منذ الفتح اشراف الحكومة على صناعة النسيج وظل نظام الطراز (المصانع الحكومية) سواء طراز الخاصة أو طراز العامة يتطور حتى بلغ فى العصر الاخشيدى حدا من التقدم والرقى وجودة الانتاج ، مما مهد للنهضة الصناعة التى شهدتها مصر فى عصر الدولة الفاطمية .

ومن أجل هذا أخذت مصانع الغزل والنسيج تنتشر فى انحاء البلاد فأقيمت المصانع الكبرى سواء الحكومية التى يطلق عليها اسم « الطراز » (٤) أو الأهلية وكانت المصانع الحكومية نوعين الأول يطلق عليه « طراز الخاصة » وكان لا يستعمل الا للخليفة ورجالات الدولة والحاشية والثانى « طراز العامة » وكان يستعمل لأفراد الشعب فضلا عن استخدامه لبلاط الخليفة فى حالة زيادة الحاجة للنسيج . أما المصانع الأهلية فكانت منتشرة فى أماكن مختلفة من البلاد وكانت تخضع للرقابة الحكومية

---

(٤) كلمة طراز كانت تعنى فى أول الأمر الكتابة التى توجد على الأقمشة ، وهو لفظ اعجمى مأخوذ من كلمة (طرازيدن) ومعناها التطريز اذن فالمعنى الأصلى لكلمة الطراز هو التطريز ثم اتسع مدلولها فأصبحت تستعمل للكتابة على الورق والنسيج ثم بعد ذلك أصبحت تطلق على المصانع التى تنتج فيها تلك المنسوجات المطرزة .

المشددة الى جانب خضوعها لشرائع ضريبية مرتفعة . ويشير المقدسي الى خضوع هذه الصناعة للرقابة المشددة وخصوصا فى أول العصر الفاطمى حيث زار مصر زمن الخليفة الفاطمى العزيز بالله فيقول « لا يمكن لقبطى أن ينسج شيئا الا بعدما يختم عليها بختم السلطان ولا أن تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليهم وصاحب السلطان يثبت ما يباع من جريدته ثم تحمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقش الى من يشدها فى السفط والى من يحزمها وكل واحد منهم له رسم يأخذه ثم على باب الفرضة يؤخذ أيضا شىء وكل واحد يكتب على السفط علامته ثم تفتش المراكب عند اقلاعها » والى جانب تلك المصانع كانت هناك مصانع صغيرة منزلية يتم فيها غزل النسيج بالمنازل وخصوصا الكتان حيث تقوم النساء بهذه المهمة ويساعدهن الرجال فى نسجه وكان تجار الأقمشة يدفعون لهم أجرهم اليومى . ولا يستطيع احد منهم التصرف فيما يتم نسجه الا بواسطة السماسرة الذين يتم تعيينهم من قبل الحكومة . وقد انتشرت تلك المصانع المنزلية فى دلتا مصر هذا الى جانب المعامل (أو الغرف) التى كان يتم تأجيرها من قبل الحكومة للحاكة لعمل الثياب الشرب بدمياط . حيث تخصصت تلك المعامل او الغرف فى انتاج الجيد من هذا النسيج وكان يتولى أمر تلك الصناعة الأقباط ويتم الاشراف عليها بواسطة سماسرة من قبل الحكومة .

وقد اختلفت أوضاع الصناع فى العصر الفاطمى من عهد الى عهد ، ففى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله كانت أحوال هؤلاء الصناع فى غاية السوء نتيجة لاحتكار الحكومة لانتاجهم من النسيج الى جانب ارتفاع الضرائب المقررة عليهم مما دعا الرحالة ابن حوقل أن يصف الوزير يعقوب بن كلس وزير الخليفة

العزيز بالله بأنه سبب المغارم والنوائب والكلف التى يبتلى بهـا هؤلاء حيث عاملهم معاملة السخرة ولكن نجد « ناصر خسرو » يصف لنا أحوال تلك الطبقـة زمن زيارته لمصر زمن الخليفـة الفاطمى المستنصر بالله بأنها أحسن مما شاهد فى بلاد أخرى حيث لا يوجد سخرة ومهما يكن من أمر الطبقة العاملة الا أن الحكومة اهتمت اهتماما كبيرا بالمنسوجات وصناعتها ، ولذا أخذت تتبع أحدث الطرق فى ادارة المصـانع أو دور الطراز ولذا نجد القائمين على رأس تلك المصانع يتم تعيينهم من الأعيان والمستخدمين من ارباب العمائم والسيوف وكان صاحب الطراز له اختصاصـات واسعة واتصـال بالخليفة مباشرة وله محل للاقامة بالمدن الكبرى كدمياط وتنيس وله عشارى تحت تصرفه كما كان يعـامل معاملة حسنة حين قدومه الى القاهرة حيث يستقبله الخليفة استقبالا رسميا وتجرى عليه الضيافة كالغرباء .

وهناك وصف شامل لمراسم استقبال صاحب الطراز أوردها المقريزى بالتفصـيل فيذكر « أن الخدمـة فى الطراز ـ وينعت الطراز الشريف ـ ولا يتولاه الا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسـيوف وله اختصـاص بالخليفة دون كافـة المستخدمين ومقامه بدمياط وتنيس وغيرهما وله جارية أمير الجوارى وبين يديه من المندوبين مائة رجـل لتنفيـذ الاستعمالات بالقرى وله عشارى (٥) وتماس مجرد معه وثلاث مراكب من الدكاسات (٦)

---

(٥) نوع من السفن استخدم بكثرة فى العصر الفاطمى ونردد ذكره فى كثير من النصـوص التاريخية التى أوردها لنا مؤرخو مصر الاسلامية ، ويعتقد أنها كانت ملحقة بالاسطول وأحيانا كانت العشارى تستخدم كاحدى القطع النهرية التى تعددت استخداماتها فى العصر الفاطمى .

(٦) الدكاسات نوع المراكب التى كان يستعملها كبار رجال الدولة فى العصر الفاطمى .

ولها رؤساء ونواسية لا يجدون ونفقاتهم جارية من مال الديوان فاذا وصل بالاستعمالات (٧) الخاصـــة التى منها المظلة وبذلتهـا والبدنة (٨) واللباس الخاص الجمعى (٩) وغيره وهيىء بكرامـة عظيمة وتربى له دابة من مراكيب الخليفة لا تزال تحته حتى يعود الى خدمته وينزل فى الغزالة ويقصد هنا منظرة الغزالة على شاطىء الخليج وكانت من المناظر السلطانية وجددها (*) شــعاع بن شاور ولو كان لصاحب الطراز فى القاهرة عشر دور لا يمكن من نزوله الا بالغزالة ويجرى عليها الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة فيمتثل بين يدى الخليفـة بعد حمل الأسفاط المشــدودة (١٠) على تلك الكساوى العظيمة ويعرض جميع ما معه وهو ينبه على شيء فشيء بيد فراشى الخــاص فى دار الخليفة وكان سكنه ولهذا حرمة عظيمة ولا سيما اذا وافق استعماله غرضهم فاذا انقضى عرض ذلك بالمدرج الذى يحضره سلم المستخدم الكسوات وخلع

---

(٧) المقصود بالاستعمالات الخاصـــة المنسوجات التى تخص الخليفـة التى منها المظلة التى تصنع من الحرير المزركش بالذهب كانت تحمل على رأس الخليفة فى المواكب وتكون من لون الثياب التى يلبسـها الخليفة حينئذ .

(٨) البدنة : ثوب كان ينسج للخليفة فى مدينة تنيس ، وكان ما يشمله من خيوط فى اللحمة والحـابل لا يزيد على أوقيتين لأن الباقى كان منســوجا بالذهب . وكان النساجون يتقنون صنعه حتى انه يخرج من أيديهم غير محتـاج للقطع أو الخياطة وكانت نفقة انتاج البدنة ألف دينار .

(٩) أما اللباس الخــاص بالجمعى فالمقصود ما كان يلبسـه الخليفـة أيام الجمع وهو ثوب يصنع خصيصا لتأدية صلاة الجمعة .

(★) شعاع بن شاور أحد أبناء الوزير شاور ابن مجير الســعدى وزير الخليفة العاضد لدين الله الفاطمى .

(١٠) الاسفاط : المقصود هنا الصناديق بها المنسوجات الثمينة الخاصة بالخليفـة .

عليه بين يدى الخليفة باطنا (١١) ولا يخلع على أحد كذلك ســواه ثم ينكفىء الى مكانه » .

اهــم انــواع النســيج

١ ـ الكتـــان (١٢) :

أما عن أهم انواع الأقمشة فى العصر الفاطمى فيأتى الكتان على رأس قائمة تلك الأنسجة حيث تعتبر المنسوجات الكتانيــة من أهم ما تنتجه المصانع المصرية وخصــوصا فى العصر الفاطمى الأول (٣٥٨ ـ ٤٦٦ هـ) (٩٦٨ ـ ١٠٧٣ م) حيث اعتمـــد الخلفاء على المنسوجات الكتانية الراقيــة التى تنتجها مصانعهم الكبرى ويعتبر الكتان من أقدم الألياف المستخدمة فى الصناعــة فقد عرفته مصر منذ أقدم العصور ، ولكنه فى العصر الفاطمى وصل انتاج المنسوجات الكتانيــة الى درجة العالمية وخصوصا الأنواع الراقية التى أخذت تتبلور صناعتها فى المراكز الصناعية الكبرى بالبلاد وقد استخدمت أحدث الطرق فى صنع المنسوجات منه والاهتمام بالزخارف الراقيــة ، وخلط الكتان بأنواع من المواد

---

(١١) خلع عليه باطنا أى يخلع عليه الخليفة ملابس داخلية ويعتبر هذا شرفا ينفرد به صاحب الطراز .

(١٢) عرف الكتان بمصر منذ أقدم العصور حيث كثرت زراعته بمصر وخاصة بمنطقة مصر الوسطى ومنطقة الفيوم وقد استخدمه المصرى القــديم فى ملبسه ولذا فقد ازدهرت صناعتــه وتطورت منذ عهد الفراعنــة فكان يتم تصنيعه عن طريق اقتلاع سيقانه من جلورها وتجميعها وربطهــا فى حزم وتركها تجف ثم تمشيطها وتعطينها حتى يلين لحاؤها وطرقها بالمطــارق وكشف اللحــاء عنها ثم تندية اليافها وفتلها أو غزلها بالفلكة وأخيرا نسجها وكانوا يستخدمون لها انوالا افقية يجلس الصانع أمامها على الأرض جلسة القرفصاء كما يجلس نساجو الحصير الآن .

الخـام الأخرى مثل الحرير والصـوف وظهر هذا بوضـوح فى العصر الفاطمى الثانى ٤٦٦ هـ ــ ٥٦٧ هـ (١٠٧٣ ــ ١١٧١ م) حيث أقبل خلفاء ووزراء هـذا العصر على ارتداء الملابس الحريرية التى تعتمد على خيوط الكتان فى نسجها .

ونتيجة لهذه الدقة والفخامة فى صناعة الكتان أخذت شهرته تصل الى كافة أرجاء العالم المعروف فى ذلك الوقت ، ويتم تصدير كميات كبيرة من النسيج المصرى الى عاصمة العباسيين ببغداد حيث بلغت قيمة ما يتم تصـديره فى احدى السـنوات اليهـا ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دينار .

وقد تمركزت زراعة الكتـان فى الدلتا (١٣) والفيوم (١٤) مما أدى الى ظهور مراكز صناعية كبرى فى تلك المناطق تنتج أجود وأفخم أنواع المنسوجات الكتانيـة ، وقد أمدنا الرحالة بالكثير من المعلومات عن تلك المدن الصناعيـة وأنواع المنسوجات التى تصنع فيها حيث تخصصت كل مدينة فى انتاج نوعية من النسيج لها مميزات تختلف عن زميلتها .

ومن المدن التى كانت رائدة فى هـذه الصناعة نذكر تنيس ،

---

(١٣) تخصصت منطقة الدلتا بصنع الأنسجة الكتانية الجيدة الرفيعـة ويرجع هـذا الى نوعية الكتان المنزرع بها حيث ان الكتان فى تلك المنطقة طويل التيلة جيد النوع .

(١٤) أما منطقة الفيوم فيأتى الكتـان المنزرع بها أقل درجة حيث يذكره بعض الرحالة بأنه الكتان « الدون » أى الأقل درجة ولذا تخصصت منطقـة الفيوم فى صنع المفروشات الموشاة ، والستور والاستبرقات والنرع ، والخيام والبسط والمضارب .

ودمياط هذا الى جانب الاسكندرية ومدن دميرة ، ودبيق (١٥) ، وشطا وغيرها من مدن الدلتا .

ولم يقتصر الأمر على هــذه المدن فقط وانما ظهر نتيجة للاقبال على هذه الصناعة بعض المدن الأخرى التى ذكرها المقريزى ورغم أن هذه المدن كانت مراكز صناعية مهمة قبل قدوم الفاطميين الا أنها بقدومهم تفوقت فى هذا المجــال مثل مدينة تونة (١٦) ، وبورة ويشير المقدسى الى مدينة بوصير (١٧) ويعتبرها من أهم مناطق زراعة الكتان الرفيع .

أما تنيس فقد تغنى المعاصرون من الرحالة ومؤرخى العصر بجمــال انتاجها من المنسوجات ووصفها ناصر خسرو عند زيارته لمصر فى القرن الخــامس الهجــرى/الحــادى عشر الميــــلادى

---

(١٥) دبيق مدينة من المدن المصرية الصناعية القديمة ، ذاعت شهرتهــا منذ فجر الاسلام بانتاجها للثياب المنقلة والعمــائم الشرب الملونه والدبيقى المزركش وقد اشتهرت بنوع من العمائم لا تصنع الا بها يكون طول الواحدة مائة متر ومدينة دبيق تقع بين الفرما وتنيس على ساحل البحر المتوسط وقد وردت فى بعض الكتب التاريخية باسم ديفو ووردت فى كتــاب الخطط للمقريزى باسم ديبق بتقديم الياء على الباء وقيل انها احدى قرى دمياط ، وقد اندثرت تلك المدينــة الآن وصارت تعرف بتل ديفو بالقرب من شاطىء بحيرة المنزلة فى الشمال الشرقى بناحيــة صــا الحجر بمركز فاقوس بمحافظة الشرقية الحالية .

(١٦) مدينة قديمة قريبة من دمياط وكانت مشهورة بثيابها وطرزهــا وقد قدم منها القائد جوهر الصقلى هدية الى الخليفة المعز لدين الله عند قدومه الى مصر سنة ٣٦٢ هـ عبــارة عن سفط من مناع مدينة تونة ضمن بعض الهدايا التى اشتملت عليها هدية الخليفة عند قومه كما يذكر المقريزى أيضا أنها كانت من أهم المناطق الصناعية النى ينم اعداد كسوة الكعبة المشرفة بها .

(١٧) ويقصد المقدسى هنــا بوصير قربوس أو قوريدس من أعمــال الأشــمونين .

(٤٣٩ ـ ٤٤٢ هـ) (١٠٤٧ ـ ١٠٥٠ م) ووقف ليتفنى بما تنتجه مصانع تنيس حيث ذكر أن القصب التنيسى (١٨) الملون الذى يصنع منه عمامات ودفايات النساء تنفرد به مدينة تنيس فلا يصنع فى مكان آخر .

كما يصف ابن حوقل تلك المدينة وما بها من المنسوجات القيمة ويقول انها لا تقارن بغيرها من منسوجات العالم ويتم تصدير كميات كبيرة من هذه المنسوجات ويضيف بأن سياسة الوزير يعقوب بن كلس منعت تصدير الأنسجة الخاصة بتنيس وأصبحت تخصص لملابس الخليفة والحاشية ويتفق معه هنا ناصر خسرو حيث يؤكد احتكار الخليفة لمنسوجات مدينة تنيس بحيث ان بعض ملوك الفرس ارسل فى طلب حلية تنيسية وأجزل العطاء فدفع عشرين ألف دينار ولكنه لم يستطع الحصول عليها ويرجع هذا الى احتكار الخليفة لانتاج تلك المدينة الصناعية الكبرى .

وتنتج مصانع تنيس نوعا آخر من المنسوجات يعرف بالبوقلمون وهو قماش ذهبى يتغير لونه بتغير ساعات النهار (١٩)، وتحتكره تلك المدينة فهو لا يصنع بمدينة أخرى ولذا فقد ارتفع

---

(١٨) القصب : نوع من القماش الكتانى دقيق جدا .

(١٩) عرف قماش البوقلمون فى مصر منذ أوائل القرن الخامس الهجرى وهو عبارة عن قماش يتغير لونه بتغير ساعات النهار وكان يصنع بمدينة تنيس وحدها ويرجع سبب تفوق مدينة تنيس بانتاج هذا القماش الى مهارة الصانع التنيسى فى اعداد المواد الخاصة بالصباغة ، وقد استطاع الصانع ان يحصل على نوع من الحجارة البحرية توجد بقاع البحر بالقرب من شاطىء الاسكندرية تسمى فصوص البوقلمون وعالجها كيماويا واستخرج منها الصباغة الخاصة بصنع هذا النوع من الاقمشة .

سعره وتحكمت الحكومة فى بيعه الى بلاد المشرق والمغرب بالأسعار التى تحددها .

ويقول المقريزى ان الثيـاب الشرب كانت تصـنع بتنيس وكان يتم صنع ملابس الخليفة منها وهو ما يطلق عليه « البدنة » لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة غير أوقيتين وينسج كله من الذهب حيث يتم صناعة تلك (البدنة) بطريقة دقيقة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة وتبلغ قيمة البدنة هذه ألف دينار، كما يبلغ ثمن الثوب المصنوع من الكتـان بغير ذهب مائة دينار ، فيذكر بعض مؤرخى العصر أن كثيرا من ملوك وقياصرة العالم كانوا تتكالبون على اقتناء ثوب تنيس ولم تقتصر مصـانع تنيس على صناعة ملابس الخليفة وحسب وانما يذكر المقريزى أن كسـوة الكعبة أيضـا كانت تصنع فى مصانع تنيس ، بينما يقول ديماند ان الكسوة كانت تصنع فى تونة وهى تابعة لمدينة تنيس .

أما مدينة دمياط فقد تخصصت منذ أقدم العصور فى صنع ثياب الشرب ولكنهـا تفوقت مصانعها فى العصر الفاطمى بعمـل الجيد من هذا النسيج وكانت تتم صناعته فى غرف تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل هـذه الثياب فلا تكاد تنجب الا بهـا ، هذا الى جانب القصب ويبلغ ثمن الثوب الأبيض المصنع فى دمياط وليس فيه ذهب ثلاثمائة دينار فقد تخصصت دمياط فى صنع القماش الرقيق من الكتان بدون أصباغ وهو قيم وغالى الثمن . ففى ٣٩٨ هـ زمن الخليفة الحـاكم بأمر الله بيعت حلتان من نسيج دمياط بثلاثة آلاف دينار وهو شىء فريد فى تلك الحقبة من الزمان .

ويعتبر الثوب الدبيقى المنسوج فى منطقة دبيق (دبقو) من اجود أنواع الأنسجة التى عرفتهـا مصر الفاطمية حيث أخذت

شهرته تصل الى آفاق العالم الاسلامى فأصبح علما على انواع النسيج الموشي بخيوط الذهب والحرير ويذكر المقريزى أن العمائم الشرب المذهبة تعمل بمنطقة دبيق وتكون العمامة منها مائة ذراع ومنها رفمات منسوجة بالذهب فتبلغ العمامة من الذهب خمسمائه دينار ، ويعتبر الخليفة العزيز بالله الفاطمى أول من ابتدع نوعا من العمائم المحلاه بخيوط الذهب واعتبر الخليفة العزيز بالله أول خليفة فاطمى أثبت اسمه على الطراز وقرنه باسم وزيره حيث قرن اسم أبن كلس باسمه على الطراز . وقد عثر على قطعة من النسيج عليها أسم الخليفة المستنصر بالله مقرونة باسم الوزير امير الجيوش بدر الجمالى ، وكذلك وجدت قطعة من النسيج محفوظة فى مكتبة الفاتيكان عليها اسم الخليفة المستعلى مع اسم الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ويذكر الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن أن كتابة اسم الخليفة أو الأمير فى الطراز شارة من شارات الملك ، أو الامارة كنقش اسمه على السكة والدعاء له فى الخطبة ولكن الخليفة كان يأذن بكتابة اسم وزيره فى الطراز تكريما له أو خشية منه وتسليما بحقيقة واقعة وهى استيلاء الوزير على السلطان الفعلى فى البلاد .

ولم يكن هذا من مستحدثات العصر الفاطمى بل عرفته الدولة العباسية منذ أمد بعيد فتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أنه كانت تنسج اسماء الخلفاء العباسيين على الأقمشة الثمينة مقرونة باسم وزرائهم تمجيدا ودليلا على أنها صنعت فى عصرهم ، واعلانا رسميا على سيطرتهم الفعلية على البلاد ولكن منذ عهد الدولة الطولونية اخذت تظهر اسماء بعض الأمراء الطولونيين مثل خمارويه وهارون وكذلك فى عصر الدولة الاخشيدية ظهرت أيضا اسماء الأمراء على الأقمشة ولكن لم نر اسم كافور الاخشيد على قطع الأقمشة لأن كافورا كره أن يغتصب

حق الخليفة فى هـذا الميدان فوق اغتصابه السلطان من ذرية الاخشيد . وقد استمرت اسـماء الخلفاء العباسيين مقرونـة بوزرائهم بمصر الى الفتح الفاطمى .

ولا نستطيع أن نتجاهل تفوق مدينة الاسكندرية فى صناعة النسيج فرغم شهرتها فى صناعـة المنسـوجات الحريرية الا أن مصانعها ساهمت أيضا فى انتاج الكتان الجيد اذ كانت تنتج أنواعا من الثياب مصنوعة من الكتـان (الشرب) كل زنـة درهم من النسيج درهم من الفضـة وما يدخل فى الطراز فيباع نظير وزنه مرات عديدة .

وهناك مناطق أخرى اتى ذكرها على السنة مؤرخى ورحالة العصر كانت تشتهر أيضـا بالجيد من الكتـان مرتفع القيمـة ولكنها ليست فى مقام المدن الصناعية الكبرى مثال منطقة الفيوم التى تخصصت فى صناعة الأقمشة الكتانية السميكة والستور الثمينة والاستبرقات والشرع والخيام والأجلة (٢٠) والسـتائر والبسط والمضارب والفساطيط العظـام . كما يذكر ابن حوقل أن الستور كانت من النوع الثمين ويبلغ طول الواحدة منهـا ثلاثين ذراعا وقيمة الزوج منها ثلثمائة دينار . وكانت أهم المراكز الصناعية لتلك الأنواع أهناسيا والبهنسا والأشمونين حيث تنسج

---

(٢٠) الاجلة : نوع من المنسوجات المطرزة تصنع خصيصا لتوضـع على الفيلة فى المناسـبات المختلفة وكانت تصنع من الحرير الخسروانى المذهب الا فى موضع نزول أفخاذ الفيل فكانت من الحرير غير المطرز .

الستور البهنسية وتنسج الطرز والمقاطع السلطانيــة والمضــارب الكبار والثياب المحبرة (٢١) .

وقد اهتم الفاطميون اهتماما كبيرا بصناعة الأنواع الجيدة من الفرش والستور واقتنوا فى قصــورهم قطعا نادرة منها ، وقد أوردت المصادر وصفا شاملا للخزائن التى كانت تحفظ بها تلك الفرش والأمتعة ، والتى اخرجها المــارقون زمن الشــدة العظمى، وهى ان دلت على شيء فانما تدل على مقدار ولع الخلفاء وحبهم لاقتناء الأنواع النادرة من تلك الفرش .

ويذكر المقريزى فى حديثه عن الشدة العظمى انه تم اخراج الستر الخسروانى ما يقرب من خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب الى جــانب المراتب المصنوعــة من أجــود أنواع النسيج وهو الخسروانى والقلمونى ، وكانت خزائن الفرش المعروفة بخزانة الرفوف ممتلئة بأنواع جيدة من تلك الفرش بعضها شقق طميم وبعضها خسروانى وجميعها مذهب ومطرز بالذهب والفضـــة وعليها أنواع الزخارف الجميلة من الطيور والحيوانات . واذا دل وصف المقريزى على شيء فانمــا يدل على أن الخلفــاء كانــوا يعشقون أنواع الفرش القيمة ويحتفظون بها كالجواهر والأحجار الكريمة كما يلفت نظر الرحالة المقدسى جودة انتــاج مدينة بهنسا من الستور ويذكر ابن حوقل أن مدينة أخميم أعدت من أجل عمل جهاز الكتان المخصص لتصديره الى بلاد الحجاز .

---

(٢١) أما منطقة الاشمونين فكان يصنع فيها نسيج الفرش القرمز وهو يشبه الأرمنى من حيث الشكل والأرمنى نوع من القمــاش قلد فى مصر على نمط ما كان يصنع فى أرمينيا وقد حاول خلفاء الدولة الفاطمية تقليد بعض أنواع المنسوجات التى كانت تصــل الى ديار الخلافة باستقدام الصناع من بلادهم وتوفير سبل الراحة والاستقرار لهم لينقلوا اليهم ما وصلت اليه مصانع المنسوجات فى البلاد الأخرى من تطور .

ويضيف ناصر خسرو أن صناعة الستور لم تقتصر على مناطق الفيوم فقط وانما يتم صنع بعضها بمدينة تنيس حيث يتم تصنيع أستار وهوادج الجمال ولبود سروج الخيل الخاصة بالسلطان وكانت تصنع من البوقلمون .

وقد ساهمت دار الطراز بمدينة الاسكندرية فى صنع الخيام والأعلام وغيرها من الفرش وقد تفوقت مصر فى صناعة الحصر العبدانى ، وسائر أصناف الحصر منذ فجر الاسلام ولكن زاد هذا التفوق فى العصر الفاطمى .

٢ ـ الصوف :

يعتبر الصوف من الخامات المهمة التى اعتمدت عليها صناعة النسيج فى العصر الفاطمى حيث تأتى أهميته بعد الكتان مباشرة.

وقد عرفت مصر صناعة المنسوجات الصوفية منذ أقدم العصور ولكنها لم تلق اهتماما يذكر الا خلال العصر الاسلامى حيث تعددت مراكز نسج الصوف ومن أشهر هذه المراكز مصر الوسطى والعليا ومن أشهر المدن مدينة القيس (٢٢) التى اشتهرت بانتاجها الجيد للأنسجة الصوفية فى فجر الاسلام وانفردت بعمل نوع خاص من الثياب أو الأكسية عرف بالمرعز العسلى . غير المصبوغ ويذكر المقريزى أن الصوف المصرى كان من أجود أنواع المنسوجات الصوفية جميعا ويتم تصديره الى حاضرة الخلافة الأموية حيث اشتد الطلب عليه وخصوصا لاستخدامه كأكسية

(٢٢) تقع مدينة القيس غرب النيل ، وهى الآن قرية من قرى مركز بنى مزار بمحافظة المنيا وسميت كذلك نسبة الى قيس بن الحارث المرادى الذى أرسله عمرو بن العاص لفتح بلاد الصعيد .

للتدفئة ، فمعاوية بن أبى سفيان أرسل يطلب الصوف المصرى عند هرمه لجودته حيث أثبت انه « لا يدفئه الا الأكسية التى تعمل بمصر من صوفها المرعز العسلى غير المصبوغ فعمل له منها عدد فما احتاج منها الا الى واحدة » .

ويقول الكندى أن الثياب الصوفية والأكسية المرعز تخصصت بها مصر حبث لا توجد الا بها .

ويرجع سبب ازدهار المنسوجات الصوفية وجودتها بمصر الاسلامية الى استقرار كثير من القبائل العربية القادمة بعد الفتح الى مصر واستقرار معظمها فى صعيد مصر ومنطقة الفيوم وجلب انواع من السلالات الجيدة من الأغنام . ولذا أخذت تلك المنسوجات تلاقى اقبالا لدى كثير من أفراد الشعب لجودتها .

أما فى العصر الفاطمى فقد تطورت صناعة الصوف المصرى حيث بلغت أوج تقدمها .

وقد أسهب رحالة العصر فى ذكر الأنسجة الصوفية واماكن صناعتها والأنواع الجيدة منها . فنجد الرحالة ناصر خسرو يتغنى بالأصواف التى تنتجها مصانع أسيوط وخصوصا العمائم التى تصنع من أصواف الخراف وتحتكرها مصر وتصدرها الى العالم الاسلامى فى تلك الفترة الى جانب البلاد الأخرى التى تربطها بمصر علاقات تجارية . ومن شدة جاذبية ودقة صناعة تلك الأنسجة وتخصص مصر بانتاجها وتصديرها أطلق عليها الصوف المصرى .

ويضيف ناصر خسرو انه رأى بمدينة أسيوط فوطة من صوف الغنم لم ير مثلها فى أى مكان آخر فى لاهور أو ملتان (٢٣) وهى شديدة الرقة وجيدة الصنعة بحيث لا يستطيع الناظر اليها ان يفرقها عن الحرير ويشير المقدسى الى مدينة طحا ويقول ان تلك المدينة تنتج الصوف الرفيع شديد الجودة (٢٤) .

أما اخميم فقد تعددت المناسج التابعة للدولة والتى تعرف بالطراز وتخصصت فى انتاج الجيد من الصوف وكذلك أهناس وبوصير قريدس والحقيقة أن التطور الذى شهده العصر الفاطمى فى انتاج الأقمشة الصوفية يعتبر دليلا قويا على اهتمام الحكومة بتطوير هذه الصناعة والاهتمام بالصانع المصرى وتشجيعه على الابتكار ويتضح هذا فى ظهور أنواع من الصوف عالمية الشهرة مثل الصوف الأرمنى الذى تنتجه المصانع المصرية فى صعيد مصر.

ولم يقتصر الأمر على هذا بل أيضا تطورت أساليب الصناعة نفسها فمنذ العصر الفاطمى اخذت تظهر الى الوجود الأقمشة الصوفية ذات الزخارف بالألوان المتعددة وتشتمل على عدد من الشرائط مختلفة العرض تضم زخارف مختلفة يفصلها بعضها عن البعض اشكال حيوانية أو نباتية وأحيانا تظهر فى بعض القطع كتابات كوفية بيضاء على أرض سوداء .

---

(٢٣) مدينة من نواحى الهند قرب مدينة غزنة سكانها مسلمون منذ أن فتحها العرب .

(٢٤) مدينة طحا بالفتح والقصر قرية من قرى الصعيد كثيرة المراعى ولذا تمركزت بها صناعة النسيج الصوفى منذ القدم وازدهرت فى العصر الفاطمى .

٣ ـ الحـــرير :

عرفت مصر صناعة المنسوجات الحريرية منذ القدم ، فقد اشتهرت مدينة الاسكندرية ومناسجها المتعددة بانتـــاج الحرير الجيد منذ العصر البيزنطى . فقد كانت تلك المناسج تنتج أنواعا جديدة من الحرير المعروف « بالنسيج الوشى » أو الثياب المرقومة بألوان شتى .

ورغم عدم توافر المواد الخام لصناعة المنسوجات الحريرية بمصر الا ان الدولة كانت تستوردها من بلاد الهند والصـــين ، ولكن مع بداية القرن السادس الميـــلادى أخذت مصر فى انتـــاج خامات الحرير محليا . أما فى مصر الاسلامية فقد تعددت مناطق انتاج المنسوجات الحريرية بالاسكندرية واخميم واسيوط ودبيق وغيرها مثال مدن الوجه القبلى . ورغم كراهية الاسلام لاستخدام المنسوجات الحريرية الا أن الحكام المسلمين لم يقفوا موقفا معارضا فى سبيل تقدم صناعة الحرير بمصر بل عملوا على تنظيم استخدامه للرجال وقد ساهم هـــذا التحديد فى ظهور انواع من الأقمشـــة الجميلة التى تزينها اشرطة من الحرير وكانت غالبا ما تشتمل على كتابات كوفية أو بعض الزخاف الهندسية أو النباتيـــة وقد عرفت هذه الأقمشـــة الجميلة باسم التابسترى (أو القبـــاطى المصرية) وهو الاسم الشائع لها ويرجع السبب فى قصر استخدام الحرير على تلك الشرائط الى القيود الدينيـــة التى كانت مفروضة على استعمال الخيوط الحريرية فى التطريز وتحديد قدر معين من الحرير يباح استخدامه فى صناعـــة الثوب . وغالبا ما كان صاحب الطراز يشرف بنفسه على الصناع لتنفيذ أوامره حتى لا يتجاوز قدر الحرير فى الثوب على اربع أصابع .

ولهذا نجد الثياب التى دخل فيها الحرير فى تلك الفترة لا يزيد حجم التطريز فيها على عدة أشرطة غالبا ما كان الصانع يبدع فى جعلها تحفة فنية نادرة حيث كانت تلك الأشرطة الحريرية والأنسجة الكتانية بألوان غاية فى الرقة والبهجة .

ولكن سرعان ما تنازل صاحب الطراز عن الصرامة فى تنفيذ هذا الشرط فأخذت الزخارف تزداد مع تزايد أشرطة الحرير المزخرفة . وأخذت تتسع رقعة تلك الزخارف فى العصر الفاطمى حتى أصبحت المنسوجات الحريرية تمثل سمة من سمات هذا العصر ، وخصوصا العصر الفاطمى الثانى . ولذا نجد خلفاء الفاطميين يقبلون على اقتناء القطع النادرة من المنسوجات الحريرية واهتموا بانشاء دور خاصة بالديباج (٢٥) لعمل الحرير بها وكان لا يتولاها الا الأماثل والأعيان ويتم الاشراف عليها من الحكومة واستمرت دور الديباج من الأماكن المهمة حتى سقوط الدولة الفاطمية . وأخذت خريطة المواد المستخدمة فى الصناعة تتغير فاحتل الحرير المرتبة الأولى فى الصناعات النسيجية واخذ الاهتمام به يتزايد بانتاج المواد الخام منه محليا عن طريق الاهتمام بتربية دودة القز بقدر الامكان أو استيراد المواد الخام الجيدة من الحرير الخام من مناطق توافرها ببلاد الهند والصين ، واعدادها بالطريقة المثلى فى دور الطراز المصرية المنتشرة بمصر

---

(٢٥) الديباج نسيج من الحرير مختلف الأجناس استعمل كثيرا فى العصور الوسطى فى الشرق لباسا للرجال وكانت تصنع منه الاكسية التى تستخدم فى التشريفة وقد اشتهرت مدينة القاهرة بانتاج أنواع جيدة من الديباج من خلال دار الديباج التى أسسها الفواطم بالقاهرة وهناك تعريف كلمة ديباج فى المعجم الديباج معرب (ديبا) وهو الثوب الذى سداته ولحمته من الحرير الخالص . وقيل ديبا فارسية تتكون من كلمتين (ديو) أى الجن ومن (بان) أى نسيج وعلى هذا يكون معنى ديباج أى الحرير الخالص الدقيق الصنعة ولا يستطيع صنعه الا الجن كناية عن تفرده .

والاسكندرية ، وأخميم واسيوط ، ودبيق وقد ساعد على تقدم المنسوجات الحريرية وزخرفتها مهارة الصانع المصرى حيث استخدمت نوعيات مدربة من الصناع فى تلك الدور الى جانب استيراد العمالة المدربة فيذكر أن الخليفة المعز كان يستقدم كل ماهر فى صنعته وكان يوفر لهم سبيل العيش الكريم حتى يستفيد بخبراتهم فى نقل ما تخصصوا فيه فى بلادهم الى مصر ، ولذا نجد العصر الفاطمى يشهد انتاج أنواع من المنسوجات الحريرية العالمية تتفوق على مثيلتها فى موطنها الأصلى فمثلا اخذت تظهر المنسوجات الحريرية المعروفة بالعتابية (٢٦) وهى نوع من الأقمشة الحريرية كانت منتشرة ببغداد فنقلها الصانع المصرى وقلدها فى دار الديباج وتفوق فى صناعتها فأصبحت مصر تصدرها الى بغداد .

أما الخسروانى فرغم أنه نوع من الحرير ينتسب الى خسروشاه أحد ملوك الفرس الا أن الصانع المصرى قام بتقليد نوعيته بمهارة فائقة حتى أصبح من المنسوجات الشهيرة بمصر فى العصر الفاطمى ، ثم أخذ يظهر الى الوجود الحرير التسترى (٢٧) ثم القرقبى (٢٨) وهو نوع من النسيج تخصصت فى صناعته بلاد اليونان ثم أدخلت صناعته بمصر . وأصبح من أهم ما تنتجه مصانع النسيج بتنيس ودمياط وكانت الوانه جذابه

---

(٢٦) كانت تلك الاقمشة تصنع فى محلة العتابية ببغداد وتنسب اليها ، وهى ثياب مخططة تحاك من خيوط الحرير مضافا اليها القطن . وكانت هذه المنسوجات تصدر من بغداد الى انحاء اخرى من العالم الاسلامى .

(٢٧) نوع من الحرير ينسب الى تستر (بضم التاء وسكون السين وفتح التاء الثانية) وهى احدى مدن خوزستان وكان يعمل بها ثياب وعمائم فائقة .

(٢٨) القرقب نوع من الطيور يعيش حول المستنقعات والبحيرات وله ريش متعدد الألوان .

متغيرة مع انعكاسات الشمس وهنـاك نوع عرف أيضا فى تلك الفترة وهو النصفية وقد دخل القطن ليشغل مع الحرير حيزا فى حياكة تلك المنسوجات .

ويرجع تقـدم وتعدد أنواع النسيج الحريرى فى مصر فى العصر الفاطمى بهذه الصـورة الى عشق الخلفاء الفاطميين للحرير كمنسوجات أو مفروشـات سـواء لاستخداماتهم الشخصـية أو لاقتنائه كنوع من التحف الثمينة ولذا نجدهم يتسابقون على اقتناء الأنواع النادرة منه سـواء المحلية أو ما يستورد من الخارج وكانت الكميـات التى ينتجونها محليـا وفيرة حيث يتم توزيعها على رجالات دولتهم كنوع من الهدايا والخلع الى جانب اهتمامهم بانتاج قطع نادرة واحسـن دليل على ذلك ما صـنع للخليفـة المعز لدين الله الفاطمى من خريطة (مقطع) من الحرير الأزرق رقيق بديع الصنعة منسوج بالذهب وسائر أنواع الحرير عليـه صور أقاليم الأرض بمدنها وجبالها وبحارها وانهارها وسـعة حصونها وقد ظهرت على تلك الخريطة صورة مكة المكرمة والمدينـة المنورة كعلم من اعلام العالم الاسلامى . وقد تكلفت تلك الخريطة اثنين وعشرين الف دينار ، وقد وجد فى آخر تلك القطعـة الفنية النادرة عباره « مما أمر بصنعه المعز لدبن الله شوقا الى حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله » .

وتأتى الكسـوة التى امر المعز لدين الله بصنعهـا للكعبـة الشريفة لتدل على ما كانت عليه صناعة الحرير بمصر الفاطميـة من التقدم فقد ذكر المقريزى أن الخليفة المعز لدين الله امر بنصب

الشمسية (٢٩) التى عملهـا الكعبـة على ايوان قصره وسعتهـا اثنا عشر شبرا فى اثنى عشر شبرا وأرضهـا من ديبـاج أحمر ودورها اثنا عشر هلال ذهب فى كل هلال اترجة ذهب مشبك حرف كل أترجة خمسون درة كبار كبيض الحمام وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق وفى دورهـا كتابة آيات الحج بزمرد أخضر وحشو الكتابة در كبير لم ير مثله وحشو الشمسية المسك المسحوق يراها الناس فى القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها ، وانما نصبها عدة فراشين وجروها لثقل وزنها .

والنص السابق الذى أورده المقريزى اذا دل على شيء فانما يدل على أن الصـانع المصرى مهر فى الصناعات الحريريـة منذ القدم وتجلت مهارته منذ بداية العصر الفاطمى فرغم أن مصر لم تنتج الحرير بكميـات وفيرة الا أنها كانت تستورد الخـام منه ويتم تصنيعه محليا ويظهر هـذا من خلال كتابات مؤرخى مصر فى تلك الفترة حيث يعتبر النص السابق دليلا على مدى ما وصـل اليه الصانع المصرى من مهارة فى تنفيذ القطع النادرة من الحرير المطرز بأنواع الجواهر والأحجار الكريمة .

ومما يدل على حب الخلفاء لاقتناء النادر من المنسوجات الحريرية ما أورده المقريزى من خـلال وصفه لتركة الخليفـة المستنصر حيث يقول انه وجد لديه من سائر ألوان الخسروانى ما يزيد على خمسين الف قطعة أكثرها مذهب .

---

(٢٩) هى حليـة ضخمـة كانت ترسـل الى الكعبة المشرفة فى موسـم الحج فى صحبة قائد خاص لتعلق فى وجه الكعبة المشرفة فى موسـم الحج فى ذراع تشبه أشعة الشمس ، ولها اثنا عشر ذراعا ولم يجعـل عدد الأشـعة اثنى عشر عفوا بل قصدا لتمثيل عدد اشهر السنة ، والأهلة الموجودة فى نهاية الأشعة تمثل الشهور القمرية .

كما يذكر ايضا انه أثناء الشدة العظمى أخرجت من خزائن الفرش والأمتعة بالقصر الفاطمى أعداد ضخمة من قطع المنسوجات والملابس الحريرية القيمـة وقد اشتملت خزانة الرفوف زمن الشدة العظمى على أعداد وفيرة من الحرير النادر الثمين حيث يذكر انه أخرج منها (ألفا عدل) من شقق الطميم بهدبها من سائر أنواع الخسروانى لم تستعمل بعد .

ويقول أيضا انه تم أخراج ما يقرب من ثلاثة آلاف قطعـة خسروانى مطرزة بأبيض فى هدبها لم تفصـل تستخدم فى فرش بيوت كاملة بجميع أناثها ومقاطعها ومعها مخدات ومساند ومراتب وقطع من النسيج معدة لتكون ستائر وكل هـذا من احدى الخزائن الموجودة بالقصر والتى كانت تحفظ فيها تلك المصنوعات الحريريـة .

هذا الى جانب البيوت الكاملة للفرش (٣٠) من انواع القلمونى والدبيقى من سائر الوانه وانواعه والمخمل الخسروانى والديبـاج الملكى وسائر الحرير من جميع أصنافه ، وقد وجد فى السـتور الحريرية المنسوجة بالذهب أنواع كثيرة واحجام متعددة الى جانب القطع الحريرية المتعددة التى تقارب الألف والتى تحمل صـور الدول وملوكها والمشاهير فيها مكتوب على صـورة كل واحـد اسمه ومدة حكمه وأهم الأحداث فى عصره .

هذا الى جانب ما أخرج من خزائن الفرش من أربعة آلاف رزمة خسروانى مذهب فى كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة بخيط واحد ولم تستخدم بعد .

---

(٣٠) ويقصد هنا الأطقم المتكاملة من الفرش والتى سبق اعدادها لفرش القصور والبيوت .

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نرجع تلك النوعيات والكميات الهائلة من المنسوجات الحريرية الى الانتاج المحلى فمن المعروف أن بعض تلك القطع مستورد من خارج مصر حيث عشق خلفاء الفاطميين اقتناء النادر من كل شيء ولكننا لا ننكر أن بعض تلك القطع قد صنع بدار الديباج سواء بالقاهرة أو الاسكندرية حيث أعتبرت تلك المدن من أهم مراكز صناعة المنسوجات الحريرية الراقية . فقد ساعد قرب الاسكندرية من البحر على سهولة حصولها على المواد الخام اللازمة لصناعة الحرير سواء أكان هذا من بلاد الشام أو جزيرة صقلية .

وقد تخصصت مدينة الاسكندرية فى أنواع معينة من الحرير لم تعرف فى مدينة غيرها . وأطلق عليه السكندرى نسبة الى الاسكندرية وقد جاء ذكره على لسان صاحب بدائع الزهور عندما وصف ما تركه برجوان من تركة حيث ذكر أن برجوان قد ترك « الف قميص حرير سكندرى » أما القاهرة فقد تخصصت فى صناعة الديباج .

ومن الخامات التى استخدمت فى صناعة النسيج ولكنها لم تحتل مساحة تذكر بين المنسوجات الأخرى القطن حيث لم يمدنا مؤرخو ورحالة العصر الفاطمى عن منسوجات قطنية خالصة وانما مزجت خاماته مع بعض الخامات الأخرى سواء الكتان أو الصوف أو الحرير . ولذا لم يأت ذكره على نطاق يذكر فى الحديث عن المنسوجات فى العصر الفاطمى . واعتقد أن ذلك يرجع الى قلة الكميات المنتجة من خام القطن حيث تعتمد زراعته على الرى الدائم وهذا النوع لم يكن متوفرا الا بمنطقة الفيوم أو قرب مجرى نهر النيل بالمناطق الواطئة لتسهيل حمل الماء اليه .

ولذا كانت الكميات المنتجة منه محليا محدودة . ومن المحتمل استيراد خاماته من الخارج حيث يذكر المقريزى انه كان للقطن فندق فى العصر الفاطمى وكان يؤخذ عليه رسوم معينة كل عام ولكن بعد سقوط الدولة الفاطمية ألغيت هذه الرسوم ضمن ما أسقطه السلطان صلاح الدين الأيوبى من رسوم سنة ٥٦٩ هـ .

ثانيا ــ صناعة السفن

صناعة السفن :

تعتبر صناعة السفن من أهم الصناعات التى ازدهرت بمصر منذ الفتح العربى حيث اعتمدت الخلافة الاسلامية على مصر فى انشاء اسطول بحرى قوى منذ كانت مصر مركز بناء السفن فى العصر الأموى ، ففى الفسطاط والقلزم بنيت السفن العربية الأولى ، واستمرت مصر تمد الامبراطورية الاسلامية بالسفن الحربية حتى زمن معاوية بن أبى سفيان حيث طلب بناء السفن فى أماكن اخرى بالامبراطورية ولكن ظلت مصر تحتل المركز الرئيسى فى تلك الصناعة فى الدولة الاسلامية .

الى جانب اعتماد الدولة الاسلامية على الأيدى المصرية المدربة فى بناء السفن سواء فى شمال افريقيا حيث استقدم عبد الملك بن مروان عمالا من مصر الى شمال افريقيا لبناء أول اسطول بحرى اسلامى فتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف انه « لما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥ ــ ٨٦ هـ (٦٨٤ ــ ٧٠٥ م) بعث الى حسان بن النعمان عامله على افريقية يأمره باتخاذ صناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية وكتب عبد الملك بن مروان الى اخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه الى

معسكر تونس ألف قبطى بأهله وولده لانشاء دار صناعة فيها . أما مهمة البربر هنـاك فكانت أن يجروا ويحملوا الى دار الصناعة ما تحتاجه من خشب لصنع المراكب .

ومنذ تلك الفترة أصبحت تونس من أهم مراكز صناعـة السفن فى شمال افريقيا وكذلك كان الحـال فى بلاد الشام فقد استقدم معاوية بن أبى سـفيان بناة السفن من المصريين ليبنوا سفن الأسطول السورى بمدينة عكا . والتى أصبحت فيما بعد أهم قاعدة بحرية فى سورية .

وقد أقيمت أول دار للصناعة بمصر الاسلامية . بجزيرة مصر (جزيرة الروضة) وقد بنيت سنة ٥٤ هـ (٦٧٣ م) . وكان الهدف الرئيسى من بنائها انشاء أسطول بحرى قوى لصد الغارات المسيحية القادمة من بيزنطة .

وقد أقيمت دار للصناعة أيضا فى القلزم (السويس الحالية) واخرى فى الاسكندرية .

ولكن كانت تقف مشكلة الأخشـاب اللازمة للصناعة عائقـا ضد تقدم تلك الصناعة حيث افتقرت مصر الى الأخشاب الجيدة التى يعتمد عليها بناء الأسطول من ناحيـة ومن ناحية أخرى كانت الدول الأوربية المسيحية ترفض امدادها بالجيد من تلك الأخشاب خشية التفوق البحرى عليهـا . ورغم هذا فقد استمرت مصر بفضل مجهودات أبنائها من جهة ومحـاولة أحمد بن طولون لتأمين البلاد من جهة أخرى فى صناعة السفن سواء الحربية أو التجارية.

فتذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أن (أحمد بن طولون يامر عامله على دار الصناعة بألا يدخر وسعا فى بناء السفن بناء طيبا متينا لتقوى مكانة ابن طولون فى البحر) .

واستمرت صناعة المراكب الحربية والأسطول بجزيرة الروضة حتى أمر محمد بن طفج الاخشيد بنقلها من جزيرة الروضة الى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون وكانت بساحل الفسطاط واطلق عليها الصناعة الكبرى أو صناعة مصر .

وقد تم هذا فى شعبان سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) . وغالبا لم تنقل كلها وانما نقل جزء منها حيث استمرت عمارة الشوانى والمراكب الحربية بجزيرة الروضة ويذكر المقريزى أن السبب الرئيسى وراء نقل الاخشيد تلك الدار او جزءا منها الى ساحل الفسطاط الى الثورة التى قام بها عيسى بن أحمد السلمى ابو مالك كبير المغاربة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وشقه عصا الطاعة ضد الاخشيد وقتله للقائد صاعد بن كلملم والاستيلاء على مراكبه فخرج الاخشيد وكانوا قد وصلوا الى جزيرة الروضة وحال بينه وبينهم النيل فتدارك خطر وجود دار الصناعة هناك وأمر بنقلها كما ذكرت الى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان . وقال « صناعة يحول بينها وبين صاحبها المـاء ليست بشىء » .

ولكن بقدوم الفاطميين الى مصر أخذت تلك الصناعة تزدهر حيث تغيرت أحوال البلاد السياسية وأصبحت مصر لأول مرة فى التاريخ خلافة مستقلة يتطلع خلفاؤها الى اقامة امبراطورية قوية عاصمتها القاهرة وتمتد لتشمل العالم الاسلامى المعروف ولذا نجد المعز لدين الله بعد استقراره بمدينة القاهرة يأمر بانشاء الأساطيل واعداد القوات البحرية ويذكر المقريزى نقلا عن ابن أبى

طى أن المعز انشأ دار الصناعة بالمقس (٣١) الى جانب الدور الأخرى التى كانت موجودة منذ الفتح العربى ويذكر المقريزى نقلا عن ابن أبى طى انه تم انشاء ستمائة مركب ولكنه ينقل عن المسبحى رواية أخرى حيث يرجع هذا الى زمن الخليفة العزيز بالله . ورغم أن ابن أبى طى قد بالغ فى ذكر عدد سفن الأسطول التى أعدها الخليفة المعز الا أننا اميل الى ما نقله المقريزى عن المسبحى حيث ان المعز توفى سنة ٣٦٥ هـ ومنذ تلك الفترة والأحوال السياسية اضطربت بين مصر والدولة البيزنطية مما دعا الخليفة العزيز الى اعداد العدة وتجهيز أسطول قوى داخل دار الصناعة بالمقس أشرف على اعداده الوزير عيسى بن نسطورس .

ومهما يكن من الأمر فالاهتمام بدار الصناعة منذ بداية عصر الدولة الفاطمية بهذه الصورة كان ضروريا بعد أن أخذت الدولة البيزنطية تهاجم سواحل بلاد الشام واضطربت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين الى الحد الذى جعل الخليفة العزيز يجهز جيشه لمحاربة البيزنطيين كما سبق أن ذكرت .

ولكن تلك المراكب التى تم اعدادها فى دار الصناعة قد أصابها حريق مروع سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) حيث اشتعلت النار بالأسطول فأحرقت خمس عشاريات (٣٢) وأتت على جميع ما فى

---

(٣١) المقس ضيعة تعرف باسم أم دنين وتقع على ساحل النيل . وقد خصصها الخليفة المعز لدين الله لتكون مرفأ صناعيا ، وقد عرفت فى أول الأمر باسم المكس نسبة الى المكوس والضرائب التى كانت تحصل من التجار بتلك المنطقة ، ثم أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى جامع المقس بها .

(٣٢) العشاريات : نوع من السفن يستعمل فى البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الاحمر أيضا ويجر بعشرين مجدافا وكان بعضها يستخدم فى وقت السلم لنقل البضائع والرجال ولكن النوع الذى ذكره المقريزى هنا كان يستخدم فى الحرب والقتال حيث يعتبر جزءا من الاسطول الحربى ويعتبر هذا النوع من السفن من اهم قطع الاسطول الحربى فى الدولة الفاطمية .

الأسطول من العدة والسلاح ، فلم يتبق من هذا الأسطول الضخم غير ست مراكب فارغة غير مجهزة بأى آلات وقد اتهموا النصارى الروم باحراق السفن وكانوا مقيمين بجوار دار الصناعة بالمقس فوقع اشتباك بين الروم والعامة من الشعب وانضم اليهم البحارة فانتشر السلب والنهب وقتل مائة رجل مما أدى الى اضطراب فى أحوال البلاد الأمنية فى هذا الوقت الذى كان فيه الخليفة العزيز يستعد للسفر الى الشام ولكن يانس الصقلى استطاع أن يعيد الأمور الى نصابها بعد أن قضى على تلك الفوضى والاضطراب واستطاع عيسى بن نسطورس أن يحتوى الموقف ويعيد بناء عشرين مركبا بعد أن جد الصناع فى العمل داخل دار الصناعة وجمع الخشب المطلوب من جميع القطر المصرى فيذكر المقريزى أن ابن نسطورس جد فى عمل الأسطول وطلب الخشب فلم يدع عند أحد خشبا علم به الا أخذه منه فاستطاع فى مدة وجيزة اتمام عدد من المراكب كبيرة الحجم .

وبعد موت الخليفة العزيز بالله بمدينة بلبيس أثناء سيره الى بلاد الشام وقيام ابنه الخليفة الحاكم بأمر الله بعده لم يفتر العمل بدار الصناعة لاتمام اعداد الأسطول البحرى وانما استمر العمل بنفس الجدية ، ولذا يذكر المقريزى أن الخليفة الحاكم بأمر الله ركب فى نصف شعبان سنة ٣٩٨ هـ ــ ١٠٠٧ م الى دار الصناعة بالمقس لتطرح السفن بين يديه .

وقد اهتم خلفاء الفاطميين اهتماما كبيرا بالمراكز الخاصة بصناعة السفن التى تمركزت بمدينة مصر والاسكندرية الى جانب ثغر دمياط ــ ويذكر المقريزى أن عدد سفن الأسطول أيام رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك (٥٤٩ ــ ٥٥٦ هـ) (١١٥٤ ــ ١١٦٠ م) كانت عشر شوان بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل .

اما فى أواخر الدولة الفاطمية حين استولى الصليبيون على الشام وسادت الفوضى السياسية والاقتصادية البلاد بدأ صراع الوزراء العظام على السلطة واضطربت شئون الجيش والأسطول فكان الأسطول مكونا من ثمانين شونة وعشرة مسطحات وعشر حمالات وكانت جريدة قواده تزيد على خمسة آلاف منهم عشرة أعيان يطلق عليهم القواد ويصل راتب الواحد عشرين دينارا الى خمسة عشرة دينارا وهكذا الى دينارين .

وكان لهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة ومنها ايراد النطرون .

وتعددت اسماء سفن الأسطول الحربى الفاطمى فعرفت منها على سبيل المثال الطريدة وهى سفن لحمل الخيول وغالبا ما كانت تحمل أربعين فرسا وكانت مفتوحة المؤخرة بحيث يستطيع الفارس دخولها وهو راكب فرسه وهى تشبه البرميل الهائل اكثر منها شبها بالسفينة .

والحمالة وهى سفينة لحمل مؤنة الجيش ، وأزواده والخدم الملحقين بالجيش والأسطول . وكانت سفنا ضخمة تسع الواحدة منها نحو ١٢٥٠ رجلا .

والحراقة نوع من السفن الحربية المتخصصة فى رمى النيران استعملها الفاطميون فى حروبهم وصفها ابن مماتى وحدد عدد مجاديفها بأنها مائة مجداف . والشلندى نوع من المراكب الحربية مسقوفة مسطحة لحمل المقاتلة والسلاح وهى لا تقل اهمية عن الشوانى والحراريق . وكانت مستخدمة فى البحر الأبيض . وقد ورد ذكرها كثيرا فى كتابات الرحالة مثل ابن حوقل والمقدسى وغيرهم .

أما المسطح فهو نوع من المراكب الحربية الضخمة ذات سطح متسع وتعتبر من أكبر السفن الحربيــة على الاطلاق وهى تشبه السـفن المســماه بالشلندى . وكانت تســع ٥٠٠ راكب ويزيد ومما يدل على ضخامتها أن المراكب الصغار والشــوانى كانت لا تتبعها خوفا من أن تغرق فى واديها .

ويذكر المقريزى اهمية المسطحات فى تكوين اسطول الفاطميين واهتمام الخلفاء بهذا النوع من السفن فيقول « وقويت العناية بالاسطول فى مصر منذ عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وأنشأ المراكب الحربيــة ، واقتدى به بنوه » وكان لهم اهتمــام بأمور الجهاد ، واعتناء بالاسطول وواصلوا انشاء المراكب بمدينــة مصر والاسكندريــة ودميــاط ، من الشــوانى الحربيــة والشلنديات والمسطحــات ، وتسييرها الى بلاد الســاحل مثل صور وعــكا وعســقلان .

الشينى : والجمع « شوانى » وهى سفينة حربيــة كبيرة وتعتبر من اهم قطع الأسطول الحربى فى العالم الاسلامى . وتعتبر الأصل الذى يتفرغ منه اسماء عديدة من السفن الحربية الأخرى ولواحقها فكل سفينة حربية شينى تحمل اسما معينا يدل على وظيفتها فمنها الغراب والطريدة ، والجفنة والحراقة . وكانت مستعملة للقتــال فى البحر الأبيض وكذلك فى النيل فتذكر بعض المصادر استخدامها فى المعارك الحربية النيلية .

فقد تم استخدامها فى القتــال البحرى الذى دار فى فرع دمياط خلال الحملتين الصليبيتين الخامسة والسابعة على مصر ، ومن المعروف ان تلك الشوانى كانت تتم صناعتها فى دور الصناعة بالقــاهرة وتســير فى فرعى النيــل للخــروج الى حوض البحر المتوسط . وكانت الشينى تسير بمائة واربعين مجدافا .

واختلف المؤرخون فى تحديد عدد المقاتلة على ظهرها فالبعض يذكر انها تحمل ١٥٠ رجلا أما المقريزى فيخالف الجميع ويذكر أن تلك السفن كانت تحمل ما لا يقل عن الف من المحاربين .

وكانت تحمل فوقها أبراجا وقلاعا للدفاع والهجوم ولاتساعها وضخامتهـا كان بها أجزاء لخزن المواد الغذائية وصهاريج لخزن المـاء الحلو .

كما كانت من أهم السفن التى تقوم بعملية رمى النار والنفط على العدو . كما كانت تزود بالفأس الذى يقال له (اللجام) وهو عبارة عن حديدة طويلة لها رأس محددة واسفلها مجموف تشبه اسنان الرمح . ترمى على اسطح السفن المعادية فتخرق جدرانها فتندفع المياه بداخلها مما يجعل الاعداء يطلبون الأمان ، كمـا كانت مجهزة ببعض الوسـائل التى تساعدها على اقامة جسر بينها وبين السفن المقاتلة حتى يدخل المحـاربون الى سفن الاعـداء ويقـاتلوهم .

الغراب : هو نوع من أنواع السفن المعروفة بالشينى يسير بالقلع والمجاديف ومتعدد الأحجام ، ويحدد حجمه عدد مجاديفه فأكبر أنواعه ما تكون من مائة وثمانين مجدافا .

وهناك نوع آخر صغير يتكون من عشرة مجاديف وهو من المراكب الحربية شديدة البأس عرفها المسلمون منذ القدم وكثرت استخداماتها فى العصور الوسطى .

وكانت حمولتها مائتى مقـاتل . وقد استخدمتها الدولة الفاطمية فى حروبها ومهر الصانع المصرى فى بنائها بدار الصناعة بالاسكندرية .

أما الاعوادى فهى سفينة تتبع الاسطول وتحمل الامـداد

والتموين اللازمين للسفن المعروفة بالشينى أما « المركوش » فهى سفينة مخصصة لحمل المياه الخاصـــة بالشرب وقد تم تصنيعها من مواد خفيفة ليسهل تنقلها بين السفن لامدادها بمياه الشرب .

وقد اتبع الفاطميون تقاليد ورسوما معينة فى توديع الاسطول حيث خصصت منظرة المقس (٣٣) لتوديع الاسطول الحربى فكان الخليفة يركب الى تلك المنظرة عند تجهيز الاسطول للقتال .

ويتم عمـل المناورات المعتــادة حيث يستعرض الخليفــة الشوانى والمراكب التى جهزت للقتال بكامل معداتها ويتم استدعاء المقدم والرئيس ويخلع عليهم الخليفة ويعطى المقدم مائة دينــار والرئيس عشرين دينارا بعد أن يصــدر اليهم أوامره الخاصــة ببدء الرحلة الحربية ثم يبدأ سير الاسطول متجها الى دميــاط ثم الى البحر الأبيض .

وكان الخليفة يحتفل أيضا بعودة الاسطول بنفس الأسلوب حين يتم عودته منتصرا ومعه الأسرى فيتم عرض الأسرى بين يدى الخليفة وتوزيعهم بالطريقة التى يراها .

ورغم أن الرحالة لم يذكروا شيئا عن أحوال الاســطول الحربى لمصر الفاطمية الا أنهم منخـلال كتاباتهم تعرضـوا الى الاسطول التجارى حيث اهتمت الحكومة الفاطمية اهتماما كبيرا بالتجارة لذا نجدها تولى اهتماما خاصا بصناعة السفن التجارية بل أن بعض الرحالة تعجب من كثرة تلك السفن التى تحتل ساحل الفســطاط .

---

(٣٣) هى احدى المناظر التى أقامها الفاطميون بجوار جامع المقس وكانت مطلة على النيل معدة لنزول الخلفاء لتوديع الاسطول .

وقد أورد لنا المقدسي قصة طريفة حاول عن طريقها أن يدلل على مدى كثرة سفن الاسطول التجارى المصرى فقال : « كنت يوما أمشي على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة فقال لى رجل من اين انت قلت من بيت المقدس . قال بلد كبير . أعلمك يا سيدى أعزك الله أن على هذا الساحل ما قد أقلع منه الى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهب الى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان ههنا مدينة » . وهذه القصة تدل على مدى تمتع الاسطول التجارى بالقوة والعظمة والكثرة واذا كان هذا هو حال الاسطول التجارى المحلى فلنا أن نتصور مدى ما وصلت اليه الاساطيل التجارية التى تحمل بضائع مصر بين الشرق والغرب والتى كانت تجوب بحار العالم المعروف فى تلك الفترة ولم تكن من الأنواع العادية وانما كانت من السفن الكبيرة فكانت تقطع المسافة بين تنيس والقسطنطينية فى عشرين يوما .

ولأهمية السفن التجارية واحتياج البلاد اليها اقتصر بناؤها على ما تنتجه الحكومة منها تبيعة للشعب وقد ذكر ابن مماتى نوعين من تلك المراكب أرباع الكيل (٣٤) . والمراكب الملوحة .

ولم يقتصر بناء السفن التجارية على دار الصناعة المعروفة بمدينتى مصر والاسكندرية أو مدينة دمياط وانما كانت هناك بعض المدن التى تصنع فيها السفن الكبيرة الحمولة مثل مدينة

---

(٣٤) أرباع الكيل : مراكب نيلية استعملت فى شحن الأخشاب من الحراج السلطانى (الغابات) لعمارة الاسطول ونقلها الى ساحل السنط فكانت اذا وصلت الى ساحل السنط أخذت عليها ضريبة مقررة مقدارها ½ القيمة الكلية للبضائع .

الصالحية وكان حمل السفينة مائتى خروار ، وغالبا ما كانت تحمل البضاعة الى مدينة مصر حتى أبواب دكاكين البقالين وتعتبر من أسهل الوسائل لنقل البضـائع فبواسطتها استطاعوا التغلب على تأخر وصول البضائع بسبب زحام المدينة الى جانب بطء النقل على ظهر الدواب .

وقد أبدع الصانع المصرى فى صناعة أنواع أخرى من المراكب التجارية تسمى الجلاب يتم صناعتها بأسلوب يتمشى مع ظروف البيئة الخاصـة بالبحر الأحمر حيث الشعب المرجانيـة الكثيرة . ولذا نجدها صنعت بطريقة لا تستخدم فيها المسامير على الاطلاق وقد وصف ابن جبير طريقة صناعتها حيث ذكر « انها مغلقـة » (أى ضمت قطعة منها الى الأخرى) الانشاء لا يستعمل فيهـا مسمار البتة وانما هى مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز الهند (النارجيل) يدرسونه الى أن يتخيط ويفتلون منه امراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر عيدان النخيل فاذا فرغوا من انشاء الجلبـة على هـذه الصفة سقوها بالسـمن أو بدهن الخروع أو بدهن الفرس وهو احسنها والغرض من دهانها ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضـة فى هذا البحر (ويقصد هنا البحر الأحمر) . وغالبا ما كان شراعها ينسج من خوص شجر المقل .

ولم تكن صناعة السفن فى العصر الفاطمى تسير فى طريق وردى دائما فقد كان يقابل المسئولين عن هذه الصناعة كثير من العقبات حيث ندرة الأخشاب التى تصلح لصناعة المراكب أو السفن سواء أكانت تلك السفن حربية أم تجارية .

ولذا اهتمت الحكومة اهتماما كبيرا بالاشراف المباشر على الغابات وقد أطلق عليهـا الحراج السلطانية . وكانت منتشرة فى

منطقة البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص . وكانت الحراسة عليها مشددة فلا يستطيع أى شخص أن يقترب من تلك الحراسة لحاجة الاسطول الى جميع الأخشاب الموجودة بها .

ولم يكن الانتاج المحلى رغم هذه الاحتياطات يكفى حاجة البلاد من الأخشاب وانما القدر الأكبر من تلك الأخشاب تستورده البلاد من الخارج حيث الأنواع الجيدة التى تفتقدها مصر ولهذا السبب كانت مصر دائما منذ القدم تحاول تحسين علاقاتها التجارية ببعض المدن التى تمدها بالأخشاب الجيدة مثل مدينة البندقيـة .

وسيظهر هذا بوضوح فى محاولات الدولة الفاطمية المتكررة لتحسين علاقتها بالبندقية .

وغالبا ما كانت الدول الأوربية تضغط على البندقية لتمنع عن مصر الأخشاب حتى تتعثر صناعة الاسطول .

ولذا نجد صناعة السفن دائما من الصناعات المهددة رغم تفوقها بمصر ويرجع هـذا الى اعتمادها على المواد الخام الأولية من الخارج وقد اتضح هـذا بجلاء بعد احتراق الاسطول زمن الخليفة العزيز بالله واضطرار الوزير يعقوب بن كلس لتدارك الأمر باقتلاع جميع الأخشاب الموجودة بالقطر المصرى حتى يستطيع بناء سفن بدلا من التى احترقت وقد ادى هـذا التصرف الى القضاء على مساحات شاسعة من الغابات الموجودة بمصر .

وكانت هياكل السفن الحربية والتجارية تصنع من خشب الصنوبر أو خشب البلوط ثم تغطى بطبقة من خشب الزان ويستخدم فى تجهيزها المسامير الحديدية المعالجة ضد الصدا

بطلائها بمادة مانعة للصـدأ ، كما كان خشب السنط أيضـا من الأخشاب المهمة التى تستخدم فى صناعة أنواع معينة من السفن ، وكانت دور الصناعة تستخدم أنواعا معينة من الكتـان لصنع الأحبال الخاصة بالسفن .

أما الشراع فكانت تتم صناعتها من التيل (المكون من ألياف نبات البردى وألياف الكتان) أما شراع السفن التى كانت تبحر فى البحر الأحمر فكانت تنسج من أوراق جوز النرجيل أو سعف النخيل أو من نسيج القطن .

ولم يقتصر بناء السفن فى دار الصناعة على السفن الحربية والتجارية وانما قامت دور الصناعة ببناء أنواع من السفن للخلفاء ورجالات الدولة تم زخرفتها بأجمـل أنواع الزخـاف وفرشها بأجود المفروشات .

ثالثـا ـ صـناعة الزجـاج

ازدهرت صناعة الزجاج بمصر منذ أقدم العصـور حيث تربعت على عرش تلك الصناعة لمدة طويلة من الزمان وقد تركوا لنا ثروة ضخمـة من الأدوات المصنوعـة من الزجـاج وبعضـها للاستخدامات اليومية والأخرى للاستخدامات الجنائزية وقد عثر الأثريون فى أطلال تل العمارنة على قطع أثرية نادرة الى جـانب مصنع الزجـاج .

كما وصل الينا بعض تلك القطع بعد كشف مقبرة أمينوفيس الثانى ببيبان الملوك وتعددت مراكز صناعـة الزجـاج فى العصر الفرعونى ولكن كان لمدينة الاسكندرية الصـدارة قبل الاسلام فى هذا المجال فقد كانت تنتج كميات ضخمة من المشغولات الزجاجية

والتى كانت تزيد عن حاجة الاستهلاك المحلى ويتم تصديرها الى الخارج وقد ساعد على ازدهار صناعة الزجاج بمصر قبل الاسلام وفرة المواد الخام اللازمة لصناعته .

فقد توفر خام النطرون بوادى النطرون بالقرب من الاسكندرية ، وفى منطقة البحيرة كما توفر أيضا بمنطقة الكاب بالوجه القبلى ، هذا الى جانب توفر الرمال الصالحة لصناعة الزجاج على طول السواحل المصرية وفى منطقة سيناء خصوصا الرمل المعروف برمل الكوارتز فمن المعروف أن مكونات الزجاج الخام تتكون من الرمال والجير والصودا الى جانب سيليكات الصوديوم ويتم تسخينها تحت درجة حرارة معينة لتتحد تلك المواد جميعا وتخرج عجينة الزجاج التى يتم تشكيلها بواسطة صانع الزجاج .

واستمرت صناعة الزجاج من الصناعات المهمة بعد الفتح الاسلامى لمصر واختلفت الأساليب الفنية فى صناعة الزجاج عما كانت عليه قبل الفتح وأضاف اليها العرب صناعة الأوزان الزجاجية والاختام والخواتم التى تستخدم فى تحديد أوزان الأوانى لبيان أحجامها المختلفة .

وقد لفت النظر أن تلك الصناعة فى فجر الاسلام خلت من الزخارف والرسوم التى كانت تتمتع بها فى العصور السابقة ، ويرجع هذا الى تحريم التصوير أو التجسيد فى بداية الفتح الاسلامى ولكنها استمرت تحمل نفس سمات العصور السابقة من حيث الشكل والمضمون .

أما فى العصر الفاطمى فقد ازدهرت صناعة الزجاج ازدهارا كبيرا وقد ساعد على هذا الازدهار حياة الترف التى كانت

تتمتع بها الأسرة الحاكمة ورجالات الدولة وحبهم لاقتناء النادر من الأوانى الزجاجية والبلورية التى أخذت صناعتها فى التقدم والرقى حتى تتمشى مع متطلبات الرفاهية . ولذا تعددت أشكال الأوانى المصنوعة من الزجاج وأضيف الى تلك الأوانى بعض الطرائف لتناسب حياة الفخامة والرفاهية . فبدأت تظهر الى الوجود قطع الشطرنج المصنوعة من أجود أنواع البلور وكذلك زجاجات العطر مختلفة الأشكال والأحجام وقماقم وزهريات وبعض لعب الأطفال التى استمدت أشكالها من الحيوانات والطيور كما ظهرت التحف الفنية النادرة التى تدل على عظمة الصانع المصرى فى السيطرة على المواد الخام وتحويلها الى تحف فنية فأصبحت الأوانى المستخدمة فى المنازل تمثل تحفا فنية نادرة لها الأجنحة والأرجل قواعد تحملها الى جانب ظهور بعض الأوانى الجميلة التى اضافها الصانع المصرى لمصنوعاته فأخذ الزجاج يظهر باللون الأحمر والأخضر والأزرق .

هذا الى جانب الزجاج المذهب والمزين بزخارف كالبريق المعدنى ولم تكن الأدوات المستخدمة فى الحياة اليومية والمشغولات الفنية هى السبب فى اهتمام الفاطميين بالصناعات الزجاجية بل ان النهضة العمرانية وحركة البناء والتشييد جعلت الحاجة ملحة لانتاج انواع من الألواح الزجاجية مختلفة الأحجام والأشكال والزخارف حتى يتم بها استكمال المنشآت المختلفة التى تعددت فى العصر الفاطمى فالقصور العديدة والمنازل الفاخرة والمساجد والجوامع كل تلك المنشآت كانت فى حاجة لصناعة ألواح الزجاج المتقدمة لتساير متطلبات الرفاهية التى كانت سمة من سمات العصر الفاطمى .

ولذا تعددت المراكز الكبرى لصناعة الزجاج فى مدينة الفسطاط والفيوم والأشمونين والشيخ عبادة الى جانب الاسكندرية التى ذكرها كثير من الرحالة ومؤرخى العصر الفاطمى الا أن الفسطاط احتلت تلك المكانة الرفيعة منذ العصر الفاطمى وأصبحت مركزا من أهم مراكز صناعة الزجاج فيذكر ناصر خسرو أن تلك الصناعة كان لها سوق يطلق عليها سوق القناديل بجوار مسجد عمرو بن العاص ورغم أن سوق القناديل لم تكن لصناعة القناديل انما أتت التسمية من العادة المتبعة من سكان هذه السوق حيث يتم اضاءة القناديل أمام منازلهم ومحلاتهم طوال الليل . ولكن لا يمنع أن تكون السوق أكبر مركز لصناعة الزجاج بمصر فيذكر ناصر خسرو « أن سوق القناديل لا يعرف سوق مثله فى اى بلد وفيه كل ما فى العالم من طرائف .... » .

وتخصص هذا السوق فى صناعة وتجارة الأنواع النادرة من الزجاج حيث يقف ناصر خسرو أمام مهارة الصانع المصرى مبهورا اذ يتم تحويل القطع الخام من البلور الى تحف فنية غاية فى الدقة والجمال .

وانتشرت استخدامات الزجاج بصورة كبيرة لدرجة أن البقالين والعطارين وبائعى الخردوات كانوا يبيعون بضائعهم بداخل آنية من الزجاج فلا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء .

وقد بلغ من رخص الزجاج أن البائع كان لا يحصل على مقابل لتلك القوارير . كما ذكر أن الباعة المتجولين الذين كانوا يذهبون ، لترويج منتجاتهم فى بلاد النوبة من الأمشاط والخرز والمرجان كانوا يستخدمون نوعا من الزجاج لوضع بضائعهم فيه ؛ ومن المحتمل أن يكون سبب وفرة تلك الصناعة ورخص أسعارها اكتشاف خامات البلور فى منطقة القلزم .

ولم تكن مدينة الفسطاط تتفوق فى صناعة الزجاج والمنتجات الخاصة به فقط وانما ايضـــا تقدمت بها صناعة البلور ، وقد اقبل المصريون على استخدام الأوانى البلورية باعتبارها أصلب من الأوانى الزجاجية والطف منظرا منها .

فاتخذوها آنية للشرب كمـا كانوا يستخدمونها فى صـنع الأدوات المنزلية .

ومن شدة اتقان الصـانع المصرى فى العصر الفـاطمى لتلك الصناعة ومهارته فى تحويل البلور الخام الى قطع فنيـة نادرة تحـدث ناصر خسرو باعجـاب شـديد عن مهارة هـذا الصـانع واتقانه لصناعته .

فيذكر أن البلور المصرى يعتبر من أجود وانقى انواع البلور الموجود فى ذلك الوقت حيث يفضله على البلور الخـام المستورد من بلاد المغرب .

واستمرت الفسطاط مركزا مهما من مراكز صناعة الزجاج والبلور الى أن اخذت الكوارث تحل عليها متوالية فقد خربت تلك المدينة الصناعية الكبرى زمن الشدة العظمى فى خلافة الخليفـة المستنصر بالله الفاطمى وما أن عادت الى حالتها الأولى بعد القضاء على الفوضى والاضطرابات السياسية بقدوم بدر الجمالى حتى أحرقت مرة أخرى زمن الوزير شاور بن مجير السعدى .

أما من حيث الزخاف فلم تختلف عن الزخارف المتبعة فى صناعة الزجاج قبيل العصر الفاطمى ألا أن الصـانع المصرى فى العصر الفاطمى اخذ يطبعها بسمات العصر الفاطمى من الدقـة والفخامة .

واخذت تظهر أنواع من الزجاج محلى بزخارف من الخيوط المضافة البارزة والمضغوطة واخذت تظهر للوجود القوارير الكروية التى تتميز برقبة اسطوانية عليها النقوش والزخاف الحيوانيـة والنباتية ويعتبر الزجاج ذو البريق المعدنى من ابدع ما أنتجه الصانع المصرى فى العصر الفاطمى .

وقد ساعدت حياة الترف والثراء التىعاشها خلفاء الفاطميين ورجالات دولتهم على الاحتفاظ بالكثير من الصناعات الزجاجيـة والبلورية وخصوصا النادر منها فقد استخدموا تلك الأدوات فى حياتهم اليومية وكانت قصورهم تحمل بين جوانبها خزائن خاصة بالتحف والأدوات النادرة من الزجاج والبلور .

وقد أمدنا المقريزى بالكثير عن الكميات التى كانت بخزائن القصر الفاطمى زمن الشدة العظمى فيذكر نقلا عن أحد مستخدمى القصر انه أخرج من خزائن القصر عدة صناديق ثم فتح واحدا منها فوجد فيه كيزان الفقاع المصنوعة من صافى البلور بعضـه منقوش وبعضه مجرور .

ويضيف ان احدى الأقداح البلور تم بيعها بثمانية وعشرين دينارا وقد بيع أيضا كوز من البلور بمائة دينار .

وقد بلغت أحجام الأوانى البللورية من الكبر حدا بحيث تسع الواحدة منها من سبعة الى تسعة أرطال ماء . واذا دل هـذا على شىء فانما يدل على مدى ما كان الخلفـاء يتمتعون به من ثراء ورفاهيـة فلم يستخدم البللور فقط فى الأوانى الصغيرة أو فى زجاجات العطر أو الكافور أو غيرها وانما استخدم أيضا فى الأوانى الكبيرة التى تستخدم فى الاغراض المنزلية اليومية فقد اخرج من خزائن القصر تسعون طستا وتسعون ابريقـا من صافى البلور .

ويذكر المقريزى أن قطع البللور التى أخرجت من خزائن القصر الفاطمى زمن الشدة العظمى فى مدة قصيرة بلغت عشرة آلاف قطعة من البللور . ولم يقتصر حب اقتناء الزجاج والبللور على خلفاء الفاطميين وانما كان رجالات دولتهم يحتفظون بالكثير منه فى خزائنهم الخاصة بالتحف والجوهر فعلى سبيل المثال ما كان يحتفظ به الوزير الأفضل بن بدر الجمالى من قطع البللور النادرة فقد وجد فى تركته خمسمائة قطعة من البللور كبار وصفار .

كما شملت تركة الأميرة رشيدة ابنة المعز لدين الله على مائة قطرميز (٣٥) مملوءة كافورا . كما خلف الأمير جوهر عشرة آلاف زبدية بلورا وفضة .

ويذكر الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن أن جميع التحف البللورية النادرة التى كانت تمتلىء بها خزائن الخلفاء والأمراء ورجال الدولة لا يوجد منها شىء بالمتحف الاسلامى بمصر وانما جميعها موجودة بالمتاحف الأوربية .

رابعا ـ صناعة الخزف

الخزف :

من الصناعات التى تقدمت فى العصر الفاطمى صناعة الخزف حيث استطاع الصانع المصرى أن ينتج أنواعا ذاعت شهرتها واعجب بها الرحالة ومؤرخو العصر وهذه الصناعة لم تكن وليدة العصر الفاطمى وانما عرفها الصانع المصرى منذ القدم .

---

(٣٥) القطرميز : آنية تشبه القلة مصنوعة من الزجاج كانت تخصص لوضع العطور والكافور .

فقد عرف المصرى القديم صناعة الفخار والخزف منذ اقدم العصـور ففى العصر البيزنطى انتشرت صناعته بصـورة كبيرة واشتهرت مدن مصرية كثيرة بصناعة الأوانى المصنوعة من الخزف والفخار ففى مدينة فنا كانت تنتج الجرار الفخارية التى تستخدم فى حفظ النبيذ كما انتشرت مصـانع الفخار فى منطقة الشيخ عبـادة ، والفيـوم والبهنسـا حيث صنعت انـواع من الأوانى المستخدمة لحفظ المياه كالازيار والقلل والأوعيـة التى يوضع بها العسل والخل والأوانى الخاصـة بحفظ النبيذ والسـمن وهى جميعها أوان استخدمت فى المنزل عند المصرى القديم وقد انتشرت فى الطقوس الدينية لأهل الذمة فى المعابد والكنائس .

وقد استمرت هذه النهضة الصناعية فى عصر الولاة فقد عثر على أوان فخـارية وخزفية ترجع الى بداية عصر الولاة وخصوصا أن هذه أخذت فى التطور فظهر نوع من الخزف ذى الطـلاء الأحمر عليه زخارف نباتية أكثر تطورا من مثيله الذى كان معروفا فى عصر الدولة البيزنطية .

فيذكر الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن : ان هذا النوع من الفخـار عرف فى مصر فى فجر الاسـلام ويحتفظ المتحف البريطانى بصحن مربع الشكل عليـه كتابات تشـير الى اسـم صانعـه .

وقد تطورت صناعة الخزف فى العصر الطولونى ويعتقد ان احمد بن طولون أول من ادخل الخزف ذا البريق المعدنى الى مصر عن طريق الصـناع المهرة الذين استقدمهم من سامرا الى مصر . الا ان هذه الصناعة وصلت خـلال العصر الفاطمى الى ارقى درجات الرقى سواء كانت صناعة الخزف العادى أو صناعة الخزف ذى البريق المعدنى (Luster Pottery) .

وقد ساعد توفر الخامات الأولية لصناعة الخزف على كثرته في مصر وانتشاره في الاستخدامات المختلفة فقد تنوعت استخداماته وذاعت شهرته مما جعل رحـالة العصر الفاطمي يبدون اعجابهم بما وصلت اليه تلك الصناعة من رقي وتقدم فيذكر ناصر خسرو انهم كانوا يصنعون في مصر الفخـار من كل نوع ، وهو لطيف وشـفاف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخـارج ظهرت من الداخل .

وقد أبدع الصانع المصرى فى تلوين الخزف بحيث اصبح يشـبه لون القماش البوقلمون وهى الوان تختلف باختـلاف أوضـاع الآنيـة .

ومما يدل على ازدهار صناعة الفخـار بمصر بصفة عامـة ما كتبه ناصر خسرو من توافر الأوانى الخزفية بحيث استخدمها التجار والبقالون بدلا من الورق فقد كانوا يبيعون بداخل تلك الأوانى منتجاتهم بدون الحصول على مقابل لتلك الأوانى .

وتعددت المصـنوعات الخزفية بحيث اشـتملت على انواع تستخدمهـا العامـة فى الاغراض المنزلية من الفناجين والقـدور والبرانى ـ نوع من القدور ـ والصحون هذا الى جانب ما كان يصنع منه كأوان تستعمل فى حفظ المـاء وتبريده فى فصـل الصيف فقد بلغت دقة صناعة القلل فى العصر الفاطمى انهم كانوا يعملون زخارف هندسية ونباتية وحيوانية على شبابيك القلل ويكتب على بعضها دعـاء وتبرك وكانت تشبه الدانتيل وهنـاك نوع من الفخار غير المدهون انتشرت صناعته ببلاد الصعيد وكان يقبل عليه كثير من طبقات الشعب الفقير حيث يصنع منه الأزياء والقلل واوعية يوضع بها العسل والسـمن والخل والسـوائل

المختلفة ليحفظها مدة طويلة . وغالبا ما كانت أسعاره رخيصة حيث يتم صناعته بصورة بدائية وزخارف شعبية وغير متقنة وفى حالة الحروب كان الفخاريون يشاركون فى صنع الأوانى التى لها مواصفات معينة حيث يوضع بها النفط وتستخدم كمواد متفجرة تشبه حاليا القنابل وقد استخدمت فى العصر الفاطمى زمن الخليفة العاضد حينما اشتعلت نار الصراع بين وزراء دولته واستنجدوا بالقوى الخارجية . ولذا نجد الوزير شاور وزير الخليفة العاضد يأمر باحراق مدينة مصر (الفسطاط) خوفا من استيلاء الفرنج عليها .

فيذكر المقريزى أنه بعث الى مصر بعشرين الف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فارتفع لهب النار .

أما ما كان يصنع للطبقة المترفة فيختلف تماما من حيث الشكل والمضمون حيث كانت تلك الأوانى ذات البريق المعدنى تدهن بطلاء ابيض أو ابيض مائل للزرقة أو الخضرة ويعلو هذا الدهان الرسوم التى كانت فى معظم الأحيان ذهبية اللون أو ملونة احمر أو بنى ويزين بالزخارف النباتية والحيوانية ، وكان يصنع منه القدور أو الاباريق الكبيرة البيضية الشكل ذات الرقبة القصيرة والزخارف العميقة ويرجع ذلك الى تأثر الصانع المصرى بالطرز الواردة له من الشرق الأقصى حيث كانت مصر من أهم مراكز تجارة الخزف بين الشرق والغرب ، فرغم انتاج مصر الوفير من الخزف الا ان الطبقة المترفة كانت تستورد انواعا مختلفة منه من تلك البلاد حيث الخزف المحزوز تحت الطلاء .

ومن اهم مراكز صناعة الفخار بمصر زمن الفاطميين الفسطاط وادفو والأقصر وأسوان وأسيوط واسنا والاسكندرية،

وكانت الحكومة الفاطمية تفرض الضرائب الباهظة على هـذه الصناعة .

وتعتبر صناعة الخزف من الصناعات التى تأثرت تأثرا كبيرا بأحوال البلاد السياسية فقد اختفت صناعة الخزف ذى البريق المعدنى نهائيا بعد حريق الفسطاط أثناء النزاع الذى احتدم بين شاور وضرغـام مما أدى الى بداية النهايـة للدولة الفاطميـة وسقوطها ويأتى سقوط الدولة الفاطمية بنهاية هذه الصناعة التى ازدهرت فترة طويلة من الزمن على أيدى صناع فنانين وبمجهودات ضخمة من قبل الدولة لمساعدتهم على اقامة الأفران المتقدمة ولكن بحريق تلك الأفران وعـدم اعـادة بنائها من ناحيـة الى جانب انصراف الطبقات المختلفة عن اقتناء القطع الجيدة والنادرة من الخزف من ناحية اخرى ادى الى اختفائه . هذا الى جانب انصراف الناس أثناء فترة الحروب الصليبية عن حيـاة الترف والرفاهية مما أدى فى النهاية الى اختفاء صناعة من أقدم الصناعات التى ازدهرت على مر العصور المختلفة ولم يبق منها الا الصناعة البدائية التى يستخدمها العامة فى حياتهم اليومية من الفخار بدون طلاء .

خامسـا ـ الصـناعات الخشـبية

اشتهرت مصر منـذ عهد الفراعنـة بانتاجهـا الوفـير من المصنوعات الخشبية ـ وقد وصل الينا الكثير من تلك المصنوعات متمثلا فى أعداد كبيرة من التماثيل الخشبية النادرة مثل تمثـال شيخ البلد ومجموعة كبيرة من تماثيل للاله حورس الى جانب مجموعات ضخمة من الصـناديق الخشبية جميـلة الصنعة التى كانت تستخدم فى الاغراض المنزلية أو الاغراض الجنائزية والأسرة

وتعتبر آثار توت عنخ آمون من أثاث جنائزى دليلا قويا على قدرة الصانع المصرى القديم ومهارته فى اعداد أجمل التحف الفنية من الأخشاب . ولأن الخشب المصرى محدود الجودة ولا يصلح للاغراض الفنية والأثاثات الأنيقة فقد استوردت مصر منذ اقدم العصور الأخشاب الجيدة من جيرانها ليمارس الصانع المصرى أرقى وسائل الحفر والزخرفة عليها وليخرج لنا أرقى المصنوعات التى بقيت وهى فى حالة جيدة من الحفظ حيث ساعدها على ذلك الجو الجاف الذى تتمتع به مصر الى جانب الأنواع المستوردة وصلابتها حيث استوردت مصر خشب شجر الأرز والصنوبر من آسيا الصغرى وسورية ، وخشب الساج من الهند والأبنوس من السودان وكذلك خشب البلوط والزان .

اما الأخشاب التى وجدت بمصر منذ القدم فتتمثل فى اخشاب أشجار الجميز والسنط والزيتون والسرو والبندق وجميعها كانت تستخدم فى أعمال النجارة البسيطة لسد حاجة السوق الشعبية من الأثاث البسيط كما استخدمت فى تغطية أسقف القصور فى ذلك الوقت وفى اصلاح السفن أو فى بناء بعض الأنواع من تلك السفن . واستمرت صناعة الأخشاب بمصر القبطية على نفس النمط واشتغل بها الرهبان فكان أمهر نجارى مصر من الرهبان المقيمين بالأديرة .

ولم يتغير الحال بعد الفتح العربى لمصر حيث استمر القبط يحتكرون تلك الصناعة ولذا نجد الأساليب القبطية هى المميزة على القطع الخشبية التى وصلت الينا من بداية الفتح الاسلامى بل وبعد ذلك بوقت ليس بالقصير ولم يهتم العرب بتحويل النمط القبطى فى صناعة الأخشاب الى نمط اسلامى فالطرز القبطية استمرت واصبح الشىء الوحيد الذى يميز الصناعة الخشبية فى

العصر الاسلامى هو استخدام بعض الكتابات العربية واستخدم العرب ما صنعه النجـار القبطى فى العصر الاسـلامى فى حياتهم اليومية مثل الدواليب والموائد بل أخذوا من القبط حامل المصحف الذى كان يستخدمه القبط فى حمـل الانجيـل وعرف باسـم المنجليـة .

ولكن مع مرور الوقت واسـتقرار العرب بمصر وتغلغـل العادات والتقاليد العربية فى المجتمع المصرى أخذ الطابع الاسلامى فى الظهور وخصوصا فى عصر الطولونيين والاخشيديين فبدات تظهر الى الوجود تأثيرات الطرز العباسية وأخذت الزخارف النباتيـة والهندسية تظهر فى صناعة الحفر على الخشب وبدأ يظهر الى الوجود رسوم تخطيطية محورية أساسها النقل عن الطبيعة ، ولكن مع بداية العصر الفاطمى ازدهرت الصناعات الخشبية وأخذت الحكومة الفاطمية تهتم بالأخشاب كمواد خـام أولية فحافظت على الغابات الموجودة بالبـلاد ومنعت قطع الأشجار منها الا بعد صدور مراسيم بذلك ، هذا الى جانب زراعة غابات جديدة حتى تستطيع الحصول على أنواع الخشب المطلوب للسوق المحلية ورغم ان الحكومة الفاطمية كانت تبذل قصـارى جهدها للحصول على الأخشاب اللازمة للاسطول الا أن الأنواع الموجودة داخل البـلاد كانت لا تساعدها على تقدم صناعة أو انتاج القطع الفنية النادرة ولذا نجدها تستورد أنواعا جيدة من الأخشاب الصالحة لهذه الاغراض كما سبق أن ذكرت ومع تقدم حيـاة الترف التى كانت تحياها الأسرة المـالكة والطبقة المترفة فى مصر زاد اقبالهم على التحف الفنية الخشبية ، ولذا نجد العصر الفاطمى يتفوق فى العصور السابقة فى صناعة الحفر على الخشب بل انه تفوق فى فنون كثيرة وأصبح هناك أسلوب معروف باسم الطراز الفاطمى وقد ساعد على هذا مهارة الصـانع والفنان المصرى من ناحيـة ، وجودة أنواع

الأخشاب المجلوبة من الخارج من ناحية أخرى ، هـذا الى جانب تشجيع الخلفاء ورجالات الدولة وولعهم باقتناء القطع النادرة وتزيين قصورهم بالزخارف والمناظر الجميلة فبدأت تظهر الى حيز الوجود زخارف فاطمية لها مميزات خاصة ، وأخذت تحل محل الزخارف السابقة وأخذت الزخارف النباتية والحيوانية تتحد مع موضوعات الزخارف الفاطمية . كما ظهرت موضوعات تصويرية محفورة على عدة مستويات على الخشب فمثلت الحياة الاجتماعية الفاطمية بكل ما فيها من فخامة وأبهة ومثال ذلك مجالس الغناء والطرب والمناظر الخاصة بالاحتفالات المختلفة وتبلوهات من الرقص الشعبى يجتمع فيها النساء والرجال ليكونوا لوحة فنية جميلة على المشغولات الخشبية ولم ينس الفنان المصرى فى العصر الفاطمى المناظر الخاصة بالصيد فنجده يجسدها على أنواع الخشب المحفور حيث الطيور الجارحة والحيوانات الخرافية ويضيف اليها كثيرا من الزخارف الهندسية الدقيقة الى جانب الزخاف النباتية والحيوانية .

ويعتبر العصر الفاطمى من أهم العصور التى أخذت تظهر فيها صناعة الحفر على الخشب وظهور بعض الزخارف النباتية والحيوانية الى جانب رسم الأشخاص بصورة واضحة وهو ما لم يكن معروفا قبل العصر الفاطمى .

سادسا ـ صناعة المعادن ـ والعاج والفسيفساء

عرف المصرى القديم الصناعات المعدنية فاستخرج المعادن المختلفة من باطن الأرض فنجده يحصل على خام الحديد من الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء ، وأيضا من الصحراء الغربية ، وعرف الرصاص واستخرجه من جنوب منطقة القصير

على شــاطىء البحر الأحمر ، واستخدمــه فى كثير من الاغراض الصناعية ، فاستخرج منه أكسيد الرصاص (السلاقون) الذى استخدمه فى طلاء جدران معابده ، وعرف أيضا معدن النحــاس وترك لنا فى مقابره كنوزا من الأدوات المعدنيــة والتحف الفنية النادرة التى تدل على عظمــة الصانع المصرى القديم فى تحويل تلك الخامات الى تحف فنية على درجة عالية من الدقة والاتقان .

واستمرت مصر تهتم بالمنتجات المعدنية طوال عصر الولاة وزمن الدولة الطولونيــة والاخشيدية أما فى العصر الفاطمى فقد ازدهرت الصناعات المعدنيــة ازدهارا كبيرا ، فعلى الرغم من أن بعض تلك المعادن لم تكن متوفرة بمصر الا أن الحكومة الفاطميــة نشطت فى التنقيب عن المعادن فى داخل البلاد واستيراد بعضهــا من خارج البلاد مثل معدن الحديد فكانت تقوم باستيراد خامات منه من أوربا وشــمال افريقيا وجزيرة صقلية بل احتكرت الوارد منه فلا يباع الا عن طريق المتجر الخليفى ، كمــا كانت تستورد أيضا خام الرصاص والنحاس والفضة من بلاد جنوب شرق آسيا والهنــد .

وسنتكلم الآن عن أهم الصناعات المعدنية التى ازدهرت بمصر زمن الدولة الفاطمية .

الذهــب :

من أهم المعادن التى عرفت بمصر منذ أقدم العصــور فقد عرفه المصرى القديم واستخرجه من مناجمــه الموجودة بالبــلاد الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر فى الصحراء الشرقيــة الممتدة من جنوب طريق قنا ـ القصير ـ الى حدود الســودان ويشير الأستاذ الدكتور سليم حسن الى أهميــة مناجم الذهب

بوادى العلاقى والتى تعتبر من أقدم مناطق استخراجه طوال عصر الدولة البيزنطية إيضا فقد اعتمدت عليه فى الحصــول على كميات ضخمة من الذهب الخام .

واستمر من أهم مناطق امداد مصر بالذهب فى عصر الولاة فقد اهتم العرب منذ فتحهم مصر بالسيطرة على بلاد النوبة من أجل السيطرة على أهم مناجم الذهب الموجودة بالبلاد وقد استقر أمر الحصــــول على الذهب نسبيا من بلاد النوبــة بعد حمـلة عبد الله بن سعد بن أبى السرح سنة ٣١ هـ والتى وصلت الى دنقلة وتم بمقتضاها عقد معاهدة تجارية سبق ان أشرت اليها . الا أن الاســتقرار الحقيقى كان بعد اخضــاع القبـائل النوبيــة (البجة) التى كانت تقوم بأعمال القرصنة والشغب فى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر والتى ترجع جذورها الى زمن الدولة البيزنطية فقد سعى عامل خراج مصر عبد الله بن الحبحاب زمن الخليفة هشام بن عبد الملك لكسب ودهم ، ولكن كان لوجود القبائل العربيــة النازحة من شبه الجزيرة العربيــة واستقرارها ببلاد النوبة وسيطرتها على مناجم وادى العلاقى الأثر الأكبر فى تأمين حصول مصر على خام الذهب من هذا المنجم .

وقد قام رجال هذه القبائل بالبحث والتنقيب عن خــام الذهب واستخراجه من أماكن تواجده بنفس الطرق القديمــة التى كانت متبعة منذ القدم . فكان أفراد هذه القبائل يتجهون الى مناطق الاستخراج فى الليــالى التى يضعف فيها ضوء القمر ويعملون علامات معينة فى المناطق التى تتلألأ تحت ضــوء القمر ثم يحملون رمال تلك المناطق فى الصباح ويغسلونها ويستخرجون منها التبر ويضيفون اليه الزئبق ويسكبونه بعد ذلك .

ولم يقتصر حصول العرب بعد الفتح على الذهب من مناجمه الطبيعية بل حصلوا عليه أيضا من كنوز الفراعنة حيث أصبحت عمليات البحث والتنقيب عن كنوز مصر الدفائن تتم بطريقة منظمة منذ زمن احمد بن طولون وتشرف عليها الدولة وخضع المطالبون لضريبة الحرف وخصوصا بعد ان كونوا نقابة خاصة بهم كما سبق أن ذكرت عند الكلام عن الآثار كمورد من موارد الدولة ولم يقتصر الأمر زمن الدولة الطولونية والاخشيدية على الحصول على الذهب من المناجم المعروفة أو كنوز الفراعنة بل عرفت مصر استيراد احتياجاتها من معدن الذهب من بلاد السودان .

اما فى عصر الدولة الفاطمية فقد استمر توافر خامات الذهب بمنطقة وادى العلاقى ، وقد برع الصانع المصرى فى العصر الفاطمى فى صناعة الأدوات والحلى من الذهب والتى كانت تتميز بالدقة وحسن الذوق ومعظمها قطع صنعت بطريقة دقيقة فبعضها كانت بها زخارف مشبكة بارزة وبعضها كانت مفرغة على هيئة (الدانتيل) وقد مزج الصانع المصرى الذهب بالمعادن الأخرى الى جانب تطعيمه بأنواع الأحجار الكريمة . وقد ساعدت حياة الترف التى كان يحياها الخلفاء ورجالات الدولة على تقدم هذه الصناعة وذلك لحبهم لاقتناء القطع النادرة من التحف الذهبية والفضية . وقد أورد لنا المقريزى الشىء الكثير عن تلك التحف التى خرجت من خزائن القصر الفاطمى زمن الشدة العظمى والتى كانت محفوظة بخزائن الجوهر والطيب والطرائف ، فمن ضمن ما أخرج الف ومائتا خاتم ذهبا وفضة فصوصها من سائر أنواع الجوهر المختلف الألوان والقيم والأثمان والأنواع . ويضيف قوله :

« كل هذا الى جانب تلك الخريطة (الحقيبة) التىأخرجها المـارقون (يقصد الجنود) زمن الشدة العظمى وكانت تشتمل على ويبة من الجوهر لم يستطع أحد تحديد قيمتها » ولم تقتصر صناعة الذهب والفضـة على الحلى وادوات التجميل وانما أتقن الصانع المصرى صنع الأدوات المنزلية من الذهب والفضة أيضـا فقد وجد العديد من الصـوانى المصنوعة من الذهب والفضـة المطعمة بالمينا والمنقوشة بسائر أنواع النقوش النباتيـة والحيوانية والتى تمثل الفن الفاطمى .

كما وجد أيضا بالقصر الفاطمى تحف معدنيـة يبدو أنهـا كانت فى غاية الروعة مثل تمثال الطاووس من الذهب المرصـع بنفيس الجوهر وعيناه من الياقوت الأحمر وريشه من الذهب على الوان الطـاووس ، وديك من الذهب ذى عرف كبير مفروق من الياقوت ، وغزال مرصـع بنفس الجوهر وبطنـه أبيض منظوم بالدر ، وسفينة نيلية من الفضـة ، وبستان من الفضة مزروع بأنواع الشجر كله من المعدن .

الى جانب كل هذا كانت هنـاك أنواع من السـكاكين التى صنعت من الذهب والفضـة ووجد منهـا فى خزائن القصر عدة صناديق وكذلك لم يهمل الصانع المصرى اتقان صناعة السروج المحلاة بالذهب والفضـة وأعمدة الخيام الملبسة بأنابيب الذهب والفضة . وقد بلغ ما أخرج من خزائن الفرش زمن الشدة العظمى ما يقارب ألف درهم من الآلات المصنوعة من الفضة المطعمة بالذهب منها ما زنة القطعة الواحدة منه خمسة آلاف درهم . ومن الأوانى التى دخـل فى صناعتهـا الذهب والفضـة أيضـا العشـاريات

الموكبية (٣٦) وأعمدة الخيام والاعلام والقناديل والصناديق والسروج الخاصة بالخيل واللجم .

هذا الى جانب استخدام الذهب والفضة فى صناعة بعض الألعاب التى كانت منتشرة فى العصر الفاطمى مثل صناعة الشطرنج حيث صنعت من الذهب والفضة وطعمت بالعاج والأبنوس وقد وجد منها فى خزائن الجوهر والطيب والطرائف كميات كبيرة ولها رقاع من الحرير المنسوج بخيوط الذهب .

ولم تقتصر مهارة الصانع المصرى فى العصر الفاطمى على صناعة الحلى والتحف والأدوات المستخدمة فى الحياة اليومية المترفة ، بل أيضا مزج الذهب والفضة بالمنسوجات المختلفة بحيث أصبحت سمة من سمات الصانع فى العصر الفاطمى .

وقد وجدت أعداد كبيرة من قطع المفروشات من الحصر والستائر المطرزة بالذهب والفضة ، فيذكر المقريزى أن المقاطع الحرير الخسروانى والتسترى والقرقوبى غريبة الصنعة المنسوجة بالذهب والفضة كانت كثيرة ، وبلغ الترف أشده فى استخدام الذهب والفضة فى جميع المفروشات حيث يصف المقريزى أيضا الأجلة المصنوعة للفيلة والتى مزج الحرير الخسروانى بالذهب فى صناعتها .

أما الأسلحة فقد أبدع الصانع المصرى فى تكفيت (٣٧) تلك

---

(٣٦) المشارى الموكبية : سفن يستخدمها الخليفة ورجال الدولة للنزهة فى النيل والذهاب الى البساتين ترويحا عن النفس .

(٣٧) التكفيت هو طريقة من الزخرفة قوامها حفر رسوم على سطح خشب أو معدن ثم ملء الشقوق المؤلفة لهذه الرسوم بقطع أخرى من الخشب أو العاج أو المعدن وفى العادة تكون المادة المركبة أغلى من المادة الأصلية فنرى مثلا الحجر مكفتا بالرخام والخشب مكفتا بالعاج والفضة مكفتة بالذهب، كما كان يتم استخدام خيوط من الذهب والفضة وادخالها داخل الخطوط المراد حشوها فكانت الفضة تكفت بخيوط الذهب .

الأسلحة سواء السيوف أو الخوذ أو الدروع بالذهب والفضة . ويأتى وصف المقريزى لخزائن السلاح الموجودة بالقصر لتدل على مدى مهارة الصانع المصرى فى اخراج أسلحة تبدو كقطع فنية أكثر منها آلات للحرب .

وقد دعت كثرة استخدام الذهب والفضة فى كثير من المجالات الى وجود سوق متخصصة تشتمل على عدة حوانيت من أجل تكفيت الأدوات المختلفة بالذهب والفضة وهى سوق الكفتيين وتشمل عدة حوانيت لعمل الكفت وتطعيم الأوانى النحاسية بالذهب والفضة ، وقد ساعدت العادات والتقاليد الموجودة بالمجتمع المصرى فى العصر الفاطمى على رواج تلك الصناعة حيث كان من الضرورى أن يشتمل شوار العروس على الأوانى النحاسية المكفتة بالذهب والفضة خصوصا دكة النحاس المكفت (٣٨) وكانت بنات الطبقة المترفة من الأمراء والوزراء تبالغ فى تجهيز شوارها حيث يبلغ عدد الدكك سبعا : واحدة من الفضة مكفتة بالذهب ، ودكة من نحاس أبيض ودكة من خشب مدهون ، ودكة من صينى ودكة من بلور ، ودكة من كداهى (٣٩) وغيرها من المعادن المختلفة وغالبا ما كانت بنات تلك الطبقة يرسلن الدراهم الفضية والدنانير الذهبية لاعادة صهرها وادخالها ضمن شوارهن واستكمال أوانى الفضة واعادة طلائها بالذهب فيذكر المقريزى أن احدى بنات تلك الطبقة أرسلت بمائة ألف درهم من الفضة الخالصة لاعادة صهرها .

---

(٣٨) الدكة عبارة عن شىء يشبه السرير يعمل من الخشب المطعم بالعاج والابنوس أو من الخشب المدهون . وفوق الدكة ست طاسات من نحاس أصفر مكفت بالفضة .

(٣٩) الكداهى : هى آلات من ورق مدهون بألوان جميلة تحمل من بلاد الصين لاستخدامها كتحف لتزيين المنازل والقصور .

النحـــاس (٤٠) :

ولم يكن الأمر مقصورا على الذهب والفضـــة وانما عرف الصانع المصرى اعادة صهر النحاس وتشكيله من جديد وصناعة الأدوات المتعددة والآلات المختلفة منذ فجر الاسلام وقد تطورت تلك الصناعة طوال عصر الولاة وزمن الطولونيين والاخشيديين . ويحكى أن خمارويه بن أحمد بن طولون طلب من الصـــانع صهر النحاس وسكبه على أجسام النخيل وترك بينه وبين أجســـام النخيل فراغات صنعت لها مزاريب من الرصاص وأجرى فيها المـاء المبرد تخرج من قوائم النخيل عيون المـاء الى فساقى معمولة ويفيض فيها المـاء الى مجـــار تسقى البساتين المجاورة لها .

كما راجت صناعـة الآلات النحاسـية والأوانى وقـد تم زخرفتها بأجمل الزخارف بطريقة الحز والحفر والتخريم وقد اشتهرت مدينة الفسطاط منذ الفتح الاسلامى وطوال عصر الولاة وعصر الدولة الطولونية والاخشيدية بتعدد مسابك النحـاس بها كما وجد للنحاس سوق بجوار جامع عمرو بن العاص .

أما فى مصر الفاطمية فقد ازدهرت صناعة النحاس ازدهارا كبيرا ، واهتم الصـــانع الفاطمى بانتاج أنواع متعددة من الأوانى النحاسية المستخدمة فى الاغراض المنزلية وغالبا ما كانت الأوانى كبيرة الحجم ويتم تشكيلها على هيئة حيوانات مفترســة وطيور

---

(٤٠) يعتبر خام النحاس من أقدم المعادن التى عرفها الانسان المصرى منذ اقدم العصور ، وقد حصل عليه من مناجمـه بشبه جزيرة سـيناء ويتم استخلاصه من شوائبه وكان أشهر أماكن صهره منطقة مجـاورة للفيوم ويذكر لوكاس أن هـذه المنطقة كان يطلق عليها فى العصر الاسلامى المبكر كوم مدينـة النحـاس .

مختلفة الأشكال والأحجام . وقد تميزت القاهرة بأسلوبها الخاص فى صنع تلك الأوانى فتحولت من أوان منزلية للاستخدامات العادية الى تحف فنية وقد بلغت صناعة النحاس أوج ازدهارها ورواجها خلال هذا العصر بحيث ان أى بيت كان لا يخلو من قطع نحاس مكفت ، كالاباريق ، والمباخر والثريات والطاسات ، والمسارج ، والأوانى ، والموائد ومن الضرورى أيضا أن يشتمل جهاز العروس على دكة على الأقل من النحاس المكفت .

وخام الحديد كان لا يكفى الاستهلاك المحلى فقد قام الفاطميون بجلبه من أصفهان ، أما النحاس الأصفر فقد جلب من بخارى لاقامة أعالى المآذن ، وقد لفت نظر بعض الرحالة كثرة استخدامات الأوانى النحاسية بمصر فيذكر ناصر خسرو أن بمدينة مصر (الفسطاط) « امرأة تملك خمسة آلاف قدر ، وانها تؤجر الواحد منها بدرهم فى الشهر . وينبغى أن يردها المستأجر سليمة » ويضيف انه شاهد فى أسواق مصر قدورا من النحاس الدمشقى ومعنى هذا أن مصر كانت تستورد الى جانب خامات النحاس الأدوات النحاسية المصنعة لسد حاجة السوق المحلية من تلك الأدوات التى كثر استخدامها على نطاق واسع بين جميع طبقات الشعب المصرى .

البرونز :

اما البرونز فيعتبر من الخامات التى عرفت بمصر منذ اقدم العصور ولكن لم يصل الينا تحف فنية برونزية الا ذلك الابريق المصنوع من البرونز والذى اكتشف فى منطقة بوصير الملق وترجع الأستاذة الدكتورة سيد كاشف صناعته الى القرن الأول أو الثانى الهجرى .

ولكن صناعة البرونز ازدهرت بمصر الفاطمية ازدهارا كبيرا فتعددت المصنوعات فكان منها المباخر وصنابير المياه والأوانى الفخمة التى تستخدم فى الاغراض المنزلية وخصوصا لدى طبقات الشعب المترفة وأغلبها يحمل زخارف نباتية أو حيوانية . وبعض تلك القطع على هيئة حيوانات برية وقد غلب على الصانع المصرى مؤثرات الصناعة الساسانية فى صناعة البرونز وغالبا ما كانت معظم التحف البرونزية من التماثيل والأوانى المختلفة تستخدم للزينة . ومن أجل واشهر التحف المعدنية الفاطمية عقاب من البرونز قائم عند مدخل مقبرة ...... عليه نقوش فى غاية الدقة والابداع . وبمتحف المتروبوليتان بنيويورك توجد حلية من البرونز عليها صورة نسر ينقض على غزال . والخطوط المحددة لرسم الحيوانات تعتمد على ما وصل اليه الصانع المصرى من دقة ومهارة فى تلك الصناعة .

الحديد :

من الصناعات التى عرفتها مصر منذ أقدم العصور الصناعات الحديدية ورغم ندرة الحديد بمصر واستيراد المواد الخام اللازمة من شمال افريقيا وخصوصا بعد الفتح الاسلامى حيث تجمع المصادر أن خامات الحديد كانت تستوردها مصر من خارج البلاد وقد اصبحت هذه المهمة سهلة بعد الفتح الاسلامى حيث أصبح الحصول على خام الحديد من شمال افريقيا امرا ميسورا وخصوصا بمدينة مجانة بالقرب من القيروان وكذلك معدن الحديد كان يجلب من بلاد الأندلس وقد كان لنشاط الحركة التجارية أثر واضح فى الحصول على الحديد الخام الى مصر وسد حاجة البلاد من الصناعات الحديدية التى تحتاجها البلاد .

ولكنها ازدهرت زمن الدولة الفاطميــة فقد تقدمت صناعة الأدوات والآلات الحديدية ويرجع الفضــل فى هــذا الى الدور الذى لعبته الحكومة الفاطمية فى استيراد خــام الحديد من بلاد شمال افريقيا وجزيرة صقلية واحتكاره لحساب المتجر الخليفى، حتى تفى بمتطلبــات السوق المحلية من هذا الخــام وقد اشتهرت بعض المدن المصريــة بالتفوق فى مجــال الصــناعات الحديديــة مثل مدينــة الفسطاط التى تمتعت بشــهرة عالميــة منذ الفتح الاســلامى وحافظت على هــذه الشهرة طوال العصرين الطولونى والاخشيدى . أما فى العصر الفاطمى فقد زادت شهرتها فى انتاج الآلات الحديدية المتعددة الاغراض وقد تعددت حوانيتها المتخصصة فى صناعة المقارض والسكاكين ضمن سوق الخراطين .

وقد صور لنا ناصر خسرو روعة ما شاهده بمدينة تنيس من انتاج المقارض والسكاكين ، وذكر أن ثمن احد هذه المقارض بلغ خمسة دنانير مغربيــة وهو من النوع المتطور حيث ثبت به مسمار اذا رفع يفتح واذا أنزل يقص .

ولم يقتصر انتــاج مصر فى العصر الفــاطمى على الآلات الحديدية الثقيلة بل تفوقت أيضا فى الأدوات الدقيقة مثل الابر والمسلات ؛ والسكاكين المصنوعة من الحديد والصلب والتى زينت مقابضها بالنقوش الجميلة والزخاف المتعددة من حيوانية ونباتية. كما صنعت أيضا المبــارد الحديدية التى تستخدم فى الصناعــة واشتهرت مصر أيضا بانتاج المرايا التى كانت تصنع من الحديد المصقول والمحلاة بالذهب والفضة وبعضها طعم بالجواهر النفيسة وكان المحتسب يشرف على هــذه الصناعة ويشدد الرقابة على الحدادين حتى يمنع غش أنواع الحديد المختلفة بعضها ببعض .

العــــاج :

من الصناعات التى ازدهرت بمصر منذ أقدم العصور فقد استخدم العاج فى حشو الفراغات الزخرفية ، واستمرت هـذه الصناعــة مزدهرة طوال عصر الولاة وكانت متأثرة بالأســاليب القبطية ولكنها خلال عصر الدولتين الطولونية والاخشيدية تخلصت بعض الشيء من هذه المؤثرات الا أنها أخذت فى الازدهار منذ عهد الدولة الفاطمية وتعدد استخدام العاج فلم يقتصر استخدامه على التطعيم والترصيع ، وصنع بعض القطع الفنيــة والتحف الثمينة بل كانت تصنع منه حشوات كاملة عليهــا مناظر غاية فى الروعة تمثل بعض العادات والتقاليد المنتشرة فى العصر الفاطمى فبعضها يمثل سيدة فى هودج ، وجنديا فى يده رمح ، وصائد الباز على ظهر جواده . وقد احتلت مناظر الصيد والقنص مساحة كبيرة من الحشوات العاجية فى العصر الفاطمى ويرجع ذلك لحب الشعب المصرى لهذه الرياضــة وعشق خلفاء ورجــال الدولة للصــيد والقنص ولذا اهتم الصانع الفنان بتسجيلها على القطع الفنيــة الجميلة التى صنعها من العاج .

وقد اهتموا أيضا بصنع الصناديق الخشبية المطعمة بالعاج لاستخدامها فى حفظ الحلى والتحف الثمينة ويتضح هذا بجلاء من وصف المقريزى للتحف التى خرجت من القصر الفــاطمى ابان الشدة العظمى .

هــذا الى جــانب بعض التحف التى تمثــل بعض الأدوات المستخدمة فى الحياة اليومية وكذلك أدوات الصيد من أبواق عليها زخــاف بارزة من حيوانات وطيور ومنــاظر صــيد فى دوائر أو اشرطة .

وقد استوردت مصر سن الفيل بكميات كبيرة من بلاد زنجبار نيتم تحويله الى قطع فنية نادرة بأماكن مخصصة لهذه الصناعة بسوق القناديل .

فيذكر ناصر خسرو أنه شاهد بهذا السوق أنياب الفيل التى احضرت من زنجبار وزن الواحدة يزيد عن مائتى من .

الفسيفساء :

من الصناعات التى اشتهرت فى العصر الفاطمى صناعة الفسيفساء وقد ساعد على تقدم هذه الصناعة بمصر فى تلك الفترة النهضة العمرانية الكبيرة التى شهدها العصر الفاطمى حيث استخدم كقطع فنية فى القصور أو كأكسية لحوائط كثير من الجوامع والمساجد الكبرى بمصر والقاهرة فيصف المقدسى روعة حوائط جامع عمرو بن العاص وما بها من الفسيفساء على أعمدة الرخام . أما ابن جبير فيصف لنا مشهد سيدنا الحسين وما به من اعمدة رخام مجزع مرصع بالفسيفساء وفضلا عن ذلك فلم يقتصر استخدام الفسيفساء على مصر وحدها بل امتدت قطعها الفنية لتكسو الأماكن المقدسة بالقدس الشريف ومكة المكرمة فيصف لنا المسجد الحرام وما به من أعمدة رخامية البست حيطانها بالفسيفساء صنعت بأيدى مصريين .

صناعة الورق والتجليد :

اشتهرت مصر منذ عهد الفراعنة بصناعة الورق من نبات البردى ويرجع السبب فى ذلك الى كثرة زراعته بمصر حيث يكثر بالمستنقعات المنتشرة بالدلتا والفيوم .

وقد تفوق الصانع المصرى القديم فى تجويد تلك الصناعة حتى أصبح لا ينافسه فى انتاج ورق البردى أحد من الصناع او الشعوب الأخرى وخصوصا تلك القراطيس التى كانت بمدينة بورة ، ومدينة أخنو .

ويذكر السيوطى « صناعة القراطيس وليس هى فى الدنيا الا بمصر » .

وظلت مصر مدة طويلة هى رائدة صناعة الورق حتى أوائل العصر العباسى الثانى (٢٣٢ هـ ــ ٤٤٧ هـ) (٨٤٧ م ــ ١٠٥٥ م) أى بداية القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى ، حين حل محله الكاغد الذى انتقل اليها من سمرقند فتعطلت صناعة القراطيس بمصر وأصبح الورق الآتى من الصين يسيطر على سوق الورق لانه اجود من حيث الصنعة واوفر ماليا . ومن هنا انتهت صناعة الورق من نبات البردى منذ القرن الرابع الهجرى . ليحل محله الكواغد الآتية من بلاد الصين .

واستمر الصناع القبط يحتكرون صناعة الورق بمصر حتى بعد الفتح العربى ــ واستمر الطابع القبطى يسيطر على تلك الصناعة حيث استمر تدوين بعض العبارات القبطية على تلك الأوراق فكانت تتصدرها عبارة « الأب والابن والروح القدس » مدة طويلة من الزمان حتى أواخر القرن الأول الهجرى . كما كانت علامة الصليب ترسم على ظهر أوراق الحكومة .

وهى تمثل الأوراق المدموغة فى عصرنا الحالى ولكن مع انتشار الاسلام واستقرار العرب بالبلاد اختفت تلك العبارة وكذا علامة الصليب لتحل محلها العبارات الاسلامية ففى عام ٧٣ هـ (٦٩٣ م) منع تصدير أوراق البردى المصرية الى بيزنطة والى البلاد الغربية الا بعد ازالة الشعار المسيحى واحلال العبارات الاسلامية بدلا منها فيذكر روبرت لويز أن عبد الملك بن مروان

امر بأن يحل محـــل بسملة التثليث والصليب فى طراز البردى والثياب المخصصة للتصدير صيغ دينية اسلامية .

وكان لدخول الفاطميين مصر واستقرارهم بها أثر كبير على تلك الصناعات حيث ازدهار الحيـــاة العلمية والأدبية الى جانب حب الخلفاء ورجال الدولة لاقتناء الكتب النادرة والحصـــول على أكبر عدد منها واعادة نسخها حتى أصبحت مكتباتهم تضـــم من السفر الواحد نسخا عديدة .

واهتم الخلفاء الفاطميون كذلك بخزانة الكتب حيث كان الخليفة يمضى وقتا طويلا يتفحص النادر من الكتب ويطوف بين ارجائها ويستقبل مسئولها الذى يعرض عليـــه نسخا مختلفة من الصـــحف الموجودة ومقترحـــاته بما يجب أن يضـــاف الى تلك الخزانـــة .

وقد اختلفت آراء المؤرخين حول الاعداد التى تضمنتها تلك الخزانة فيذكر المقريزى نقلا عن ابن الطوير انها تضمنت ما يزيد على مائتى الف كتاب من المجلدات وكثيرا من المجردات ـــ ويذكر أيضا نقلا عن ابن أبى طى انها اشتملت على ألف وستمائة ألف كتـــاب .

ويقول أيضا نقلا عن ابن أبى واصـــل انها اشتملت على مائة وعشرين الف مجلد ، وأما أبو المحاسن فيذكر انها بلغت مائة الف فى سائر العلوم .

ويذكر صاحب كتاب الروضتين ان خزانة الكتب بعد وفـــاة العاضد كانت جملة ما بيع منها الفى الف كتاب ولكننا هنا لسنا فى مجال حصر أعداد الكتب الموجودة بالقصر الفاطمى أو خزانـــة الكتب ولكن لنا ان نتصـــور أن معظم تلك الكتب النادرة كان يعاد نسخها بواسطة نساخين محترفين تقوم الحكومة بامدادهم بالورق

الكافى وأدوات الكتابة المختلفة ولذا كان ضروريا أن تهتم الحكومة بصنع الورق ، ومن ناحية أخرى كان لازدهار الحركة العلمية وخصوصا زمن الخليفة الحاكم بأمر الله أثرها على زيادة المطلوب من الورق حيث افتتح هذا الخليفة دار الحكمة أو دار العلم فى العاشر من جمادى سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م) . واستمرت حتى أبطلها الوزير الأفضل بن بدر الجمالى وجلس فيها الفقهاء وحملت اليها الكتب من خزائن القصور المعمورة وشجع الخلفاء الفاطميون الناس جميعا على حركة النسخ والقراءة داخل تلك الدار .

كما رتبوا القوام والخدم والفراشين وكان يصرف للمترددين عليها الكثير من الأقلام والحبر والورق وكانت الدولة تنفق الكثير على اهل العلم . ويذكر المقريزى أن الخليفة الحاكم بأمر الله أوقف اماكن كثيرة بمصر للانفاق من ريعها على تلك الدار وذلك لمساعدة طلاب العلم من ناحية وتوفير الورق اللازم للمساعدة فى نسخ اكبر عدد من الكتب الى جانب توفير الأقلام والمحابر . ولذا عين رواتب مالية ثابتة لورق الناسخ وخلافه من الأدوات المستخدمة فى تلك الدار .

واذا كان هذا هو امر خلفاء الدولة فان رجال دولتهم لم يغفلوا الاهتمام بالنواحى العلمية أيضا ولذا نجد الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس يقيم بداره خزانه خاصة يقيم بها النساخون لنسخ الكتب النادرة فى الفقه والطب ، والأدب وسائر العلوم فاذا انتهوا من نسخها قوبلت وضبطت .

وكان يقوم عليها ناظر يشرف عليها ، كما رتب الأطباء لينظروا فى أمر العاملين بها بل انه كان يشرف بنفسه على تلك الدار ويجلس فيها وبين يديه العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمون وارباب الصنائع لكل طائفة مكان منفرد وكان يخصص لهم رواتب ثابتة .

كل تلك النهضة العلمية المتمثلة فى عشق الخلفاء ورجـال الدولة لنشر العلم والحفاظ على التراث العلمى والأدبى ومحاكاة البلاد المتقدمة فى هـذا المجال كان من الضرورى أن تتبعه صناعة متقدمة للورق حتى تفى تلك النهضة العلمية والأدبية لهذا نجد الخلفاء الفاطميين يهتمون اهتماما كبيرا بصناعة الورق مما جعل بعض مؤرخى تلك الفترة يشيدون بالقراطيس التى تصنع بمصر (ويعمل طول الواحد منها ثلاثين ذراعا وأكثر فى شبر) .

وكانت مدينة الفسطاط تعتبر من أهم مراكز صناعة الورق حيث اختصت بمصانع الورق المعروف فى ذلك الوقت بالمنصورى.

وقد اختلفت المـادة المصنعة للورق بمدينة الفسطاط فقد كان يصنع بها نوع من الورق يخلط فيه الكتـان الخـام المضروب بالقطن فينتج عنه نوع نظيف أبيض مصقول . وهو فى العادة مرتفع السعر ويستخدم فى نسخ الكتب النادرة ، أما النوع الثانى فكان يتم صنعه من الخرق البالية ولذا جاء اقل فى الجودة والثمن من الصنف الأول .

وقد تخصصت بعض الأسواق بمدينة مصر فى تجـارة الورق والكتب منذ فجر الاسـلام وازدهرت هـذه المدن زمن الدولة الفاطمية فيذكر المقريزى سوقالكتب بجوار جامع عمرو بن العاص.

وقد راج عمل الوراقين واخذ فى الانتشار ولم يقتصر على بيع الورق وتجارته فقط بل ايضا ساهموا فى الحركة العلميـة حيث نسخ وبيع الأقلام وكانت اماكن تجمعهم بسوق الكتب قبلة لطلاب العلم وكذلك أماكن تجمع سماسرة الكتب .

وقد تبع تلك النهضة وزيادة الاقبـال على صناعة الورق تقدم صناعة أخرى لها صلة وثيقة بصناعة الورق وهى صناعة تجليد الكتب وقد برع الصانع المصرى وتفوق فى هـذه الصناعة منذ القدم وزاد تفوقه بعد الفتح الاسلامى فقد تميزت جلود الكتب فى العصر الاسـلامى بجمال زخارفها الهندسية والنباتية ويذكر الأستاذ الدكتور زكى حسن أن المسلمين استفادوا بعد الفتح من خبرة الصانع المصرى القبطى فقد كان لديهم من الكتب الدينية المجلدة ما أتيح للعرب رؤيته والاعجاب بجلوده التى تحفظه فاتبع المسلمون نفس الأساليب فى المحافظة على صحف القرآن الكريم وقد كانت طريقة التجليد فى أول الأمر تتم بحفظ الصحائف بين غلاف من الخشب وكان ذلك قبل ظهور الجلد فى تجليدها وعندما عرف الجلد فى تجليد تلك الصحائف تعددت زخارفه .

اما فى العصر الفاطمى فقد برع الصانع المصرى فى صناعة تجليد الكتب واستخدام الجلود المـأخوذة من العجول بعد ذبحها الى جانب الحرير والديباج والأطلس ، وكان الورق المقوى يستخدم فى عمل البطانة الداخلية ، وقد نالت المصاحف اهتماما كبيرا من صناع التجليد حيث استخدموا أجمل انواع الديباج والحرير والأطلس فى تجليد المصاحف ، كما استخدموا ايضـا الأساليب الفنية المتطورة فى تجليد تلك المصاحف والكتب فكان يثبت فى تلك الجلود لسان من الجلد مثلث الشكل يضم الكتاب ، كما ظهرت الزخارف المحفورة والمضغوطة التى تحيط باطار الكتـاب تبعها بعض العناصر الجمالية من شرائط مجدولة .

ويأتى وصف المقريزى لمـا خرج من خزانة الكتب زمن الشدة العظمى دليلا واضحا على تقدم صناعة التجليد وما وصلت اليه صناعة الورق حيث يقول (فى سـنة احدى وستين واربعمائة

وما بعدها أخرج من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل فى سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد وغراية ، التى أخذ جلودها عبيدهم واماؤهم رسم ما يلبسونه فى أرجلهم) .

صناعة الجلود :

ومن الصناعات التى اشتهرت فى العصر الفاطمى صناعة الجلود حيث دعت الحاجة الى الاهتمام بتلك الصناعة لحاجة البلاد الى المنتجات المصنوعة من الجلود مثل السروج التى اهتمت الدولة الفاطمية بانتاجها وخصصت لها خزانة داخل القصر الفاطمى تحتوى على ما لا تحتوى عليه مملكة من الممالك ، وكانت تلك السروج محلاة بفضة مجراه بسواد ممسوحة وبعض تلك السروج كانت تساوى من ألف الى سبعة آلاف دينار ، ويذكر المقريزى أن تلك الخزانة كانت تحتوى على اعداد كبيرة من السروج المملوءة بالذهب والفضة ، قدر ما اخرج منها خمسة آلاف سرج كان ابو سعيد التسترى قد ادخرها للخليفة المستنصر . وكان الخليفة المستنصر يمتلك اربعة آلاف سرج وكذلك امه كانت تمتلك مثل هذا العدد التقريبى ولم تكن السروج مقصورا استخدامها على طبقة دون أخرى وانما كان مسموحا باستخدامها لكافة رجال الدولة .

ولم تقتصر صناعة السروج على ما يحتاجه الخليفة ورجال دولته وانما صنع نوع منها للعامة لاستخدامه كسروج للحمير وخصوصا بعدما عمم الخليفة العزيز بالله ركوب الحمير واستخدام العامة لها فى التنقلات واصبح الجميع لا يرون فى استخدامها حرجا ولا انتقاصا من كرامتهم .

وقد ارتبط بصناعة السروج صناعة اللجم من الذهب

الخالص أو الفضة الى جانب القلائد واطواق الأعناق للخيل .
كما تفوقت مدينة الفسطاط فى العصر الفاطمى فى الانطاع (الانماط) (٤١) المستحسنة التى كان يتم تصديرها الى بلاد الشام ، وقد شاركت بلاد الصعيد فى صنع تلك الانطاع من الجلود كما اشتهرت أيضا مدينة الفسطاط بصناعة الكمرانات ، وخرائط الجلود (٤٢) والسيور والقسى التى كانت تصدر الى بلاد الشام أيضا التى فاقت الانتاج الشامى والى جانب ذلك كانوا يصنعون بعض المنتجات التى تحتاجها السوق المحلية للاستخدامات اليومية مثل صناعة الروايا (٤٣) لحمل الماء الى البيوت من النيل وكان لها مواصفات خاصة ويشرف عليها المحتسب ، كذلك صنعوا أنواعا من الأدم والنعال السندسية فقد كانت صناعة النعال او الأحذية من الصناعات المزدهرة فى مدينة الفسطاط وتشير أوراق البردى العربية الى اختلاف اثمان تلك النعال فيذكر جرومان أن قيمة نعل فى حزام يساوى درهما ، وفى بردية اخرى اشارات الى ثمن خفين بمبلغ دينارين ونصف ، وهنارك اشارة أخرى أن ثمن زوجى خفاف بلغ دينارا وقيراطا ونصف القيراط.

وقد زاد اقبال كثير من طبقات الشعب المصرى على استخدام النعال أو الخفاف زمن الدولة الفاطمية ويتضح هذا من عظمة

---

(٤١) هى الفرش وبائعها الانماطى وكانت حرفة الانماطى من الحرف الشائعة فى العصر الفاطمى لاحتياج المنزل الفاطمى لعدد من الانماط أو الانطاع التى تستخدم لتوضع على مائدة الطعام وغالبا ما كانت تلك الانماط (الانطاع) يتم زخرفتها بألوان جميلة ورسومات دقيقة واعتقد أنها تشبه مفرش المائدة فى عصرنا الحاضر .

(٤٢) الكمرانات : مفردها الكمر : حزام يلبسه السلاطين أو الأمراء والجنود فوق ملابسهم .

(٤٣) الروايا : جمع روية وهى ما يحمل بها السقاءون المياه من النيل الى المنازل .

حركة البيع والشراء بأسواق الخفافيين والأساكفة . من الطريف أن هذه المهنة قد أصابها الكساد زمن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله فقد أصدر أوامره سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) بمنع خروج النساء الى الطرقات بل زاد فى قسوته عليهن فأمر بمنع صناعة الاخفاف لهن مما أصاب هذه الصناعة بالكساد واستمرت هذه القوانين سارية المفعول مدة سبع سنوات وسبعة أشهر الى خلافة الظاهر لاعزاز دين الله وكانت الجلود المستخدمة فى الصناعة بعضها محلى يتم الحصول عليه من بلاد الصعيد حيث المراعى الجيدة وتربية الأغنام أو يتم استيرادها من بلاد الحبشة وخصوصا جلود الأبقار التى تشبه جلود النمر .

صناعة السكر والعسل والخمور :

كانت صناعة السكر من الصناعات المهمة فى العصر الفاطمى ، وذلك لحاجة الدولة الى كميات كبيرة للوفاء بحاجة الأسمطة والاحتفالات حيث كان السكر والعسل يمثلان عنصرا أساسيا بتلك الأسمطة ، فقد جرت العادة على عمل الأسمطة فى شهر رمضان وفى الأعياد والمواسم المختلفة .

وقد اورد لنا ناصر خسرو وصفا للسماط المقام فى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) فى عيد الفطر وما به من كميات السكر فيذكر ان راتب السكر فى ذلك اليوم الذى نضبت فيه مائدة السلطان خمسون ألف من ويلفت نظره ما شاهده من أشجار أعدت للزينة تشبه شجرة الترنج (يقصد التارينج) بها غصون وأوراق وثمار كلها من السكر والتماثيل والأطباق التى صنعت كلها من السكر . ولم تكتف الدولة باقامة الأسمطة فى الأعياد بل جرت العادة ان يتم توزيع كميات من الحلوى والفطرة مما صنع بدار الفطرة التى

بناها الخليفة العزيز بالله الفاطمى والتى كانت توزع على موظفى الدولة فى الأعياد ويتم ذلك من أول شهر رجب الى آخر شهر رمضان ويشمل جميع موظفى الدولة كل حسب منزلته . ويبلغ ما ينفق فى دار الفطرة فيما يفرق على الناس سبعة آلاف دينار كما بلغت كمية المصروف من الفطرة سنويا سبعمائة قنطار من السكر وخمسة قناطير من عسل القصب واذا كان هذا بالنسبة لعيد الفطر فلنا أن نتصور ما يتم صنعه بمناسبة مولد النبى ورأس السنة وفتح الخليج وغيرها من المناسبات التى يحتفل بها الفاطميون فى كل عام . ولم يقتصر الأمر على الخليفة ورجالات الدولة ، بل ان جميع طبقات الشعب كانت تحتفل بهذه المناسبات وتستخدم كميات وفيرة من السكر ومشتقاته ، واهتم الخلفاء الفاطميون بتلك الصناعة وتطورها مما جعلها تزدهر وتتفوق . وقد لفت هذا الأمر نظر الرحالة وجعلهم يذكرون الكثير من زراعة القصب واماكن صناعته فنجد ابن حوقل يذكر لنا اسماء مناطق كثيرة تنتج القصب وتنتج السكر والعسل أما ناصر خسرو فيقرر أن مصر تنتج عسلا وسكرا كثيرا ونتيجة لهذا الاهتمام بتلك الصناعة تعددت مراكز صناعة السكر فى مناطق كثيرة فتأتى زراعة القصب وصناعته ببلاد الصعيد لتحتل مركز الصدارة منطقة أبنوب . ويكثر بها معاصر السكر واشتهرت أيضا ملوى حيث بها احدى عشرة معصرة للسكر ، وسمنود كانت سنة ٤٠٠ هـ كثيرة المعاصر وكان بها سبعة عشر حجرا لاعتصار قصب السكر ويقال ان الفأر لا يدخل قصبها . وبلغ عدد المسابك التى تخص السكر بمدينة قوص أربعين مسبكا وست معاصر للقصب . أما البلينا فقد تعددت مسابك السكر بها ، أما أسيوط فيوجد بها أنواع متعددة من السكر ويتم تصديره الى الخارج ، كذلك منطقة مهجورة التى يكثر بها سكر القصب . أما منطقة قفط فيبلغ عدد

المسابك الخاصـة بالسـكر بها اربعين مسبكا وست معـاصر للقصـب .

ولم تكن صناعة السكر والعسل موجودة بأقاليم الصعيد فقط وانما اشتهرت مناطق معينة فى الدلتا ذكرها الرحالة مثل منطقة سنهور ومنطقة الصافية دى جمول وتلك المنطقة الأخيرة كانت كثيرة القصب والمعاصر ، وعمل السكر بها والقند (٤٤) . اما منطقة الفيوم فقد كان لها شأن عظيم فى هـذا المجال وكذلك مدينة الفسطاط حيث ضمت ستة وستين مطبخا للسكر ، وكانت واحدة من اكبر مراكز صناعة السكر فى مصر حيث تفوقت فى هذا المجـال .

ومما تقدم نستنتج ان صناعة السـكر كانت منتشرة على نطاق واسع بحيث شملت معظم القطر المصرى وهذا ليس بالغريب امام حاجة الحكومة للكميـات الكبيرة من السكر والعسل لسد حاجات المطـابخ السلطانية ، فضلا عن استهلاك عامة الشـعب وهذا دليل على مدى ترف ورفاهية مصر فى ذلك الحين . ومن كتابات المقريزى يتضح مدى اتساع نطـاق زراعة القصب وكثرة اماكن صناعته الى جانب الاهتمام الكبير من الحكومة بمحصوله والمحافظة عليه حتى يتم نضجه واعداده اعدادا صحيحا للصناعة. فكانوا مع قدوم شهر هاتور من كل عـام (نوفمبر) يستعدون لكسر القصب وارساله الى المعاصر ثم يتم تنظيم عيدانه بواسطة سكاكين كبيرة ، ثم ينقل الى قسم آخر يسمى ببيت النوب ليتم تقطيعه الى قطع صغيرة ويوضـع فى أوعية من الخوص تسمى

---

(٤٤) القند نوع من السكر اقل جودة من السكر المكرر ويتم الحصـول عليه بعد فصل عصير القصب المقطر عن بقية العصير فيتبقى أسفل الاباليج عصارة تجرى وتتحول الى القند هـذا .

العيارات متساوية السعة ، ثم تنقل حيث تعصر . وكانت عملية العصر تتم بواسطة حجر يدار بواسطة الأبقار فيسيل العصير من خلال ثقوب بقاعدة تلك الأحجــار وتجمع فى حوض وتنقــل الى المعصرة الثانيــة التى تعرف بالدولاب التخت فيعاد عصره مرة أخرى ، ثم يجمع العصير ويوقد تحته النيران الى أن يغلى وبعد نضجه يتم تفريغه فى أوان كبيرة تسمى قرعة ويتم غليه مرة ثانية ويتحول العصير فى هــذه المرحلة الى محلب وينتقل هــذا المحلب الى بيت الصب وهى المرحــلة التى يتم فيها تفريغ الســائل فى أباليج (٤٥) أو أقماع من الفخار ضيقة من أسفل متسعة من أعلى وبأسفل كل واحدة منها ثلاثة ثقوب مسدودة بقش القصب وتحت كل أبلوجة قادوس . وبعد ملء الأباليج بالمحلب تقطر من مسامها العصارة الرقيقة التى تنفصــل عن سائل المحلب وهى التى تعرف بالعسل المقطر . وتنقل القوادبس بعد أن تمتلىء ويترك ما تبقى فى الأباليج ليتحول الى قند وهو نوع من عصــارة قصب السكر بعد أن تجمد ثم ترسل الأباليج ليتم تكرير ما بها من قند لتحويله الى سكر مكرر وهو أجود أنواع السكر .

ولم تقتصر صناعة قصب السكر على السكر والعسل وحسب بل تعددت المنتجات المستخرجة منه فتقدمت صناعة الحــلوى فى العصر الفاطمى . وقد خصص لها سوق أعدت لبيع الحلوى التى سبق تصنيعها من السكر وكانت من ابهج الأسواق فيذكر المقريزى ان حوانيت هــذه السوق كانت تعرض منتجاتهــا فى آلات من النحاس الثقيلة الوزن البديعة الصنعة .

وكانت تصنع فى هذا السوق انواع الحلوى المختلفة الألوان

---

(٤٥) الاباليج : جمع ابلوجة وهى تسعة قناطير وكان يتم تشكيلها على شكل هرم السكر .

وتسمى المجمعة كما تصنع أطباق الحلوى على هيئة فواكه وخضروات بشكلها وحجمها الطبيعى بل والوانها أيضا .

وتعتبر سوق الحلاويين ملتقى سكان البلاد فى أيام الاحتفال بليالى الوقود ـ أول شهر رجب ونصفه ، وأول شعبان ونصفه ـ حيث تتحول الحوانيت الى متاحف تعرض أنواعا من الحلوى المشكلة على هيئة حيوانات وطيور وتسمى العلاليق يتم رفعها بخيوط وتعلق على واجهة الحوانيت أو فى المنازل ويبلغ وزن الواحدة منها عشرة أرطال ويصنع منها أنواع صغيرة للأطفال تبلغ ربع الرطل . وكانت العادة الجارية أن يشترى الجميع تلك الحلوى فلا فرق بين غنى وفقير . أما موسم نصف شعبان فكان له من تلك الصناعات الشىء الكبير . وتظهر هذه السوق فى أبهى حللها فى موسم عيد الفطر حيث يوضع حب الخشكنانج وقطع البسندور والمشاش .

ولم تقتصر هذه المظاهر على سوق الحلاويين بمصر بل انتشرت تلك العادات والتقاليد لتشمل جميع البلاد سواء القاهرة او مصر او الأرياف أو الصعيد .

أما صناعة الخمور :

فقد كانت من الصناعات المنتشرة فى مصر منذ القدم وقد زاد انتشارها فى بعض فترات من حكم الدولة الفاطمية ويرجع ذلك الى كثرة محصول الكروم الذى يصنع منه النبيذ ـ وسيطرة الأقباط على تلك الصناعة بمصر الفاطمية واشتهرت هذه الصناعة مع زيادة اللهو والمجون وخصوصا فى الاحتفالات المختلفة واختلاط المسلمين بالمسيحيين وانتشار شرب الفقاع والنبيذ

وخصوصا زمن الخليفة الحاكم بأمر الله عندما سمح للتجار بممارسة البيع والشراء بالأسواق فى الليل مما زاد من هذا اللهو والمجون وخصوصا بمصر والقاهرة ورغم أن سماح الحاكم بأمر الله للتجار بممارسة البيع والشراء بالأسواق فى الليل كان بغرض توسيع أرزاقهم الا أن كثيرا من الطبقات بالغت فى هذا وتحولت الأسواق فى الليل الى أماكن للهو والمجون واستمتع عامة الناس بهذا اللهو مما جعل الحاكم بأمر الله يصدر أوامره بمنع شرب الخمر بل ومنع صنعه وأطلق يد المحتسب لمعاقبة الخارجين على القانون . وعندما لم يصل الى النتيجة المرجوة امر بمنع صناعة الخمور حتى يقضى على المشكلة من اساسها وتتبع مصانع الخمور وقطع اشجار الكروم وبلغ ما قطع من تلك الأشجار مائة الف شجرة كروم وأعدم العنب الموجود ووضعه تحت أقدام الأبقار لتدوس عليه والقى بالباقى فى النيل . وتتبع تجار الخمور فاعدم جرار العسل المعدة لصناعة الخمور . وبلغ ما أريق منها خمسة آلاف جرة . بل تتبع تجار الزبيب وقضى على ما يبيعونه حتى لا يتحول الى النبيذ .

وفى هذا الصدد يذكر صاحب وفيات الأعيان أن الخليفة الحاكم بأمر الله أصدر سجلا بمنع عمل النبيذ والمزر وحذر من التظاهر بشىء من ذلك حتى سنة ٣٩٩ هـ .

وفى العام التالى صدر سجل بالتشديد فى حظر الخمور وبيعها وباراقة النبيذ وجميع انواع المسكر وكسر اوانى الخمور واريقت فى كل مكان ، وشدد على الخمارين وبدد كل ما فى دورهم ومحلاتهم واستمرت هذه الشدة ، وتناهت فى العام التالى (٤٠١ هـ) وفى المحرم من عام (٤٠٢ هـ) قلدت الشرطتان لمحمد بن نزال وصدرت اليه الأوامر بمضاعفة الحزم فى تتبع المسكرات ومنعها .

وأن يحرم بيـع الزبيب الا خمسة أرطـال مما دونها ، والا تباع الجرار . ولم تمض سوى اشهر قلائل حتى حرم بيع الزبيب اطلاقا وأمر بمصـادرته ، والقيت منه فى النيل مقادير كبيرة وأحرقت مقادير أخرى كانت بحوزة التجار وتوالى الاحراق أياما بحضرة الشهود ، وصودرت آلاف من الجرار واغرقت فى النيـل .

وعندما هدأت الأمور واستتبت أحوال البلاد بعض الشيء ابيح بيع العنب ولكن فى حدود أربعة أرطال ، أما العسل فلا يزيد عن ثلاثة أرطال واستمر الحـال هكذا طوال حكم الخليفة الحاكم بأمر الله .

وقد لفتت هذه القوانين انظار مؤرخى ورحالة العصر الفاطمى فيذكر ناصر خسرو « أن الخمر لم تكن مباحـة زمن الخليفـة الحاكم بأمر الله .. وما كان أحد يستطيع تجفيف العنب فى بيته لجواز عمل السيكى (نوع من الشراب) ولم يكن أحدهم يجرؤ على شرب الخمر ولا كانوا يشربون الفقاع (٤٦) . فقد قيل انه مسكر » ولكن بعد موت الخليفة الحـاكم بأمر الله وتولى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله رخص هـذا الخليفة للناس شرب الخمر وشربه هو وحاشيته مما ساعد على زيادة صناعته وانتشاره بين طبقات الشعب المختلفـة فزادت الكميـات المنتجـة من الخمور وازدهرت صناعتها فى أيام الخليفة الظاهر .

واتسع نطاق صناعة الخمور فأصبحت الفسطاط والقـاهرة من المراكز المهمـة لصناعتها هـذا الى جانب المعـاصر الموجودة بالأديره المختلفة والمعاصر الملحقة بالبساتين المزروعة كروما .

---

(٤٦) الفقاع : شراب من الشعير سمى بذلك لمـا يعلوه من الزبد .

واستمر الحال هكذا زمن الخليفة المستنصر بالله فقد ازدهرت تلك الصناعــة فى عصره حيث كان شديد الولع بشرب الخمر فكان يخرج الى جب عميرة (٤٧) ومعه النساء والخدم والحشم ويحمل معه الخمر فى الروايا عوضا عن المـاء ويسقيها من معه .

اما الخليفة الآمر بأحكام الله فقد عشق هو الآخر شرب الخمر واللهو مما جعل عصره من أزهى عصور صناعة الخمر ، وخصوصا فى الأديرة التى اخذت تحتل فى هذه الفترة مكان الصـــدارة فى صناعة الخمر بل أصبحت هى أماكن صناعة الخمر وأماكن بيعها بل ان العامة كانوا يذهبون الى تلك الأديرة لاحتساء الخمر هناك مثل دير مارى حنا وغيره من الأديرة . وقد احتكر الأقباط صناعة الخمور بمصر .

والحقيقة اننا يجب ان ندرك انه مهما قيل عن تعاطى الخلفاء للمشروبات المســكرة أو ازدهار صناعتهــا فى الأديرة او فى بعض المصانع الأهلية فلا يفهم من هذا أن الدولة رخصت بهذا رسميا بل ان القوانين كانت صريحة فى هــذا الصدد فكان يتم مصـــادرة واتلاف اى نوع من المسكرات يعرضه التجــار للبيــع فيذكر المقريزى نقلا عن ابن المـأمون أن « العادة كانت جارية من الأيام الأفضلية ــ ويقصد هنا أيام الوزير المـأمون البطائحى ــ فى اواخر جمادى الآخرة من كل ســـنة يأمر باغــلاق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر ويختم ويحــذر من بيع الخمر فرأى المـأمون لمـا ولى الوزارة بعد الأفضل ابن امير الجيوش أن يكون ذلك فى سائر اعمال الدولة فكتب الى جميع ولاة الأعمال وأن

---

(٤٧) جب عميرة بظاهر القاهرة وعميرة هــذا هو عميرة بن تميم بن جزء التجيبى ونسبت الأرض اليه فسميت جب عميرة .

ينادى بأنه من تعرض لبيع شيء من المسكرات أو شرائهـا سرا أو جهرا فقد عرض نفسه لتلافها وبرئت الذمة من هلاكها » .

ومن نص المقريزى السابق يتضح لنا ما كان يقوم به الوزراء من اصدار القوانين لمنع صنع المسكرات أو احتسائها فى أوقات محددة من السنة فالأفضل بن بدر الجمالى أمر أثناء وزارته بأن تغلق فى آخر شهر جمادى من كل سنة جميع قاعات الخمـارين بالقاهرة ومصر ثم أمر الوزير المـأمون البطائحى باغلاقهـا فى سائر الأقـاليم .

ورغم هذا فان ابن اباس يذكر أن الوزير البطائحى نفسه كان يعـاقر الخمر اذ يقول « ان العبيد والسـود قتلوا الوزير المـأمون البطائحى طعنا بالسكاكين وكان سكران » .

وقد تعددت أنواع الخمور بمصر فنجد النبيذ من الكروم وكان استخدامه مقصـورا على الطبقـة المترفة لارتفاع سـعره بالمدن مع العلم أن القرويين كانوا يعصرون الكروم بمعاصرهم داخل المنازل ، ويستخدمونه فى المناسبات المختلفة .

وقد عرف الفقـاع والمزر ، والنيدة وكان المزر والنيـدة يصنعان من القمح والشعير . وكانوا يستخرجون من العسـل شرابا يعرف بشراب العسـل ومن أهم مناطق صناعته مدينـة دمنهور .

مما تقدم نجد أن صناعة الخمور بمصر كانت تخضـع لعوامل كثيرة ففى حالة اباحة شرب الخمر وزيادة حياة الترف نجدهـا تزدهر وتنمو ويصـل انتاجها الى أعلى مستوى وكذلك فى حالة التسامح الدينى والذى اشتهر به بعض الخلفاء مع أهل الذمة .

ولكننا نلاحظ أن تلك الصناعة تنحدر ويقضى عليهـا عندما يحرم الخليفة شرب الخمر ويتشدد فى تطبيق القوانين التى تعاقب على صنعها أو شربها مثلما حدث زمن الخليفة الحاكم بأمر الله ، وهكذا تذبذبت صناعة الخمور بين الازدهار أحيانا والانحـدار أحيانا أخرى ، وذلك حسب ظروف الفترة المعينة وما يحيط بها من ملابسات .

صناعة الزيوت والشموع :

اهتمت الحكومة الفاطمية بصناعة الزيوت باعتبارها تشكل جزءا مهما من الغذاء الرئيسى لكثير من طبقات الشعب الفقيرة . الى جانب الاهتمام بأنواع الزيوت المستخدمة فى الانارة فقد فرضت الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد المتبعة فى المجتمع المصرى استهلاك كميات كبيرة من هذه الزيوت وخصوصا فى ايام الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة الى جانب انارة المساجد والجوامع والمشـاهد .

ولذا كان من الضرورى أن تهتم الحكومة بزراعة أنواع من الحاصلات التى يتم استخراج الزيوت منها سـواء للاستخدامات الغذائية أو فى الانارة ومن أهم تلك الزيوت زيت الزيتون وكان شجر الزيتون يزرع بكثرة بمنطقة الفيوم التى كانت تحتل مركزا مرموقا منذ القدم واستمرت هـذه المكانة بعد الفتح الاسـلامى فاعتبر الاقليم الوحيد المنزرع بأشجار الزيتون الكبيرة الكاملة النمو والنضج ورخيصـة الثمن وقد شاركتها فى ذلك مدينة الاسكندرية فيذكر المقدسى ان مدينة الاسكندرية بها زيتون كثير كما يذكر أيضا

منطقة طور سيناء . وقد ارتبطت صناعة الصابون بتوفير زيت الزيتون حيث كثرت مطابخه بالفسطاط (٤٨) .

ومن الزيوت المستخدمة فى الطعام زيت السمسم ، فكان السمسم من أهم المحاصيل التى تزرع بمصر وينتج منها الزيت فكان الفدان ينتج من اردب الى ستة ارادب وقد ورد بعض الاشارات عن عصر السمسم فى عصر الولاة بأوراق البردى العربية.

فكان يتم استخراج الزيت من السمسم أو ما يسمى بالشيرج بعد تحويل السمسم الى مسحوق ، ثم يوضع فى أحواض مرتفعة الحرارة لتساعد على خروج الزيت من المسحوق ثم يتم هرس هذا المسحوق بواسطة رجال اقوياء يقومون بدك المسحوق بأرجلهم العارية والضغط عليه بشدة حتى يتم نزول الزيت من عجينة السمسم ويعبأ بعد ذلك فى أوان لها جدران مسامية ليتم من خلالها خروج الزيت النقى وحجز الشوائب داخل هذه الآنية .

وقد اشتهرت مدينة الفسطاط بمعاصر الزيت المستخرج من السمسم والشيرج وكذلك منطقة شبرا الخيمة ، وقليوب ، وقد أولت الحكومة اهتماما كبيرا بمصانع الشيرج هذه حيث

---

(٤٨) اعتقد أن سبب وجود مطابخ الصابون بالفسطاط يرجع الى حصولها على الزيت اللازم لهذه الصناعة من الفيوم أولا ثم استيراد ما تحتاج اليه بعد ذلك من بلاد الشام . لذا فمن المحتمل أيضا أن تكون بعض المدن الساحلية كالاسكندرية وتنيس ودمياط كانت مراكز لانتاج الصابون حيث قربها من البحر يسهل ولاشك استيراد الكميات اللازمة لهذه الصناعة ولكن تفوق تلك المدن وشهرتها فى صناعة النسيج جعل الرحالة والمؤرخين يركزون فى كلامهم عنها على النسيج دون غيره من الصناعات الأخرى .

كان المحتسب يشرف على عملية العصر حتى لا يتلوث الزيت أثناء استخراجه من السمسم ، ويرجع هـذا الاهتمام الى حاجة الدولة من هذا الزيت لاعداد الفطرة .

فيـذكر المقريزى انه فى زمن الوزير المـأمون البطـائحى (٥١٥ هـ ـ ٥١٩ هـ) (١١٢١ م ـ ١١٢٥ م) بلغ ما أنفق من دار الفطرة مائتى قنطار من الشيرنج وهذه الكمية ضخمـة بالنسبة لاستخدامها فى مناسـبة واحدة ، ويتضح لنا من خلال ما ذكره المؤرخون المجهود المبذول من قبل الحكومة لتوفير كميـات زيت الشيرنج لاستخدامها فى المناسبات الأخرى . وعملت الحـكومة على الحصول على زيوت من مصادر اخرى مثل زيت بذرة الكتان فى أماكن زراعة الكتان حتى يسـهل الحصـول على الزيت بعد سحق البذر وتحويله الى معجون بواسـطة طاحونة حجرية ، ويوضع بعد ذلك فى حصـائر (حصر من السمار) وتكبس تلك الحصر بواسطة معصرة كابسة لتتم عملية العصر ويستخرج الزيت وينحدر فى اوان توضع اسفل مكان العصر .

أما زيت الفستق فيذكر الرحالة أن مصر عرفت الفستق واستخرجت منه زيتا الا أن كميته كانت قليلة بسبب عدم توافر محصوله بمصر .

وكان كل ما ينتج من محصول زيت الفستق تحصل عليه الدولة ليدخل فى صناعة بعض المستحضرات الطبيـة . وكذلك زيت اللوز . فيذكر ناصر خسرو أن الفستق أغلى من اللوز ولا تزيد العشرة أمنان من اللوز المقشور على دينار واحد .

أما زيت الخس والقرطم والحنظل فقد كانت من الزيوت المستخدمة بمصر كذلك ذكر الرحـالة زيت بذر اللفت والفجل

ويسمونه الزيت الحار . وذلك لاستخدامه فى انارة المصابيح . حيث يذكر ناصر خسرو أن هنـاك اسواقا وشـوارع كانت تضاء طوال النهـار والليل لأن الضوء لا يصل اليها ولذا كانت كميات الزيت المستخدمة فى الانارة كبيرة .

وقد كانت اهم مناطق استخراج الزيت الفرمـا وسـخا وانتشر هذا الزيت ببلاد الصعيد حيث كثرت معاصره بأسيوط . كمـا اشتهرت منطقـة صندقا بكثرة معـاصرها وكذلك الفيـوم والفسـطاط .

ورغم الكميـات الوفيرة التى كانت تنتج من تلك المعـاصر الا أن الاستهلاك المحلى كان ضخما بحيث يحتويها اذ كان الاهتمام بالاضاءة فى كل مكان وخصوصا على مداخل الأزقة ، وقد ولع أهل مصر والقاهرة بانارة مداخل مساكنهم وحوانيتهم طوال الليـل حتى انه كانت هناك سوق عرفت بسوق القناديل وكان أهـالى الحى يوقدون القناديل أمام مساكنهم وحوانيتهم طوال الليل .

ولا يقتصر استخدام الزيوت على اضاءة المساكن والحوانيت والشوارع بل باغ استهلاك الزيوت فى ليالى المواسم كميات كبيرة . فيذكر ناصر خسرو انهم فى ليـالى المواسـم يوقـدون أكثر من سبعمائة قنديل وهذا بجامع عمرو بن العاص فقط .

ولنا أن نتخيل كميات الزيوت المستخدمة فى هـذه القناديل اذا عرفنا أن تلك الثريات والقناديل كانت من الأحجام الكبيرة . ويقال انه حين تم صنعها لم يتسـع لها باب من أبواب المسجد لكبرها فخلعوا بابا وأدخلوها منه ثم أعادوا الباب مكانه .

ومن الزيوت التى تخصصت فى انتاجها مصر رغم ضـآلة كمياتها الا انها عظيمـة الأهمية وهى (البلسان) زيت البلسان

وهو نبات يزرع بمنطقة المطرية من ضواحى القاهرة ولهذه المنطقة شهرة روحية لدى المسيحيين والمسلمين على السواء ويرجع الأستاذ الدكتور نعيم زكى سبب شهرة منطقة المطرية لدى أهل مصر الى القصة التى تروى عن السيدة مريم العذراء عندما هربت بالطفل يسوع المسيح من طغيان الحاكم الرومانى لبيت المقدس فنزلت والطفل ويوسف النجار ، هذه المنطقة وجلست لتستريح على الأرض والطفل فى حجرها بعد أن نال منهم التعب والعطش وهنا حدثت المعجزة ، فقد أخذ الطفل المقدس يحرك رجليه كما تفعل الأطفال عادة ولامس كعباه الأرض فتفجرت عين ماء فى ذلك الموضع وروت أمه عطشها وغسلت ثيابه ، وحدث أن سقطت بعض البذور من شجر البلسان حيث الماء المتفجر فنمت أشجاره وازدهرت ثماره وأصبحت تلك المنطقة مزارا للمسيحيين من جميع أنحاء العالم بعد عودتهم من بيت المقدس ليتبركوا بالشجرة المقدسة كجزء مكمل لحجهم والمساحة المنزرعة من البلسان ضئيلة جدا فهى لا تتعدى الميل المربع ويبلغ محصوله فى العام الواحد مائتى رطل بالمصرى وقد قدر البغدادى أن البلسان يزرع فى مساحة سبعة أفدنة ويتحصل منه ما يزيد عن عشرين رطلا من الدهن .

أما الأستاذ الدكتور نعيم زكى فيذكر أن محصول العام الواحد يزيد على ستين رطلا فى أوفى الأعوام ونبات البلسان يشبه شجرة الحناء أو الرمان ويؤكل لحاء هذا النبات فيكون طعمه مقبولا وفيه حرارة وحروقة لذيذة .

أما الطريقة التى يتم بها الحصول على العصارة من شجرة البلسان فتتم عندما تتضخم شجرة البلسان فى وقت معين وخصوصا فروعها فيحدث عمال الحديقة شقوقا فى لحائها

فيسيل السائل الموجود بجسم النبات ويجمعونه فى قوارير خاصة بعد أن يتم سد تلك الشقوق حتى لا تموت الشجرة لكثرة ما ينزف منها من عصـارة ، ثم يوضـع تحت وهج الشمس فيطفو الزيت وتهبط الشـوائب ويتم طبخه بواسـطة رجل نصرانى تخصص فى هذه الصنعة فيكتسب لونا أحمر جذابا ويعتبر هـذا أرقى الأنـواع .

ولأهمية دهن البلسان احتكرته الحكومة الفاطمية وشددت الرقابة على مزارعه للمحافظة على انتاجه القليل وكثرة الطلب عليه.

وكان يحفظ فى خزائن الخلفاء بالقصر الفاطمى ثم ينقل جزء الى القلاع بالشام والمـارستانات المتعددة لاستخدامه فى معالجة المرضى ولا يخرج منه شيء الا بمرسوم ويتم اهداء جزء من هـذا الدهن لبعض ملوك النصـارى ببلاد الحبشة واباطرة روما وغيرهم من ملوك الدول المسيحية .

وغالبا ما كانت ملوك واباطرة الدول يسعون فى الحصول على هذا الدهن لأهميته الدينية بالنسبة لهم فبعضهم يعتقد انه لا يتم تنصير أحد الا بعد ان ينغمس فى ماء المعمودية ويعتقدون أنه لابد أن يكون فى ماء المعمودية شيء من دهن البلسان .

وبعد ان استعرضنـا اهم أنواع الزيوت التى تدخـل فى الصناعة نستخلص من هذا ان الحكومة الفاطمية اهتمت بصناعة الزيوت والدهـون وتوفـيرها لجميع طبقـات الشـعب سـواء للاستخدامات اليوميـة فى الغذاء أو فى الاضـاءة أو ما يستخدم منه فى الطقوس الدينية بالنسبة للمسيحيين كزيت البلسان .

اما صناعة الشموع : فقد كانت من الصناعات التى اهتمت بها الحكومة الفاطمية لتوفير كميات كبيرة منه لسد حاجة البلاد فى المناسبات والأعيـاد المختلفة والتى يمثـل الشـمع جزءا من طقوسـهـا .

وقد اختلفت أحجام الشموع من الصغيرة التى يحملهـا الطفل الى الكبيرة التى تزن الواحدة منها بضعة أرطال وتعتبر مدينة الاسكندرية من أهم مراكز انتاج الشموع بالبلاد ويرجع هذا الى جوها الرطب الذى يسـاعد على سرعة تماسـك المواد المصنع منها الشمع .

وأعتقد أن هذا ينطبق على كثير من البلاد الساحلية الا أن شهرة تلك البلاد فى انتاج النسيج كدمياط وتنيس وغيرهما جعل الرحالة لا يهتمون الا بالمشهورة من الصناعات دون غيرهـا . كما اشتهرت أيضا مدينة الفسطاط بهذه الصناعة وتفوقت فيها .

ولأهمية صناعة وتجـارة الشموع وكثرة استخدامها خصص لها سوق أطلق عليهـا سوق الشماعين وكانت حوانيتها تحتوى على أنواع الشـموع المختلفـة سواء الموكبيـة أو الفانوسـية أو الطوافات ، ومن كثرة اقبـال الناس على الشراء من هـذه السوق كانت حوانيتها يستمر البيع بها الى قرب منتصف الليل.

وكان متحصل ما يباع منها أموالا طائلة . ويرجع اقبـال الناس على هذهالسوق وما بها من شموع الى العادات والتقاليد المتبعة فى الدولة الفاطمية . ففى رمضان كانت الناس تقبل على شراء الشموع الموكبية التى تزن الواحـدة منهـا عشرة أرطال . الى جانب المزهرات التى يصفها المقريزى بانها عجيبة الصنع وقد

وصل حجم بعض تلك الشموع الى قنطار كامل ولذا كان يحمل على عجل .

وكان يستخدم فى الانـارة لصـلاة التراويح . أما ما كان يستخدم من تلك الشموع فى ليالى الوقود (٤٩) فى مواكب الخليفة فكانت أعداده كبيرة ويتم تجميعها فى خزائن دار أفتكين (٥٠) .

---

(٤٩) يرجع أصل الاحتفال بليالى الوقود الى زمن الخليفة عمر بن الخطاب الذى كان يصيح فى أهل مكة ليوقدوا النار ليلة هلال المحرم حتى يوضحوا الطريق لحجاج بيت الله الحرام وذلك أثناء استعدادهم للعودة الى بلادهم بعد ادائهم الفريضـة . وقد استمر الأمر على ذلك بمكة فى هـذه الليلة . حتى كانت ولاية عبد الله بن داود الذى أمر أهل مكة أن يوقدوا فى ليلة هـلال رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه .

(٥٠) دار افتكين دار كبرى سـكنها نصر الدولة افتكين أحـد ممـاليك أمير الجيوش بدر الجمالى وقد رافق نزار بن المستنصر بالله الى الإسكندرية عندما خـرج ثائرا وخصصت تلك الدار لخزن كميـات ضخمـة من الشـموع لاستخدامها فى المناسبات المختلفة الى جانب أنواع أخرى من الفستق والاعسال .

الفصـــل الثـــالث

التجـــارة

ساعد موقع مصر الجغرافى منذ أقدم العصور على احتلالها مركزا تجاريا مهما مما دعا المقدسى أن يصفها بأنها بلد التجارات فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد وهى حلقة الوصـــل بين الشرق والغرب ، تحتل مركز الصدارة فى التجارة العالمية .

ولم تكتف بكونها وسيطا تجاريا تمر من خلال أرضها بضائع الشرق والغرب بل ساهمت بالجزء الأكبر من تصـــدير كثير من انتاجها المتقدم فى هـــذا الصدد سواء الانتاج الزراعى حيث كانت محاصيلها الزراعية وخصوصا القمح تغزو العالم القديم وكذلك الأقمشة ســـواء الكتانية أو الصوفية التى كانت لها شهرة عالمية وفى هذا الصدد تذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف أهميـــة مصر منذ القدم فى التجـــارة العالمية فتقول « ان مصر ظلت منذ عهد الاسكندر الأكبر تتمتع بمركز تجارى ممتاز فلم تكتف بتصدير ما يزيد عن حاجة البـــلاد من الزراعات او الصناعات واستيراد

ما تحتاج اليه البلاد بل كانت تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب وكانت مخزنا للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية الى الغربية وبالعكس » .

أما بعد الفتح العربى فقد استمرت تحتل هذا المركز . الممتاز حيث اهتم العرب بتنمية موارد مصر الاقتصادية وزاد الاهتمام بموقعها الجغرافى المتميز . فمهدت الطرق التجارية البرية المارة عبر البلاد وأمنت الثغور ، هذا الى جانب اهتمام العرب بالطرق البحرية باعتبارها وسيلة مهمة لخدمة التجارة الداخلية والخارجية .

ويظهر هذا بوضوح فى الاهتمام الذى نتج عنه اعادة حفر قناة « أمير المؤمنين » التى كانت تصل البحر الأحمر بالنيل .

وان دل هذا على شيء فانما يدل على مدى ادراكهم لأهمية التجارة الخارجية كمصدر مهم من مصادر الدخل المهمة لخزانة الدولة فقد خدم هذا الخليج التجارة بين مصر وبلاد الحجاز واليمن والهند .

ولم يقتصر اهتمام مصر بتجارة البحر الأحمر بل زاد حجم التبادل التجارى مع بلاد النوبة والسودان ووسط افريقية وكان هذا يتم عن طريق الطرق التجارية المعروفة فى ذلك الزمان .

وقد زاد الاهتمام بالتجارة بصورة كبيرة طول عصر الولاة من سنة (٢٠ هـ ــ ٢٥٤ هـ ــ ٦٤٠ م ــ ٨٦٨ م) . وبلغت أوج ازدهارها فى عهد الدولة الطولونية (٢٥٤ هـ ــ ٢٩٢ هـ ــ ٨٦٨ م ــ ٩٠٥ م) المستقلة اذ اهتم أحمد بن طولون بتجارة مصر اهتماما كبيرا فقام بدور كبير فى جعل مصر مركزا للتجارة العالمية فى عهده . وذلك باصلاح الموانىء المصرية واعداد اسطول عظيم لخدمة التجارة ولحماية السفن التجارية من خطر القرصنة

وقد زاد عدد قطع الاسطول زيادة واضحة وبلغ عدد قطع الاسطول المصرى بعد وفاته مباشرة مائتى سفينة مزودة بأحسن العتاد .

وقد حصل الطولونيون على أموال طائلة من وراء هذه النهضة التجارية الضخمة حيث فرضوا ضرائب جديدة على التجارة الداخلية بالاضافة الى الضرائب الموجودة من قبل ، وكذلك التجارة الخارجية التى كانت تمر بموانيهم وحدودهم ، ونتيجة لرواج التجارة فى العصر الطولونى وازدهار تجارة البحر الأحمر وكذلك البحر المتوسط وتحول مصر الى مركز للتجارة العالمية اصبحت مصر مركزا لاقامة كثير من تجار العالم . فوفد عليها كثير من التجار وخصوصا تجار بلاد فارس حيث أقاموا بها وكونوا جالية كبيرة منذ القرن الثالث الهجرى .

ومما يدل على نشاط تجارة مصر فى تلك الفترة وعظمة مركزها التجارى وقيام موانيها بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ما أورده الرحالة ابن خرداذبة عن اليهود الراذانية الذين يتكلمون « بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والأندلسية والصقلية ، ويسافرون الى المشرق والمغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ويجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج والجلود والخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون فرنجة (يقصد فرنسا الحالية) فى البحر الغربى فيمرون بالفرما ويحملون تجاراتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجدة ــ الجار ميناء المدينة المنورة ــ أما جدة فميناء مكة المكرمة ــ ثم يمضون الى الهند والسند والصين فيحملون من الصين المسك ، والعود والكافور والدار الصينى وغير ذلك

مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها الى الروم وربما ساروا بها الى ملك الفرنجه فيبيعونها هناك وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية (قرية من أعمال دمشق) .

ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ، ثم يركبون من دجلة الى الأيلة ومن الأيلة الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض واستمر الازدهار التجارى زمن الدولة الاخشيدية أيضا حيث أخذت البلاد تتمتع بالاستقلال الذاتى الى جانب اهتمام الاخشيديين أيضا بالقضاء على الفوضى السياسية والأمنية التى كانت تنتصر من وقت الى آخر بمصر ، كما حاولت تقوية مركز البلاد الاقتصادى لتحصل على أكبر قدر من الموارد التى تساعدها فى تثبيت أقدامها بالبلاد .

ومن هنا أخذت تظهر الى الوجود علاقات جديدة بين الدولة الاخشيدية وكثير من الدول الأوربية والآسيوية على سبيل المثال العلاقة بين الدولة الاخشيدية والامبراطورية البيزنطية والتى اتصفت بالود احيانا فكان الامبراطور البيزنطى رومانوس يخاطب الاخشيد مباشرة متخطيا الخليفة العباسى ببغداد . وذلك لتنظيم العلاقات التجارية بين البلدان من ناحية ولتسهيل مهمة تبادل الأسرى من ناحية أخرى .

ولم تقتصر العلاقات الودية على الدولة البيزنطية وانما حرص الاخشيد على تنظيم علاقاته مع كثير من دول جنوب شرق آسيا وكذلك الدول الافريقية ليضمن استقرار أحوال تجارة مصر

الخارجيـة ، وقـد ازدهرت التجـارة المصريـة فى عصر الدولة الاخشيدية بالفعل ويرجع سبب هـذا الازدهار الى سيطرة الدولة على الموانى والثغور النيلية والبحرية ونشر الأمن والأمان حتى غدت سمعة مصر التجارية تغزو العالم من الشرق الى الغرب هذا الى جانب الاهتمام بالموارد الصناعية والزراعية بحيث لا يقتصر دورها على دور الوسيط التجارى وانما تصدر منتجاتها الزائدة عن حاجاتها وتحصل على ما تريد من السلع المختلفة .

ولم تنس الدولة الاخشيدية الطرق الصحراوية التى تمر فيها القوافل التجارية بين البحر الأحمر والنيل ، وقد أمنت تلك الطرق وحفرت الآبار وقضت على القرصنة التى كانت موجودة بتلك الطرق وكان لدخول الفاطميين مصر أكبر الأثر فى ازدهـار النشاط التجارى فقد اهتموا منذ دخولهم البلاد بتنمية مواردها الاقتصـادية وقد بالغوا فى ذلك وخاصـة بالنسـبة للزراعـة والصناعة ، كما ذكرنا فى الفصـول السابقة لسد حاجة البـلاد من الموارد الأساسية وكان لهذا كله أكبر الأثر فى زيادة الانتاج مما عمل على زيادة النشاط التجارى وهو المصـدر الأسـاسى للدخل . ولذا فقد ازدهرت التجارة فى العصر الفاطمى بصورة كبيرة سـواء التجارة الداخليـة أو الخارجية ، كما تزايدت مكانة مصر العالميـة نتيجـة لكونها مقر الخـلافة الفاطميـة التى تسيطر على مصر والشام اضافة الى الحجـاز واليمن وبلاد المغرب ، وقد وصف الرحالة النشاط التجارى فى العصر الفاطمى واسهبوا فى وصف الطرق البرية الممتدة على طول البلاد وعرضها كذلك الطرق النهرية والبحرية ، ومراكز تجمع التجار الى غير ذلك ويأتى وصف الرحالة المؤرخين للمراكز التجارية الكبرى فى المدن الساحليـة والثغور كدليل على مدى تقدم النشاط التجـارى فى مصر فى تلك الفترة ، كما اسهب بعضهم فى وصف العلاقات التجارية الخارجيـة التى

كانت تربط الفاطميين بكثير من بلاد العـالم المختلفة سـواء فى المشرق والمغرب بروابط ومواثيق ومعاهـدات تجارية كثيرة . كما وصفوا الازدهار التجارى الذى ساد هـذا العصر . ولم يفتهم أيضا الاشارة الى أسـوق المدن الصغيرة والقرى مما يدل على اهتمامهم بتتبع حركة التجارة الداخلية . واما المدن الكبرى فكانت أسواقها تعلن عن نفسها فى هذا المجـال وبالنسبة للتجارة الداخلية فقد ازدهرت بصفة خاصـة فى العصر الفاطمى ازدهـارا كبيرا نتيجـة لتزايد الانتـاج الزراعى والصـناعى الى جـانب النهضة الحضارية التى واكبت حياة الترف التى عاشتها الدولة الفاطمية باستثناء بعض فترات القحط والمجاعات هـذا الى جانب ما وصلت اليه مصر من مكانة عالمية حيث أضحت عاصمة الخلافة الفاطمية التى تبسط سلطانها أيضا على الشام والحجـاز واليمن والمغرب ولها نفوذها الواسـع على بلاد كثيرة من العالم الاسلامى، مما أدى الى اتساع نفوذها التجـارى عبر البحار المعروفـة فى ذلك الوقت . وقد انعكس كل هذا على التجارة الداخلية فازدهرت مدن كثيرة عددها ووصفها رحالة هذا العصر .

أما المدن المصرية التى أضحت مراكز تجارية عظيمـة على عهد الدولة الفاطمية فهى :

الفسـطاط :

تأتى مدينة الفسطاط على رأس قائمة المراكز التجاريـة الكبرى بالبلاد بل تعتبر أعظم تلك المراكز على الاطـلاق ، ويأتى وصف المقدسى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى ليكون خير معبر عن تلك العظمـة التى بلغتها مدينة الفسطاط طوال العصر الفاطمى اذ يذكر أن « الفسطاط هو مصر فى كل قول لانه جمع الدواوين ، وحوى أمير المؤمنين وفصـل بين المغرب وديار العرب

واتسع رقعته ، وكثر ناسه وتنفر اقليمه واشتهر اسمه وجل قدره فهو مصر مصر وناسخ بغداد ومفخر الاســلام ، ومتجر الأنام ، واجل من مدينة السلام ــ خزانة المغرب ومطرح المشرق ، وعامر الموسم . ليس فى الأمصــار آهل منه كثير الأهلة والمشايخ، عجيب المقاصر والخصــائص ، حسن الأسواق والمعايش ــ الى حماماته المنتهى ، ولقياسره لباقة وبهاء وليس فى الاســلام أكبر مجالس من جامعه ، ولا أحسن تجملا من اهله ولا اكثر مراكب من ساحله . آهل من نيسابور واجل من البصرة ، واكبر من دمشق . به اطعمة لطيفة وأدامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة ــ كثير الموز والرطب ، غزير البقول والحطب ، ضعيف المــاء صحيح الهــواء » .

وقد اتفق وصف الرحالة ابن حوقل مع ما وصفه المقدسى فى هذا الصدد فيذكر أن الفسطاط مدينة حسنة ينقسم لديهــا النيل قسمين ، وهى مدينة كبيرة تبلغ ثلث بغداد وتمتد على مساحة مقدارها نحو فرسخ ذات عمارة ضخمة وبها اســواق عظام ومتاجر فخام ، اما أمية ابن أبى الصلت فيذكر انه « ليس تشــتمل ارض مصر بعد الفسطاط الذى هو مقر الملك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر فى كثرتها ولا فخامتها ، ولكن أجل مدائنها وافخرها » ، واذا كان هــذا هو وصف رحالة العصر فلنا أن نتصور مقدار ما وصلت اليه تلك المدينــة من مكانة تجارية كبيرة جعلتها تحتل تلك المكانة مدة طويلة من الزمان وساعدها على هذا موقعها المتميز على النيل حيث تقع بين نقطة التقاء النيــل

الى فرعيه رشيد ودمياط مما جعلها على صلة وثيقة بطرق التجارة من أسوان الى ساحل البحر الأحمر فتخرج منها التجارة البرية التى تسلك طريقها الى بلاد الشام . الى جانب طرق أخرى تتجه الى المغرب . هذا وهى « مدينة مستطيلة يمر النيل مع طولها ويأتى الى سواحلها المراكب الآتية من شمال النيل وجنوبه بأنواع الفوائد فهى اذن قبلة بضائع المشرق والمغرب » .

كما يصل اليها على حد قول المقريزى من متاجر البحر الاسكندرانى والبحر الحجازى وهو هنا يوضح كيف تتجمع بها تجارة البحر الأبيض والبحر الأحمر ثم يتم توزيعها الى بقية أرجاء البلاد ، اذن فقد لعبت الفسطاط طوال العصر الفاطمى دور الوسيط التجارى للتجارة العالمية .

ويصف المقدسى عظمة سواحلها وكثرة المراكب الراسية على تلك السواحل حيث يقول « كنت يوما أمشى على الساحل وأتعجب من كثرة المراكب الراسية والسائرة فقال لى رجل منهم من أين أنت قلت من بيت المقدس قال بلد كبير أعلمك يا سيدى أعزك الله ان هذا الساحل وما قد أقلع منه الى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت الى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال كان ههنا مدينة » .

واذا دل هذا على شيء فانما يدل على نشاط الحركة التجارية على تلك السواحل الممتدة على مدينة الفسطاط ، ولا عجب اذن من ازدهار أسواقها وشوارعها بالتجار الوافدين اليها من المشرق والمغرب فيذكر المقدسى « أن الزحام كان متصلا بتلك المدينة حتى ان القرمطى عندما أتى لغزو مصر خرج اليه الناس فرآهم

مثل الجراد فتراجع وخصوصا بعد ما أخبر أن هؤلاء ما هم الا نظارة مصر ومن يخرج أكثر » (١) .

ويذكر هذا الرحالة أيضا انه شاهد نحو عشرة آلاف رجل يصلون خلف الامام يوم الجمعة حيث بلغت صفوف المصلين أكثر من ألف ذراع تفترش الأزقة المحيطة بالجامع العتيق .

ونتيجة لهذه الكثافة السكانية بمدينة الفسطاط فقد تألفت دورها من طوابق متعددة بلغ بعضها سبعة طوابق وأكثر كما بلغ عدد سكان الدار الواحدة مائتين من الناس .

وقد اتفق رحالة العصر على عظمة أسواق الفسطاط فيذكر ناصر خسرو أن أسواق الفسطاط تضاء فيها القناديل طوال اليوم . كما وصف لنا سوق القناديل التى انفردت بأنواع السلع والتحف التى ترد اليها من جميع بقاع العالم .

واضاف المقدسى ان هذه السوق من العظمة والروعة بحيث يطول وصفها ونعتها فكان يرد اليها من الصعيد الأرز والصوف والتمور والخل والزبيب ومن تنيس الثياب الفاخرة ومن دمياط القصب ، ومن الفيوم الأرز والكتان ومن الفرما السمك ، كما كان يصل اليها الجلبان وزيت الفجل .

---

(١) يقصد بالنظارة هنا بعض سكان المدينة الذين خرجوا ليستطلعوا أمر القرمطى ، فقد زحفت جيوش القرامطة الى مصر سنة ٣٦٠ هـ — ٩٧٠ م فهاجمت مدينة القلزم وتمكنت من دخولها وتابعت سيرها الى الأراضى المصرية فى أوائل سنة ٣٦١ هـ — ٩٧١ م فاستولت على عين شمس ثم تقدمت الى القاهرة وتأهب جوهر الصقلى فأعد جيشا قويا من المغاربة والمصريين معا كما حصن القاهرة بخندق عظيم فلما وصل القرامطة الى المدينة فى ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ خرج المصريون جميعا مع جوهر وانضموا الى الجيش الفاطمى وأبلوا بلاء حسنا مما استرعى أنظار المؤرخين فتقهقر القرامطة ورحلوا الى مدينة الاحساء .

واشاد المقدسى أيضا برحص اسعار هـذه السوق بحيث استطاع أن يشترى الخبز الحوارى ثلاثين رطلا بدرهم والبيض ثمانية بدانق .

ولم تقتصر تجارة الفسطاط على سوق القناديل بل تعددت الأسـواق المشهورة بها فبلغت تسـع عشرة سـوقا كلها أسواق متخصصة كل منها فى حرفة معينة مثل سوق الخبازين والقفاصين والرازازيين والأساكفة والوراقين وغيرها من الأسـواق الأخرى ، وكان بعض تلك الأسواق له طابع خاص مثل سوق المغاربة وسوق البربر وسويقة العراقيين وهى أسـواق تتجمع فيها تلك الطوائف لبيع وشراء ما يخصها من منتجات خاصـة ببلادها وتمتعت أسواق الفسطاط بكثرة روادها من جميع المعمورة حيث يرد اليها تجـار الشام بمنتجاتهم وتجـار المغرب الى جانب ما تحمله لها مراكب العراق والروم ولم يقتصر دور الفسطاط التجـارى على استيراد المواد الغذائيـة والمنتجـات الصناعيـة بل كان لها دور كبير فى تصدير كثير من منتجاتها الصناعية المتعددة من الصابون والسكر فقد تعددت مطابخ السكر حتى بلغت ستة وستين مطبخا ، كذلك مصانع الورق الجيد المعروف بالمنصورى .

واستمرت مدينة الفسطاط اعظم المراكز التجارية فى مصر الفاطميـة باستثنـاء بعض الفترات التى نكبت فيهـا نتيجـة للاضطرابات السياسية ، ففى أيام الخليفة الحاكم بأمر الله حدث حريق ذهبت بسببه عظمة مدينة الفسطاط ، اختلفت الآراء حول الأسباب الرئيسية لهذا الحريق فالبعض يرجع سبب هذا الحريق المدمر للأوامر التى أصـدرها الخليفة الحاكم بأمر الله الى جنوده بحرق الفسطاط بعد ان سخر أهلها منه ، وأرسلوا له رقعة سبوه فيها سنة ٤١٠ هـ (١٠٢٠ م) . ويذكر أصحاب هـذا الرأى

أن الخليفة أصدر أوامره الى جميع جنوده بالمسير الى مصر وحرقها بالنار ونهبها فاجتمع أهل مصر ودافعوا عن انفسهم ولكن سرعان ما تراجع الجنود الأتراك والمغاربة عن احراق ونهب المدينة بل وأكثر من هذا تضامنوا مع أهلها لكثرة صلة النسب بينهم وبين أهل مصر .

أما العبيد فقد استمروا فى القتال والسلب والنهب . وقد نجحت الجهود المبذولة من قبل المغاربة والأتراك فى اجبار الخليفة الحاكم بأمر الله على وقف القتال ، والاعتذار للاشراف ، ومحاولته التنصل من هذه الكارثة . وهذه الرواية شاعت ورددها كثير من مؤرخى العصر الا انها غير منطقية وخصوصا أن الخليفة الحاكم بأمر الله كان يتألم لما أصاب البلاد من الخراب والنهب نتيجة للحريق . وكان يركب أثناء الحريق ويأمر جنوده بسرعة القضاء على النيران ، ويلعن العبيد على فعلتهم الشنعاء .

وقد ذكر البعض أن هذا الحريق ما هو الا نتيجة للصراع بين طوائف الجند داخل الجيش الفاطمى وقد اتحد الأتراك والمغاربة ضد العبيد الذين تزايدوا بصورة واضحة زمن الخليفة الحاكم بأمر الله .

ولكننى أعتقد أن الرواية الأولى مدسوسة على الخليفة الحاكم بأمر الله فليس من المعقول أن يأمر بحرق تلك المدينة التجارية الضخمة لأسباب واهية ولكن الاحتمال الأكبر هو أن هذا الحريق قد حدث نتيجة للصراع الذى ساد بين طوائف الجيش فى أواخر أيام الخليفة الحاكم بأمر الله ، والدليل على هذا ان المقريزى عندما تكلم عن الفسطاط وحريق الفسطاط زمن الوزير شاور بن مجير السعدى وزير الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين لم يذكر حريق مصر زمن الخليفة الحاكم بأمر الله .

وسرعان ما عادت مدينة الفسطاط الى أوج عظمتها التجارية والعمرانية والدليل على هذا ما أورده ناصر خسرو عن عظمة مدينة الفسطاط عندما زار مصر أثناء حكم الخليفة المستنصر بالله . ولكن فى أثناء حكم المستنصر حدثت الشدة العظمى وأصاب الفسطاط ما أصاب بقية البلاد من الخراب والدمار حيث اشتد الغلاء وكثر الوباء سنة ٤٥٤ هـ (١٠٦٢ م) فحدث مع ذلك الفتنة العظيمة التى خرب بسببها اقليم مصر كله .

أما الطامة الكبرى التى أصابت الفسطاط فكانت زمن الوزير شاور بن مجير السعدى زمن الخليفة العاضد لدين الله حيث أمر باحراق المدينة حين استعد الصليبيون للزحف من بلبيس عليها وقد لفت نظر الرحالة ابن جبير آثار الحريق والخراب الذى أحدثه هذا الحريق وقت الفتنة عند انتهاء دولة الفاطميين سنة أربع وستين وخمسمائة ، ولذا عندما وصف الفسطاط ذكر أن كثيرا من مبانيها ومساجدها حديث البناء لتجديدها بعد الحريق الذى حدث زمن الدولة الفاطمية .

القاهرة :

تعتبر القاهرة من المراكز التجارية المهمة خلال العصر الفاطمى على الرغم من ان تلك المدينة اقامها جوهر الصقلى لتكون مدينة سياسية وسكنا للخليفة وحرمه وجنده ، وخواصه ، فكانت مقرا للخليفة ورجال الدولة دون العامة ، الى جانب كونها حصنا منيعا فيما بين الفاطميين والقرامطة . ومدينة عالمية تنافس بغداد وقرطبة ، ومركزا اسلاميا وكان من أهم معالمها الجامع الأزهر ، الا انها بعد الشدة العظمى المستنصرية أصابها ما أصاب المدن المهمة بمصر من الخراب والدمار وهجرها أهلها واصبحت مدينة مهجورة تتداعى وراء أسوارها .

وعندما تولى الوزير بدر الجمالى السلطة أمر بتجديد ما خرب من القاهرة ، وسمح لرجال دولته بالبناء والتعمير مستخدمين انقاض مدينة الفسطاط التى سبق وأن خربت هى الأخرى . ومن هنا تحولت القاهرة الى مدينة سكنية بمعنى الكلمة تحوى بين جوانبها الأسواق المتخصصة التى أصبحت من أعظم أسواق المعمورة ويأتى وصف الرحالة كدليل قوى على هذا ، فقد انتقلت اليها عظمة أسواق الفسطاط التجارية ، وافرد الرحالة الكثير من كتاباتهم لوصف مدينة القاهرة وأسواقها المتخصصة التى تحتوى على جميع بضائع الدنيا . « وتحوى ما لا يقل عن عشرين الف دكان كلها ملك للسلطان وكثير منها يؤجره بعشرة دنانير مغربية فى الشهر ولا يقل أجرة بعضها عن دينارين » .

وقد حاول المقريزى عقد مقارنة بين القاهرة والفسطاط ومحاولة اثبات أن الفسطاط أرخص سعرا لقربها من النيل فالمراكب تصل اليها بالخيرات فى يسر وسهولة ، الا أن القاهرة غلب على أسواقها وتجارتها الطابع الارستقراطى العالمى ، فامتلأت حوانيتها بالبضائع الراقية التى تتناسب مع الطبقة الحاكمة والمترفة ، واستمرت لمدة طويلة تحتفظ بهذا الطابع . ولذا جاءت فخامة أسواقها وما تحويه من تحف نادرة وطرائف دليلا على هذه الارستقراطية ، والى جانب تجارتها الرائجة وحوانيتها الكثيرة فقد قامت أيضا بدور المصدر لبعض المنتجات الخاصة بها حيث كثرت مطابخ السكر ، ومصانع الورق . الى جانب أهميتها كمدينة مصدرة لكثير من المواد الخام والمصنوعات الجلدية ووصلت شهرتها فى صنع الأنطاع التى تصدرها الى الشام درجة كبيرة واشتهرت أيضا بصناعة بعض المنسوجات القطنية ، والحريرية والكتانية الراقية كما اشتهرت بصناعة المنتجات

الجلدية الراقية التى كانت تصدر الى كثير من البلاد الاسلامية كما حوت كثيرا من الفنادق والخانات والمنشآت التجارية المهمة التى تخدم التجار الأجانب .

الاسكندرية :

احتلت الاسكندرية منذ نشأتها على يد البطالمة مكانا بارزا بين المدن المهمة فى حوض البحر المتوسط فقد كانت من أعظم مدائن الدنيا واقدمها وصفا .

وتعتبر من أهم ثغور مصر الاسلامية مما جعلها سوقا تجارية مهمة وحلقة الاتصال بين طرق التجارة العالمية فى العصور الوسطى .

وقد ساعدها على الوصول الى هذه المكانة موقعها الجغرافى المتميز على ساحل البحر المتوسط واتصالها بالنيل عن طريق خليجها . لذلك فقد تمتعت منذ أقدم العصور بحضارة عظيمة تجلت فى الخطاب الذى أرسله عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب يقول فيه :

« أما بعد فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير انى أصبت فيها أربعة آلاف بنية ـ ويقصد بالبنية هنا (منزل) ـ بأربعة آلاف حمام وأربعين الف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك واثنى عشر الف بقال يبيعون البقل الأخضر » .

كما كانت قبلة كثير من تجار البر والبحر . وكانت السلع المختلفة وخاصة البهار والتوابل والتحف الثمينة تصل الى مينائها ، ثم تحمل على ظهور الابل ثم تنقل بالسفن فى خليج الاسكندرية لتصل الى الفسطاط .

والى جانب كونها مركزا تجاريا مهما ووسيطا بين الشرق والغرب فقد اشتهرت أيضا بتجارة ما ينتج بمصانعها من المنسوجات الراقية من الحرير الذى كانت تصدره الى دول العالم المختلفة الى جانب انتاجها المتميز من الزيوت والصابون الذى كانت تصدر منه الجزء الأكبر . وكذلك الفاكهة التى كانت تنقلها السفن الى مدينة مصر .

وقد أذهلت عظمة الاسكندرية رحالة العصر الفاطمى . فيصفها المقدسى :

« بأنها قصبة نفيسة على بحر الروم (البحر الأبيض) عليها حصن منيع وهو بلد شريف كثير الصالحين والمتعبدين ، شربهم من النيل يدخل عليها أيام زيادته فى قناة فيملأ صهاريجهم وهى شامية الهواء . والرسوم ، كثيرة الأمطار جامعة للاضداد جليلة الرستاق جيدة الفواكه والأعناب فطبقة بنائها من الحجارة البحرية ... وفى نواحيها خرنوب وزيتون ومزارع على البعل ... » (*) .

وقد اتفق ابن جبير مع المقدسى فجاء وصفه لها بأنها أجمل المدن على الاطلاق وقد أعجب كثيرا بمبانيها المتسعة ومسالكها الحافلة بالأسواق الجليلة التى تستمر حركة البيع والشراء بها طوال اليوم . وأعجب أيضا بالطريقة التى شيدت عليها مبانى تلك المدينة حيث بناؤها تحت الأرض كبنائها فوقها ويعتبرها المقريزى المدينة الوحيدة التى أقيمت على ثلاث طبقات أما الادريسى فيتعجب من جمال مدينة الاسكندرية وكثرة عمرانها ورواج تجارتها فيذكر :

(*) البعل : الزرع يحتفظ بالمياه فى عروقه بعد سقوط الأمطار فيستغنى بذلك عن السقى أو الرى .

« أما الاسكندرية فهى مدينة حصينة الأسوار . نامية الأشجار ، جليلة المقدار ، كثيرة العمارة ، رائجة التجارة ، شامخة البناء ، رائعة المغنى ، شوارعها فساح ، وعقائدها بنيانها صحاح . وفرش دورها بالرخام والمرمر ، وجنايا أبنيتها بالعمد المثمر ، وأسواقها كثيرة الاتساع ومزارعها واسعة الانتفاع » . وقد كانت الحركة التجارية بتلك المدينة مزدهرة طوال اليوم بحيث يتصرف أهلها فى الليل كتصرفهم بالنهار .

وقد كانت مدينة الاسكندرية من المدن التجارية الكبرى التى لها علاقات تجارية متعددة مع كثير من بلدان العالم فى ذلك ولم يكن هذا من مستحدثات العصر الفاطمى وانما يرجع الى اقدم العصور وقد ساعدها على هذا موقعها على البحر المتوسط وقربها من شبكة الطرق التجارية العالمية .ومن هنا كانت فى عصر الدولة الفاطمية تشارك بغداد تحديد أسعار السلع التجارية العالمية .

كما كانت علاقتها التجارية قوية بكثير من مدن وجزر البحر المتوسط على الخصوص فقد كانت سفنها التجارية تغادرها متجهة الى جزيرة صقلية على سبيل المثال قاطعة الطريق فى حوالى عشرين يوما حاملة الكثير من الانتاج المتميز للمدينة من الزيوت والصابون وأنواع المنسوجات الحريرية والكتانية الراقية وتعود الى البلاد محملة بالكثير من المنتجات التى تحتاجها مصر فى ذلك الوقت من أدوات الترف والأقمشة الكتانية المنقوشة الدقيقة الصنعة والتى يبلغ ثمن الثوب منها فى أسواق مصر عشرة دنانير مغربية .

كما كانت الاسكندرية مركزا من المراكز الأساسية فى تمويل خزانة الدولة بالمكوس فيحصل بسواحلها المكوس والرسوم من السفن القادمة اليها . وقد وصف ابن جبير الطريقة التى كانت

يتم بها تحصـيل تلك الرسوم فذكر أن أمناء المراكب صعدوا الى السفينة ، وقاموا بتدوين عدد الركاب وأعمالهم وما يحملونه من مؤن أو تجارة وكان الغرض من هذا الحصول على الزكاة . بل ان أمناء المركب استجوبوا بعض المسافرين لمعرفة أخبار بلاد المغرب ، ثم أنزل كل حمولة المركب وتم تفتيشها بصـورة دقيقة وقد استاء ابن جبير من الطريقة التى كان يتم بها تفتيش المركب واختـلاط اسباب الناس بعضها ببعض .

والحقيقة انه رغم كل ما قاله ابن جبير من هذه الاجراءات التى بدت له وكأنها شيء فى غاية الشناعة والقسـوة والاستهانة بالعنصر البشرى وانتهاك للحرمات واضاعة لأموال الناس فيرجع هذا الى كونه نظر الى تلك الاجراءات من زاوية واحدة ولذا فقد هاله ما حدث وغاب عن ذهنه أن مصر فى تلك الفترة كانت فى حالة حرب مع الصليبيين وان تلك السفينة التى استقلها كانت قادمة من بلاد أجنبية ولذا جاء التفتيش بهذه الصـورة كاجراء أمنى فرضته الظروف على البلاد أكثر من كونه اجراء للحصـول على الضريبة (الزكاة) .

حيث كثرت جواسيس الاعداء وكان قدومهم دائما على هيئة التجار أو يمرون اليها كحجاج ولذا كانت اجراءات الأمن ضرورية فى هذه الفترة .

والحق أن مدينة الاسكندرية ازدهرت ازدهارا كبيرا كمدينة تجارة عالمية تكتظ بالتجـار من جميع أنحاء المعمورة ولذا اهتمت الدولة باقامة الكثير من المنشآت التجارية التى تخدم هؤلاء التجار من الفنادق والقياسر والخانات وغيرها .

وقد تعددت الجاليات المختلفـة بهذا الثغر وكانت طائفـة اليهود من أكبر تلك الطوائف فقد بلغت ستمائة الف نسمة .

تنيس :

كانت أهم الثغور الواقعة بين النيل والبحر الأبيض المتوسط واشتهرت بفخامة أسواقها فبلغ عدد ما بها من الدكاكين عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطار مما يدل على ضخامة الحركة التجارية بتلك المدينة . ويذكر ابن بسام التنيسى أن جزيرة تنيس كانت تحتوى فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله على ما يقرب من ٢٥٠٠ حانوت الى جانب مائة معصرة ، ١٥٠ دكانا تبيع الحرير والبز ، ١٦٠ طاحونة ، ٥٠٠ منسج يبلغ عدد عمالها عشرة آلاف عامل .

وقد أدى ازدهار وتقدم الصناعة بهذه المدينة الى رواج النشاط التجارى بها فاشتهرت بصناعة النسيج فيصنع بها القماش الرفيع من القصب الملون الذى لا ينسج الا فى مصانعها مما جعل الملوك وأباطرة العالم يتهافتون على اقتناء بعض منه ، ويحمل من هذه المدينة الأنواع الجميلة من النسيج الى جميع أنحاء المعمورة .

فيذكر ناصر خسرو أن السفن تبحر من تنيس الى القسطنطينية فى رحلة تجارية تستغرق عشرين يوما هذا الى جانب سفنها الكثيرة التى تنتشر فى البحار ناقلة بضائع تلك المدينة الى كثير من البلدان .

ومما يدل على رواج تجارتها الخارجية امتلاك هذا الاسطول الضخم من السفن الذى بلغ الف سفينة بعضها ملك للتجار والبعض الآخر ملك الخليفة . مما ساعد على تعدد الحاصلات الزراعية والفاكهة والأغذية المختلفة داخل اسواقها فكانت تجلب

اليها تلك الحاصــلات من قرى ومدن مصر المختلفة ، واشتهرت أسواقها بتجارة الأسماك الرخيصة والاردية الملونة ، والصناعات اليدوية من الحديد كالمقارض والسكاكين .

ونتيجة لأهمية مدينة تنيس كثغر من أهم الثغور المصريــة ومركز من أهم المراكز التجارية بالبــلاد فقد زودت بجيش كامل السلاح والمعدات للاقامة بها حتى يدافع عنها ضــد أى اعتداء سواء من الفرنج أو من الروم فقد كانت تلك المدينــة مطمعا لكثير من ملوك وأباطرة العالم منذ القدم وكثرت هــذه المطامع بعد الفتح العربى لها وزادت خلال العصر الفاطمى فيذكر ناصر خسرو « أن سلطان الروم كان قد أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس ، فلم يقبل الســلطان » والعبارة السابقة وان كان فيها الكثير من المبالغة فانها تدل على مدى أهميــة مدينة تنيس سواء من الناحية الصناعية أو التجارية مما جعلها مطلبا لامبراطور الروم .

وتعتبر مدينة تنيس من أهم الثغور التى تمد خزانة الدولة بالدخل ؛ فيصــل منهــا الى خزانــة الســلطان يوميا الف دينار مغربى ويصــل دفعة واحدة يحمله شخص مكلف بهذا العمل . وينطبق هــذا الكلام الذى أورده ناصر خسرو على الفترة التى زار فيها البلاد زمن الخليفة المستنصر بالله وقبل ابتلاء البــلاد بالشدة العظمى . ونتيجة لأهمية مدينة تنيس من الناحية التجارية فقد اهتمت الحكومة باقامة المنشآت التجارية التى تخدم التجــار الأجانب بالبلاد مثل القياسر والفنادق والخانات .

دميــاط :

ومن المدن التجارية المهمــة مدينة دمياط التى كانت من اهم الثغور المصرية على ساحل مصر الشرقى منذ أقدم العصــور وقد زادت أهمية دمياط منذ عصر الدولة الفاطمية وخصــوصا انها كانت أهم مخرج لمصر الى موانى الساحل الشرقى للبحر المتوسط وكريت وتركيا وقبرص وقد زادت أهميتها بحيث تفوقت على كل من تنيس والفرما . وقد ساعد تفوقها فى صناعــة النسيج ورواج تجــارته بهــا أن أصبحت من أهم المراكــز التجــارية التى تحتل مكانا مرموقا فى تجارة النسيج العالمية . وقد زاد من شهرتها انشاء دار الصناعة بها وتخصصت فى تجهيز الاساطيل العربية وكذلك التجارية .

وكانت تلك المدينــة عامرة بالأســواق وقد زادت الحركة التجارية بها مما جعل كثيرا من تجار الشرق والغرب يقيمون بهــا وكذا كثرت فيها الفنادق والقياسر وتدفقت عليها رؤوس الأموال من كل مكان .

ويصف المقدسى مدينة دمياط بأنها « أطيب وأرحب وأوسع واصبح واضرب واكثر فواكه وأحسن بناء وأوسع ماء واحذق صناعا وأرفع بزا وانظف عملا وأجود حمامات وأوثق جدارات واقل اذايات من تنيس عليها حصن من الحجارة ، كثيرة الأبواب وفيها رباطات كثيرة خربة ولهم موسم كل سنة يقصدها المرابطون من كل جانب ، وبحر الروم منها على صبيحة دور القبط على ساحله ، ثم يفيض النيل فى البحر »

الفرمـــا :

أما الفرما فمن المراكز التجارية الداخلية المهمة حيث تقع على ساحل البحر المتوسط وكانت تستقبل تجار سورية وسائر أقاليم شرق البحر المتوسط .

وهى تعتبر من أقدم الرباطات المصرية لقربها من الحدود كما كانت منذ زمن الفراعنة حصن مصر من جهة الشرق لأنها فى أول طريق المغيرين على مصر .

وقد تميزت بأسواقها العامرة على مدار السنة وازدحـام تلك الأسواق بالتجار القادمين اليها من البر والبحر ليلا ونهـارا من الفسطاط والشام لأنها على طريق القوافل التجارية وروادها لا ينقطعون .

وكان يربطها بميناء القلزم طريق قوافل صحراوى ، وتعتبر مفتاح الديار المصرية ، ويعتبرها المقدسى مجمع الطرق . وكان أهلها يشتغلون بصيد الأســماك التى ترسل الى مدينة الفسطاط ، كما كانت تنتج أنواعا متميزة من التمور حيث يذكر المقريزى أن « بالفرما النخل العجيب الذى يثمر حين ينقطع البسر والرطب من سائر الدنيـا فيبتدىء هـذا الرطب من حين يلد النخل فى الكوانين فلا ينقطع أربعة أشهر حتى يجىء البلح فى الربيع وهذا لا يوجـد فى بلد من البلدان لا بالبصرة ولا بالحجـاز ولا باليمـن ولا بغيرهـا من البـلدان ويكون فى هـذا البسر ما وزن البسرة الواحـدة فـوق العشرين درهمـا وفيـه ما طول البسره نحو

الشبر والفتر (٢) ، كما كانت تصدر القفاف والحبال من الليف وهى على درجة كبيرة من الجودة وتدل على مهارة صناعها .

عيـــذاب :

ومن المراكز التجارية المهمة فى العصر الفاطمى مدينة عيذاب وهى تقع على شاطىء البحر الأحمر وتعتبر من أهم طرق التجارة فتفد اليها السفن من الهند واليمن والحبشة وكانت من الأماكن المحببة للتجار والبحارة فكانوا يفضلون الرسو بها عند قدومهم من عدن وعند رحيلهم اليها .

وفى هذا الصدد يذكر ابو الفدا أن عيذاب من المدن التى اختلفت حولها الآراء « فبعضهم يحدد بر مصر على وجـه تدخل فيه وهو الأشبه لأن الولاية فيها من مصر وهى من أعمـال مصر حقيقة وبعضهم يجعلها من بلاد البجا وبعضهم يجعلها من بلاد الحبشة وهى فرضة لتجار اليمن وللحجاج الذين يتوجهون من مصر فى البحر فيركبون من عيذاب . ومنها تنقل البضـائع على الابل الى أسوان ، ومن أسوان تنقل بالسفن الى مصر فى النيل .

ولم تقتصر أهميتها على هذا الدور بل تمتعت بتفوق عظيم فى خدمة الحجاج فقد استمرت من أهم المسـالك التى يعبرها حجاج بيت الله الحرام لأكثر من مائتى سنة . ورغم أن تلك المدينة قد بدأت صغيرة فى أول الأمر حيث كان سكانها يقيمون فى أخصاص ويعيشون على صيد الأسماك واللؤلؤ الى جانب حرفتهم الرئيسية

---

(٢) الشبر : ما بين طرفى الخنصر والابهام بالتعريج المعتـاد جمعهـا اشـبار .

الفتر : ما بين طرف الابهام وطرف السبابة اذا فتحتهما وجمعها أفتار .

وهى الرعى الا ان الموقع الجغرافى الذى تمتعت به حولها الى أعظم مراسى البحر الأحمر وخصوصا زمن الدولة الفاطمية حيث انتشر الأمن ، وهــذا ساعد على أن تكون من الطرق المفضلة لدى كثير من التجار ، فيذكر ابن جبير أنه هاله ما شاهده فى الطريق من كثرة القوافل الواردة والمحملة بالسلع الواصلة من الهند والمتجهة نحو اليمن ، ثم من اليمن الى عيذاب ومن السلع التى كانت ترد بكثرة من هــذا الطريق احمال الفلفل فيذكر ابن جبير : أنه من كثرة تلك الأحمال تخيل أنه « يوازى التراب قيمة » بل ان أحمال الفلفل والبهار والفرفة كانت مطروحة لا حارس لها وتترك بهذه السبيل نتيجة لاعياء الابل الحاملة لها لنقلهـا ، وتترك هـكذا بموضعها الى ان ينقلها صاحبها بدون أن يمسسها أحد . وهذا يدل على مبلغ ما وصلت اليه طرق التجارة زمن الفاطميين من أمن يفوق الوصف .

وقد زادت أهمية عيذاب منذ سنة ٤٦٠ هـ ــ ١٠٧٦ م بسبب أحداث الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وخراب معظم بلاد الدلتا مما جعل طريق القوافل التجارية وقوافل الحجاج المصريين تتحول من طريق شبه جزيرة سيناء وتتجه نحو طريق النيل لتصــل الى قفط وادفو واسوان ومنها عبر الصحراء الشرقية الى عيذاب ويتم تحصيل المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن .

وقد زاد من أهمية عيذاب ان أهلها كان عملهم الرئيسى هو

نقل الحجاج بسفن تسمى الجلاب (٣) . وكانوايحصلون على أموال طائلة من الحجاج ولذا أصبح هـذا المرفـأ من أعظم المرافىء على هذا البحر ، ورغم أنه لا نبات فيه وكل ما يؤكل مجلوب من خارج المدينة الا أن حركة التجارة من ناحية وتجارة الحجيج من ناحيـة أخرى جعلته يصل الى هذه المكانة .

اســـوان :

أما مدينة أسوان فهىقصبة الصعيد على النيل وهى ثغر من الثغور المهمة بمصر يفصل بين النوبة وأرض مصر ، وكانت كثيرة المنتجات الزراعية من الحنطة والحبوب والفاكهة والخضروات والتمور وغيرها . وقد تخصصت فى تجـارة التمر حيث قيل ان مدينة اسـنا التابعة لأسوان كان انتاجها فى السنة الواحدة اربعين ألف أردب من التمر واثنى عشر أردبا من الزبيبوأسوان اكثر بلاد مصر زراعة للنخيل ويأتى محصـول سنة واحدة يبلغ ٣٦٠٠٠ أردب من التمر . هـذا الى جانب ازدهار تجارتها من الثروة الحيوانية ففيها أعداد ضخمة من الحيوانات ، وكل هذا جعلها من أرخص مدن الصعيد على الاطلاق وكانت تجارتها رائجة وخصوصا مع بلاد النوبة بتحصين تلك المدينـة وامدادها بجيش

---

(٣) هى المراكب التى تسير فى المحيط الهندى والبحر الأحمر واستعملها أهل مصر والحجـاز واليمن فى نقل الحجاج ـ وهى نوع من المراكب تصنع بطريقة لا يدخل فى صناعتها مسمار ـ ظنا منهم أن قاع البحر الأحمر فيه حجر المغناطيس فاذا سارت السفينة بمسامير اجتذبها المغناطيس فتتفكك أو تغرق فكانوا يربطون ألواح الخشب فى ضميمة من حبال مصنوعة من قشر جوز الهند ويخللونها بدسر من عيدان النخيل وكانت هـذه المواد تجلب من بلاد الهند واليمن ، ثم كانوا يصبون عليها سمنا أو زيت الخروع أو دهن الحوت حتى يلين عودها ولا ينفذ فيها ماء .

كامل للمحافظـة وعلى ولايتها خوفا من أن يقصـدها أحد من بلاد النوبة .

قــوص :

مدينة قوص أعظم مدائن الصعيد ، وقاعدة اقليميـة منذ العصر الفـاطمي حيث ازدهرت كمدينـة تجاريـة كبرى فى تلك المنطقة ، اذ كانت مدينة حافلة بالأسواق كثيرة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنود وتجار أرض الحبشة فهى ملتقى تجار تلك البلاد جميعا ومن اهم محطات التجارة ففيها تلتقى قوافل التجـارة من المغاربة والمصريين وأهل الاسكندرية حيث يركب التجار والحجـاج السـفن النيلية الى مدينة قوص ومنها على ظهر الابل الى عيذاب ونتيجة لهذه الحركة التجارية الكبرى فقد حفلت تلك المدينة بالمرافق الكثيرة لخدمـة التجار الواردين اليها من شتى الارجاء حيث الفنادق والقياصر والحمامات التى انتشرت بها حتى تخـدم هؤلاء التجـار وقد اشتهرت تلك المنطقة بانتاجها الوفير من التمور الى جانب قصب السكر الذى يتم تصـديره الى مناطق كثيرة داخل البلاد والكروم وغيرها من المنتجات . ويذكر ابن دقماق أيضـا أن مدينة قوص أهلها أهل صناعات .

ولم يقتصر النشاط التجارى على المراكز التجارية الكبرى السابق ذكرها فقط وانما كان هنـاك مدن تجارية أخرى أقل أهمية ولكنها لعبت دورا كبيرا فى النهضـة التجارية فى مصر فى العصر الفاطمى ، فمثلا مدينة رشيد كانت من المدن التجارية المهمة التى يتم من خلالها تحصيل مبالغ كبيرة من الضرائب على ما يحمل من الاسكندرية ويحمل اليها من متاع البحر من انواع الحاصلات المختلفـة . ومن هنا كانت البـلاد تحتوى على اسـواق حافلة

وحمامات وفنادق لخدمة التجار القادمين اليها . وهناك أيضا مدينـــة **أدفو** التى تقع بصعيد مصر الأعلى بين مدينتى أســوان وقوص . واشتهرت بنخيلها وانتاجها الجيد من التمور التى كانت تصدرها الى مناطق كثيرة سواء داخل البلاد أو خارجها لكونهــا بين أسوان وقوص وقد كانت من المدن التجارية المهمة بتلك المنطقة حيث تمر بها القوافل التجارية . وقد احتوت كثيرا من الفنادق والقياسر والحمامات التى تخدم هؤلاء التجار . وهناك أيضــا مدينة **مبرز** التى تقع قبل مدينة قوص ، ويجمع بينهما قوافل الحجاج والتجار ويتم فيها وزن البضــائع التى تحتاج الى وزن ليحملها الجمالون على ظهور الجمال .

أما القلزم فبلد قديم على طرف البحر الأحمر ، ورغم انهــا بلد لا ماء ولا كلأ ولا زرع ولا ضرع ولا حطب ولا شجر ولا تمر ولا عنب ، ويرد اليها المــاء فى المراكب من منطقة الســويس على ظهور الجمال . الا أن شهرتها التجارية كانت واسعة حيث تكثر فيها المتاجر المفيدة ، ويضيف المقدسى انها خزانة مصر بها فريضة الحجاز ومعونة الحجاج .

ويقول ناصر خسرو ان مدينة القلزم بينها وبين مصر ثلاثون فرسخا ، وكان للقلزم أهميــة خاصة بسبب طرقها التى تخدم الحجاج فى موسم الحج ففيها طريقان احدهما برى والآخر بحرى ويبلغ الحجاج مكة عن الطريق الأول فى خمسة عشر يوما ، وتذهب معظم القوافل عن هذا الطريق ، أما الطريق الثانى فهو بحرى ويصل الحجاج منه الى مدينة الجــار فى عشرين يوما وهى قرب المدينة المنورة .

وهناك ايضا **المحلة الكبرى** وتعتبر من المدن المهمة فى ميدان التجارة الداخلية وقد لعبت دور الوسيط التجارى فى نقل البضائع

الى جانب تقدمها الصناعى منذ القدم ووفرة انتاجها الزراعى . ولذا فقد لفتت نظر الرحالة فجـاء ذكرها مع المدن الكبرى على لسان المقدسى الذى وصفها بأن بها الأسواق العامرة التى تضـم كثيرا من المنتجات الزراعية والصناعات الغذائيـة الجيدة مثل الزيوت ولكونها تقع بين القـاهرة ودمياط فقد زادت أهميتهـا واقبل عليها كثير من التجار القادمين والمغادرين ، وغالبا ما كانوا يستخدمون الزوارق فى تنقلاتهم مما جعل المقدسى يسميها بمدينة واسط العراق ، وقد حوت كثيرا من الفنادق والقياسر والخانات لخدمة التجـار والحقيقـة أن المقدسى وابن جبير وناصر خسرو لم يغفلوا مدينة من مدن مصر التجارية الا ووصفوها وصفا شاملا وذكروا كل ما بها من منتجات وأسواق وأهميتها سـواء للتجارة الداخلية او الخارجية ولكننى هنا اقتصرت على ذكر بعض تلك المدن التى اثرت على المجال التجارى بمصر الفاطمية .

الأسـواق :

تركز النشاط التجارى بمصر الفاطمية فى الأسـواق التى اولتها الحكومة اهتماما كبيرا ، فأخـذت على عاتقها ترتيب تلك الأسواق والاهتمام بتنظيمها ، واضاءة الأسـواق التى لا يصـل اليها الضوء وذلك لتسهيل حركة البيع والشراء طوال الليـل والنهار ، ولتسهيل مرور رواد تلك الأسواق باقامة افريزين على جانبى الطريق ، كما اعتنت باقامة الأسقف فى الأسواق المكشوفة حتى تقى الباعة والمشترين من اشـعة الشمس المحرقة فى الصيف والأمطار فى الشتاء .

ولم يقتصر دور الحكومة على هذا فقط بل اهتمت بتوفير وتأمين وسائل النقل الداخلية ، حيث اقامت أماكن مخصصـة

لتجميع الحمير المسرجة التى يتم تأجيرها بأسعار رمزية حتى يتسنى لرواد السوق من الباعة والمشترين سهولة التنقل .

ويذكر ناصر خسرو أن فى أسواق مصر (يعنى الفسطاط) ما يقرب من خمسين ألف بهيمة مسرجة تزين كل يوم وتكرى من أجل ركوب التجار ورواد السوق .

وكان دور الحكومة واضحا فى تحديد العلاقة بين البائع والمشترى فغالبا ما كانت تحدد أسعار السلع التموينية وغيرها من المواد الاستهلاكية حتى تحمى المشترى من جشع كبار التجار .

ومن الظواهر التى لفتت أنظار الرحالة فى العصر الفاطمى صدق التاجر المصرى فى تعامله ، فالأسعار محددة ولا يصح الخروج على ما تسنه الدولة من قوانين تحدد الأسعار ومن يخرج على تلك القوانين يجرس (فيحمل على جمل ويعطى جرسا بيده ويطاف به شوارع المدينة وهو يدق الجرس وينادى قائلا : قد كذبت وهأنا ألقى عقابى وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب) .

ومن الوسائل التى لفتت أنظار رحالة العصر ، الأمن والأمان اللذان كانا يسودان الأسواق ، فقد ذكر ناصر خسرو أن البزازين وتجار الجواهر والصيارفة لا يغلقون ابواب حوانيتهم فى أثناء النهار بل يتم اسدال ستائر شفافة لحجز البضاعة فقط ، ولم يكن أحد من المارة ليجرؤ على مد يده على أى نوع من أنواع تلك البضائع والا كان عقابه شديدا .

واذا دل هذا على شيء فانما يدل على مدى ما وصلت اليه البلاد فى فترات كثيرة من أيام الدولة الفاطمية من الاستقرار والأمن الداخلى .

ولا يقتصر دور الحكومة على الأسواق بالمدن الكبرى فقط

بل شملت تلك الاجراءات جميعها أسواق المدن الصغرى وكذا القرى المنتشرة فى جميع أجزاء البلاد ، ونتيجة لهـذا الأمن زاد الرواج التجـارى وأخذت تظهر الى الوجود فئة جديدة احتلت مكانا مرموقا فى المجتمع المصرى وهى فئة كبـار التجار .

ويذكر ناصر خسرو أنه رأى نصرانيا من سراة مصر قيل ان سفنه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تعد . وحدث فى سنة ما أن كان النيل ناقصـا وكانت الغلة عزيزة فأرسـل العزيز الى هذا النصرانى وقال :

« لبست السنة رخاء والسلطان مشفق على الرعية فأعط ما استطعت من الغلة اما نقدا واما قرضا » .

فقال النصرانى : « سعد الله السلطان والوزير ان لدى من الغلة ما يمكننى من اطعام أهل مصر من الخبز ست سنوات » .

واذا كان قول ناصر خسرو فيه شيء من المبالغة الا أن الشيء الملفت للنظر فى تلك الفترة هو ظهور فئـة التجـار التى تتميز بالثراء الفاحش والذين تخصص بعضهم فى الاتجار فى التحف والجواهر والأحجار الكريمة والثياب الفخمة التى كانت تجلب من أجل الطبقة المترفة فى مصر .

ومن أشهر تجار هذه الطبقة أبو سعيد التسترى : حيث كان وافر الثراء وكان مقربا من الخليفة الظاهر (٤١١هـ ــ ٤٢٧هـ) (١٠٢٠ م ــ ١٠٣٥ م) وهو الذى ابتاع له زوجتـه أم المستنصر وكان له عنده مكانة كبيرة ، ومن كثرة ثرائه انه كان يضـع فوق قصره ثلاثمائة جرة من الفضـة زرع فى كل منهـا شجرة مثمرة مما جعل سقف قصره يتحول الى حديقة كلها أشجار مثمرة .

ونتيجة للرواج التجارى الذى كان سمة من سمات العصر الفاطمى فقد تعددت الأسـواق الكبرى داخل المدن الرئيسـية

للبلاد . هــذا الى جانب الأسواق التى ذخرت بها المدن الصغرى والقرى المصرية على امتداد البلاد مما لفت أنظار الرحالة .

وتعتبر مدينة الفسطاط من أوائل المدن المصرية التى اهتم بوصف أسواقها الرحالة المسلمون ، ووصفها البعض بأنهــا بلد عجيب المتاجر والخصــائص حسن الأسواق . وقد ضمت بين جوانبها أسواقا غاية فى الترتيب ، ومن أهم تلك الأسواق سوق القناديل التى يصفها ناصر خسرو بأنه لا يعرف سوقا مثلها فى أى بلد ، وفيه كل ما فى العالم من الطرائف .

حيث تعددت نشاطات هذه السوق فلم تقتصر على نوع معين من التجارات ، بل نجدها تحوى بين جوانبها أنواعا مختلفــة من السلع الواردة من جميع بقاع المعمورة ، فالسلع الافريقية تملأ حوانيتها حيث الأدوات التى تصنع من الزبل كالأوعية والأقساط ومقابض السكاكين وغيرها .

كذلك اشتهرت هذه السوقأيضا بتجارة البللور المصنع داخل السوق بواسطة معلمين مهرة يحضرونهم من بلاد المغرب . ويضيف أنه ظهر فى هــذا الوقت بللور جيد بالقرب من بحر القلزم أكثر شفافية من بللور المغرب هذا الى جانب صناعة العاج من أنيــاب الفيله التى تستورد من بلاد زنجبار التى يصف لنا ناصر خسرو ضخامتها بقوله ان الكثير منها يزيد وزنه على مائتى من .

واشتهر هذه السوق أيضا بالاتجار فى المصنوعات الجلدية التى سبق جلبها من بلاد الحبشة حيث يتم صنع النعال الجيدة منها . هذا الى جانب الاتجار فى بعض أنواع الطيور والحيوانات النادرة التى ترد اليها من افريقية .

ومن هذا يتضح لنا مدى ما كان بسوق القناديل من تعدد

الأنشطة التجارية المختلفة التى جعلتها بلا منازع من اعظم الأسواق الموجودة بالفسطاط .

ومن عظمة أسواق مدينة الفسطاط اجتماع الفواكه والخضروات المختلفة المواسم كلها فى يوم واحد ومما لفت انظار ناصر خسرو الذى يقف مشدوها أمام اجتماع الأشياء التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى كلها فى وقت واحد داخل سوق القناديل .

والحقيقة أن هذا يرجع الى نشاط الحركة التجارية داخل هذه السوق ، واتصالها اتصالا مباشرا بمناطق مختلفة المناخ . هذا الى جانب قرب مدينة الفسطاط من شاطىء النيل وكثرة المراكب التجارية التى تصلها من كافة البلاد الأخرى فيذكر المقدسى أن الفسطاط يأتى اليه ثمرات الشام والمغرب وكذلك بضائع العراق والمشرق تصل اليه مراكب الجزيرة وبلاد الروم وتجارة ضخمة وأموال كثيرة .

ورغم ازدحام مدينة الفسطاط بالسكان الا أن أسعار المواد التموينية كانت معتدلة الى حد كبير . ويذكر المقدسى أن المواد التموينية متوفرة ورخيصة السعر حيث كان الخبز الحوارى (٤) ثلاثون رطلا منه بدرهم ، والبيض ثمانية بدانق والموز الرطب فى غاية الرخص .

---

(٤) الخبز الحوارى : من أجود أنواع الخبز فى مصر منذ عصر الدولة الطولونية وقد زاد الاهتمام به زمن الدولة الاخشيدية وكذلك الفاطمية وكان يتم صنعه من أجود أنواع الدقيق الحوارى (أى الدقيق الفاخر) المحكم النخل الشديد البياض . وقد انتشرت صناعته زمن الدولة الفاطمية .

هذا وقد اهتمت الحكومة بتأمين الأسواق وحفظ النظام وتحديد الأسعار وعقاب المخالف كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت أسواق الفسطاط من أعظم أسواقهم ، بل وصلت المدنية والرقى داخل الأسواق الى الحد الذى جعل الباعة يغلفون بضائعهم بطريقة متحضرة حيث توضع البضائع المباعة فى أوان زجاجية أو خزفية ، أو تلف جيدا بالورق الأبيض النظيف ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على مدى ما وصل اليه البائع المصرى من رقى وتقدم وتفوق فيه على كثير من تجار الشعوب الأخرى فقد كانت الحضارة الاسلامية فى تلك الفترة غاية فى التفوق ولم يكن يدانيها الكثير من بلدان العالم غير الاسلامية أما أوربا الغربية فلم تكد تصل الى هذا المستوى الا بعد قرون من الزمان . والى جانب الأسواق الجامعة مثل سوق القناديل فقد وجدت بمدينة الفسطاط أسواق متخصصة مثل (خان الوزير) وهو أحد الأسواق التى لا يباع فيها سوى القصب حيث خصص أسفل بعض الدور لاقامة الخياطين وفى أعلى الدور يجلس الرفاءون . وكانت تلك الخانات يتم تأجيرها بأجرة سنوية تبلغ عشرين ألف دينار مغربى فى السنة . وهذا مبلغ كبير جدا بالنسبة لهذا العصر وهذا ان دل على شيء فانه يدل على التقدم والرفاهية والرواج الاقتصادى ويذكر ناصر خسرو أن بمدينة مصر ما لا يقل عن مائتى خان .

وهناك أيضا سوق العيارين ، وكان يجمع العطارين والبزازين وسوق الفاميين . ويجمع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن . وكذلك سوق الحلوانيين . ويصف المقريزى الأسواق المشهورة بالفسطاط التى بلغت تسع عشرة سوقا كلها تسير على منوال الأسواق السابقة .

اما ابن دقماق فيضيف أن مدينة الفسطاط كانت بها أسواق أخرى مثل سويقة البربر وسوق وردان ، والسوق الكبير ـ وسويقة البراغيث ، وسويقة المغاربة ، وسويقة الوزير ، وسويقة الصيادين ، وسويقة السماكين ، وسويقة الزياتين ، وسويقة حبس بناته ، وسويقة دار فرج ، وسويقة مسجد العيثم ، وسويقة توام ، وسوق أحاف ، وسويقة مسجد القرون ، وسويقة معتوق ، وسويقة ابن العجمية ، وسويقة دار النحاس ، وسويقة كنائس أبى شنودة ـ سوق الوحاف ، سويقة العراقيين ـ سويقة عدوان ـ سوق الرقيق .

وقد وصف ناصر خسرو أسواق مصر بأن معظم دكاكين البزازين والصرافين وغيرهم مملوءة بالذهب والجواهر والنقد والأمتعة المختلفة ، والملابس المذهبة والمقصبة بحيث لا يوجد فيها متسع لمن يريد أن يجلس .

والحقيقة أن هذا الوصف الذى أتى به ناصر خسرو واتفق معه فيه كثير من الرحالة فضلا عن كتابات المؤرخين والكتاب غالبا ما يكون فى أوقات الاستقرار الاقتصادى والرخاء .

وقد استمرت مدينة الفسطاط وأسواقها مضرب المثل فى الفخامة والرخاء الى أن أخذ نجمها فى الأفول أثناء سنوات الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر . حيث استمر الغلاء سبع سنين مما سبب خراب الفسطاط . ولكن بقدوم بدر الجمالى الى مصر واستقرار الحياة مرة أخرى عادت الفسطاط وأسواقها الى عظمتها السابقة .

أما الطامة الكبرى فكانت بعد حريق مصر زمن الخليفة العاضد الفاطمى ووزيره شاور بن مجير السعدى .

أما القــاهرة فقد حفلت أسواقها المتخصصــة التى تركزت غالبيتها حول أبواب القاهرة الرئيسية . ويذكر ناصر خسرو أنه كان فى مدينة القاهرة (ما لا يقل عن عشرين ألف دكان كلها ملك للسـلطان وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربيـة فى الشــهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين) .

واغلب أسواق القاهرة أســواق متخصصة عامرة خاصــة بأنواع المــآكل والمشارب والأمتعة ، يعجز الفرد عن احصاء ما بها من الأنواع .

ومن كثرة ما كانت الأسواق عامرة ، يذكر المقريزى أن البعض كان يفاخر بأنه (يرمى بمصر كل يوم ألف دينار ذهبا على الكيمان والمزابل ويعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون من الشقاف الحمر التى يوضــع فيها اللبن والتى يوضع فيها الجبن والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس والموضــوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها فان هذه الأصناف المذكورة اذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت الى المزابل) .

واذا دل ما ذكره المقريزى على شىء فانما يدل على مدى ما وصلت اليه فخامة وغنى أسواق القاهرة ، فاذا كانت الفوارغ التى يوضــع بها المــآكل والمشرب تقدر بألف دينار ذهبا فما بالك بما أعدت تلك الأدوات من أجله !!

واشتملت مدينة القاهرة على عدد كبير من الأسواق مثل سوق (باب الفتوح) وكانت خاصــة باللحامين وبائعى الخضر ويقصدها الناس من جميــع أنحــاء البلاد لشراء أنواع اللحم من الضأن والبقر والمــاعز ولشراء أصناف الخضروات المختلفة .

أما « سوق المرحلين » فهى سوق خاصة لتجهيز الجمال للسفر فكانت مختصة بكل ما يلزم الجمال من الأروية وغيرها من سائر ما تحتاج اليه ، ويقصدها الناس من سائر أنحاء مصر ، وتعتبر من أعمر الأسواق فى مواسم الحج حيث يتم تجهيز الجمال المسافرة فى رحلة الحج .

وكانت حوانيتها مجهزة بكل ما تحتاجه الجمال بحيث يستطيع أى فرد أن يجهز مائة جمل أو أكثر فى يوم واحد بدون بذل أى مشقة ، وهذا يدل على توافر ما يحتاجه المسافر فى السوق وكذلك يدل على نشاط السوق وسهولة حركة البيع والشراء .

وكان يوجد بالقاهرة بعض الأسواق التى لا يحتاج الانسان الى غيرها من كثرة ما يوجد بها من تنوع فى المواد الغذائية وغيرها مثل (سوق حارة برجوان) وكان يوجد بها أعداد كبيرة من الحوانيت المتخصصة فى كل انواع المواد الغذائية وكانت من الأسواق التى يستمر العمل بها حتى أوقات متأخرة من الليل .

فيذكر المقريزى انه كان يوجد بها اللحم النىء ، والمطبوخ الى ثلث الليل الأول من قبل طلوع الفجر بساعة ، ويباع فيها أيضا الألبان والأجبان والعطارة والخضر وكثير من الأمتعة وما تحتاجه المائدة من حوائج مثل البقل والكرات والشمر والنعناع ، هذا الى جانب الزيوت من الشلجم ، وزيت القطن التى تستخدم فى انارة القناديل ولذا فقد اشتهرت هذه السوق بشدة زحامها وكثرة الاقبال عليها من شتى أنحاء مصر .

أما (سوق الشماعين) فقد كانت من أعظم الأسواق التى تبيع الشمع فى مصر فى العصر الفاطمى ، وكانت مكتظة بالحوانيت

التى تبيــع الشـــموع الموكبيــة والفانوسية والطوافــات وكانت حوانيتها تستمر مفتوحة الى منتصف الليل وكان يباع فى هــذه السوق فى كل ليلة من الشموع الشىء الكثير وخصــوصا فى أوقات الرخاء الاقتصادى .

وتزيد حركة البيع فى بعض المواسم مثل موسم الغطــاس حيث تعلق الفوانيس طوال الليل بالسوق أثناء الاحتفال بهــذا الموسم وتحول هذه السوق الى شعلة مضيئة .

أما فى شهر رمضان فكان الاقبال على هــذه السوق عظيما حيث يزداد الاقبــال على شراء الشـــموع الكبيرة التى تبلغ زنة الواحدة القنطار وما فوقه .

أما (سوق الدجاجين) فكان يباع فيها جميع أنواع الطيور خلال جميع أيام الأسبوع فيما عدا يوم الجمعة فتتحول الى سوق لبيع أنواع الطيور الخاصــة بالزينـــة مثل القمــارى والهزازات والشحارير والببغاء والسمان وقد كان السمان من الأنواع المرتفعة السعر حيث يبلغ ســعر الواحدة منهــا المئــات من الدراهم . اما الطيور المصنوعة (طيور الزينة) فكانت مرتفعة الثمن جدا وقد كان يعتنى بها حيث يبلغ ثمن الواحــد من هــذه الطيور الألف درهم ، وقد تتنافس الطبقــة المترفة على اقتناء الطيور النادرة ، ويعتبر هذا نوعا من الترف والرفاهية .

ومن الأســواق الموجود أيضــا (سوق القفيصات) وكان يجلس فيها باعة على تخوت وفوق تلك التخوت أقفاص صغيرة من الحديد مشبك فيها طرائف من الخواتم والفصوص وأساور النساء وخلاخيلهن . وكان صاحب القفص يدفع الأجرة مقابل استغلاله لتلك القطعة من الأرض .

ومن الأسواق المتخصصة (سـوق الحـلاويين) وهى من الأسواق التى تعد لبيع ما يتخذ من السـكر حلوى ، ويشتمل على حلاوة متنوعة صنعت على أشكال الحيوانات والطيور والفاكهة والأدوات المختلفة المصنوعة بطريقة متقنة ، ويشتد الزحام على هذه السوق وخصوصا خلال شهر رجب حيث يتم صنع الحلوى على هيئـة الخيول والسـباع والقطط وغيرهـا ويزن الواحـد منهـا عشرة أرطـال وبعضهـا صغيرة تبلغ ربع رطل تشـترى من أجـل الأطفـال ، ومن العـادات المتبعـة أن يشـترى أهل مصر تلك الحلوى فى موسم شهر رجب ، هذا الى جانب ازدحـام هذه السوق خلال شهر شعبان وكذلك شهر رمضان .

وتعتبر هذه السوق من امتع الأسواق فى هذا الشهر بالذات حيث يزداد الاقبال على الحلوى المصنعة والتى يضـاف اليهـا الخشكنانج (٥) وقطع البسندود (٦) والمشاش ، وكان يتم تصنيع الحلوى الخاصـة بعيد الفطر منذ منتصف شهر رمضـان حيث يتم توزيع ما يصنع فى هـذه السوق على بقية أسواق القاهرة ومصر والأرياف . اما فى الأيام العادية فكان الازدحام شـديدا أيضا على كثير من أنواع الحلوى التى تباع فى هـذه السوق مثل

---

(٥) الخشكنانج : لفظ فارسى وهو يطلق على الحلوى التى تصنع من دقيق السميذ الذى يصحن ويبسط ويضـاف اليه اللوز المقشـور والكافور وقليل من ماء الورد .

(٦) البسندود نوع من الحلوى انتشرت فى العصر الفاطمى كانت توضع ضمن محتويات الأسمطة فى المواسم والأعيـاد ، ويدخل فى صناعتها الدقيق والبلح وكانت تصنع على هيئة أقراص صغيرة ، وكانت تشكل أيضا على هيئة أقراص منقوبة الوسط ، ثم يوضع بها قرصان على بعضهما بينهما ، حلوى بها لوز وفستق ، وكان البسندور من بين الأطعمـة التى تقدم على مائدة الخليفـة فى سحور رمضـان .

الزلابيــة (٧) ، الجوذاب (٨) ، والنواطف (٩) ، والبهطة (١٠) ، واللبنية (١١) ، كما كان يباع فى السوق أيضا القطائف ــ حيث كانت من أصناف الحلوى المنتشرة فى العصر الفاطمى .

ومن الأسواق المجمعة (سويقة امير الجيوش) وتعتبر من اشهر وأكبر أسواق القــاهرة وبها عدة حوانيت فيهــا الرفاؤون والحياكون ، وعدة حوانيت للرساميين وعــدة حوانيت للفراميين وعدة حوانيت للخياطين ومعظمها لسكن البزازين والخلعيين ، وفيها عدة من بياعى الاقباع ، ويباع فى هذه السوق سائر الثياب المخيطة والأمتعة من الفرش ونحوها .

وهناك بعض الأسواق الموسمية مثل سوق المحايريين وهى السوق التى يشترى منها الحجاج ما يحتاجونه ســواء للسفر الى

---

(٧) الزلابية من أنواع الحلوى التى انتشرت فى أسـواق الحلاويين فى العصر الفاطمى وكانت تصنع من الدقيق بعد عجنه وتخميره ثم تقلى بزيت الشيرنج وتؤكل بالعسل أو السكر .

(٨) الجوذاب : ضرب من الحـلوى يدخـل فى صناعتــه اللحم والأرز والسكر ، وجوذاب معرب كوذاب بالفارسية وهو عبارة عن دجاج يقلى ويوضــع فى قدر فوق أرز مطبوخ باللبن مصبوغ بالزعفران ، ويغطى القدر ليكمل نضجــه بداخل الفرن فيسـيل دهنه على الأرز وأحيانا كان الدجــاج يوضــع فى الفرن ليشوى وهو معلق فوق قدر به أرز أو قطــائف أو خبز منقوع فى اللبن ليســيل دهنــه عليــه .

(٩) النواطف : نوع من الحـلوى يدخل فى تركيبــه العســل والسكر والفستق والبندق .

(١٠) البهطة : كلمة سندية وهى الأرز باللبن والسمن خاصــة بلا ماء .

(١١) نوع من الأرز المطبوخ باللبن والســكر وكان من عــادة الخلفــاء الفاطميين توزيع هــذه الحلوى على أصحاب الرســوم والوظائف بالدولة يوم الاحتفال برأس السنة الهجرية .

مكة المكرمة أو بيت المقدس . وقد اشتهرت هذه السوق بسوء معاملة البائعين للزبائن ، ويتضح هـذا من القصة التى أوردها المقريزى والتى تتلخص فى أن أحد الشيوخ بهـذه السـوق كان يوصى بعض صبيانه فقال : يابنى لا تراع أحدا فى بيع فانه لا يحتاج اليك الا مرة واحدة فى عمره فخذ عدلك فى ثمن المحـارة فانك لا تخشى من عودته مرة أخرى اليك وسـوف واذا عـاد من سفره اما الى الحجاز أو القدس فانه يحتـاج الى بيعها فتزايد عليـه فى ثمنها واشترها بأرخص .

وهناك أيضا (سوق الصنادقيين) وهذه السوق تخصصت فى عمـل الخزائن والأسرة والأدوات التى تصنع من الخشـب و « سوق الخراطين » وهى السـوق التى تبيع فى حوانيتها المهد الذى يربى به الأطفـال الى جانب الخراطين وحوانيت صـناع السكاكين وصناع الدوى وقد كانت هناك سوق الكتب يطلق عليها « سوق الكتبيين » وكانت مجمعا لأهل العلم .

ومن الأسواق بالقاهرة أيضا «سوق الكفتيين» حيث تخصصت هذه السوق فى عمل الكفت وهو ما تطعم به أوانى النحـاس من الذهب والفضة وكان لصناعة التكفيت بمصر الفاطمية رواج عظيم فقد عشق المصريون فى العصر الفاطمى النحاس والفضة المكفتة (١٢) فلا تخلو دار بمصر أو القاهرة من عدة قطع من النحـاس المكفت اذ كان لابد من أن يشتمل شوار العروس على دكة من النحـاس

---

(١٢) الكفت : هى صناعة الحفر على المعدن وزخرفته حيث يتم نقش المعدن بنقوش غائرة وفقا لرسـم معين يعده الصـانع قبل تنفيذه ثم يقوم بنقله على سطح المعدن لحزه بآلة الحز الخاصـة ذات النهاية المدببة وكانت هـذه الطريقة تعرف بالحز والترصيع بالمينا وهناك طرق أخرى للتكفيت وهى استخدام خيوط الذهب والفضة فى حشو الفراغات التى يحدثها الصناع على سطح المعدن.

المكفت ، والدكة عبــارة عن شيء يشبه السرير يعمل من الخشب مطعم بالعاج والأبنوس أو من خشب مدهون ، وفوق الدكة ست طاسات من النحاس الأصفر المكفت بالفضة ، وعدة الدست سبع قطع بعضها أصغر من بعض تبلغ أكبرها ما يسع نحو الأردب من القمح ، وطول الأكفات التى نقشت بظاهرها من الفضــة نحو ثلث الذراع فى عرض اصبعين ، ومثل ذلك دست أطبــاق عدتها سبعة بعضها فى جوف بعض ويفتح أكبرها نحو الذراعين وأكثر وغير ذلك الابريق والمبخرة ، فتبلغ قيمة الدكة من النحــاس المكفت زيادة على مائتى دينار ذهبا . ويذكر المقريزى أن العروس من بنات الأمراء والوزراء أو بنات الطبقة المترفــة كان يشتمل تجهيز شــوارها عند الزواج على سبع دكك واحدة من فضــة وواحدة من كفت وأخرى نحاس أبيض ودكة من خشب مدهون ودكة من صينى ودكة من بلور ودكة كداهى وهى آلات من ورق مدهون ويأتى من الصين .

والى جانب الأسواق السابقة كانت هناك سوق « الفرائيين » هى السوق التى يجلس فيها باعة الفراء وكان للفراء أهميــة منذ العصور السابقة ، وكان يستخدم لرجال الطبقة الحاكمــة وهو من المــلابس المحببــة لديهم وفى كتابهــا القيم عن مصر فى عصر الاخشيديين تحكى الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف قصة طريفة عن الاخشيد يستدل منها على ذلك ؛ هــذا الى جانب « ســوق الخفافين » حيث تباع خفاف النساء ونعالهن .

وقد حكمت أسواق مدينة القاهرة بعض العادات والتقاليد التى كانت تنفذ بكل دقة .فقد منع أى حمــل تبن أو حطب من

اختراق أسواق القاهرة ، وكذلك مرور الخيل ، أما الروايا (١٣) فكان يفرض على أصحابها تغطيتها حتى لا تصيب ثياب الناس . وقد فرض على كل صاحب حانوت أن يضع أمام حانوته زيرا مملوءا بالماء مخافة أن يحدث حريق ، الى جانب الاهتمام بوضع قناديل على وجه الحوانيت لاضاءتها وما أمامها من الطرقات طوال الوقت ، ويقيم فى القصبة قوم يهتمون بكنس وتنظيف ورش الشوارع أمام الحوانيت ، وكان الاهتمام كبيرا بحفظ الأمن والنظام وذلك بتعيين بعض الخفراء الذين يطوفون بالطرقات لحماية الحوانيت والمارة ، وغالبا ما كانت الأسواق تخلو من الرواد فى أيام الجمع حيث يأخذ التجار يوم الجمعة راحة أسبوعية ، وخصوصا أن طبقة التجار كانت تمكث فى الأسواق طوال النهار حيث تجلس كل طائفة فى مكان مخصص لها الى ما بعد الظهر ثم يأكلون فى أحد المطابخ أو يستحضرون شيئا الى دكاكينهم ، ولا يذهبون الى بيوتهم الا فى المساء .

ورغم عظمة أسواق القاهرة وتعدد نشاطاتها الا أن الرحالة ـ رغم ما ذكروا عنها ـ وخصوصا فى العصر الفاطمى الأول ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٩ ـ ١١٧١ م لم يوفوا أسواق القاهرة حقها من الوصف . ويرجع السبب فى هذا الى أن القاهرة لم تزدهر أسواقها بهذه الصورة فى أول أمرها حيث كانت فى بداية نشأتها مدينة ارستقراطية ، أنشئت كما سبق أن ذكرت لتكون مكانا لاستقرار الخليفة وأفراد الأسرة الحاكمة والموظفين والحاشية .

---

(١٣) الروايا : جمع روية وهى القربة وتصنع من جلود المعز وغيرها من الأغنام ويستخدمها السقاؤون لنقل الماء من النيل الى المنازل . وكانت حرفة السقائين من الحرف الشائعة فى الفسطاط وفى غيرها من المدن المصرية منذ الفتح العربى واستمرت فى العصر الفاطمى .

ويتضح هذا من اغفال كتابات الرحالة عن مصر الفاطمية فى بداية عهدها باستثناء ناصر خسرو الذى زارها فى عهد الخليفة المستنصر بالله ، وكانت القاهرة فى هذه الفترة قد تحولت مع مرور الوقت الى مدينة سكنية وبدأت تأخذ وضعها كمدينة تجارية كبرى تنافس الفسطاط التى كانت فى طريقها للاحتضار .

ولم يغفل الرحالة عظمة أسواق المدن الكبرى الأخرى مثل مدينة الاسكندرية التى اشتهرت بعظمة أسواقها المتخصصة فيذكر الادريسى أن « أسواقها كثيرة الاتساع » ، أما ابن جبير فيصفها بأنها حافلة بالأسواق الضخمة ، ووصف أهلها بأنهم يتصرفون فى الليل كتصرفهم بالنهار ، فهذا دليل على أن الأحوال الاقتصادية والأمنية داخل أسواقها كانت مستقرة مما جعل النشاط التجارى يستمر على مدار اليوم وقد تركزت أسواق مدينة الاسكندرية حول منطقة وسط المدينة ، وقد تعددت الأسواق المتخصصة فهناك سوق الخشابين وسوق القشاشين « السوق التى يباع بها الاحطاب » وسوق الجوار « يقصد بها سوق العبيد » وسوق السلاح وقياسر البزازين وحوانيت شارع المرجانيين وهى السوق التى تباع بها الأحجار الكريمة ، ولم تكن تلك الأسواق من مستحدثات العصر الفاطمى وانما عرفت بمصر منذ الفتح العربى فيذكر انه كان هناك حى خاص لبيع التوابل وكان يسمى شارع الفلفل وقد ذكر ابن دقماق نقلا عن الطبرى أن عمرو بن العاص فى فتح الاسكندرية أرسل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : قد افتتحت مدينة فيها اثنا عشر الف حانوت تبيع البقل .

اما مدينة تنيس فمن المدن التى تحفل بالأسواق الضخمة فيبلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف وكان منها مائة دكان عطارة ، أما قليوب فهى مدينة على بعد ستة أميال من مدينة القاهرة

وقد اشتهرت بأسواقها الجميلة المزدحمة التى يفد اليها التجار من البلدان المجاورة ، وكذلك أسواق منوف وطنطا وسخا والفيوم ودمياط وغيرها من مدن الوجه البحرى التى كانت أسواقها حافلة بالتجارات على مدار العام ، وقد أسهب الرحالة فى وصف أسواقها وما بها من مواد تموينية وحاصلات زراعية وثروة سمكية .

أما أسوان فقد لفتت أنظار الرحالة فوصفوها بأنها قصبة الصعيد ، بها أسواق جميلة نادرة تباع فيها المنتجات القادمة اليها من دول افريقيا .

ولم ينس الرحالة مدينة قوص التى كانت حافلة بالأسواق ومركزا لالتقاء التجار والحجاج من اليمن والهند وأرض الحبشة فهى مجتمع لهؤلاء جميعا ومحط للرجال ومجتمع للرفاق ، ولذا كانت لأسواقها شهرة كبيرة بين أسواق المدن الأخرى ، وهناك منية الخصيب التى تقع على شاطىء النيل فتمتاز بالأسواق والمرافق العامرة ولذا فقد أتى ذكرها فى أقوال الرحالة .

والى جانب الأسواق الدائمة التى كان العمل يستمر بها طوال أيام الأسبوع ، فقد عرفت مصر فى العصر الفاطمى أيضا « الأسواق الأسبوعية » التى كانت تعقد فى يوم محدد من أيام الأسبوع ، يعرفه التجار وعامة الشعب ، فيجتمعون فيه من أجل ممارسة نشاطاتهم التجارية .

وقد وصف لنا ابن جبير عظمة أسواق مدينة الجيزة الأسبوعية ، حيث تعقد كل يوم أحد سوق عظيمة ، ويقصدها التجار من جميع انحاء مصر ، فيذكر أن « على شط نيلها ــ يقصد مصر ــ مما يلى غربيها ، والنيل معترض بينهما ، قرية كبيرة حفيلة البنيان تعرف بالجيزة لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة يجتمع اليها » .

أما شبرا الخيمة فكانت لها سوق عامرة تعقد يوم الثلاثاء من كل أسبوع أما منية الأمراء وهى « منيــة السيرج » فتعقد سوقها يوم الأحد ويباع بها كل شيء .

الاشراف على الأسواق :

ونتيجة لأهمية الأسواق فى العصر الفاطمى وكونها مركزا من أهم المراكز التجــارية فقد اهتمت الحكومة الفاطميــة عند دخولها البلد بتنظيم شئون تلك الأسواق والاشراف عليها اشرافا مباشرا وذلك عن طريق المحتسب الذى كان له فى العصر الفاطمى نشاط واســع وسطوة كبيرة اذ يذكر المقــدسى « أن المحتسب عندهم كالأمير » ، ويتم تعيينه من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين(١٤) لأنها خدمة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . هذا الى جانب الاشراف على الأسواق فقد لعب المحتسب فى العصر الفاطمى دورا كبيرا فى هــذا المجال فقد تعددت مجالات اشرافه على الأسواق بحيث أصبح هو المهيمن على النشــاط التجــارى داخل البلاد ، ونتيجة لاتساع نطاق هذا النشاط وتعدد الأسواق سواء بالقاهرة أو بالفسطاط وامتداد نشاط الأســواق فى جميع المدن والقرى مما شهد به مؤرخو ورحالة العصر الفاطمى ، وكان لزاما على المحتسب أن يتخذ أعوانا أو مساعدين له من بين من تتوفر فيهم الخبرة فى الصناعة أو التجــارة وقد ظهر دور هؤلاء

---

(١٤) المعدلون هم عدد من كبار الشخصيات الدينية فى الدولة يساعدون القاضى فى أداء وظيفته ويتم اختيارهم بعناية من بين الأشخاص المشهود لهم بالأمانة والتفقه فى الدين ولا يسمح للقاضى أن يعدل شاهدا الا باذن من الخليفة بعد تزكية عشرين عدلا ممن سبقوه فى هــذه الوظيفة وبرضــاء سائر الشهود وكان الخلفاء يهتمون باسناد هذه الوظيفة لمن هم أهل لها لاهميتها فى اظهــار البينة ومساعدة القاضى فى تحقيق العدالة .

الاعوان فى العصر الفاطمى حيث كان يتم فى كل سوق من أسواق مصر تعيين عريف من أرباب هذه الصنائع يتولى أمور أهل صنعته، فلابد اذا أن يكون هذا العريف ممن يزاولون تلك الصنعة ، ومن الضرورى أن يكون له داخل الأسواق محلات تجارية حتى يتسنى له الاشراف المباشر على أهل صنعته ، وهناك فريق من العرفاء كان يتم تعيينهم من قبل المحتسب ليكون له الاشراف العام عليهم وينفذ أحكام الحسبة التى كان يصدرها المحتسب بنفسه وقد أمدنا كل من المقريزى ، والشيزرى ، وابن خلدون ، والقلقشندى وغيرهم بالدور الذى لعبه أعوان المحتسب فى المجال التجارى فى العصر الفاطمى فذكروا أن العريف كان يعين من أهل الصنعة وهذا ضرورى لانه فى هذه الحالة يكون خبيرا بأهل صنعته وبطريقة غشهم وتدليسهم الى جانب المامه المباشر بما يرد الى تلك الأسواق من سلع وبضائع ، والأسعار التى يجب أن يلتزم بها أهل صنعته حتى يكون ذلك عينا للمحتسب داخل هذا المجتمع التجارى الضخم .

ومع ذلك فلم يترك للعرفاء اليد المطلقة فى هذا المجال اذ كان المحتسب يعاقبهم عقابا شديدا فى حالة عدم الالتزام بواجبات تلك المهنة ، فيحكى المقريزى « انه كان فى كل سوق من أسواق مصر على أرباب كل صنعة من الصنائع عريف يتولى أمرهم ، وكان لعريف الخبازين دكان يبيع الخبز بها وبجواره دكان أخرى لصعلوك يبيع الخبز بها أيضا ، وكانت الأخباز فى أزمنة المساغب ـ أزمنة الأزمات ـ متى بردت لم يرجع الى شىء منها لكثرة الغش ، وكان العريف يبيع الخبز وسعره يومئذ أربعة أرطال بدرهم وثمن (١٢٥ر٤) ، فرأى الصعلوك أن خبزه قد كاد يبرد فأشفق من كساده فنادى عليه أربعة أرطال بدرهم ليرغب الناس فيه ، فانثال الناس عليه حتى بيع كله لتسامحه وبقى خبز العريف كاسدا فحنق

العريف لذلك ووكل به عونين من الحسبة أغرماه عشرة دراهم فلما مر قاضي القضاة « أبو محمد اليازورى » الى الجامع استغاث به فأحضر المحتسب وأنكر عليه ما فعل بالرجل فذكر المحتسب أن العادة جارية باستخدام عرفاء فى الأسواق على ارباب البضائع ويقبل قولهم فيما يذكرون ، فحضر عريف الخبازين واستدعى عونين (أى اثنين من أعوانه) من الحسبة (فوقع أنه أنكر شيئا اقتضى ذلك) ، فأحضر الوزير الخباز وأنكر عليه ما فعله وأمر بصرفه عن العرافة ودفع الى الصعلوك ثلاثين رباعيا من الذهب فكاد عقله يختلط من الفرح ثم عاد (الصعلوك) الى حانوته فاذا عجينة قد خبزت فنادى عليها خمسة أرطال بدرهم فمال اليه الزبون ، وخف من سواه من الخبازين الى اتباعه ، فلما رأى اتباعهم له قصد نكاية العريف الأول وغيظه بما يرخص من سعر الخبز فأقبل يزيد رطلا رطلا والخبازون يتبعونه فى بيعه خوفا من البوار حتى بلغ النداء عشرة أرطال بدرهم ، وانتشر ذلك فى جميعه وتسامع الناس به فتسارعوا اليه ، فلم يخرج قاضى القضاة من الجامع الا والخبز فى جميع البلد عشرة أرطال بدرهم » .

ومن هذه القضية يتضح أن المحتسب لم يترك يد العرفاء مطلقة - اى انه قيد تصرف العرفاء فى شئون الرعية - فى أمور الرعية بل كان يعاقبهم معاقبة شديدة فى حالة عدم التزامهم بمراعاة الواجبات التىأوكلت اليهم ، ولذا كان علىالمحتسب ضرورة ملازمة الأسواق والمرور على العرفاء وحثهم دائما على ضرورة اتباع الأصول فى تعاملهم مع التجار كما كان يقوم بالتفتيش على البضائع واثبات جودتها ومتابعة عدم الغش فى أنواعها وكان المحتسب يهتم بالمكاييل حيث تعددت هذه المكاييل داخل الأسواق فلكل سلعة مكيال خاص بها له مواصفات يجب مراعاتها ، هذا

الى جانب الاهتمام بالموازين أيضا وأثبات صلاحيتها والتفتيش على الصنج المستخدمة من وقت لآخر ، فاذا لاحظ نقصا فى المكيال أو الميزان أو غشا فى بضاعة قام بانذار التاجر على فعلته ، واذا تكرر هذا العمل يقوم بمعاقبته عقابا شديدا ، وقد وصف لنا ناصر خسرو ما شاهده لبعض التجار الذين خالفوا النظم المتبعة فى الأسواق فيذكر أن تجار مصر يصدقون فى كل ما يبيعونه، واذا كذب أحدهم على مشتر فانه يوضع على جمل ويعطى جرسا بيده ويطاف به فى المدينة وهو يدق الجرس وينادى قائلا : قد كذبت وهأنا أعاقب ، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب . وهذا يسمى التجريس ، وكذلك فمن اختصاصات المحتسب داخل الأسواق ، الاشراف المباشر على أصحاب الحرف والمهن فعليه مراقبة الخبازين فيجب أن ترفع سقائف حوانيتهم وتتفتح أبوابها وتجعل مراعاة النظافة داخل الأفران واتباع الطرق الصحية فى عجن الخبز وفى توزيعه بالأسواق حتى يتجنب الناس الامراض ، ويأمر المحتسب الفرانين باصلاح المخازن وتنظيف المداخن وكذلك المحافظة على أطباق العجين الخاصة بالناس ونظافتها لئلا يختلط الجميع .

هذا الى جانب الاشراف على الجزارين فيجب أن يكون الجزار مسلما حيث يذكر اسم الله عند الذبح ، والتنبيه بعدم خلط اللحوم بعضها ببعض .

وكذلك مراقبة المطابخ التى يتم بها صنع بعض الوجبات الشعبية المعروفة فى ذلك الوقت مثل « الهريسة » ، فكان المحتسب يجبر الهراسين على ضرورة ضبط نسبة اللحم الى القمح حتى يكون لكل ثمانية أوان من لحم الضأن صاع من القمح، ويكون دهن الهريسة طيب الرائحة ، وغالبا ما كان العريف يحضر

عملية الخلط حتى لا يتم الغش ، ويختم الأوانى بخاتم المحتسب ، فاذا جاء وقت السحر حضر العريف وكسر الخاتم وهرسوها بحضرة العريف ، كذلك الاشراف المباشر على ما بداخل الأسواق من مطابخ خاصة بالأسماك فكان يجبر قلائى السمك بغسل أقفافهم وأطباقهم فى كل صباح ورشها بالملح ونظافة الأوانى والاهتمام بنوعية الأسماك وعدم خلط الفاسد منها بالطازج ، وضرورة أن تكون ارطالهم زائدة على عيار غيرها أوقيتين وأن تكون من الحديد ومختومة وبدون حلقة ، ويشترط تغليف الصنج المصنوعة من الحجارة بغلاف من الجلد وختمها حتى لا يتم التلاعب فيها .

كما كان يشترط على تجار البز (الحرير) ضرورة الالمام بأحكام البيع وعقود المعاملات ، وبجبرهم على ضرورة التعامل بالأذرع المعروفة لدى الناس فى تحديد أطوال الأقمشة .

وكان المحتسب يشرف على الحاكة أيضا ويأمرهم بأخذ الغزل من الناس بالوزن واعادته اليهم بعد نسجه بالوزن أيضا وعدم ابدال أنواع الغزل بعضها ببعض ، وكان يتولى أى شكوى من الناس ويحقق فيها هو أو عريفه . كذلك كان يشرف على الخياطين ويأمرهم بالمحافظة على ممتلكات الناس وخصوصا الأقمشة الحريرية والديباج فيؤخذ بالوزن ويعاد بعد حياكته بالوزن أيضا .

كما كان يتم اشراف المحتسب كذلك على القطانين ومراقبتهم مراقبة مباشرة بحيث لا يخلط قديم القطن بجديده ولا أحمره بأبيضه ، ويتم ندف القطن بصورة جيدة ومتكررة حتى يفصل القشر الأسود والحب المكسور من بقية القطن ، ويوضع القطن بعد ندفه فى الأماكن الجافة حتى لا تؤثر الرطوبة على وزنه كما كان يشرف على الحريريين بحيث يمنعهم من تغيير صنعة الحرير

وذلك بمنعهم من صياغة القز قبل تبييضه حتى لا يثقل وزنه ، وعدم اضافة أى اضافات من النشا أو السمن أو الزيت الى الحرير حتى لا يتغير وزنه ، وعدم صنع أى عقد فى ظهر الأقمشة الحريرية حتى لا يتغير وزنه أيضا .

ومن اختصاصات المحتسب الاشراف على الصاغة فيلزم الصائغين بضرورة الفصل بين أوانى الذهب والفضة والمعادن الأخرى وعدم خلطها والا تعرضوا للعقاب ، وغالبا ما كان المحتسب يعتمد على عريفه من أهل الصناعة لكى يتمكن من كشف غش الصائغين والاشراف المباشر عليهم والتحقق من وزن بعض الأوانى والحلى المسبوكة بحيث لا يتم صياغتها الا بحضور العريف وتحت اشرافه وكذلك وزنها والتأكد من عدم غشها وخصوصا فى حالة اعادة سبك أى معدن من المعادن النفيسة أو ما يحتاج منها للحام وتركيب فصوص أو أحجار كريمة فيجب معرفة الوزن مسبقا حتى لا يتم التزوير ، وغالبا ما يكون هذا بحضرة صاحب المعدن نفسه ، ويراقب المحتسب أيضا الصاغة بحيث يشرف على عيار الذهب والفضة فى الأسواق ويمنع الغش فى هذه المعادن النفيسة .

ومن اختصاصاته أيضا الاشراف على الصيارف عند بيع السلعة أو العملة بعضها ببعض (بشروط خاصة وردت فى كتب الفقه) والصراف هو الذى يتولى هذه العملية فعليه أن يكون حافظا للشريعة ويبتعد عن الربا . وكان المحتسب يقوم بمراقبة الصيارفة والتجسس عليهم بواسطة عيونه المنتشرة ويقبض على المخالف ويحاسبه أشد الحساب ويعدم المغشوش من الذهب والفضة ، وكان المحتسب يهتم بكل ذلك كما يهتم بموازينهم ومكاييلهم .

وكان للمحتسب فى مصر الفاطمية مثلما كان له قبل الفاطميين وبعدهم سلطات واسعة يستطيع من خلالها تنفيذ كل أوامره ، وله الحق فى الاستعانة بالشرطة لتنفيذ أحكام الحسبة . واذا خلع عليه يقرأ له سجل بمصر والقاهرة .

وكان المحتسب فى مصر الفاطمية شيعى المذهب فمنذ دخول جوهر الصقلى مصر بادر بعزل المحتسب السنى وتولية ابى جعفر الخراسانى ، وهو أول من تولى الحسبة بمصر الفاطمية فى سنة ٣٥٨ هـ ـ ٩٦٨ م .

ثم توفى ابو جعفر المحتسب فى سلخ ربيع الآخر سنة ٣٥٩ هـ ـ ٩٦٩م وتولى بعده ابن عزة ، الذى تشدد فى طلب الحسبة وتنفيذ قوانينها وخصوصا على صيارفة الفسطاط وعزر جماعة منهم مما جعلهم يتذمرون ويحدثون شغبا كبيرا بل انهم اعتصموا بالطرقات وأخذوا يرددون بعض الهتافات المعادية للشيعة مثل « معاوية خال على بن أبى طالب » مما أثار جوهر وهم باحراق رحبة الصيارفة الا انه خاف احتراق جامع عمرو بن العاص حيث كانت رحبة الصيارفة بجوار جامع عمرو ، ولذا اتخذ معهم أشد أنواع التعزير .

وكان بعض الخلفاء يقومون بأعمال الحسبة وخصوصا فى أوقات الأزمات الاقتصادية وقد كان الخليفة الحاكم بأمر الله من أوائل خلفاء مصر الفاطمية قياما بهذه المهمة ففى أثناء الأزمات الاقتصادية كان يقوم بنفسه بمباشرة الحسبة وتنفيذ قوانينها ؛ فقد حاول التخفيف على الرعية فى الأزمات التى حدثت فى عهده بين سنتى ٣٥٩ ـ ٣٩٩ هـ (١٠٠٤ ـ ١٠٠٩ م) بسبب تذبذب فيضان النيل وقصوره مما جعل التجار والمقتدرين من عامة الشعب يتكالبون على جمع القمح وتخزينه خوفا من المجاعة التى

عادة ما تعقب قصور النيل مما ادى الى تعذر وجود الخبز فى العشايا وهو الخبز الذى يصنع لاستخدامه فى وجبة العشاء فأصدر اوامره بألا يباع القمح الا للطحانين وتشدد فى تنفيذ أوامره وضرب جماعة بالسوط ثم وضع سعرا موحدا للحبوب ومنع الناس من تخزين الأقوات . وكان يكبس الحواصل والبيوت للبحث عن القمح ويصادر ويعزر مخفيه . وعندما ازداد ارتفاع الأسعار وعدم تواجد القمح بالأسواق استغاث الشعب بالحاكم بأمر الله فركب حماره ووقف وقال : أنا ماض الى جامع راشدة ، فأقسم بالله لئن عدت فوجدت فى الطريق موضعا يطؤه حمارى مكشوفا من الغلة لأضربن رقبة كل من يقول لى ان عنده شيئا منها . فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة وعنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وسعى بها فى الطرقات . فامتلأت عيون الناس وشبعت نفوسهم وبهذه الطريقة استطاع الحاكم أن يقضى على الأزمة وخصوصا بعد أن استدعى أصحاب الفلال وحدد معهم السعر وتعهد التجار بتنفيذ أوامر الخليفة عن اقتناع .

والحقيقة أن الحاكم بأمر الله يعتبر الخليفة الفاطمى الوحيد الذى قام بالحسبة ووضع قواعد صحيحة لها فى مصر وساهم فى تنفيذ قوانينها ومراسيمها .

المنشآت التجارية :

والى جانب اهتمام الحكومة الفاطمية باقامة الأسواق فى مدن وقرى مصر والاشراف المباشر على تلك الأسواق والاهتمام بتوفير الأمن والأمان داخلها ، فقد كان من الضرورى الاهتمام أيضا باقامة المنشآت التجارية التى دعت حاجة النمو التجارى اليها وذلك لخدمة التجارة والتجار الأجانب حتى تستطيع الحكومة

الاشراف على هؤلاء التجار بسهولة ويسر ورغم تعدد مسميات تلك المنشآت اذ عرفت الوكالات والقياسر والخانات والرباع والفنادق الا أنها تتشابه من حيث الغرض من اقامتها واستخدامها فيذكر الأستاذ الدكتور نعيم زكى« ان معظى مؤرخى العصور الوسطى من العرب لم يفرقوا كثيرا بين الوكالة والخان والقيسارية والفندق ، اذ لم يجدوا بينها فروقا واضحة ، ولاحظوا انها تتشابه فى وجود حوش فى وسطها وحول الحوش ممر يصل الى المخازن وقد تكون دورين كما ان بها دكاكين ومساكن لكل مفتاح خاص » .

أما الفنادق فهى أبنية مربعة الشكل على هيئة حوش وتكون من طوابق متعددة يتم تسكينها جميعا ما عدا الدور الأرضى الذى يستخدم كمخازن ويخصص البعض منه كحوانيت للتجار .

وكانت تلك الحوانيت والمخازن يتم تأجيرها من قبل الحكومة للتجار الأجانب بالاقامة فى هذه الفنادق ، وكان لكل جالية أجنبية فندق خاص بها وخصوصا بمدينة الاسكندرية حيث تعددت الجاليات الأجنبية . وغالبا ما كان يتم الاشراف على هذه الفنادق وتنظيم أمورها الداخلبة من قبل فرد يتم اختياره من بين الجالبة الموجودة وهناك بعض الجاليات كانت تسكن أكثر من فندق لكثرة أفرادها وخصوصا التجار الايطاليون من أهل البندقية . وغالبا ما كان الفندق يحتوى على كنيسة صغيرة من أجل اقامة الشعائر الدنية داخل تلك الفنادق ، ومن الممكن ان يشتمل كذلك على بعض الخدمات الخاصة كفرن خاص لصنع الخبز وحانة لشرب الخمر وكانت هناك بعض الفنادق التى تقبل ايداع الأموال فيها . وكانت الحكومة الفاطمية تشرف اشرافا مباشرا على تلك الفنادق ، ويتم هذا عن طريق الاتصال المباشر بالشخص المكلف من قبل الجالية بهذا الفندق وقد انتشرت

الفنادق من الاسكندرية الى أسوان ويظهر هـذا بوضوح من خلال كتابات الرحالة فى تلك الفترة حيث يذكر ابن جبير انه اذا نزل فى بلدة نزل فى فنادقها وذلك أثناء تجوله فى البلاد ، فقد ذكر انه نزل بمدينة الاسكندرية بفندق الصفار وهو من الفنادق القريبة من وسط المدينة . ولم يقتصر وجود الفنادق على المدن التجارية الساحلية وانما ذكر أيضا أنه نزل بفندق ابن الثناء فى زقاق القناديل بالقرب من الجامع العتيق (جامع عمرو) بمدينة الفسطاط التى تعددت بها الفنادق كما تعددت بمدينة القاهرة أيضا . وقد أورد المقريزى اسماء كثير من هذه الفنادق ، كما أشـاد بها ابن حوقل أيضا وكذا ابن جبير حين حدثنا عن المدن الممتدة داخل مصر وانها كانت تحوى الفنادق المعدة لخدمة ونزول الحجاج والتجار . ومثال ذلك مدينـة قوص التى ذكر انها مدينـة متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجـاج والتجارة اليمنيـة والهندية وتجار أرض الحبشة فهى ملتقى الجميع سواء من المغاربة والمصريين أو أهل الاسكندرية ، ولذا فقد وجد بها فندق لخدمة هؤلاء جميعا ينتسب لابن العجمى ، وقد نزل فيه ابن جبير ووصفه بأنه من الفنادق الكبرى .

وقد ذكر الرحالة أيضا وجود فنادق حتى بالمدن الصغرى مثل محلة صرد والبجوم والكريون وأخميم ورشيد والحقيقـة ان انتشار الفنادق بهذه الصـورة يؤكد ان العصر الفاطمى فى معظم فتراته كان يتمتع بالأمن والأمان الذى جعل التجار الأجانب يأتون الى مصر ويقيمون داخل أسواقها بفنادقها المنتشرة فى جميع مدنهـا وقراها مما أدى الى ازدهار النشاط التجـارى . ويظهر هذا بوضوح من خلال ما دونه الرحالة والمؤرخون الذين عاصروا الدولة الفاطمية .

أما الوكالة فهى ايضا من اسماء المنشآت التجـارية التى أخذت تتزايد خلال العصر الفاطمى كنتيجة حتمية للرواج التجارى من ناحية وكثرة التجار القادمين الى مصر للاقامة بها مدة طويلة من ناحية اخرى ولذا كانت تلك الوكالات تشبه الفنادق من حيث المعنى فقد خصصت كأماكن لاقامة التجار القادمين من بلاد المشرق الاسلامى .

وكانت تلك الوكالات بجوارها مخـــازن تؤجر للتجار لحفظ بضائعهم فمثلا كانت هنـــاك وكالة لتجـــار الشام تعرف بوكـــالة (قوصون) وينزل بها تجار أهل الشـــام ببضـــائعهم من الزيت والصابون والدبس والفستق والجوز واللوز والخرنوب والرب ونحو ذلك .

وقد تحولت هذه الوكالات مع مرور الوقت الى فنـــادق تشبه الفنـــادق التى يسكنها التجـــار الأوربيون وكان يتم تأجير المخازن للتجار بخمسة دراهم . وغالبا ما كانت تلك الأماكن يتم توارثهـــا .

وكان يعلو تلك الوكالات رباع يشـــتمل بعضها على ثلثمائة وستين بيتا كانت تسكن بما يقرب من اربعـــة آلاف نفس بين رجل وامرأة وصغير وكبير ويعتقد أن هذه الأرقام التى أوردها المقريزى لأعداد السكان مبالغ فيها على الرغم من كبر حجم الوكالات كما سبق أن ذكر فى خططه .

وقد كانت المخازن التى تحويها الوكالات تحتوى على أصناف مختلفة من المواد الغذائية وغير الغذائية ويتم نقلها الى الأســـواق بواسطة الجمالين وكانت بعض الفنـــادق والوكالات متخصصـــة

لأنواع معينة من المواد الغذائية . فمثلا (دار التفـاح) كان يرد اليها الفاكهة على اختلاف أصنافها مما ينبت فى بساتين القاهرة وضواحيها . مثل التفاح والكمثرى والسفرجل الى جانب ما يصل اليها من فاكهة بلاد الشـام فيتم نقلهـا الى أسواق القـاهرة وضـواحيها .

ومن الوكالات المهمـة التى كان لها وضعها فى مصر « الوكالة الأميرية » والتى انشأها المـأمون البطائحى وزير الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٦ هـ ـ ١١٢٢ م والتى خصصها لمن يصل الى مصر من تجار الشام والعراق وهناك أيضا « وكالة ابن ميسر » التى أنشئت فى سنة ٥٣١ هـ ـ ١١٣٧ م فى عهد الخليفة الفاطمى الحافظ أبو ميمون عبد المجيد .

ولم يقتصر انشاء الوكالات على القاهرة ومصر بل امتدت الى المدن الأخرى فقد وجد بمدينة الاسكندرية عدد من الوكالات مثل وكالة الكتان ووكالة البهار والتوابل وغيرها من الوكالات المختصـة .

وكذلك تعددت الوكالات فى المدن الأخرى ، وغالبا ما كانت الوكالة يتم الاشراف عليها من قبل أحد التجار ويسمى وكيل التجار أو شيخ التجار ، ويخصص له سكن بالقرب من الوكالة حتى يستطيع مباشرة اشرافه عليها ويهتم هـذا الوكيل بشئون التجار المقيمين بالوكالة أثناء وجودهم ويحل محلهم كوكيل أثنـاء غيابهم وله مخصصات يتقاضاها من التجار مقابل هذا الاشراف.

ومن المنشآت التى اهتمت الدولة باقامتها أيضا القياسر(١٥)

(١٥) القيسـارية أو القيصـارية : كلمـة محرفـة عن اللاتينيـة Caesares وهى المبانى التى كان الرومـان يقيمونها فى المدن الكبرى لبضائعهم وكانت بها حجرات كثيرة وقد ظهرت هذه المنشآت التجاريـة فى الشام قبل مصر .

وتشتمل على مجموعة من المبانى الضخمة التى تشتمل على الحوانيت والمخازن وميضأة فى الوسط للوضوء وجامع لاقامة الصلاة .

وغالبا ما تكون الطبقات العليا لسكن التجار والصناع . وقد عرفت مصر القياسر من عهد الدولة الأموية اذ يذكر ابن عبد الحكم أن عبد العزيز بن مروان بنى فى الفسطاط قيسارية العسل وقيسارية الجمال وقيسارية الكباش . بل ان عبد العزيز ابن مروان اشترى القيسارية التى كان يباع فيها البز والثياب ؛ وكانت تعرف بقيسارية أبى مرة ثم حول اسمها الى قيسارية عبد العزيز نسبة اليه كما بنى هشام بن عبد الملك القيسارية المعروف باسمه وكان يبيع فيها أقمشة الفسطاط .

وقد عدد لنا ابن دقماق اسماء الكثير من القياسر التى انشئت خلال العصر الأموى . وقد زاد حجم القياسر فى الدولة الطولونية وكذلك الاخشيدية . أما فى العصر الفاطمى فقد أصبحت من المنشآت التجارية المهمة . ورغم تشابه القيسارية مع السوق الا أنها تختلف عنها بأن لها اروقة دائرية حول الحوانيت أما السوق فتشتمل على رواق واحد . وقد تعددت القياسر فى عصر الدولة الفاطمية واصبح من حق التجار أو أصحاب النفوذ اقامة قياسر بجانب تلك التى تقيمها الحكومة وتؤجرها للتجار الأجانب .

وقد اقامها افراد الشعب كنوع من استثمار أموالهم حيث يتم تأجيرها للتجار الأجانب مقابل اجرة سنوية يتم الحصول عليها . وقد عدد لنا المقريزى اسماء كثير من القياسر التى انتشرت فى مدن مصر التجارية فذكر أن مدينة الفسطاط بها سبع قياسر وكانت القيسارية تعرف باسم صاحبها ومن أشهر تلك القياسر قيسارية ابن أبى اسامة .

و «قيسارية أمير الجيوش» وقد بناها أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي (٤٨٧ ـ ٥١٥ هـ ـ ١٠٩٤ ـ ١١٢١ م) الذى كان اليه تدبير الملك والوزارة فى خلافة المستنصر .

و «القيسارية الطويلة » وكانت تقع تجاه قيسارية السروج المعروفة فى عهد المماليك بالقيسارية الطويلة وقد أوقفها الوزير الصالح طلائع بن رزيك على أعمال الخير .

و « قيسارية ابن يحيى » تجاه قيسارية جهاركس وقد أنشأها القاضى الفاضل هبة الله يحيى التميمى وكان أهم شخصيات الادارة الفاطمية فى تلك الفترة سنة ٥٤٠ هـ ـ ١١٤٥ م .

ولم يقتصر وجود القياسر على مدينة مصر والقاهرة بل تعددت فى المدن الأخرى كمدينة الاسكندرية التى وجد بها عدد من القياسر منها قيسارية الأعاجم وقياسر البزازين وغيرها .

وكانت بعض تلك القياسر يتم وقفها على أعمال الخير او من اجل الورثة ، وكان يتم هذا فى احتفال كبير يطوف شوارع القاهرة . وقد اهتمت الحكومة الفاطمية بالأمن والأمان داخل تلك القياسر ويتضح هذا من القصة التى أوردها المقريزى حيث يذكر ان رجلا من التجار الغرباء كان ينزل فى قيسارية الاخشيد وكانت سكن البزازين وتقع خلف الجامع العتيق فقتل فى منزله وأخذ ماله فاعتقل رشيق غلام ميمون صاحب الشرطة السفلى جماعة من أولاد التجار ومن سكان القيسارية وأخذ فى تعزيرهم فثار الناس على رشيق هذا واتهموه بأنه هو الذى دس على الرجل من قتله وأخذ ماله ، ورفعوا رقعة الى الوزير يعقوب بن كلس فى سنة ٣٧٧ هـ يشرحون له فيها امتهان ابناء الناس من الشرفاء فأمر صاحب الشرطة السفلى بضرورة البحث عن القتلة ، والافراج

عن الأبرياء ، وضرورة تقصى الحقائق والمحافظة على أرواح الأجانب الموجودين فى البــلاد بغرض التجارة . ولم يكتف الوزير بهذا بل امر بصرف رشيقا هذا عن الشرطة عقابا له على سوء تصرفه .

ومن المنشآت التجــارية التى انتشرت فى العصر الفــاطمى الخانات . والخان عبارة عن مبنى ضخم يشتمل على عدد كبير من الدور مختلفة المساحة ويحوى كثيرا ، من الحجرات ويتوســطه فناء ضخم على هيئــة الرواق ومغطى بحيث يسهل استخدامه كمخزن للبضائع والدواب فى حالة اقامة التجار فيه لبعض الوقت واثناء مرورهم بالبــلاد . وقد تعددت الخانات بمصر فى العصر الفاطمى وبلغت من الفخامة الشيء الكثير مما لفت أنظار الرحــالة وجعل ناصر خسرو يصف لنا خان الوزير فيذكر انه لا يباع فيه سوى القصب . وفى الدور الأسفل منه يجلس الخياطون ، وفى الأعلى الرفاءون .

اذن فالخانات كان أغلبها متخصصا فى نوعيــة معينــة من البضائع ، فكان بعضها متخصصا فى بيع أنواع معينة من استعمالات الأساطيل . وبعضها متخصصا فى بيع مشغولات جلدية وفى بعضها كان يتم بيع العبيد . وبعض الخانات كان يتم وقفها من قبل أصحابها لأعمال البر والاحسان حيث يتم اقامة الفقراء وأبنــاء السبيل من المــارين على البلاد بدون أجر على الاطــلاق كما ذكر المقريزى عند حديثه عن خان السبيل . وقد تعددت الخانات فى العصر الفاطمى فيذكر ناصر خسرو أن مدينة مصر يوجد بهــا ما لا يقل عن مائتى خان مختلفة الأحجــام والاغراض . وبعض تلك الخانات كانت تشتمل على دور تسع الدار الواحدة منهــا ثلاثمائة وخمسين شخصا وتبلغ قيمة ايجار الخان الكبير عشرين الف دينــار مغربى ، وبعضها اثنى عشر الف دينــار مغربى فى الســنة .

وكان بعض تلك الخانات يتم وقفه من أجل فدية أسرى الحرب ، وقد اشتمل بعضها على اثنى عشر حانوتا وخمسة حمامات وثمانية وخمسين مخزنا وست غرف كبيرة وفناء وخمسة رباع (١٦) وخمس وسبعين حجرة للنزلاء وخمسة حمامات فى الطوابق العلوية .

وقد عدد لنا المقريزى أسماء كثير من المنشآت التجارية التى تعددت أسماؤها ولكنها جميعا تشابهت من حيث الفرض ، فتجده يذكر أن مدينة القاهرة على سبيل المثال كانت تشتمل على سبع وثلاثين قيسارية ، وتسعة عشر فندقا واحد عشر خانا ، وثلاث وكالات .

((العلاقات التجارية الخارجية))

اهتمت الحكومة الفاطمية بتوطيد علاقاتها التجارية مع كثير من البلاد المختلفة وذلك لضمان حصولها على احتياجاتها الضرورية من المواد الأولية التى كانت تحتاجها من تلك البلاد الى جانب تسهيل تسويق انتاجها المتقدم من المنسوجات وبعض المواد الخام التى كانت مطلوبة فى دول أوربا وبلاد افريقيا والشرق ، ولذا سهلت السبل أمام التجار الأجانب القادمين الى بلادها باقامة الفنادق والقياسر والمحافظة على استتباب الأمن والأمان ، وتسهيل طرق المواصلات البرية والبحرية وتأمينها حتى تجذب هؤلاء التجار الى بلادها وتحصل من وراء هذا على ثروة اقتصادية تساعدها فى بناء اقتصادها القومى .

---

(١٦) الرباع مجموعة من الحجرات مقامة فوق مبنى الوكالة وهى بالتعبير الحديث ما نستطيع أن نطلق عليه لفظ فندق مفروش ويتم تأجيرها لطوائف معينة من التجار المسلمين فقط نظير أجر معين .

١ ـ مع المدن الايطالية :

تعتبر العلاقات التجارية بين مصر ودول حوض البحر المتوسط وخصوصا المدن الايطالية من أقوى تلك العلاقات ، حيث اهتمت هذه الدول والمدن بالعمل على كسب ود الدولة الفاطمية وذلك بعقد المعاهدات معها وارسال الرسل اليها حتى تستطيع المحافظة على استمرار هذه العلاقة .

ومن أوائل المدن التجارية التى كانت لها علاقات قوية مع الدولة الفاطمية مدينة أمالفى Amalphi الايطالية التى أقامت علاقات تجارية قوية جدا مع الدول الفاطمية ، وعقدت معاهدات تجارية مع الفاطميين فى القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، وقد حصل تجارها على امتيازات بمدينة الاسكندرية حيث حصلوا على تصريح باقامة فندق خاص بهم . واعتقد أن هذا التصريح الذى حصلوا عليه غالبا ما كان لاقامة فندق تشرف عليه الحكومة مثلهم فى ذلك مثل جميع الجاليات التى سمحت لها الحكومة الفاطمية باقامة مثل هذه الفنادق التى كان لها حق استخدامها دون امتلاكها .

ومهما يكن من أمر فقد كان لتجار « أمالفى » وضع متميز بمصر وخصوصا بمدينة الاسكندرية حيث أكثروا من القدوم اليها للحصول على المنسوجات الحريرية الفاخرة التى تنتجها المصانع المصرية والتى كانت تلاقى رواجا لدى أباطرة روما ، فقد كانت المنسوجات الحريرية المصرية من المنسوجات المفضلة لفرش الكنائس ومنازل أثرياء حاضرة العالم المسيحى . ونتيجة لتردد التجار من أمالفى على مدينة الاسكندرية وانبهارهم بالحضارة التى كانت سمة واضحة من سمات تلك المدينة التى لفتت أنظار

الرحالة والتجار القادمين من جميع أنحاء المعمورة وكانوا يقيمون بفندق يقع قريبا من دار الصناعة بالمقس ، أن حرص التجار من أمالفى على جلب الصناع المهرة من مصر والتعاقد معهم لتزيين قصور الطبقة المترفة فى أمالفى بالفسيفساء التى كان يجيدها الصناع المصريون فى تلك الفترة . وقد تزايدت العلاقات التجارية بحيث أخذت البعثات التجارية من أمالفى تزداد أعدادها مما دعا أحد أثرياء أمالفى أن يتقدم بطلب الى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ليسمح له باقامة دير خاص للتجار بفلسطين ، وقد سمحت الحكومة الفاطمية بمنحهم قطعة أرض بغرض استغلالها لبناء الدير وذلك لايواء التجار ، وقد أنشىء بعد ذلك قسم خاص لايواء النساء من الحجاج الى بيت المقدس .

ونتيجة للعلاقات التجارية القوية التى كانت تربط مصر بمدينة أمالفى فقد أصابت الأخيرة الكثير من الرخاء الاقتصادى ، وقد استمرت هذه المدينة على علاقة طيبة بالدولة ، حتى بعد تعرضها لغارات اللومبارديين فى أوائل القرن الحادى عشر ، فقد استنجد أهل أمالفى بالنورمانديين حكام صقلية الذين وجدوا الفرصة موانية للسيطرة على تلك المدينة التجارية المهمة . ورغم هذا لم تفقد تلك المدينة سطوتها التجارية وعلاقاتها مع الدولة الفاطمية رغم اضطراب أحوال البلاد السياسية . الا أن النورمانديين لكسب ود أهل أمالفى توسطوا لدى الحكومة الفاطمية للحصول على بعض الامتيازات التجارية لتجار أمالفى المتمثلة فى تخفيض الضرائب التى كانت تحصل عليها الدولة الفاطمية من التجار عند قدومهم الى مصر . ولكن العلاقات تدهورت بعد ذلك مما قلل من حجم التجارة مع مصر وخصوصا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (الخامس ، والسادس الهجريين) فأخذت بعثاتهم التجارية فى التقلص شيئا فشيئا حتى قلت أعداد تجارهم القادمين الى مصر .

ومن الجمهوريات الايطالية التى كان لها علاقات تجارية قوية مع مصر أيضا فى العصر الفاطمى **جمهورية بيزا** : التى بدات علاقاتها التجارية تتزايد مع الفاطميين فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) اذ لم تكن تربطها بمصر قبل الحروب الصليبية علاقات تجارية على جانب كبير من الأهمية (١٧)، وكانت بيزا منذ هذا التاريخ تحرص أشد الحرص على توطيد علاقاتها بالفاطميين ، ويظهر هذا بجلاء من ارسالها أحد سفرائها ويدعى « رانييرى بوتاتشى Ranieri Botachi » الى مصر فى عهد الخليفة الظافر (٥٤٤ ــ ٥٤٩ هـ ــ ١١٤٩ ــ ١١٥٤ م) لتسوية سوء التفاهم الذى حدث بسبب اعتداء بعض التجار من رعايا جمهورية بيزا على زملائهم من التجار المسلمين فوق احدى السفن التجارية مما أدى الى مقتل بعض المسلمين وضياع تجارتهم مما أثار ثائرة الحكومة الفاطمية ، فسارعت الى معاقبة بعض رعايا جمهورية بيزا داخل مصر ، وقد ادى هذا الى سرعة وصول السفير المذكور فى مهمة وصفها البعض بأنها « فوق العادة » حيث وصل على سفينة حربية ، وكان الرسل أو السفراء غالبا ما يصلون الى مصر على ظهور السفن التجارية ، ولكن لحرص جمهورية بيزا على استمرار العلاقات أحاطت تلك المهمة بالصورة الرسمية . وقد اسفرت هذه الزيارة عن عدد من التعهدات قدمها السفير للخليفة الفاطمى كنوع من الترضية

---

(١٧) كانت جمهورية بيزا تمتلك اسطولا بحريا قويا يعتبر من أقوى الأساطيل فى البحر المتوسط ، ولذا كانت تستعين بها بعض الجمهوريات الايطالية الأخرى لتساندها ضد المسلمين ، مثلما حدث عند تعاونهـا مع جنوا حين حاربت المسلمين بغرض استرجاع جزيرة كورسيكا . هذا الى جانب بعض الاشتباكات التى كانت تقع بينها وبين المسلمين بتونس وغيرها من الحملات التى كان الغرض الأساسى منها هو السيطرة التجارية فى حوض البحر المتوسط ، وذلك بصرف النظر عن الاغراض الأخرى المعلنة .

والاعتذار فقد تعهدت حكومة بيزا بمعاقبة المعتدين وارجاع حقوق المسلمين المسلوبة ، كما تعهدت بعدم تقديم أى مساعدة من قبلها الى الجمهوريات الايطالية الأخرى فى حالة اعتدائها على مصر ، وعدم تقديم أى مساعدة للصليبيين فى حروبهم ضد الشام . والحقيقة أن الحكومة الفاطمية كما يهمها أن تكسب صداقة وود الجمهوريات الايطالية كل واحدة على حدة وخصوصا تلك الجمهوريات التى تمتلك أساطيل حربية قوية تجوب البحر المتوسط ، فبهذه المعاهدات كانت تضمن الى حد ما عدم انضمام تلك الجمهورية الى جانب البيزنطيين وخصوصا أن الصراع كان فى تلك الفترة على أشده بين الفاطميين والبيزنطيين ، وقد عانت الدولة الفاطمية من مساعدة تلك الجمهوريات للدولة البيزنطية أثناء الحروب الصليبية حين حاصرت الأساطيل الايطالية القوية موانى بلاد الشام ، ولكن لخوف تلك الجمهورية من غضب الدولة الفاطمية وفقدها للامتيازات التى كانت تمنح لهم داخل البلاد والتسهيلات التى كانوا يحصلون عليها كانت تلزم الحياد فى معظم الأوقات . وفى المقابل فقد تعهدت الحكومة الفاطمية بتقديم بعض التسهيلات والامتيازات للجالية الموجودة بمصر وخصوصا أن أعدادها كانت كبيرة ، وقد أصدر الخليفة أوامره بالافراج عن خمسة وعشرين من رعايا جمهورية بيزا كانت السلطات المصرية قد قبضت عليهم واحتجزتهم بعد حادثة السفينة ، فسمحت لهم بمغادرة البلاد . والى جانب هذا فقد تعهدت الحكومة الفاطمية بحماية التجار والحجاج الايطاليين المسافرين على متن سفن تجارية تبحر بالبحر المتوسط ، كما أقر السفير أن الحكومة الفاطمية سيكون لها مطلق الحرية فى مصادرة أموال رعايا جمهورية بيزا فى حالة تكرار مثل هذه الحادثة ، واستمرت حكومة بيزا فى توطيد علاقاتها بالبلاط الفاطمى منتهزة أية مناسبة لتقديم البراهين من خلالها على قوة تلك العلاقة وعلى حسن نواياها ،

وبعد وقت قصير بدأت تلوح فى الأفق بوادر الاستعداد للحملة الصليبية الأولى ومن هنا أخذت جمهورية بيزا تلعب دورا مزدوجا مع كل من الدولة الفاطمية من ناحية ، والأمراء الصليبيين من ناحية أخرى فى محاولة للخروج بأكبر كسب ممكن من الطرفين ولكنها لم تستطع أن تلعب هذا الدور لمدة طويلة فقد بدت المصالح بين هذه الأطراف متعارضة ، فالحكومة الفاطمية تريد الأخشاب الجيدة التى يتم بها بناء السفن وكذلك الحديد اللازم لتأمين أعمالها الحربية وهما من المواد الخام التى تعتمد على أهل بيزا فى الحصول عليها . وفى نفس الوقت كان تحالف أهل بيزا مع الدولة البيزنطية معناه منع تصدير أو بيع أى مواد تساعد على قوة الدولة الفاطمية الحربية ، ولهذا السبب أخذت تعقد معاهدات متناقضة بين كل من الجانبين ، ففى عام ٥٤٩ هـ ، ١١٥٤ م تم عقد معاهدة مع ملك بيت المقدس توافق فيها على حقه فى مصادرة المواد الحيوية التى تنقل الى مصر وتساعد فى بناء جيشها وأسطولها حتى يتم اضعاف قوتها ، وفى نفس الوقت كانت تقدم التعهدات من خلال رسولها الذى وصل الى البلاط الفاطمى ، على عدم الانضمام الى أية جمهورية ايطالية تحارب مصر ، وخصوصا عدم تقديم أى مساعدة للصليبيين ، وقد استمر الحال هكذا بعد سقوط الدولة الفاطمية ، اذ لم تعدم جمهورية بيزا الوسيلة فى الوصول الى صلاح الدين الأيوبى وعقد معاهدة جديدة معه عام (٥٦٩ هـ — ١١٧٣ م) للحفاظ على مصالحها التجارية بمصر ، بل ان صلاح الدين الأيوبى كان يعمد الى الاتفاقات التجارية لمنفعة مصر والمسلمين

اما جمهورية جنوه فقد حرصت أيضا على توثيق علاقاتها التجارية مع الدولة الفاطمية وخصوصا منذ النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى بعد أن حصلت على استقلالها من امراء

اللومبارد فى شمال ايطاليا ، وقد ساعد على توثيق صلاتها بالدولة الفاطمية عدم ارتباطها بأى نوع من الارتباطات مع بيزنطة سواء معاهدات أو غيرها تجعلها تقف ضد المسلمين بالمشرق ، ولذا كان لديها حرية الاتجار مع بلاد المشرق الاسلامى دون الخوف من البابا أو تهديد الصليبيين ، ومن هنا استطاعت سفنهم أن تشق طريقها فى بوغاز مسينا وتصل الى سواحل الشام ومصر ، وبهذه الطريقة استطاعت جنوه أن تنمى تجارتها مع الفاطميين الذين كانوا يسيطرون على طرق التجارة الآتية من المشرق .

وقد كان التجار من جمهورية جنوه ينقلون على سفنهم الى مصر وبلاد الشام الأقمشة الوبرية القطنية التى تنتجها مصانع بافيا وميلان ، ويحملون من مصر الأقمشة الحريرية الراقية التى تنتجها مصانع تنيس . والى جانب هذا كانت سفنهم تحمل بضائع الشرق الآتية من شرق آسيا الى الموانى المصرية ولم يقتصر الأمر على هذا بل نقلت الى أوربا ما تحتاجه من الشبة والنطرون المصرى الذى كانت الحكومة الفاطمية تحتكره وتمنع الاتجار به الا عن طريقها ، وقد كان للتجار من اهل جنوه جالية كبيرة بمدينة الاسكندرية .

أما البندقية فقد كانت لها علاقات تجارية قوية مع أقطار الشرق الاسلامى وخصوصا مع مصر وبلاد الشام ، وقد زادت تلك العلاقات مع بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) حيث نجح أهلها فى اقامة علاقات تجارية واسعة النطاق ، فقد قامت بدور الوسيط التجارى بين شعوب أوربا وأقطار الشرق جميعها ، وكانت لها رحلات منتظمة لها مواعيد محددة تقوم بها أساطيلها التجارية فتغادر موانى البندقية مرتين فى العام متجهة الى أقطار المشرق محملة بالسلع المختلفة من الأخشاب والحديد

والأسلحة (١٨) ، وهى المواد التى كانت الدولة الفاطمية تجد فى طلبها لشدة احتياجاتها اليها وخصوصا الأخشاب التى كانت تعانى من نقصها الشديد اذ كان أباطرة الدولة البيزنطية يحرمون نقلها الى مصر مما يؤثر على قوتها البحرية لاعتماد اسطولها التجارى على هذه الأخشاب .

وقد عانت البندقية كثيرا من القيود التى كانت تفرضها الدولة البيزنطية على الجمهوريات الايطالية وتقيد بها تجارتها فى تلك المواد مع بلدان الشرق وخصوصا مصر لخوفها من ازدياد قوتها الحربية ، ورغم تلك القيود الا أن البنادقة لم يطيعوا أوامر الدولة البيزنطية طاعة عمياء لاحساسهم بأن تلك الطاعة سوف تقضى على مصالحهم التجارية ، ففى كل مرة كان الامبراطور البيزنطى يهدد بالانتقام من البنادقة لمخالفتهم أوامره ، وكانت حكومة البندقية تصدر تعليماتها للتجار بعدم بيع تلك المواد الخام والتشديد فى معاقبة من يحملها الى مصر ، الا أن تجار البندقية كانوا يتحايلون على هذه القوانين ، والحقيقة أن البنادقة كانوا يدركون جيدا دور مصر فى التجارة الدولية وخصوصا تجارة الهند ويخشون ضياع ثرواتهم التى يحصلون عليها من الاتجار مع مصر .

هذا ، وكانت عودة الأساطيل الى موانى البندقية محملة ببضائع الشرق من التوابل والمنسوجات الحريرية والكتانية

---

(١٨) يلاحظ أن الخشب والحديد والأسلحة كانت من السلع الاستراتيجية التى كانت الدولة البيزنطية تحارب من أجل عدم وصولها الى الموانى المصرية أملا منها فى اضعاف قوة الدولة الفاطمية _ لذا كانت بيزنطة تعقد اتفاقيات متعددة مع جاراتها من الجمهوريات الايطالية المختلفة ، وتقدم لها الكثير ، نظير عدم وصول هذه المواد الاستراتيجية الى مصر .

الفاخرة التى تنتجها مصانع تنيس ودمياط تعتبر حدثا له أهمية خاصة فى الأسواق التجارية ، فقد كانت عودتها تتفق مع مواسم الأسواق الكبرىالتى تعقد فى عيد الفصح أى شهرى مارس وابريل وعيد الميلاد فى ديسمبر ، وهذه الأسواق كانت بفضل تلك البضائع أسواقا عالمية الشهرة فى منطقة البحر المتوسط .

ونتيجة لهذه الظروف السابقة كانت البندقية رغم خوفها من الامبراطورية البيزنطية تنتهز الفرص لتؤكد علاقاتها التجارية بمصر ، ويتضح هذا من المعاهدات التى كانت تعقد بين الدولة الفاطمية زمن الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وبين جمهورية البندقية مثل المعاهدة التى عقدت سنة ٤٤٩ هـ ـ ١٠٥٦ م والتى حصل البنادقة بمقتضاها على كثير من الامتيازات التجارية .

والحقيقة أن البندقية مثلها مثل جميع الجمهوريات الايطالية كانت تتبع فى سياستها مع مصر وبلاد العالم الاسلامى أسلوب الاتفاق المزدوج ، فهى تريد الحصول على أكبر قدر من الامتيازات سواء التى تقدمها لها بيزنطة متمثلة فى تسهيلات وامتيازات فى الموانى والثغور التى تسيطر عليها فى حوض البحر المتوسط أو حماية لاسطولها داخل هذا البحر ، هذا الى جانب اهتمامهم بتنمية العلاقات التجارية مع المسلمين وارسال البعثات المختلفة لتقديم التسهيلات فى نقل المواد الممنوعة والحصول فى مقابل هذا على امتيازات فى ثغور تلك البلاد وخصوصا مصر ، ومن هنا نجد أن البعثات التى أرسلها رئيس جمهورية البندقية « بترو أورسولو Pietro Orsoolo » سنة٣٩١ هـ ـ ١٠٠٠ م كانت تسعى للحصول على مزيد من الامتيازات لسفنها التجارية ، ونجحت تلك البعثة بالفعل فى كسب ود الخلفاء الفاطميين فكانت للبندقية فى العصر الفاطمى تجارة رائجة بسبب هذه الامتيازات .

٢ ـ مع الدولة البيزنطية :

اما علاقة مصر بالدولة البيزنطية فقد تميزت طوال عصر الدولة الفاطمية بالمصادمات المستمرة فأحيانا تلجأ للمهادنة والموادعة وأخرى يشتد بينهما الصراع ويصل الى حد الاشتباك المسلح ، وسرعان ما يسعى الجميع الى الهدنة ولكن مع استمرار الحرب الباردة بينهما ، فالعلاقات السياسية كان يغلب عليها طابع الشد والجذب طوال عصر الدولة الفاطمية ، فمنذ عهد الخليفة المعز لدين الله والصراع لم يتوقف بين مصر وبيزنطة وخصوصا عندما انتصر الاسطول البيزنطى على اسطول مصر عند سواحل قبرص سنة ٣٥٥ هـ ـ ٩٦٥ م مما زاد من غضب الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وتأزمت العلاقات ، ولكن كالعادة انتهت هذه الأزمة بعقد صلح بين الخليفة المعز والامبراطور البيزنطى نيقافور فوكاس Nicophore Phocas عام ٣٥٧ هـ ـ ٩٦٧ م ولم يكن هذا الصلح سوى هدنة مؤقتة مع استمرار الحرب الخفية بين الطرفين. ولكن عندما تولى الامبراطور باسيل الثانى حاول أن يهادن الفاطميين حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية ويقضى على الفتنة التى كانت تجتاح بلاده ، ولذا سارع فى ارسال الرسل الى الخليفة العزيز حتى يأمن جانبه وقد وصلت الرسل عن طريق البحر الى ساحل القدس محملين بالهدايا ودخلوا مصر يطلبون الصلح فى عام ٣٧٧ هـ ـ ٩٨٧ م ، واستجاب الخليفة وأملى عليهم شروطه فقبلوها جميعا ووعدوا بالالتزام ، وكان من أهمها أن تلتزم الروم بعدم ابقاء أى أسير مسلم فى بلادهم ، وأن يخطب للخليفة العزيز بالله فى جامع القسطنطينية فى صلاة الجمعة ، وأن يحمل اليه من أمتعة الروم كل ما افترضه عليهم ، ثم ردهم بعقد الهدنة لمدة سبع سنين ، والحقيقة ان بنود تلك الهدنة كانت فى معظمها فى جانب الدولة الفاطمية ، وهذا يدل على ازدياد نفوذ الفاطميين

فى حوض البحر المتوسط وقوة اسطولهم ، ومن اهم المكاسب التى حصل عليها الفاطميون من وراء هــذه الهدنة رفع الحظر والقيود التى كانت تفرضها الدولة البيزنطيــة على رعاياها والتى كانت نفضى بمنعهم من ممارسة التجارة مع مصر ، واذا كان الامبراطور باسيل الثانى قد وافق على تلك الشروط بسهولة ويسر فلأنه أراد تجنب هجمات الاســطول المصرى على ممتلكاته فى حوض البحر المتوسط من ناحية ، ومن ناحيــة أخرى لخوفــه من أن تساند الخلافة الفاطمية عدو الامبراطورية فى ذلك الحين بارداس فوكاس Phocas واذا كانت تلك الهدنــة قد استمرت بعض الوقت الا أنها سرعان ما انتهكت بنودها مما دعــا الخليفة العزيز بالله الى اعلان الجهاد ضد الدولة البيزنطيــة من جديد فأعد جيشـــا ضخما واسطولا قويا للقاء البيزنطيين ، ولحرصه على توفير المؤن للعساكر بعد بلوغهم الشــام طالب وزيره عيسى بن نسطورس بانشــاء اسطول يتجــه الى طرابلس عند مسيره بحرا ، وجــد ابن نسطورس فى اعداد الاسطول فى دار الصناعة بمصر وتزويده بجميع ما يلزمه من العدد والآلات والســلاح وعزم على تسييره بعد صلاة الظهر من يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخر عــام ٣٨٦ هـ ٩ مايو ٩٩٦م ، ولكن الظروف لم تساعده فقد اشتعلت النيران واحرقت ست عشرة مركبا ، كما أتت على جميع معدات الاسطول ولم يتبق منه غير ست مراكب فارغة ، فتجمهر البحارة وتبعهم العامة واتهموا الروم النصــارى وكانوا مقيمين بجوار دار الصناعة، وانتشرت الفوضى بالبــلاد وأخذ العامة فى نهب ممتلكات الروم وقتل الكثير منهم ، ويذكر المقريزى أن عدد القتلى بلغ مائة وسبعة رجــال ولكن سرعان ما تدارك الخليفــة العزيز خطورة الأمر ، وخصوصا أن التعامل بهذه الصــورة مع التجار ونهب ممتلكاتهم وقتل الأبرياء له آثار سيئة على سمعة التجــارة بمصر ، خاصــة

وأن مصر من البلاد التى اشتهرت بتوفير الأمن والأمان للتجار الأجانب ، ولذا سارع الوزير عيسى بن نسطورس بالقبض على المتهمين من الامالفيين واليونان ومحاكمتهم ، وضرب بيد من حديد على حالة الفوضى التى اجتاحت البلاد حيث بلغ مقدار ما نهب تسعين ألف دينار . ولذا قامت الشرطة بتطهير الأسواق من مثيرى الشغب وضرب عنق كل من يعثر عنده على شيء من متعلقات التجار الأمالفيين واليونان ، حتى عاد الأمن والأمان الى الأسواق مرة أخرى ، فى نفس الوقت أمر الخليفة العزيز بالله باعادة بناء الاسطول فى أقصر وقت ممكن ، فشرع عيسى بن نسطورس فى انشاء اسطول جديد ، وجد فى جمع الأخشاب من جميع أرجاء مصر واشتدت همة الصناع فى انجازه فاكتمل بناؤه فى فترة لا تزيد عن ثلاثة اشهر فأنشأ اربعا وعشرين مركبا تم شحنها بالرجال وتقرر تسييرها الى انطرطوس بعد أن تجددت الاضطرابات بالشام ، وقد مات العزيز بالله الفاطمى فى تلك الفترة وهو سائر الى بلاد الشام ، فى مدينة بلبيس قبل تحرك العسكر فى سنة ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م .

وعندما تولى الخليفة الحاكم بأمر الله شئون البلاد ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) حرص الامبراطور باسيل الثانى على مسالمته فأرسل فى خريف ٣٨٩ هـ - ٩٩٨ م سفارة الى القاهرة تعرض على حكومة الخليفة الحاكم عقد هدنة ثم اجراء الصلح ، والجد فى طلب هذه الهدنة من قبل الامبراطور البيزنطى مرجعه الى انتصار الجيش المصرى على البيزنطيين بمدينة صور والقضاء على الفتنة التى نشبت بها والتى كانت تؤيد البيزنطيين، وقد نتج عن هذه الفتنة والقضاء عليها أن قتل عدد كبير من البيزنطيين ، الى جانب مقتل والى صور نفسه ، ولكن لم تلق تلك السفارة اجابة مرضية من قبل الخليفة الحاكم بأمر الله

مما دعا الامبراطور البيزنطى الى التوجه الى سوريا مرة أخرى . ولكن سرعان ما تراجع الحاكم بأمر الله عن هـذا الموقف المتشدد وارسل فى أوائل سـنة ٣٩١ هـ ـ ١٠٠٠ م سـفارة برئاسـة أريسطس Orestes بطريرك بيت المقدس (١٩) لعقد هدنة مع الامبراطور باسيل بعد أن أخذت انتصارات هذا الامبراطور تتوالى ببلاد الشام .

ولكن لم يكتب لهذه الهدنة الظهور الى النور الا فى أوائل صيف ٣٩١ هـ ـ ١٠٠١ م واعتبرها كثير من المؤرخين بداية عهد جديد من الوفـاق بين الدولتين ، ولكن رغم هـذا استمرت العلاقات متوترة بين الدولتين كما ازدادت توترا عندما تغيرت سياسة الخليفة الحاكم بمصر ازاء المسيحيين ، وكان لتشـدده مع النصارى أثره فى هجرة أعداد كبيرة منهم الى بيزنطة ، وقـد انزعج الامبراطور البيزنطى لما أصـاب رعـاياه من المسيحيين داخل مصر ، ولذا نجده يوجه ضربة قوية ضد الخليفة الفاطمى كنوع من الانتقام فقرر منع التجارة مع رعايا الدولة الفاطميـة ومحاربتهم بكل الوسـائل الممكنة حتى ينهار الاقتصاد المصرى تحت وطأة هذا الحصار الاقتصادى ، وخصوصا أن هـذا الحظر لم يقتصر على الاتجـار مع الدولة البيزنطيـة وحسب ، بل ان الامبراطورية البيزنطية حرضت جميع جيرانها من الايطـاليين وغيرهم على مقاطعة التجارة المصرية وعدم مد مصر بما تحتـاج اليه من المواد الخام وخصوصا الخشب والحديد ، ومع أن الحاكم كان شديد التعصب ضد الروم الملكانية فى بلاده وهـدم كنيسة القيامة التى يحج اليها الروم ، الا أن علاقته الخارجية بالامبراطور

---

(١٩) كان البطريرك أريسطس هو شقيق والدة الخليفة الحاكم بأمر الله الى جانب أنه كان بطريرك بيت المقدس .

باسيل لم تتأثر كثيرا فلم ينقض الهدنة التى سبق أن أبرمها معه . ولم تنقطع السفارات بين الحاكم الذى أحسن استقبالها ، ولكن الامبراطور لم يستمر طويلا فى المحافظة على العلاقات الطيبة مع الخليفة الفاطمى وانما قرر محاربته عندما عرف بأمر الاتفاق الذى تم بين الحاكم والبلغار . ولكن على أية حال فان هذه الحرب لم تقع اذ توفى الحاكم وتولى بعده ابنه الظاهر سنة ٤١١ ــ ٤٢٧ هـ ــ ١٠٢٠ ــ ١٠٣٥ م ، وكانت عمته ست الملك وصية عليه ، وقد سارعت الى استرضاء الامبراطور البيزنطى وأجرت معه مفاوضات لعقد صلح اشترط فيه الامبراطور أن يقوم بتعمير كنيسة القيامة فى بيت المقدس من ماله وكذلك يصرح للنصارى فى جميع أملاك الظاهر بنفس الشىء ، والا يتعرض الخليفة لحلب بسوء ، والا يقدم أية مساعدة لصاحب صقلية فى حربة ضد الروم .

ولما لم يوافق الخليفة الظاهر على البند الخاص بمدينة حلب توقفت المفاوضات ، ولكن العلاقات التجارية ظلت مستمرة بصورة غير رسمية ، ثم تحسنت العلاقات مرة أخرى زمن الامبراطور قسطنطين الثامن فقد تم عقد معاهدة بينه وبين الخليفة الفاطمى الظاهر ، وقد اشترط الامبراطور البيزنطى فيها الا يقوم الفاطميون بأى عمل عدائى نحو مدينة حلب ، اذ كانت حلب من المدن الرئيسية التى يعتمد عليها البيزنطيون كأحد المنافذ لتجارتهم مع الشرق ، لذا نلاحظ انها المدينة الوحيدة التى استثناها الامبراطور باسيل الثانى من قرار تحريم الاتجار مع الدولة الفاطمية عندما اشتد الخليفة الحاكم فى معاملة أهل الذمة.

وقد تحسنت العلاقات مرة أخرى زمن الخليفة الفاطمى المستنصر ففى عام ٤٢٩ هـ ــ ١٠٣٨ م ، تم ابرام معاهدة مع

البيزنطيين ، وقد تخلى البيزنطيون عن الشرط المتعلق بمدينة حلب ، وسمح للامبراطور باتمام اصلاح كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، واستمرت العلاقات الودية قائمة بين الدولة البيزنطية والدولة الفاطمية ، وانتهز الخليفة الفاطمى هذه الفرصة وبعث الى الامبراطور البيزنطى يطلب منه امداده بالغلال التى تساعده على اجتياز المحنة التى سادت البلاد نتيجة نقص القمح فأمر الامبراطور البيزنطى بامداد مصر بأربعمائة ألف أردب ، الا أن المنية ادركته قبل تنفيذ هذا الأمر ، ورفضت أرملته الامبراطورة تيودورا السماح بتصدير الغلال الى مصر الا بعد أن يتعهد الخليفة الفاطمى بامدادها بالجنود فى حالة وقوع الحرب بينها وبين أية دولة أخرى ، ولكن الخليفة المستنصر رفض هذا الشرط مما جعلها تمنع الغلال عن مصر ، فثار المستنصر ثورة عارمة وأرسل حملة بقيادة مكين الدولة الحسن بن ملهم اتجهت الى اللاذقية وحاربتها بسبب نقض الهدنة وامساك الغلال عن الوصول الى مصر . ومن هنا عاد العداء مرة أخرى بين الدولة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية واستمر هكذا حتى نهاية الدولة الفاطمية .

رغم كل ما تقدم من الصراعات السياسية بين الدولة الفاطمية والامبراطورية البيزنطية ، نلاحظ أن العلاقات التجارية لم تتوقف رغم ما كان يصدر من قبل الامبراطور البيزنطى من وقت لآخر بعدم التعامل مع التجار المصريين ومنع رعاياه من الاتجار مع مصر او القدوم اليها ، الا أن التجارة وسبلها استمرت بين البلدان ، فالدولة الفاطمية لديها من المنسوجات الحريرية والكتانية التى تنسجها مصانع تنيس ودمياط ما يجعل الامبراطور البيزنطى يضحى فى سبيل الحصول عليها بالشىء الكثير ، ويتضح هذا من كتابات ناصر خسرو عند وصف مدينة تنيس وما بها من منسوجات راقية حين يقول : « سمعت أن سلطان الروم كان قد

أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان ، وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون » الذى يحتاجه الأباطرة لتزيين قصورهم ولذا اهتمت الحكومة الفاطمية بتأمين مدينة تنيس فكان يقيم بها جيش كامل السلاح ليحميها من غارات الفرنجة أو الروم - كما سبق ان ذكرت عند حديثى عن مدينة تنيس كمدينة صناعية كبرى - ونتيجة لاقبال البيزنطيين على المنسوجات التنيسية فقد كان هناك سفن تسير بصورة منتظمة بين تنيس والقسطنطينية قاطعة المسافة فى عشرين يوما . أما مصر فقد كان يهمها بقاء العلاقة التجارية مستمرة بينها وبين الدولة البيزنطية حتى تتمكن من الحصول على الفراء وغيره من الغلات التى تحصل عليها بيزنطة من بلاد الروسيا وتقوم بتصديره الى بلاد المشرق ، الى جانب احتياجها للقمح وخصوصا فى فترات الأزمات الاقتصادية مثلما حدث زمن الشدة العظمى عندما استعان الخليفة الفاطمى بالامبراطور البيزنطى لامداده بكميات من القمح ليستعين بها على تلك الأزمة . ومما يثبت استمرار النشاط التجارى بين هذه البلدان حجم الجالية المصرية التى كانت فى القسطنطينية ، كما كان للروم جالية كبيرة ولهم أماكن خاصة لاقامتهم فى مصر فقد ذكر المقريزى أن الروم حارتان ، حارة الروم الجوانية وحارة الروم القديمة ؛ أو حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا وهى المعروفة بالجوانية . أما تجار الروم فقد كان لهم أماكن خاصة باقامتهم مثل دار ماتك التى كانت قريبة من المقس .

٣ - مع جزر البحر المتوسط :

تعتبر جزيرة صقلية من أهم الجزر التى كانت لها علاقات قوية مع الدولة الفاطمية ويرجع السبب فى ذلك الى بقاء تلك الجزيرة مدة طويلة تحت السيطرة الفاطمية لأهميتها من الناحية

الجغرافية ولصلاحيتها كقاعدة بحرية تساعدهم على السيطرة على حوض البحر المتوسط ولذا فكروا فى القضاء على سيطرة الروم عليها وتم لهم ذلك فى عهد دولة الأغالبة التى استقلت بافريقية (تونس الحالية) قبل مجىء الفاطميين الى بلاد المغرب فى سنة ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م وفى هذا الصدد تذكر الأستاذة الدكتورة سيدة كاشف فى بحثها القيم عن العرب والبحار (ان احتلال المسلمين لصقلية تم على يد الأغالبة فان زياد الله بن الأغلب بعث فى سنة ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م قائده ووزيره أسد بن الفرات على رأس عمارة بحرية قوامها أربعمائة سفينة وثلاثون ألف مقاتل استطاعت أن تفتح بلرم بعد حصار خمس سنين وكتب زياد الله الى الخليفة العباسى المأمون يبشره بالفتح ثم تابع الأغالبة حملاتهم حتى وقعت الجزيرة كلها فى أيدى العرب) .

ومن هنا استطاعوا السيطرة على حوض البحر المتوسط ، وبفضل سيطرتهم على معظم الجزر فى هذا البحر أصبح بحيرة اسلامية « فكانت لا تسبح للنصرانية فيه سفن » وعندما استقر الفاطميون ببلاد المغرب وقضوا على حكم الأغالبة ، كان من الطبيعى أن يستولوا على جزيرة صقلية وبالفعل تمكن أبو عبد الله الشيعى من فتحها سنة ٢٩٥ هـ - ٩٠٨ م وسيطر على مالطة وقلورية عن طريق مؤيدين من البربر ولما انتقل الفاطميون من المغرب الى مصر لم يتخلوا عن حكم صقلية ويتركوه للمغاربة كما فعلوا ببلاد المغرب وانما فصلوا فصل صقلية عن المغرب وجعلوها خاضعة لهم خضوعا مباشرا وذلك لضمان بقائها قاعدة بحرية يستطيعون من خلالها السيطرة على المغرب اذا حاول الانفصال عنهم واستمرت تبعية صقلية للدولة الفاطمية طوال حكم الخلفاء - المعز والعزيز والحاكم والظاهر - أى من

سنة ٣٦٢ هـ ـ ٤١١ هـ ولكن مع بداية حكم الخليفــة الظاهر سنة ٤١١ هـ ـ ١٠٢٠ م أخذت المنازعات الداخلية فى الجزيرة تطفو فوق سطح الحيــاة السياسية بين المغاربة وجند الفاطميين وانتهز الروم هــذه المنازعات ليسيطروا على شــئون الجزيرة ويهددوا استقلالها فشنوا حملتين على صقليــة ســنة ٤٢٩ هـ ، ٤٣٠ هـ ـ ١٠٣٧ م ، ١٠٣٨ م واستولوا على مسينا ومعظم الساحل الشرقى ولكن سكانها من المسلمين دافعوا عنها ثم أخذت سطوة النورمانديين تظهر بصــورة واضحة فى عام ٤٤٤ هـ ـ ١٠٥٢ م فسيطروا على الجزيرة وســقطت الجــزيرة فى يد النورمانديين سنة ٤٨٤ هـ ـ ١٠٩٦ م ولم يستطع المستنصر بالله الفاطمى أن يقدم أى معونة لسكان الجزيرة أو يقف فى وجه الغزاة لانشغاله بالاضطراب الداخلى الذى ســاد مصر فى نهاية العصر الفاطمى الأول سنة ٣٥٨ هـ ـ ٤٦٧ هـ ـ ٩٦٨ م ـ ١٠٧٤ م الذى اقترن بالشدة المستنصرية وصراع طوائف الجند مما جعله عاجزا عن امداد ولايته فى هــذه الجزيرة بالمؤن أو المــال حتى يستطيعوا الوقوف فى وجه النورمانديين وهكذا مع مرور الوقت وفى أواخر عهد المستنصر وجد انه من الأفضــل اقامة علاقة سلمية ، مع النورمانديين ورغم تلك الأحداث فان العلاقات التجارية لم تنقطع بين مصر وصقلية بل كانت هــذه العلاقات قوية أولا لقرب صقلية من سواحل مصر حيث تقع فى اقصى جنوب شبه جزيرة ايطاليا فهى نقطة الاتصال بين أوروبا ومصر ، وكانت جميــع الســفن المسافرة من مصر الى ايطاليا تمر بسواحلها ويذكر ناصر خسرو ان السفينة المغادرة مصر تصــل الى جزيرة صقلية فى عشرين يوما وكانت العلاقات التجارية قوية فكانت السفن الصقلية تحمل الى مصر انتاج الجزيرة من الأقمشة الحريرية والكتانيــة الرقيقــة فيذكر ناصر خسرو انهم كانوا يجلبون منهــا كتانا رقيقــا وثيابا

منقوشة يساوى الثوب منها فى مصر عشرة دنانير وكانت هـذه الأقمشة تتفوق على الأقمشة التى تنتجها المصانع المصرية ولذا كانت مفضلة لدى الطبقة المترفة وقد اقتنت أميرات البيت الفاطمى كثيرا من تلك القطع المصنوعة فى صقلية فالأميرة عبدة ابنة الخليفة المعز لدين الله خلفت بعد موتها ثلاثين ألف شقة صقلية وكانت مصر تحصل كذلك على القمح والفاكهة والمعادن المختلفة وقد استمرت العلاقات ودية بين الفاطميين والنورمان حكام صقلية ،وهناك خطاب مرسل من الخليفة الحافظ الى ملك صقلية روجر الثانى تتضح من خلاله العلاقات السلمية التى كانت تسود كلا البلدين ، وقد تمتع التجار الصقليون بكثير من الامتيازات داخل ثغور ومدن مصر ، وقد حاول ملك النورمان الحصول على امتيازات تجارية واعفاءات من الجمارك لهؤلاء التجار ، كما كانت لمصر جالية كبيرة بصقلية ، ويذكر ابن جبير ان الجالية الاسلامية كانت كبيرة العدد وتمارس شعائرها الدينية بالمساجد المنتشرة فى الجزيرة .

ولكن كثيرا ما كانت العلاقات الودية بين البلدين تفسدها تصرفات بعض المتعصبين من حكام صقلية ، ففى أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى (٥٤٩ ــ ٥٥٥ هـ ــ ١١٥٤ ــ ١١٦٠ م) ، والوزير حينئذ الصالح بن رزيك نزل على دمياط نحو ستين مركبا فى جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة (٥٥٠ هـ ــ ١١٥٥ م) بعث بها لوجيز بن روجر صاحب صقلية فعاثوا وقتلوا وامتدت أيديهم الى تنيس ورشيد والاسكندرية وأكثروا فيها الفساد ، ولكن مع هذا فمن الواضح أن الدولة الفاطمية كانت تؤثر العلاقات الودية مع صقلية وحكامها النورمان مؤمنة أشد الايمان بأن قوتها البحرية فى ذلك الوقت لا تقف موقف المساواة

مع قـوات النورمانديين ، ولذا كانت تتجنب الاحتـكاك بهم ، بل تنحو الى مسالمتهم وعقد الاتفاقات التجارية بينها وبينهم .

ولم تكن جزيرة صقلية هى الجزيرة الوحيدة فى حوض البحر المتوسط التى لها علاقات تجارية قوية مع مصر ، وانما شاركتها فى هـذا جزيرة قبرص فقد كانت موانيها من الموانى المفتوحـة أمام التجار الفاطميين يقصـدونها فى يسر وسهولة لقربهـا من السواحل المصرية ، فالرحلة البحرية كانت تستغرق من مصر الى سواحل قبرص يوما واحدا ، ولذا كانت السفن المصرية تخرج من موانيها فى تنيس ودمياط متجهة الى قبرص محملة بالمنتجـات المصرية من المنسوجات الكتانية والحريرية الفاخرة التى تصنع فى مصانع تلك المدن ، وتعود منها محملة بالشمع والعسل والفاكهـة والديباج والحرير ، والى جانب هـذا كانت جزيرة قبرص تعتبر محطة بحرية للسفن المصرية التى تقصد سواحل آسيا الصغرى والقسطنطينية ، ولذا فقد كانت تمثل اهميـة كبرى بالنسبة للتجارة المصرية فى حوض البحر المتوسط ، ومن هنا حرص خلفاء الفاطميين على اقامة علاقات ودية بينهم وبين حكام تلك الجزيرة حتى يضمنوا تأمين اسطولهم التجـارى وامداده بما يحتاجه من وقود وغيره داخل حوض البحر المتوسط . وقد شاركت جزيرة اقريطس (كريت) زميلاتها فى هـذا الصدد اذ كانت لها علاقات تجارية قوية مع مصر أيضا ، ويعود هـذا الى اعتبارها المحطـة الأساسية للسفن الآتية من مصر والشـام والمتجهـة الى بحر الادرياتك ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كانت السفن المصرية تبحر اليها محملة بالمنتجات المصرية وتعود محملة بالشمع والعسل والأخشاب الجيدة التى كانت تحتاجها الدولة الفاطمية فى بناء السفن ، والمنتجات الخشبية التى تفتقدها البلاد .

٤ ـ مع بلاد المشرق الاسلامى :

أما العلاقات بين الدولة الفاطمية بمصر وبلاد المشرق الاسلامى فقد كانت علاقات تجارية قوية وخصوصا مع بلاد الحجاز التى استطاعت الدولة الفاطمية بسط نفوذها عليها وكسب احترام العالم الاسلامى حيث ساهمت الحكومة الفاطمية فى توفير سبل الأمن والأمان لحجاج بيت الله الحرام وتأمينهم على أرواحهم وأموالهم وتمهيد الطرق لسير القوافل ، ولم يقتصر الأمر على الحجاج فقط بل ان تأمين الطرق خدم النشاط التجارى مع تلك البلاد ، وقد ساهمت مصر فى مد بلاد الحجاز بالمواد الغذائية وخصوصا القمح ، فيذكر المقدسى أن أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك ترسل من مصر وتبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل فى كل أسبوع كلها حبوب ودقيق ، وكانت موانى الحجاز تقوم بدور الوسيط التجارى بين دول الهند وشرق آسيا وبين مصر حيث تنقل بضائع تلك الدول عن طريق عدن وجدة وكانت مصر تحصل على البخور والتوابل من تلك الموانى الى جانب الحرير ، أما ما تصدره فيتمثل فى المنسوجات التى كانت تجد قبولا كبيراً فى أسواق الحجاز ، وخصوصا فى موسم الحج حيث يتم نقلها مع الحجاج الى جميع بقاع العالم الاسلامى .

أما اليمن فكانت لها علاقة خاصة بالدولة الفاطمية (٢٠) ، ولذا فقد نشطت العلاقات التجارية بينهما وازدهرت بصفة خاصة ، زمن الخليفة المستنصر بالله . وكان لموقع اليمن

---

(٢٠) تظهر هذه العلاقة بصورة واضحة فى السجلات التى تبودلت بين الخليفة المستنصر والامام الصليحى باليمن الذى نال تقديرا ماديا ومعنويا من الخليفة الفاطمى الذى كان يرسل له الرايات والألوية والملابس ، وكذا لحوم النحر المقددة لتوزيعها على أتباع المذهب الشيعى كنوع من التبرك .

الاستراتيجى أهمية كبرى حيث تقع عند نهاية البحر الأحمر من جهة الجنوب مما جعلها تتوسط الطريق بين افريقيا وآسيا ولذا فقد كانت مواليها أسواقا مهمه لنقل البضائع بين افريقيا وآسيا ، فكانت مصر تحصل عن طريق الموانى اليمنية على منتجات شرق آسيا ومنتجات افريقيا ، كما تحصل على منتجات اليمن من الحديد الخام والسيوف المحلاة بالمينا والمجوهرات والأحجار الكريمة الى جانب الصناعات القائمة على الأحجار الكريمة مثل السبح والخواتم والبخور والعطور .

أما العلاقات التجارية بين الخلافة الفاطمية والعراق فرغم العداء السياسى والمذهبى بين البلدين الا أن سبل التجارة لم تنقطع بل كانت أعداد تجار بغداد كبيرة فى مصر مما دعا الدولة الى اقامة وكالة خاصة بهم أطلق عليها الوكالة الأميرية .

وقد حمل تجار مصر الى بلاد العراق الكثير من المنسوجات التى تصنع بصعيد مصر ودمياط وتنيس ، أما تجار العراق فقد حملوا الى مصر انواع الحرير الفخمة التى كانت تعرف بالخسروانى والتسترى وهى من الأقمشة التى كانت تجد اقبالا شديدا لدى الطبقة الحاكمة والمترفة ، ولذا فقد حوت خزائنهم الكثير من تلك القاطع من الأقمشة التى تنتج فى بغداد وتصدر الى مصر .

وأما علاقة مصر التجارية ببلاد فارس أو ايران فكانت قوية حيث تبادل كل من البلدين منتجاته مع الآخرين فنجد المنتجات المصرية تجد رواجا لدى أهل فارس ، فيذكر ناصر خسرو أن الأصواف المنسوجة بأسيوط والمصنوعة عمائم تصدر الى بلاد العجم ويطلق عليها اسم الصوف المصرى .

وكانت مصر تحصــل من منتجات بلاد الفرس على الخز والمنسوجات الحريرية الرقيقة والعطور والزعفران ، كما اهتمت مصر بجلب حجر البــازهر ، وهو الحجر المختص للوقــاية من الســم (٢١) .

٥ ـ مع بلاد المغرب والأندلس :

ولم تنقطع الصلات التجارية بين الدولة الفاطمية بمصر وبين بلاد المغرب بعد انتقال الخلافة الفاطميــة منهــا الى مصر ، بل بالعكس تزايدت تلك العلاقات نتيجة لخضوع البلدان لســلطة واحدة مما أدى الى اعطــاء التجار المغاربة الكثير من الامتيازات والتسهيلات مما جعلهم من الطوائف المميزة بين تجــار العالم ، بل ان الحكومة الفاطمية شجعت أعداداً كبيرة من التجار المغاربة على الاستقرار بمصر وتنمية رؤوس أموالهم داخل البلاد لتستفيد من تلك الأموال فى تنمية الاقتصاد المصرى ، فقدمت لهم تسهيلات واعفاءات كثيرة ، ولذا نجد الحركة التجاريــة بين البلدان كانت مستمرة وقوية منذ دخول الفاطميين مصر ، فالسفن التجارية المغربية تصــل الموانى المصريــة محملة بزيت الزيتون والفواكــه والبلور الصخرى الخــام الذى كان يتم تصنيعه بمصر فى ســوق القناديل وقد وصفه ناصر خسرو بأنه فى غاية الجمال ، كما كانت تحمل ايضــا الكروم والفستق والعســل والصــوف والقطران والحديد ومعدن النحاس ، هــذا الى جانب الزجــاج والذبائح والخيول العربية ، وقد شهدت مدينة الاسكندرية اقبالا غير عادى

---

(٢١) وجد بالخزائن الفاطمية أكثر من مائة كأس من حجر البصب أو حجر الدم أو البازهر (نافى السم) وهو حجر مرتفع السعر من خواصــه الوقاية من السم فكانت الكئوس تصنع منه للأمراء والملوك لتوضــع فيها الأشربة فيتغير لونها اذا كان بها شىء من السم .

على سواحلها من قبل السفن التجارية المغربيـة وكانت السـفن تعود الى بلاد المغرب محملة بالمنتجات المصرية من المنسوجات التى تنتج فى مدن تنيس ودمياط وكذلك بالمعادن التى كانت تسعى اليها بلاد المغرب لاستخدامها فى الصناعة كمعدن الشب والنطرون .

والى جانب هذا كانت مصر ـ لموقعهـا المتميز بين الشرق والغرب ـ تقوم بدور الوسيط التجـارى بين بلاد المغرب وبلاد جنوب شرق آسيا وبلاد العرب والحبشة ، حيث كانت السفن التجارية المغربية تأتى الى الموانى المصرية محملة بالمنتجات المغربية لتحصل على منتجات تلك البلاد من الموانى المصرية وكانت هناك طرق رئيسية بين بلاد المغرب ومصر كانت هى همزة الوصـل بين مصر وبلاد غانا وحوض السنغال والنيجر حيث تخرج القوافل من سجلماسة ضاربة فى الصحراء نحو الجنوب ثم تعود محملة بالتبر. وقـد سـاهمت قوافـل الحج المغربيـة فى رواج التجـارة وازديـاد العـلاقات التجاريـة بين مصر والمغرب ، فقـد ظلت مصر أكثر من مائتى عـام تسـتخدم كطـريق رئيسى للحجـاج المغاربـة الذين كانـوا يسـتخدمون طـريق عيـذاب للوصـول الى مكة المكرمـة (٢٢) ، وقد زاد الاقبـال على طريق مصر بعد أن أصبح طريق فلسطين والشـام من الطرق الخطرة للحجيج وذلك بعد اسـتيلاء الصليبيين على بلاد الشـام ، وقد أفـاد الفاطميون من اقبال الحجاج المـارين بأراضيهم فى الحصـول على مكوس طائلة كانت مصدرا من مصادر الدخل المهمة . ويتضح هذا من كتابات ابن جبير الذى يصف تحصيل المكوس من الحجـاج القادمين لمصر من بلاد المغرب .

---

(٢٢) كان الحجاج يركبون النيل من سـواحل مدينة مصر (الفسطاط) الى قوص ، ثم يركبون الابل من قوص ويعبرون صحراء مصر الشرقيـة الى عيذاب ، ثم يركبون البحر الأحمر فى الجلاب الى جدة ، وهى سـاحل مكة المكرمـة .

واستمرت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد المغرب قائمة ، وان كانت بصـورة اقل عن ذى قبل بعد ان أعلن المعز بن باديس عصيانه وخروجه على الفاطميين ، فرغم انه كان من اشد الموالين للفاطميين بمصر ، وكان يحرص أشد الحرص على تقديم الولاء والطاعة للخلفاء الا أنه مع مرور الوقت أخذت تتزايد قوته ويتحول من الولاء للمذهب الشيعى الى المذهب السـنى منتهزا فرصـة انشغال الخلفاء الفاطميين بمصر فى تدبير أحوالهم الداخلية ، ومنذ زمن الخليفـة الحاكم (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ ـ ٩٩٦ ـ ١٠٢٠ م) أصبح ولاء المعز بن باديس ولاء اسميا ، واستمر الحال هكذا زمن الظاهر (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ) ثم المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) ، واخذ أتباع المذهب المـالكى ينتشرون بالبلاد الى أن أعلن الانفصال الرسـمى والانشـقاق عن جسـم الامبراطوريـة الفاطميـة فى عام ٤٤٤ هـ ـ ١٠٤٨ م ، وأعلن ولاءه للخليفة العبـاسى ببغداد وأسقط اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة والسكة والطراز وأرسل له الخليفة العباسى التقليد الشرعى (٢٣) ، وأغدق عليه الهدايـا والأموال حتى يكسب وده فأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى وأمر بلبس السواد شعار العباسيين واعد أعلاما سوداء وملابس سوداء لرجال دولته ، ولم يستطع الخليفة الفاطمى المستنصر أن يقف فى وجه هـذا الانفصال بسبب الظروف الداخلية لبلاده واشتداد الأزمة الاقتصـادية والصراع بين الجند واضطراب الأحوال السياسية وضعف الموارد المـالية ، كل هذا جعله يقف

---

(٢٣) التقليد الشرعى هو المنشور الذى يتضمن شرعيـة حكم المعز بن باديس على بلاد المغرب من قبل الخليفـة العباسى . وهـذا التقليد لم يصل ابن باديس بسهولة ، فقد تدخل ملك الروم وحال دون وصوله بأن قبض على رسول الخليفة العباسى حامل هـذا التقليد وأرسله للخليفـة الفـاطمى المستنصر بالله ليظهر روح الود له ، فقام المستنصر باحراق التقليد والهدايـا التى كانت مع الرسول فى ميدان بين القصرين بالقاهرة

مكتوف الأيدى ، بل انه حاول كسب ود المعز بن باديس وتجنب الدخول معه فى حرب لعلم تكافؤ القوات الحربيــة لكل منهما فى ذلك الوقت ، هــذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى حتى يبقى على العلاقات التجارية بين البلدين قائمــة ويحافظ على دخل بلاده باعتبارها ممرا للتجار المغاربة .

أما برقة فقد كانت بينها وبين مصر علاقات تجارية مستمرة خلال العصر الفاطمى ، فمنها يتم اسـتيراد الأصــواف الخــام والعسل والقطران ، والمــاشية التى تحتاجها الأسواق المصرية .

وتقوم مصر بتصدير المنسوجات الكتانيــة والحريرية التى تنتجها دمياط وتنيس الى جانب الشب والنطرون ، ولقرب برقة من مصر ووجود طريق متصــل للقوافل فقد كانت العــلاقات الاقتصادية زمن الفاطميين قوية ، وان كان ينتابها من وقت لآخر بعض الفتور نتيجــة للاضطرابات السياســـية التى كانت تقع بالبــلاد .

وأما علاقة الفاطميين بمصر بالأندلس ، فعلى الرغم من سوء العلاقات السياسية بين الفاطميين وحكام الأندلس الأمويين الا ان العلاقات التجاربة كانت قوية ، فقد أبحرت السفن الفاطمية الى السواحل الأندلسية من الاسكندرية أو دمياط أو تنيس محملة ببضائع الشرق الأقصى وبلاد النوبة والحبشة وبلاد المشرق العربى الى جانب المنتجات المصريــة من المنسوجات والمعــادن والشب والنطرون ، وكانت تلك السفن تبحر متجهة الى الأندلس أو عائدة منه تحرسها سفن حربية حتى تحمبها من سطوة القراصــنة ، الذين هددوا سفن المسلمين التجارية فى البحر المتوسط .

وقد أعتمدت مصر على الأسواق الأندلسية فى الحصول على

ما تحتاجه من القمح والشعير والأخشاب وكانت أسبانيا تقوم بدور الوسيط التجارى بين مصر وبلاد البرتغال وفرنسا وغيرها فتزودها بمنتجات تلك البلاد .

ومن المنتجات التى حصلت عليها مصر من الأندلس الزيوت وخصوصا زيت الزيتون الى جانب المنسوجات الكتانية التى كانت تحمل الى مصر . وقد قويت العلاقات التجارية بين الأندلس والدولة الفاطمية زمن الشدة العظمى حيث حصلت مصر من الأندلس على القمح والشعير لمواجهة المجاعة التى هددت البلاد فكانت السفن الأندلسية تأتى الى الموانى المصرية محملة بالحبوب التى تحصل عليها من بلاد المغرب وكذا الصوف والعسل وزيت الزيتون وتحصل فى مقابل هذا على الجواهر والياقوت .

٦ ـ مع بلاد النوبة والسودان والحبشة :

منذ ان فتح عمرو بن العاص مصر ، أرسل حملته الى بلاد النوبة سنة ٢١ ـ ٦٤٢ م كمحاولة من جانب العرب لفتح بلاد النوبة وتأمين حدود مصر الجنوبية الا أن هذه الحملة فشلت .

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، أرسل حملة حربية اخرى بقيادة عبد الله بن سعد بن أبى السرح الى بلاد النوبة فى سنة ٣١ هـ ـ ٦٥٢ م والتى انتهت بعقد هدنة بين الطرفين وعرفت هذه الهدنة باسم البقط أو معاهدة البقط ، وهذه المعاهدة كانت تلزم حكام النوبة بارسال ثلاثمائة وستين راسا من الرقيق غير المعيب متوسط العمر الى ولاة مصر على أن تحصل النوبة فى مقابل ذلك على كميات من القمح والشعير وبعض المواد الغذائية الأخرى الى جانب عدد من الخيول والثياب .

ويذكر المقريزى أن هذه المعاهدة اعتبرت أهـل النوبة فى نظر المسلمين مصالحين أى (أهل العهد) كما أطلق عليهم الفقهاء المسـلمون .

وقد زادت العلاقات الدينية ، بين مصر وبلاد النوبة منذ ذلك الوقت فقد زاد نفوذ الكنيسة المصرية ببلاد النوبة . ويتضح هذا من طلب بلاد النوبة ارسـال أساقفة لادارة شئون كنيستها . وقد كانت مصر ترسل اليها الأساقفة ، ومن هنا خضعت بلاد النوبة للكنيسـة المصرية خضوعا روحيا وارتبطت بها ، بل ان هذه الارتباطات كانت سببا فى بقاء العلاقات الودية بين البلدين مستمرة فى معظم الأحيـان الا أن تلك العلاقـات كانت تضطرب فى بعض الأحيان بسبب نقض حكام النوبة لمعاهدة البقط فكثيرا ما قـام هؤلاء الحكام بغزو بلاد الصعيد ، وأحيانا كانوا يقومون بتأخير البقط .

أما فى العصر الفاطمى فكانت ولاية النوبة تربطهـا بالدولة الفاطمية كثير من الصلات الاقتصادية والعلاقات الودية فيذكر ناصر خسرو أن ولاية النوبة ولاية أهلهـا جميعا من نصـارى ، وترسل ملوكها من قديم الهدايا لسـلطان مصر ، وبين البلدين عهود ومواثيق ، فلا يذهب جيش السلطان هناك ولا يؤذى أهلها . ولذا فقد حرص ملوك النوبة على المحافظـة على تلك العلاقات الودية طوال العصر الفاطمى ، ويتضح هذا من ارسالهم كنز الدولة عندما خرج على الشرعية الفاطمية وثار بأسوان ولجـأ الى بلاد النوبة ، فسلمه ملك النوبة الى الوزير بدر الجمالى عندما طلب منه تسليمه للسلطات المصرية . وكان النوبيون يلجأون الى بدر .

وفى عصر الوزراء العظام عندما اشتد الصراع بين بهرام وزير الحافظ ، ورضوان بن والخشى وفر بهرام وحاول الاستيلاء على

أسوان والاستعانة بأهل النوبة ليقفوا بجواره ويساعدوه رفض ملك النوبة الدخول فى أى صراع من شأنه أضعاف العلاقات الودية بين البلدين .

وعندما خرج ملك النوبة الى أسوان لزيارة بعض كنائسها سير اليه والى قوص وقبضه وبعث به الى مصر فبالغ أمير الجيوش بدر الجمالى فى اكرامه واتحافه بالهدايا الجليلة ، ولكنه مات بمصر قبل أن يعود الى بلاده . وغالبا ما كانت بلاد النوبة تلجأ الى الدولة الفاطمية لتساعدها فى مسائلها الدينية مثلما حدث عندما أرسل الملك بازيل يطلب وساطة الوزير بدر الجمالى ومساعدته حتى يعين البطريرك ابنه رئيسا دينيا ، ويجب الا تغفل علاقة أهل النوبة بالكنيسة القبطية بمصر فقد كان مسيحيو البلدان لهم حرية الانتقال بين القطرين ففى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله واعلان القوانين العمرية (٢٤) واضطهاده لأهل الذمة من المسيحيين سمح لهم بالهجرة الى بلاد النوبة فهاجر اليها كثير من مسيحيى مصر . جميع تلك العوامل السياسية والعلاقات الودية بين ملوك النوبة والفاطميين ساعدت على نمو النشاط التجارى بينهما ، ولذا تجد تجار مصر يذهبون الى بلاد النوبة حاملين ادوات الزينة من الخرز والأمشاط والمرجان . وكانت مصر تعتمد اعتمادا كبيرا على الرقيق المجلوب من بلاد النوبة فمعظم رقيق مصر كان يأتى من هذه البلاد ، هذا الى جانب القمح والذرة ، ويذكر ناصر خسرو انه شاهد قمحا وذرة من النوبة كلاهما أسود .

---

(٢٤) الشروط العمرية هى تلك الشروط أو القوانين التى وضعها الخليفة عمر بن الخطاب ليحدد العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة فكان يميز القبط واليهود بعلامات خاصة تعرف (بالغيار) وهى عبارة عن زنانير ملونة توضع فى أوساطهم وعمائم سوداء وتعليقات .

والى جانب التبادل التجارى بين البلدين كان تجـار النوبة يلعبون دور الوسيط التجارى بين مصر وبلاد الحبشة بافريقيا ، فكانت تنقل بواسطتهم بضائع الحبشة الى مصر عن طريق أسوان.

أما علاقة الفاطميين بالحبشـة فكان أساسها العلاقـات الدينيـة ، فالروابط القوية بين الكنيسـة المصريـة والكنيسـة المسيحية بالحبشة كانت وثيقة ، وكثيرا ما تبودلت السفارات بين البلدين . وغالبا ما كان خلفاء الفاطميين يستعينون برجال الدين فى حل مشاكلهم مع البلاد المسيحية المجـاورة مثلما حدث عندما انخفض ماء النيل زمن الخليفة المستنصر فى سنة اثنتين وثمانين واربعمائة وشعر المستنصر أن سبب هـذا الانخفاض هو تحكم ملك الحبشة فى مياه النيل فلجأ الى ارسـال البطرك ميخائيـل الحبيس الى ملك الحبشة على راس بعثة محملة بالهدايا فاستقبل استقبالا حسنا وعندما عرف الملك سبب قدومه وأن البلاد المصرية فى حالة قحط بسبب انخفاض ماء النيل أمر بفتح سد يجرى منه المـاء الى أرض مصر فزاد النيل وانتهى القحط . ويتضح من هذه الواقعة دراية الفاطميين بأهميـة العلاقات الودية بينهم وبين بلدان وادى النيل لارتبـاط تلك البلدان ببعضها بهذا الربـاط الوثيق ، وهو نهر النيل . ومن الواضح أن قوة العلاقات الدينية والدبلوماسية سـاعدت على نمو العلاقـات التجارية ، فكانت السفن التجارية تصـل الى ميناء عيذاب محملة ببضـائع بلاد الحبشة ومنها تنقل على ظهور الابل الى أسوان ثم تجتاز الصحراء لتنقل بالسفن النيلية الى مدينة مصر ، وكانت تحصـل عليهـا مكوس بميناء عيذاب . وكانت جلود البقر التى تشبه جلود النمر من أهم صادرات بلاد الحبشة الى مصر حيث يتم تصنيع النعال منها وتطرح فى أسواق القاهرة ومصر وخصوصا سوق القناديل . وكانت الحبشة تصـدر الى مصر انواعا منطيور الزينـة ويذكر

ناصر خسرو أنه شاهد فى سوق القناديل طائرا اليفا كبيرا به نقط بيضاء وعلى راسه تاج مثل الطاووس ـ وأما سن الفيل فكان من الصادرات المهمة التى تصدرها بلاد الحبشة الى مصر ، الى جانب الأخشاب الجيدة وكان تجار الحبشة يأتون الى الأسواق المصرية مثل سوق مدينة قوص لعرض بضائعهم وشراء ما يلزمهم.

اما مصر فكانت تصدر الى بلاد الحبشة المنسوجات الحريرية والمصنوعات الجلدية .

أما بلاد السودان فكانت قوافلها تأتى من الطريق الذى يربط اسيوط بالسودان وكانت لقوافل دارفور شهرة كبيرة فى حمل البضائع السودانية الى مصر ، فقد بلغت أعداد تلك القوافل ما يزيد على ١٥٠٠ جمل تحمل وتأتى بصفة منتظمة كل عام بين دارفور والأراضى المصرية محملة بالرقيق والعاج وريش النعام والتبر وسن الفيل ، الى جانب الطيور والحيوانات النادرة التى كانت تجد رواجا فى الأسواق المصرية . ثم تعود الى بلادها محملة بالمنسوجات المصرية التى لها مواصفات خاصة وتصنع خصيصا من أجل الطبقة الحاكمة ورجالات الدولة بألوانها البراقة التى يغلب عليها اللون الأحمر ولها أطراف موشاة بالذهب .

أما مصر فكانت تستورد من بلاد السودان الرقيق ، وقد زادت أعداده فى العصر الفاطمى الثانى ، فمنذ عهد الخليفة المستنصر بالله والدولة تعتمد فى تكوين الجيش على السودان مما جعلهم عنصرا من العناصر الرئيسية فى الجيش المصرى ، وتزايدت اعدادهم حتى بلغوا اكثر من خمسين الف جندى ، ولعبوا

دورا خطيرا فى الحيــاة السياسية المصرية وخصوصا زمن الشدة العظمى . وقد لفت أنظار الرحالة وجود أعداد كبيرة منهم داخل الجيش الفاطمى ، فيذكر ناصر خسرو أنه كانت هنــاك فرقة من الزنوج داخل الجيش بلغ عددها أكثر من ثلاثين الفا وقد تخصصوا فى الحرب بالسيوف . كما كانت هناك فرقة من عبيد الشراء ــ وهم عبيد مشترون ــ قيل ان عددهم ثلاثون ألف رجل .

البــاب الثــالث

تقييم لكتابات الرحــالة المسلمين
ورؤيتهم للأحوال المــالية والاقتصادية
لمصر فى العصر الفاطمى

الفصـــل الأول

مراحل ازدهار الاقتصاد المصرى ومظاهره

ان الدارس لأحـوال مصر المـالية والاقتصـادية فى العصر الفاطمى لا يستطيع أن يضـع حدودا فاصلة بين سنوات الازدهار وسنوات الانهيار لهذا الاقتصـاد . فالمتتبع للأحـداث يجد أن الازدهار الاقتصادى يصل الى أعلى درجاته ثم يعقبـه مبـاشرة انهيار يكاد يقضى على كل مظاهر هذا الاقتصاد . الا أن الأمور لا تلبث أن تعود الى نصابها من جديد ، وفى وقت قصير .

والحقيقة أن ذلك يرجع فى المقام الأول الى اعتماد مصر على مياه النيل فى الزراعة مما يجعلها تتأثر اقتصاديا حينما ينخفض عن الحد المطلوب ، وقد ينهار انتاجها الزراعى والصناعى أو يكاد . ولكن عندما يعتدل النيل فى فيضانه فسرعان ما تعود البلاد الى سابق عهدها . فالدارس لانهيار الاقتصاد المصرى زمن الفاطميين يشعر أن البلاد لم تحظ بشىء من الازدهار اطلاقا ، ونفس الشىء

اذا درسنا مظاهر ازدهار هـذا الاقتصاد ، اذ نشعر أن تلك البلاد تعيش عيشة متصلة من الترف والرخـاء الذى لا يماثله ترف ورخاء فى اى مكان آخر من المعمورة . ومعنى هـذا أن التداخل الشديد بين هـذه المراحل كان هو السمة السائدة خلال هـذا العصـر .

وبصفة عامة نستطيع القول ان الحياة المـالية والاقتصادية فى مصر خلال العصر الفاطمى كانت تتأرجح بين الازدهار تارة وبين الانهيار أو التأخر والانحطاط تارة أخرى ، وتبدو مظـاهر هـذا الازدهار أو الانهيار بصـورة واضحة جدا ، كما نعرضها فى شىء من التفصيل هنا .

شهد العصر الفاطمى ازدهارا عظيما فى أحوال مصر المـالية والاقتصادية فعلى الرغم من ظهور فترات انهيار وقحط ومجاعات الا أنها سرعان ما كانت تنتهى وذلك لقوة البنيـة الاقتصـادية المصرية والتى اهتم بها الفاطميون منذ اليوم الأول لدخولهم مصر ، اذ قاموا بتوظيف موارد البلاد المـالية لخدمة الاقتصـاد وزيادة دخل الدولة والنهوض بها فى كافة المجالات حتى يستطيعوا نشر مذهبهم ، وتكوين دولة شيعية مترامية الأطراف .

وقد سبق أن تحدثنا عن الطريقة التى استطاع بها جوهر الصقلى أن يقضى على الاضطرابات الاقتصادية ، وينظم اقتصاديات البلاد عند دخوله مصر والقضاء على الدولة الاخشيدية .

١ ــ وبما ان الزراعة كانت المصدر الأسـاسى للاقتصـاد المصرى فقد اهتم الخلفاء الفاطميون بتنميـة الثروة الزراعيـة ويتضح هـذا من اتفاق رحالة العصر الفاطمى جميعا على عظمـة الحياة الزراعية بمصر زمن الدولة الفاطمية وتعدد الحاصـلات

الزراعية ، فيصف ناصر خسرو تعدد الحاصلات الزراعية فى أسواق القاهرة ويرجعها الى عظمة مصر الاقتصادية فيقول :

« وفى اليوم الثالث من شهر دى القديم (ديسمبر — يناير) من السنة الفارسية سنة ست عشرة وأربعمائة رأيت فى يوم واحد هـذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمـر والنيلوفر والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملكى والسفرجـل والرمـان والكمثرى والبطيـخ والعطر والموز والزيتون والرطب والعنب وقصـب السـكر والباذنجان والقرع واللفت والكرنب والفول الأخضر والخيار والقثاء والبصـل والثوم والجزر والبنجر » .

ويعود ويعلل عظمة الانتاج الزراعى المصرى ، ويضيف أنه وقف أمام هذه الظاهرة مندهشا لاجتمـاع الحاصـلات الصيفية والربيعية والشتوية كلها فى وقت واحد . ويرجع هذه الظـاهرة الى طبيعة المناخ المصرى وتعدده فى أقاليم مصر المختلفة ، فبعض المناطق يسيطر عليها الجو البارد والبعض المعتدل والآخر الحـار مما يساعد على انتشار زراعة المحاصيل المختلفة المناخ فى وقت واحد . ومن الأمور التى لفتت نظر ناصر خسرو أيضا فى أساليب الزراعة بمصر نظام « الصوبات الزراعية » التى تعتبر من أحدث ما وصلت اليه أساليب الزراعة فى عصرنا الحـاضر ويستخدمها كثير من الدول المتقدمـة باعتبارها من أهم وسـائل توفير المواد الغذائية فى أوقات غير أوقات زراعتها الأصلية وذلك بأن تقيم جوا صناعيا لهـذه النباتات يشبه الجو الذى يسـاعد على نموهـا فتحصل على محصول جيد فى أوقات غير أوقات زراعتها . وفى هذا يقول : « ومن جملة ما رأيت فى مصر انه اذا أراد أحـدهم غرس حديقة يستطيع ذلك فى أى فصل من فصول السنة ، فانه

يحصل دائما على الشجر الذى يريد فيزرعه مثمرا أو بغير ثمر ، وهناك تجار لذلك يقدمون كل ما يطلب منهم فقد زرعوا الأشجار فى أصص ووضعوها فوق الأسطح وكثير من سقوف بيوتهم حدائق اكثرها مثمر من النارنج والرمـان والتفـاح والسفرجل والورد والريحان والزهر . فاذا اشترى أحدهم شجرا حمل الحمالون الأصص بالشجر بعد شدها على لوح من الخشب ونقلوها الى حيث يشاء ، ثم يحفر الزراع الأرض لغرس الشجرة اما بكسر الأصص أو بنزع الشجر منها من غير أن يضـار الشجر بهذا ، ولم ار هذا النظام فى أى مكان آخر ، كما أنى لم أسمع به ، والحق انه نظام جميل جدا » .

ولارتباط الزراعة بالنيل فقد وقف رحالة العصر أمام النيل وقفة المندهش على عظمته وجبروته فوصفه جميع من زار مصر منهم واسهبوا فى وصف مقياسـه وأثر فيضـانه على الحيـاة الاقتصادية بمصر ، ووصف الاحتفالات التى تتبع فيضانه ، فنجد ابن حوقل يصفه بأنه « يكون عند امتداده أكبر من دجلة والفرات اذا اجتمعا ، وماؤه اشـد عذوبة وحلاوة وبياضا من سائر انهـار الاسلام » . ويقول ناصر خسرو انه « حين تبلغ الشمس مدار السرطان يزداد النيل فيرتفع عشرين ذراعا عما كان مستقرا عليه فى الشتاء . وهكذا يتزايد يوما بعد يوم . وقد أعدوا له فى مصر مقاييس وعلامات ورتبوا عاملا وظيفته ألف دينار للمحافظـة عليه ولتسـجيل الزيـارة . ومنذ أول يوم للفيضـان يطوف منـادون فى المدينـة منادين بأن الله تعـالى قد زاد النيـل كذا أصبعا ، ويذكرون مقدار زيادته كل يوم . وحين تبلغ الزيادة ذراعا كاملا تقترب البشائر ويفرح الناس حتى تبلغ الزيادة ثمانية عشر ذراعا وهى الزيادة المعهودة ، يعنى انه كلما قلت الزيادة عن ذلك قيل ان النيل ناقص فتصـدقوا ونذروا النذور وعلاهم الغم فاذا زاد

عن هـذا القدر أظهروا الغبطة . وما لم يصل الارتفاع الى ثمانية عشر ذراعا لا يأخذ السلطان الخراج » .

وناصر خسرو هنا يتفق مع ما يذكره ابن حوقل فى هـذا الصدد حين يقول : « لمصر عادة وسنة لم تزل منذ عهد فراعنتها فى استخراج خراجها وجباية أموالها واجتلاب قوانينها وذلك انه لا يستتم استيفاء الخراج من أهلها الا عند تمام المـاء وافتراشه على سائر أرضها وتطبيقها ويقع اتمامه فى شهر توت » . (شهر توت يوافق ١٢ سبتمبر) .

وكذلك فان ابن جبير يؤكد نفس هـذا المعنى حينما يتحدث عن نهر النيل وفيضانه ونقصانه وارتباط هذا بالخراج .

ومن النصوص السابقة يتضح لنا أن جميع الرحالة اتفقوا على أن خراج مصر مرتبط ارتباطا وثيقا بمقدار ما يصـل اليه فيضان النيل فرغم اختلاف المساحة الزمنية التى زاروا خلالها مصر ، الا أننا نجد ابن حوقل والمقدسى وناصر خسرو وابن جبير يتفقون على أن منسوب النيل الذى كان يتحقق معه النفع وينتفى الضرر ويحصـل السلطان (الخليفة) على الخراج كامـلا هو ستة عشر ذراعا . وهكذا يتفق رحالة العصر الفاطمى جميعـا فيما يتصل بكافة أمور الزراعة ـ فيما عدا موضـوع الملكيـة الزراعية ـ من انتاج للمحاصيل الى نوعيات هـذا الانتاج وارتباط هذا كله بالنيل وفيضانه ، وكذا ما يترتب على ذلك من تحديد الخراج مما يعود على البلاد بالنفع العميم .

٢ ـ **عن الصـناعة** : اتفق رحالة العصر الفاطمى على عظمة الصناعة فى مصر أيام الفاطميين وتعدد مراكزها الصناعية الكبرى ، فنجد ابن حوقل يعجب بمدينة تنيس ودمياط ، ويقول انهمـا

« من أجل مدن مصر ، فيعمل فيهما رفيع الكتان وثياب الشرب والديبقى والمصبغات من الحلل التنيسية التى ليس فى جميع الأرض ما يدانيها فى القيمة والحسن والنعمة والترف والدقة وربما بلغت الحلة من ثيابها مائتين من الدنانير اذا كان فيها ذهب ، وقد يبلغ ما لا ذهب فيه منها مائة دينار وزائدا وناقصا . وجميع ما يعمل به الكتان فربما بلغ مثقال غزل من غزولها دنانير ، وان كانت شطا ودبقوا ودميرة وتونة وما قاربهم بتلك الجزائر يعمل بها الرفيع من هذه الأجناس ، فليس ذلك بمقارب للتنيسى والدمياطى والشطوى مما كان الحمل على عهدنا يبلغ من عشرين الف دينار الى ثلاثين ألف دينار لجهاز العراق » .

ولم ينفرد ابن حوقل بهذا القول ، بل يشاركه فيه ناصر خسرو فيقول : « وينسج بتنيس القصب الملون من عمامات ووقايات ومما يلبس النساء ، ولا ينسج مثل هذا القصب فى جهة غير تنيس . والأبيض منه ينسج فى دمياط ، وما ينسج منه فى مصانع السلطان لا يباع ولا يعطى لأحد . وقد سمعت أن ملك فارس أرسل رسله الى تنيس بعشرين الف دينار ليشتروا له بها حلة من كسوة السلطان ، وقد بقى رسله هناك عدة سنين ولم يستطيعوا شراءها . وبتنيس صناع مختصون بنسج ملابس السلطان . وقد سمعت أن عاملا نسج عمامة للسلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى . وقد رايت هذه العمامة ، ويقال انها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى » .

وقد عدد لنا ناصر خسرو انواع المنسوجات التى تنتجها مصانع تنيس ولا تنسج فى مكان آخر غيرها من العالم مثل البوقلمون ، ويعرفه بانه قماش ذهبى يتغير لونه بتغير ساعات النهار « وتحمل أثوابه من تنيس الى المشرق والمغرب . وسمعت

أن سلطان الروم كان قد أوفد رسولا ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان ، وكان قصده من هذه المدينة القصب والبوقلمون » . ونتيجة لأهمية مدينة تنيس من الناحية الصناعية فقد كان يقيم بها كما ذكر ناصر خسرو « جيش كامل احتياطا حتى لا يستطيع أحد من الفرنج أو الروم أن يغير عليها » . ويرجع ذلك لأهميتها « فهى تمد خزانة الدولة يوميا بألف دينار مغربى ؛ يصل ذلك المقدار مرة واحدة يحصله شخص واحد يسلمه أهل المدينة اليه فى وقت معين » واذا كان نص ناصر خسرو مبالغا فيه بعض الشيء الا انه دليل قاطع على عظمة هذه المدينة كقلعة للصناعة بمصر الفاطمية ، وعلى مدى ازدهار الصناعة بمصر فى ذلك العهد الى جانب كونه ايضا دليلا على عظم ما تحصل عليه خزانة الدولة من رسوم على صناعة مدينة تنيس ، وهذا يدل على مدى ازدهار الاقتصاد المصرى فى الفترة التى زار فيها ناصر خسرو مصر زمن الخليفة المستنصر بالله . ويتفق المقدسى معه فى ذلك ويشيد بمدن مصر الصناعية خاصة تنيس ودمياط .

ولم يقتصر وصف الرحالة لأهم مراكز صناعة المنسوجات على تنيس ودمياط ؛ بل نجدهم يعددون مدنا أخرى غيرهما . فيذكر المقدسى أن مدينة الفيوم أيضا من المدن المهمة التى تصنع نسيج الكتان ، وكذلك قرية بوصير قوريدس التى يصنع بها الكتان الرفيع .

وقد اشتهرت مدن كثيرة بصعيد مصر بالجيد من المنسوجات فنجد ناصر خسرو يتحدث عن مدينة أسيوط بقوله : « وينسجون فى أسيوط عمائم من صوف الخراف لا مثيل لها فى العالم ، والصوف الرقيق الذى يصدر الى بلاد العجم والمسمى الصوف

المصرى كله من الصعيد لانهم لا ينتجون الصوف بمدينة مصر نفسها ، وقد رأيت فى أسيوط فوطة من صوف الغنم لم أر مثلها فى لهاور أو ملتان ، وهى من الرقة بحيث تحسبها حريرا » .

أما ابن حوقل فنجده يهتم بوصف جهاز الكتان المعمول بمدينة اخميم فيذكر أن « اخميم لها جهاز من الكتان المعمول شقة ومناديل الى الحجاز ومصر » .

وقد أدرك ابن حوقل وغيره من الرحالة أن مصر كانت من الدول المتقدمة فى صناعة النسيج بجميع أنواعه سواء الكتان أو الحرير أو الصوف مما جعلها تتفوق على كثير من بلاد العالم الاسلامى المعروفة فى ذلك الوقت ، بل كانت من الدول المصدرة للمنسوجات بجميع أنواعها . وهذا دليل على مدى ما وصلت اليه الصناعة المصرية من ازدهار ورقى .

ولم تقتصر رؤية الرحالة للتقدم الصناعى فى مجال المنسوجات فقط بل نجد أن الصناعات الأخرى لفتت أنظارهم لتقدم صنعتها ووفرة انتاجها . فناصر خسرو يذكر أن صناعة الفخار كانت متقدمة بمصر وبلغت أقصى درجات الرقى والتقدم والاتقان بحيث توصلوا الى صنع نوع من الفخار شديد الشفافية يستطيع الانسان أن يرى يده اذا وضعها من خلف جدران الآنية المصنوعة منه ، فيقول : « ويصنعون بمصر الفخار من كل نوع وهو لطيف بحيث اذا وضعت يدك عليه من الخارج ظهرت من الداخل ، وتصنع منه الكؤوس والأقداح والأطباق وغيرها . وهم يلونونها بحيث تشبه البوقلمون فتظهر مختلفة فى كل جهة ، تكون بها . ويصنعون بمصر قوارير كالزبرجد فى الصفاء والدقة . ويبيعونها بالوزن » .

ولم يقتصر وصف ناصر خسرو على الفخار والخزف بل انه

ذكر أيضـا صناعة البلور النقى بسوق القناديل ومهارة الصانع المصرى فى تحويل البلور الى تحف فنية جميلة فيقول : « ورأيت معلمين مهرة ينحتون بلورا غاية فى الجمال » .

أما الصناعات اليدوية فلم يهمل ذكرها اذ يقول انه شاهد فى سوق القنـاديل « الأدوات التى تصـنع من الذبل كالأوعيـة والأقساط والسكاكين وغيرها » . ويضيف أن بعض المدن المصرية كمدينة تنيس تخصصت فى صناعة أنواع من الصناعات الحديدية، فيقول عنها انهم « يصنعون بها آلات الحديد كالمقراض والسكين وغيرها . وقد رأيت مقراضا فى مصر صنع فى تنيس ثمنه خمسة دنانير مغربية ، يفتح اذا رفع مسماره ويقص اذا نزل » .

أما صناعة السفن فقد لفتت انظار كثير من رحالة العصر وخصوصا الأنواع الغريبة الصنعة منها والتى اقتصرت صناعتها على مصر مثل السفن الصغيرة المعروفـة بالجـلاب . فيـذكر ابن جبير أن « الجلاب التى يصرفونها فى هـذا البحر الفرعونى ملفقة الانشاء لا يستعمل فيهـا مسمار البتة انما هى مخيطـة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه الى أن يتخيط ويفتلون منه أمراسا يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى فيه . ومقصدهم فى دهان الجلبة ليلين عودها ويربط لكثرة الشعاب المعترضـة فى هذا البحر ، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسمارى » (١) .

---

(١) يقصد بالبحر الفرعونى : البحر الأحمر ، ملفقة الانشاء : أى وضعت كل قطعـة بجوار القطعة الأخرى ، النارجيل : جوز الهند ، الدسر : الواحد دسار وهو شيء كالليف تشد به الواح السفينة .

وهـذه المراكب كانت تستخدم كمـا سبق وأن ذكرت فى نقـل الحجـاج .

أما ناصر خسرو فيصف لنا نوعا آخر من المراكب التجارية التى اشتهرت بها مصر وتخصصت مدينة الصالحية فى صناعتها . فيذكر عن مدينـة الصالحية أنه « تصنع فيها سفن كثيرة حمولة كل منها مائتا خروار (حمل حمـار) وهى تنقل البضـاعة الى مدينة مصر حتى أبواب دكاكين البقالين ، ولو لم تكن وسـائل النقل كذلك لتعذر نقل المؤن فيها على ظهور الدواب لكثرة الزحام الذى بها » .

ولم يكتف الرحالة بمتابعة أحوال الثروة الصناعية بمصر بل أيضا جاءت رؤيتهم واهتمامهم بأحوال الصناع المصريين لتوضح لنا رؤية كل منهم لأحوال تلك الطبقة فى الفترة التى عاشها بمصر. فعلى سبيل المثال نجد الرحالة ابن حوقل الذى زار مصر زمن الخليفة العزيز بالله يصف أحوال هذه الطبقة بأنها غاية فى السوء ، وأن السخرة هى السمة التى تميز حيـاة الطبقة العاملة بمصر ، ويرجع ذلك لعنف الوزير يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله . فيذكر أن الوزير يعقوب بن كلس منع تصـدير المنتجات الراقية من المنسوجات الى العالم الخارجى وخصوصا الى بلاد العراق . ولم يكتف بهذا بل انه استأصل ذلك بالنوائب والكلف والمغارم والسخرة الدائمة للصناع ، حتى لجعل جزية على جميع الداخلين والخارجين الى تنيس . واذا كانت هـذه هى رؤيـة ابن حوقل زمن الخليفة العزيز بالله ، الا أننا نجد الوضـع يختلف تماما عندما يصف لنا ناصر خسرو أحوال هذه الطبقـة فى زمن الخليفـة المستنصر بالله وخصـوصا فى الفترة التى عاش فيهـا نـاصر خسرو فى مصر قبـل الشـدة العظمى ٤٣٩ ـ ٤٤١ هـ

(١٠٤٧ ـ ١٠٥٠ م) فيقول وهو يصف أحوال مدينة تنيس الصناعية : « وما ينسج للسلطان من القصب والبوقلمون يدفع ثمنه كاملا بحيث يعمل الصناع برضاهم للسلطان لا كما فى البلاد الأخرى حيث يفرض الديوان والسلطان السخرة على الصناع ».

ومن النص السابق يتضح لنا اختلاف الرؤية ، ويرجع ذلك ولا شك لاختلاف الوقت ولاختلاف الحاكم فالصانع المصرى كان يحصل على حقوقه كاملة من الدولة ، بل وأكثر من ذلك ، أحيانا ما كان يحصل هذا العامل على مكافأة تشجيعية من الخليفة ، مقابل مهارته فى صنع نوع جيد من المنسوجات الراقية التى يستخدمها الخليفة . فيقول ناصر خسرو : « وبتنيس صناع مختصون بنسج ملابس السلطان ، وقد سمعت أن عاملا نسج عمامة للسلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهب مغربى » ويقول انه رأى هذه العمامة وأنها تساوى أربعة آلاف دينار مغربى .

٣ ـ **أما عن التجارة** : فمن أهم ما لفت أنظار الرحالة فى العصر الفاطمى أيضا الازدهار الواضح فى حياة مصر الاقتصادية ، وخصوصا ازدهار النشاط التجارى فقد وصلت مصر الى أوج تقدمها التجارى زمن الدولة الفاطمية ، ويتضح هذا من كتابات كثير من رحالة العصر . فالمقدسى يصف مصر بأنها أكثر البلاد أموالا ومتجرا كما أنه يضيف نقلا عن عبد الرحمن بن أخى الأصمعى قوله : « دخلت على الجاحظ فقلت أفدنى فى البلدان فائدة ، قال نعم ، الأمصار عشرة ، المروءة ببغداد ، والفصاحة بالكوفة ، والصنعة بالبصرة ، والتجارة بمصر ... » . كما يصف اقليم مصر بأن أهله أهل تجارة ويقول : « فمن أراد التجارة فعليه بعدن أو عمان أو مصر » . ومن هذه النصوص للمقدسى يتضح مدى اهمية مركز مصر بالنسبة لمراكز التجارة العالمية فهى من

اهم المراكز التجارية وأكثرها ثروة وازدهارا . ويتضح هـذا من وصـف الرحـالة لأحوال المدن والمراكز التجاريـة بمصر . فابن حوقل يعدد تلك المراكز فيذكر أن مدينة الفسطاط من المراكز التجارية المهمة بمصر ويرجع ذلك لأهميتها الاستراتيجية فهى تقع عند ملتقى فرعى نهر النيل . كما يصفها بأنها متسعة المساحة كثيرة السكان عظيمة التجارة ، فيقول ان الفسطاط مدينة كبيرة نحو ثلث بغداد ، كما يضيف « أنها ذات رحاب فى محالها وأسواق عظـام ومتاجر فخام » . كما يضيف أن الفسطاط زمن زيارته لمصر سنة ٣٧٥ هـ كانت أعظم من بغداد لأن بغداد كانت جليلة فى القديم ثم تداعت . أما مصر فهى تشبه عظم بغداد فى القديم . ويقول أيضـا ان الفسـطاط ترتبط بكثير من المدن التجاريـة الأخرى بشبكة من الطرق البرية أهمها ذلك الطريق الذى يربطها بمدينة الاسكندرية وهو طريق صحراوى . وهنـاك طريق آخر تتخذه القوافل حين ينضب ماء النيل بين المدن والضياع ويخترق مدنا عدة وقد جهزت بحيث تستقبل التجـار للاقامة والاستقرار فهى ملتقى الطرق البرية للتجارة الداخلية .

ويتفق ناصر خسرو مع كل من ابن حوقل والمقدسى على عظمة مدينة الفسطاط التجارية ويتضح ذلك من وصفه لسـوق القناديل حين يقول انه « لا يعرف سوق مثله فى أى بلد » . ويعجب المقدسى من رخص أسعار المواد الغذائية بأسـواق الفسطاط ، ويتضح ذلك من قوله : « ويطول الوصف بنعت أسواقه وجلالته ، غير انه اجل امصار المسلمين واكبر مفاخرهم وآهل بلدانهم .. ومع هذه الكثرة اشتريت به الخبز الحوارى ـ ولا يخبزون غيره ـ ثلاثين رطلا بدرهم ، والبيض ثمانية بدانق ، والموز الرطب رخيص، يجىء أبدا اليه ثمرات الشام والمغرب ، وتسير الرفـاق اليه من العراق والمشرق ، ويقطع اليه مراكب الجزيرة والروم . تجارته

عجيبة ، ومعايشه مفيدة وأمواله كثيرة » . ولم يقتصر هـذا على مدينة الفسطاط بل شاركتها فى الازدهار التجارى مدينة القاهرة التى أخذت نصيبا كبيرا من وصف رحـالة العصر ، فناصر خسرو يذكر عظمة مدينـة القاهرة من كثرة وتعدد أسـواقها التجارية فيقول : « وقدرت أن فى القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف دكان كلها ملك للسـلطان وكثير منهـا يؤجر بعشرة دنانير مغربيـة فى الشهر ، وليس بينها ما لا تقل أجرته عن دينارين » .

ولم يقتصر وصف الرحالة على مدينتى الفسطاط والقاهرة بل كان لمدينة الاسكندرية نصيب كبير فى وصف الرحالة أيضا ، فنجد ابن جبير يصفها بأنها « مدينة متسعة وأسـواقها حافـلة كثيرة » . وقد لفت أنظار ابن جبير أن أسواق مدينة الاسكندرية تعمل طوال الليل والنهـار ، اذ يقول : « أن تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم » . وقول ابن جبير هذا يدل على مدى ما وصلت اليه أحوال مدينة الاسكندرية من رخـاء وازدهار تجـارى الى جانب استقرار أمنى ، فالأسـواق مفتوحة طوال اليوم ، وحـركة البيع والشراء تسير فى يسر وسـهولة . ولم يكن هذا بالمستغرب فأسواق مدينة مصر والفسطاط أيضا كانت تعمل طوال اليوم وجزءا كبيرا من الليل ويتضح هـذا من أقوال ناصر خسرو ، والمقدسى ، وابن حوقل عن أسـواق مصر والقـاهرة .

وهناك مدن أخرى شاركت فى النهضة التجارية بمصر ولعبت دورا كبيرا فى ازدهار النشـاط التجـارى ، ووصفها الرحالة أيضا مثل مدينة تنيس . فالى جانب شهرتها الصناعية الا أنها كانت أيضا ضمن المراكز التجارية المهمة بمصر ، فيصفها ناصر خسرو بأنها مدينـة جميلة بها أسواق فخمة « وقد بلغ عدد الدكاكين بها

عشرة آلاف دكان منها مائة دكان عطارة » . ولم يقتصر دور مدينة تنيس على النشاط التجاري الداخلي بل كان لها دور بارز في التجارة الخارجية . فكانت من الموانى المهمة التى يخرج منها الاسطول التجارى متجها الى موانى البحر المتوسط بانتظام ويقول ناصر خسرو « تذهب السفينة من تنيس الى القسطنطينية في عشرين يوما » كما تخرج منها سفن تجارية أخرى متجهة الى صقلية التى كان يربطها بتنيس طريق مائى منتظم فكانت السفن تخرج من تنيس محملة بالبضائع المختلفة من الأقمشة وغيرها من المنتجات متجهة الى جزيرة صقلية فى عشرين يوما . كما كان يربط تلك المدينة بغيرها من المدن المصرية طرق نهرية فتنقل السفن من تنيس الى مدينة الفسطاط كثيرا من البضائع التى تصل الى أبواب الدكاكين . ويعدد ناصر خسرو أهمية هذه الطرق النهرية بالنسبة للتجارة الداخلية ويقول بأنها ساعدت على نقل كثير من البضائع الى مدينة الفسطاط بسهولة ويسر اذ كان يتعذر نقل هذه البضائع على ظهور الدواب لازدحام الفسطاط .

وهناك مدن مصرية أخرى ذكرها الرحالة شاركت فى النهضة التجارية بمصر فى العصر الفاطمى مثل تلك التى تقع على سواحل البحر الأحمر وسواحل البحر المتوسط كمدينة القلزم ومدينة الفرما ، أو تلك التى تقع فى طريق قوافل الحج فى صعيد مصر كمدينة قوص ، التى يقول عنها ابن جبير : « هذه المدينة حفيلة بالأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها محط للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والاسكندريين ومن يتصل بهم ومنها يفوزون بصحراء عيذاب واليها انقلابهم فى صدرهم من الحج » .

ومن المدن التجارية المهمة أيضا مدينة عيذاب التى يصفها ناصر خسرو بقوله : « ومدينة عيذاب هـذه تقع على شـاطىء البحر (يقصـد البحر الأحمر) وبها مسجد جمعـة وسكانهـا خمسمائة وهى تابعة لسلطان مصر وفيها تحصل المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن ، ومنها تنقل البضائع على الابل الى أسـوان فى الصحراء ومنها تنقل بالسفن الى مصر فى النيل » . أما ابن جبير فيصفها بأنها « من أحفل مراسى الدنيا بسبب الهنـد واليمن تحط فيها وتقلع منها زائـدا الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة » .

ولم يقف اهتمام الرحالة بالمراكز التجارية الكبرى على ذكرهم للمدن السابقة فقط ، بل جاء وصفهم لبعض المدن الأخرى التى تخدم التجارة الداخلية كدليل واضح على مدى ما وصلت اليه تجارة مصر فى العصر الفاطمى من ازدهار ورقى ، مثل « منوف » التى كانت تحتوى على أسواق وفنادق عامرة بالتجـار المصريين والأجانب ، « ومحلة صرد » بوسط الدلتا وكذلك مدينة « صخا » التى اشتهرت بكثرة انتاجها من المواد الغذائيـة ، وتميزت أسواقها بوفرة المنتجات الزراعية والصناعية التى تخرج منها الى بلدان كثيرة مجـاورة ، الى غير ذلك من المدن التى عددها ابن حوقل خلال رحلته فى مصر والتى قطع فيها البلاد شرقا وغربا ليدون مشاهداته بدقة واسهاب فلم يترك مدينة مر عليها دون أن يصف أسواقها وفنادقها .

وشاركه فى هذا كل من المقدسى وناصر خسرو وابن جبير . ومن هنا استطعنا أن نحصل على معلومات ضافية عن مدن مصر التجاريـة ساعدت فى النهضـة التجارية بالبلاد خـلال العصر الفـاطمى .

ومن العوامل المهمة التى ساعدت على ازدهار النهضة التجارية بمصر وجاءت واضحة فى أقوال رحالة العصر الفاطمى ، الأمن والأمان المنتشران بالبلاد ، وسيطرة الحكومة الفاطمية على طرق التجارة البرية داخل البلاد ، اذ ضربت بيد من حديد على الخارجين على القانون وعاقبت القراصنة أشد عقاب . ويتضح هذا مما رواه ابن جبير عندما شاهد مجموعة من هؤلاء القراصنه بمدينة الاسكندرية فيذكر : « لما حللنا الاسكندرية عاينا مجتمعا من الناس عظيما ، بروزا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم الى أذنابهم وحولهم الطبول والأبواق ، فسألنا عن قصتهم فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد اشفاقا وجزعا ، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم ثم حملوا انقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر سمروا مراكبهم وأكملوا انشاءها وتأليفها ودفعوها فى البحر وركبوها قاطعين بالحجاج . وانتهوا الى البحر النعم ، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا . وانتهوا الى عيذاب فأخذوا فيها مركبا كان يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضا فى البر قافلة كبيرة من قوص الى عيذاب وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحدا . وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن واحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة » .

ومن هذا النص يتضح مدى ما وصل اليه القراصنة من حيل فى الهروب والتحايل على السلطات الأمنية فى البلاد ، الا أن الحكومة سرعان ما قضت على هؤلاء القراصنة وعاقبتهم أشد عقاب . وهذا دليل على سيطرة الدولة على طرق التجارة سواء البرية أو البحرية وتأمينها ، مما دعا بعض الرحالة الى الحديث

عن امن الطرق التجارية بمصر ، فيصف ابن جبير الأمن المنتشر فى الطريق البرى بين عيذاب وقوص بقوله : « ورمنا فى هـذا الطريق احصـاء القوافل الواردة والصـادرة مما تمـكن لنا ولا سيما القوافل العيذابيـة المتحملة لسـلع الهند الواصلة الى اليمن ، ثم من اليمن الى عيـذاب . واكثر ما شاهـدنا من ذلك احمال الفلفل فلقد خيل الينا لكثرته أنه يوازى التراب قيمـة . ومن عجيب ما شاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقى بقارعة الطريق احمال الفلفل والقرفة وسـائرها من السلع المطروحة لا حارس لها ، تترك بهذه السبيل اما لاعياء الابل الحاملة لها أو غير ذلك من الأعذار ، وتبقى بموضعها الى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المـار عليها من أطوار الناس » .

وهذا دليل قاطع على انتشار الأمن والأمان بالطرق التجارية رغم كثرة القوافل الواردة والصادرة . فمنطقة عيذاب كما سبق وذكرت كانت من أهم مناطق تجـارة الترانزيت بمصر فى العصر الفاطمى فالقوافل الواردة الى عيذاب والصادرة منها كانت من الكثرة بحيث لم يستطع ابن جبير حصرها .

ومن العوامل التى ساعدت على ازدهار النشاط التجـارى بمصر ولفتت أنظار الرحالة أيضا تقدم الاسطول التجارى المصرى وضخامته ، فيذكر المقدسى : « وكنت يوما أمشى على الساحل واتعجب من كثرة المراكب الراسـية والسائرة ، فقال لى رجل منهم : من أين انت ؟ قلت : من بيت المقدس . قال : بلد كبير أعلمك يا سيدى ـ اعزك الله ـ ان على هـذا الساحل وما قد اقلع منه الى البلدان والقرى من المراكب ما لو ذهبت الى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال : كان ههنـا مدينـة » .

وقد انفق ناصر خسرو مع ابن جبير على عظمة الأسطول التجارى اذ يصف الاسطول الضخم الذى شاهده على ساحل مدينة تنيس بقوله : « ويرابط حولها دائما ألف سفينة منها ما هو للتجار وكثير منها للسلطان » .

ومن النصوص الكثيرة والمتنوعة التى أوردناها هنا نقلا عن الرحالة ، والتى تحمل بين طياتها الكثير والكثير عن أحوال البلاد الاقتصادية نستطيع أن نلمس مدى الازدهار الاقتصادى الذى ساد العصر الفاطمى باستثناء فترات متقطعة سرعان ما كانت تزول أسبابها . فالرحالة وصفوا لنا أحوال البلاد المالية والاقتصادية ، وانتشار الأمن والأمان بالبلاد وأحوال الرعية وانتشار السلع فى الأسواق وقوة الحكومة وسيطرتها على الأسواق واشرافها على التجار ، كما عملت على اقامة كثير من المنشآت التجارية التى ساعدت التجار الأجانب على الاقامة وممارسة أعمالهم فى يسر وسهولة . هذا الى جانب الاهتمام بأحوال الصناع وامداد الزراع بما يحتاجونه من البذور وغيرها .. ونحن نضيف الى ذلك أن ما ذكره مؤرخو وكتاب مصر الاسلامية فضلا عن آراء الرحالة المسلمين الذين وفدوا زمن الخلافة الفاطمية يتبين لنا كيف كانت مصر الفاطمية فى ذلك العصر من أكثر البلاد فى العالم الاسلامى ازدهارا ونجاحا ورفاهية .

٤ ــ الموارد المالية : ومن أجل الحفاظ على ازدهار الاقتصاد اهتمت الحكومة بتظيم الادارات المالية فاهتمت بالدواوين الخاصة بالمال والاشراف عليها حتى وصلت الى أوج تنظيمها زمن الفاطميين . كما اهتمت الدولة أيضا بالنقد وتجويد العملة حتى تضمن قاعدة مالية راسخة .

وقد أمدنا الرحالة بمعلومات وآراء كثيرة عن بعض الموارد المالية التى كانت تحصل عليها البلاد فى صور رسوم (زكاة) على الحجاج ، ومكوس وضرائب وكانت تمثل موردا من أهم موارد بيت المال فى العصر الفاطمى . وقد اتفقوا جميعا على أن هذه الضرائب كانت ثقيلة ، فقد كتب المقدسى يقول عن الضرائب التى كانت تجبى بمدينة « تنيس » : « وأما الضرائب فثقيلة وبخاصة تنيس ودمياط على ساحل النيل ، وأما ثياب الشطوية فلا يمكن القبطى أن ينسج شيئا منها الا بعد ما يختم عليها بختم السلطان ، ولا أن تباع الا على يد سماسرة قد عقدت عليهم ، وصاحب السلطان يثبت ما يباع فى جريدته ثم تحمل الى من يطويها ثم الى من يشدها بالقش ثم الى من يشدها فى السفط والى من يحزمها ، وكل واحد منهم له رسم يأخذه ، ثم على باب القرضة يؤخذ أيضا شيء ، وكل واحد يكتب على السفط علامته ، ثم تفتش المراكب عند اقلاعها ويؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ومثل هذا وأشباهه ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال . ورأيت بساحل تنيس ضرائبيا جالسا قيل قبالة هذا الموضع فى كل يوم ألف دينار ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الاسكندرية . وبالاسكندرية أيضا على مراكب الغرب وبالفرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » .

ومن النص السابق يتضح أن الحكومة كانت تقوم بتحصيل ضرائب باهظة فى كل الثغور المصرية على كثير من المنتجات التى تنتج محليا مثلما كان يحدث بمدينة تنيس على المصنوعات النسيجية وخصوصا الثياب الشطوية فكانت لا يتم تصديرها الا بمعرفة مندوبى الخليفة .

وعلى الرغم من ضخامة المبلغ الذى ذكره المقدسى عن

الضرائب المتحصلة فى يوم واحد من مدينة تنيس الا أن هـذا يعبر عن ضخامة الضرائب التى كانت تفرضها الدولة على المنتجات المحلية فى مدنها الصناعية مما يؤكد أنها كانت ثقيلة فعلا . هذا ويتفق ناصر خسرو مع المقدسى فى رؤيته لضخامة هذه الضرائب اذ يقول : « وسمعت من الثقات أنه يصل منها (يقصد تنيس) لخزانة سلطان مصر يوميا ألف دينار مغربى ، ويصل ذلك المقدار مرة واحدة يحصله شخص واحد يسلمه أهل المدينـة اليه فى وقت معين ، وهو يسلم للخزانة فلا يتأخر منه شىء » .

أما ابن حوقل فيصف أحوال البلاد زمن الوزير ابن كلس بأنها كانت غاية فى السوء حيث « الضرائب الشرسـة » التى كان يفرضها هـذا الوزير على كثير من منتجات البلاد الصـادرة وعلى كل ما يدخل البلاد من بضائع واردة مما جعله يصف عهده بعهد « النوائب والمحن » . ويقول ان الوزير ابن كلس « جعل الجزية على جميع الداخلين والخارجين الى تنيس » ويقصـد بذلك أنه فرض الضريبة على كل شىء يدخل أو يخرج من المدينة .

وذكر ابن جبير أنه كان هنـاك رسم مقرر على الحجـاج زمن الدولة الفاطمية يقدر بسبعة دنانير ونصف وكان يتم تحصيله بطريقة غاية فى الشدة . ويتضح هـذا من النص الذى أورده والذى يشكر فيه السلطان صلاح الدين لأنه ألغى هـذا الرسم فيقول : « ومن مفاخر هـذا السلطان ازالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين ، فكان الحجـاج يلاقون من الضغط فى استيدائها عنتا مجحفا ويسامون فيها خطة خسف باهظة وربما ورد من لا فضل لديه على نفقة ، أو لا نفقة عنده فيلزم أداء الضريبة المعلومة وكانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية على كل رأس » .

وعلى الرغم من أن ابن جبير زار مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية الا أنه وصف لنا بعض الضرائب التى كانت مفروضة على البلاد زمن الفاطميين واستمرت حتى بداية السلطان صلاح الدين الأيوبى . ولذا فقد قام هذا الرحالة بالقاء ضوء على أحوال البلاد المالية وخصوصا المكوس والضرائب التى كانت تفرضها الدولة والتى استمرت حتى أيام السلطان صلاح الدين الذى أسقط بعض تلك الضرائب والمكوس وخصوصا تلك التى كانت تفرض على الحجاج بمدينة عيذاب حيث تكفل بأن تنوب الحكومة المصرية بدفع هذه الضرائب عن الحجاج لأشراف مكة باعتبار ذلك ميرة للمدن المقدسة (مكة والمدينة) .

ومن الضرائب التى وصفها لنا ابن جبير بالتفصيل تلك الضريبة التى كانت تحصلها الحكومة من الحجاج القادمين باعتبارها زكاة فيذكر من خلال تجربة شخصية مر بها عند قدومه الى ميناء الاسكندرية قوله : « فمن اول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء الى المراكب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا وكتبت اسماؤهم وصفاتهم واسماء بلادهم وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدى عليه زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل . وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد طريقهم فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول أم لا ... وأمر المسلمون بتنزيل اسبابهم وما تصل من أزودتهم وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويحمل جميع ما أنزلوه الى الديوان ، فاستدعوا واحدا واحدا واحضر ما لكل واحد من الأسباب والديوان قد غص بالزحام ، فوقع التفتيش لجميع الأسباب ما دق منها وما جل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت

الأيدى الى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها . ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا . وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدى وتكاثر الزحام ، ثم اطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم » .

ولم يقتصر تحصيل ضريبة الزكاة من الحجاج على مرة واحدة بل يقول ابن جبير : « وببلاد الصعيد المعترضة فى الطريق للحجاج والمسافرين كأخميم وقوص ومنية ابن الخصيب من التعرض لمراكب المسافرين وتكشفها والبحث عنها وادخال الأيدى الى أوساط التجار فحصا عما تأبطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير ما يقبح سماعه وتشنع الأحدوثة عنه ، كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو ما يدرك النصاب منها ... وربما ألزموهم الايمان على ما بأيديهم وهل عندهم غير ذلك ، ويحضرون كتاب الله العزيز تقع اليمين عليه ، فيقف الحجاج بين أيدى هؤلاء المتناولين لها مواقف خزى ومهانة تذكرهم أيام المكوس » .

ويزيد من سخط ابن جبير الطريقة التى يتم تفتيش الحجاج بها عند مرورهم بالنيل فيقول : « ومن أشنع ما شاهدناه من ذلك خروج شرذمة من مردة اعوان الزكاة فى أيديهم المسال الطوال ذوات الأقصبة ، فيصعدون الى المراكب استكشافا لما فيها فلا يتركون عكما ولا غرارة الا ويتخللونها بتلك المسال الملعونة مخافة ان يكون فى تلك الغرارة أو العكم اللذين لا يحتويان سوى الزاد شيء غيب عليه من بضاعة أو مال » . وهكذا اتفق ابن جبير مع الرحالة السابق ذكرهم فى نقده لهذه الضرائب الثقيلة . ولكنه يزيد على هذا فى نقده لنقطة أخرى على جانب كبير من الأهمية وهى ما يتعلق بمعاملة الوافدين الى مصر وطريقة تفتيشهم فى

الموانى مما أوضحه صراحة بقوله (ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزى عظيم) وهو ما يعبر عن شدة استيائه من تلك الاجراءات التى كانت تتخذ بالموانى المصرية . والواقع أنه يجب أن نضع أمام أعيننا بعض الحقائق التى توضح سبب كثرة الضرائب فى ذلك الوقت ، ففى أواخر عهد الدولة الفاطمية زادت المكوس والضرائب المختلفة كنوع من التعويض عن قلة قيمة الخراج الذى ضعفت جبايته بسبب الأحداث والمنازعات الداخلية التى كانت تعيشها البلاد نتيجة لصراع الوزراء ورجال الدولة مما أدى الى ضعف الادارة المالية بالبلاد . ورغم كثرة الضرائب وتعددها بالبلاد كما سبق أن ذكر الرحالة فاننا يجب الا ننسى أن زيادة الضرائب كانت سائدة آنذاك وذلك اذا استثنينا فترات الانهيار التى كانت تصيب البلاد من وقت لآخر .

أما عن غضب ابن جبير من الطريقة التى كان يتم بها تفتيش السفن القادمة فيجب أن نأخذ فى ذلك جانب الحذر ، فابن جبير رحالة مسلم سنى ، وهو عندما يصف الدولة الفاطمية فانه يصفها بأنها « دولة العبيديين » ولذا فقد أرجع جميع اجراءات العنف التى اتخذها ضده رجال السلطان الى القوانين الفاطمية ، رغم أن الدولة الفاطمية كانت قد سقطت منذ مدة . وهو ايضا يرجع الغاء بعض الضرائب والمكوس الى عدل صلاح الدين الأيوبى ذلك السلطان السنى .

واما عن الاجراءات الجمركية التى ذكرها فى شىء من التعجب فيجب أن ندرك ان هذه الدقة فى الاجراءات الجمركية التى اتخذتها البلاد تجاه القادمين لم تكن من مستحدثات الدولة الفاطمية ، اذ يذكر الأستاذ الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه القيم « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » أن الاجراءات

الجمركية بمدينة الاسكندرية قديمة ، كما ذكر أن السائح المسيحى برنارد الحكيم روى عن نفسه (فى القرن التاسع الميلادى) أنه فتش فى الاسكندرية وحقق معه ودفع ستة دنانير ذهبية » . وهذه الاجراءات التى تعرض لها ذلك السائح المسيحى هى نفسها التى تعرض لها ابن جبير أثناء مروره بمدينة الاسكندرية .

والحقيقة أن دقة اجراءات التفتيش زمن الدولة الفاطمية غالبا ما كانت تلجأ اليها الدولة كاجراء أمنى ، فلا ننسى أن البلاد كانت فى حالة حرب مع الفرنجة ولذا فقد اتخذت كافة الاجراءات من اجل السيطرة على الأمن وللتعرف على نوعية القادمين الى البلاد . ونحن لا ننكر أن الاجراءات التفتيشية كانت تزداد شدة فى بعض الأحيان زمن الدولة الفاطمية نتيجة لظروف البلاد الداخلية والخارجية ، فالبلاد كانت فى حالة حرب مع الفرنجة ، لذا فقد وضعت اجراءات مشددة لتحديد هوية القادمين على مراكب أجنبية الى البلاد بل غالبا ما كانت تستجوب بعض الشخصيات المهمة على ظهور تلك السفن مثلما حدث مع صديق ابن جبير حيث تم انزاله واستجوابه من قبل السلطان ، وهذا اجراء من اجل الأمن القومى . ولكن هذا بطبيعة الحال كان يخضع للظروف التى تتغير من وقت لآخر وذلك مثلما حدث سنة ٥١٨ هـ زمن الوزير المأمون البطائحى فقد اصدر أوامره بضروره السيطرة على مداخل البلاد وتحديد هوية القادمين اليها سواء أكانوا تجارا أم حجاجا ، وتدوين أسماء وهوية كل من يدخل البلاد ، وتخصيص كتبة من الديوان لتدوين أسماء هؤلاء حتى تستطيع الدولة السيطرة على جميع المقيمين ولو بصفة مؤقتة داخل البلاد .

ويرجع ابن ميسر هذه الاجراءات الأمنية المشددة التى اصدرها الوزير المأمون البطائحى الى خوف الحكومة من دخول

بعض الجواسيس الى البلاد وخصوصا من جماعات الباطنية . اذ يذكر « انه لما ولى المأمون بلغه أن الباطنية فرحوا لموت الأفضل وقتله ، وانهم قد امتدت آمالهم لقتل الآمر والمأمون . وانهم أرسلوا رسلا لأصحابهم المقيمين بمصر ومعهم أموال للتفرقة عليهم فتقدم المأمون الى عسقلان وصرفه عنها وولى غيره وأمره بعرض أرباب الخدم بها وأن لا يبقى منها الا من هو معروف من أهل البلاد ووصاه بالاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم ، وأن لا يثق بما يذكرونه من أسمائهم وكناهم وبلادهم وجلاهم ، بل يكشف عن بعضهم من بعض ويفرق بينهم ويبالغ فى كل ذلك . ومن وصل ممن لم تجر له عادة بالوصول الى البلاد فليعوق بالثغر ويطالع بحاله وبما معه من البضائع ، وكذلك الحمالون لا يمكن أحدا من الوصول الى البلاد الا أن كان معروفا مترددا ، ولا يسير قافلة ، الا بعد أن يتقدمها كتابه الى الديوان بعدة التجار وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الحمالين ؛ وذكر أصناف البضائع ليقابل بها فى مدينة بلبيس ، وعند وصولهم الى الباب ويكرم التجار ويكف الأذى عنهم » .

والحقيقة أن المأمون لم يكتف بهذه الاجراءات بل أمر باجراء تعداد وحصر بالبلاد لأهل مصر والقاهرة ، وتدوين جميع البيانات الخاصة بهم بل تدوين أسماء وصفات جميع من يصل الى البلاد وأماكن اقامتهم ، وأرسل جواسيسه الى جميع البلاد ، واستعان بالنساء والعجائز يدخلن المساكن ويتعرفن أحوال سكانها ليكن له عيونا للبحث عن أتباع الباطنية بالبلاد . وبذا سيطر الوزير المأمون على الأمن الداخلى بالبلاد .

ورغم أن الاجراء الذى اتخذه الوزير المأمون البطائحى كان اجراء سياسيا الغرض منه منع وصول بعض العناصر الارهابية التابعة للباطنية للبلاد ، الا أنه خدم فى نفس الوقت الاقتصاد المصرى بصورة غير مباشرة اذ استطاع بواسطة هذا التدقيق تحديد نوعيات البضائع الواردة الى البلاد عن طريق البر وجباية الرسوم الجمركية المقررة عليها ومقاومة التهريب الذى كان منتشرا بمصر ويتم عن طريق القوافل البرية التى تعبر الصحراء من غير الطرق التجارية المعروفة .

ونتيجة لهذا النظام الصارم والمتفوق فى توظيف امكانات مصر المالية وصل الاقتصاد المصرى الى أقصى درجات الازدهار والتقدم الذى بدا واضحا جليا فى مظاهر الترف التى عاشها الخلفاء ورجال دولتهم والكثير من طبقات الشعب المختلفة . وكان أهم مظاهر هذا الازدهار ما تمتعت به البلاد من نهضة عمرانية .

فقد كان العصر الفاطمى من أزهى عصور العمارة الاسلامية اذ بلغت ضخامة العمائر وابداع زخارفه الى درجة جد راقية ، ولذا كثرت قصورهم وتعددت مساجدهم وجوامعهم . ولم تقتصر مظاهر الازدهار على النواحى العمرانية فقط بل ظهرت أيضا فى حفلاتهم ورسومهم وما كان ينفق عليها فى سعة وبذخ أصبح من مميزات هذا العصر . وأما ثرواتهم فقد كانت من أهم مظاهر هذا الازدهار الاقتصادى وأكبر شاهد على هذا الازدهار فى عصرهم .

ونتحدث الآن عن بعض مظاهر الازدهار والذى يتمثل فى :

أولا ـ القصور والمناظر (٢) :

اذا حاولنا أن نتكلم عن التقدم المعمارى فى العصر الفاطمى كأحد المظاهر المهمة لازدهار الاقتصاد فأول ما يلفت انظارنا تلك القصور الضخمة التى أقامها الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم ورجال دولتهم وعدد لا بأس به من طبقات الشعب المترفة ، فمنذ دخول جوهر مصر سنة ٣٥٨ هـ أسس لمولاه المعز لدين الله القصر المعروف بالقصر الشرقى ـ ويعتبر أول قصر فاطمى بنى بمصر ـ ليكون مقرا لاقامة الخليفة ومركزا لحكومته . وقد انفق على تشييده وتأثيثه أموالا طائلة أسهب الرحالة والمؤرخون فى ذكرها ، ولم لا والعصر الفاطمى من أزهى عصور العمارة الاسلامية والفن الاسلامى . ولذا فقد أعد جوهر هذا القصر اعدادا عظيما . فيذكر المقريزى أنه عند دخول المعز مصر فى سنة ٣٦٢ هـ كان جوهر قد انتهى من اعداد القصر الذى اشتمل « على ورق وجوهر وحلى وفرش . وأوان وثياب وسلاح وأسفاط وسروج ولجم وبيت مال بما له وبما فيه ، وفيه جميع ما يكون للملوك » .

ويقول ناصر خسرو عن هذا القصر « يقع قصر السلطان فى القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أى بناء ، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساويا لمدينة مينافارقين ، وكل ما حوله فضاء ويحرسه كل ليلة الف رجل ، خمسمائة فارس ، وخمسمائة رجل ، وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل والكئوس من وقت صلاة المغرب ، ويدورون حول القصر حتى الصباح ، ويبدو هذا القصر من خارج المدينة كأنه جبل لكثرة ما فيه من

---

(٢) المناظر : جمع منظرة وهى دور بناها الخلفاء الفاطميون فى القاهرة والفسطاط والروضة والقرافة خاصة للنزهة والاشراف على الاحتفالات وتوديع الحملات الحربية .

الأبنية المرتفعة ، وهو لا يرى من داخل المدينة لارتفاع أسواره ، وقيل ان به اثنى عشر الف خادم مأجور ، ولا أحد يعرف عدد من فيه من النساء والجوارى ، الا أنه يقال انه به ثلاثون الف آدمى (٣) . ويذكر ناصر خسرو أن هذا القصر يتكون من اثنى عشر جوسقا (يقصد هذا القصر) الصغير (٤) وله عشرة أبواب أخرى تحت الأرض : باب الذهب (٥) ، باب البحر ، باب السريح ، باب الزهومة ، باب السـلام ، باب الزبرجد ، باب العيد ، باب الفتوح، باب الزلاقة ، باب السرية . وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكبا ، وهـذا الباب على سرداب يؤدى الى قصر آخر خارج المدينة ، ولهذا السرداب الذى يصـل بين القصرين سقف محكم وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قدت من صخر واحد ، وفوق القصر المناظر والايوانات العالمية ، وفى داخله دهليز به دكك » . واهتم الفاطميون أيضـا بتجميل الحـدائق التى تحيط بالقصر فقد وجدت حوله بساتين تحتوى على نباتات نادرة حتى يصبح هذا القصر مميزا .

وقد اشتمل القصر من الداخل على عدد من الايوانات عددها ناصر خسرو بأنهـا اثنـا عشر جناحـا . أما أهم تلك الايوانات أو القاعات فكان الايوان الكبير ، وقد خصصت هذه القاعة لجلوس

---

(٣) يذكر أن صـلاح الدين حينما استولى على هذا القصر وأخرج منه الخليفة عند سقوط الدولة الفاطمية ، أخرج منه اثنى عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل — أى ليس فيهم رجل بالغ — الا الخليفة وأهله وأولاده .

(٤) جوسق يقصد القصر الصغير .

(٥) باب الذهب كان من أكبر أبواب القصر الكبير الشرقى يقع فى الناحية الغربية وكانت تدخل منه العساكر وجميع أهل الدولة فى اجتمـاع يومى الاثنين والخميس (الى قاعة الذهب) وكان موضعه مقـابل دار القطبية — المـارستان المنصورى — بشارع المعز لدين الله . ومحله الآن محراب المدرسة الظاهرية التى لا تزال آثارها باقية .

الخلفاء يومى الاثنين والخميس ، كما كان يقام بها سماط شـهر رمضان وسماط العيدين وبها سرير الملك أيضـا . وقد أنفق فى صنع سرير الملك بهذا الايوان مائة وعشرة آلاف مثقال من الذهب ووزن ما حلى به الستر زمن الوزير اليازورى ثلاثون مثقالا من الذهب ، ورصع بألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر من سائر الأنواع والأحجام . ويصفه ناصر خسرو بأن عرضـه وعلوه أربع أذرع وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث وعليه صـور للصـيد والميدان وغيرهما كما دون عليه بعض العبارات بخط جميل . وقد زينت جدران هـذا الحرم من الفرش والطرح وغيرها من أثـاث هذا المكان بالديبـاج الرومى والبوقلمون نسجت على قـدر كل موضع تشغله ، وقد أحيط التخت بدرابزين من الذهب المشبك فى غاية الروعة ، وخلف التخت بجـانب الحـائط درجـات من الفضـة .

ومن هذا الوصف يتضح لنا مدى ما وصلت اليه حيـاة الترف داخل القصور الفاطمية .

وبهذه القاعة تم تقديم الهديـة التى حملهـا القائد جوهر الصقلى الى الخليفة المعز لدين الله عند قدومه الى مصر كنوع من الترجيب به ، وقد اشتملت هـذه الهدية من الخيل على مائة وخمسين فرسا مسرجة ملجمة منها مذهب ومنها مرصع ومنها معنبر ، واحدى وثلاثين قبة على نوق نجاتى بالديباج والمناطق والفرش منها تسعة بديباج مثقل وتسع نوق مجنوبة مزينة ، بمثقل وثلاثة وثلاثين بغلا منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثين بغلا للنقل ، وتسعين نجيبا ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما فيها من أوانى الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة ،

مشغولة فيها جوهر وشاشية مرصعة فى غلاف ، وتسعمائة ما بين سفط وتخت فيها سائر ما أعد له من ذخائر مصر واستمر هذا الايوان الكبير مكانا لسرير الملك الى أن تم نقله الى قاعة الذهب زمن الخليفة الآمر الفاطمى (٤٩٥ ــ ٥٢٤ هـ) ــ (١١٠١ ــ ١١٢٩ م) ، وهى القاعة التى أقامها الخليفة العزيز بالله واعيد تجديدها (٣٦٥ ــ ٣٨٦ هـ) ــ (٩٧٥ ــ ٩٩٦ م) زمن الخليفة المستنصر الفاطمى وتعتبر من اعظم قاعات القصر على الاطلاق ، وكانت مجهزة بأفخم الأثاث والستور وغيره من انواع الترف .

وهناك وصف أورده فييت نقلا عن وليم الصورى لزيارة سفراء الفرنجة للقاهرة زمن الوزير شاور بن مجير السعدى يقول فيه ان شاور اصحطب هؤلاء الرسل الى قصر رائع الجمال عظيم الزخرفة وهناك رافقهم عدد كبير من الحرس حيث مروا داخل ممرات كثيرة تعلوها قباب جميلة .

ووصلوا الى فناء ضخم تحيط به أروقة ، ورصف هذا الفناء برخام جميل ملون ومحلى بالذهب الخالص كما غطيت الدعامات السقفية كلها بالذهب مما جعل المكان تكسوه الرهبة . ووسط هذا المكان ارتفعت المياه من نافورة ، وصلت اليها المياه عن طريق أنابيب من الذهب والفضة عبر أحواض من الرخام ، وامتلأ المكان بالطيور النادرة التى حملت خصيصا لهذا المكان . وعندما وصلوا الى القاعة التى بها سرير الملك شاهدوا ما نسج على سترها من المناظر الطبيعية التى تحوى كثيرا من صور الطبيعة والصيد والقنص مرصعة بخيوط الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وقد رفعت الستائر التى كانت تحجب الخليفة الطفل وهى مصنوعة من الذهب والفضة فظهر سرير الملك

مرصعا بالجواهر والأحجار الكريمة . ومن المناظر التى لفتت أنظار سفراء الفرنجة تلك النقوش المحفورة على الخشب والتى تمثل مناظر متتابعة من الصيد وحفلات الموسيقى والرقص ومجالس الشراب الى جانب الزخارف الهندسية التى تعتبر أرقى ما وصل اليه الفن فى مصر الاسلامية .

وهذا الوصف السابق لهذه الفخامة اذا دل على شيء فانما يدل على مدى ما كانت عليه حياة خلفاء الفاطميين من الترف والبذخ والرفاهية .

وهنا يحضرنى ما ذكره المقريزى عن حياة الترف التى عاشها خمارويه ابن أحمد بن طولون اذ يقول : (انه بعد موت أحمد بن طولون اقبل ابنه خمارويه على قصر أبيه وزاد فيه واخذ الميدان الذى كان لأبيه فجعله كله بستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين واضاف الشجر الذى ينال ثمره القائم ومنه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخيل وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وانواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص ، واجرى فيها الماء المدير فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر الى فساقى معمولة ويفيض منها الماء الى بحار تسقى سائر البساتين وغرس فيه الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب وأهدى اليه من خراسان وغيرها كل أصيل عجيب وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن وبنى فيه برجا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الأقفاص

وذوقه بأصناف الأصباغ وبلط أرضه وجعل فى تضاعيفه أنهـارا لطافا جداولها يجرى فيها المـاء مديرا من السواقى التى تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الأشجار) .

ومن النص السابق يتضح لنا أن القصر الفاطمى فى فخامته كان يشبه ما كان بقصر خمارويه ابن أحمد بن طولون وهـذا يدل على أن حكام مصر وخلفاءها دائما كانوا يفضـلون حيـاة الترف والرفاهيـة .

وقد اشـتمل القصر على عدة قصـور بلغت كما سبق أن ذكرنا اثنى عشر قصرا صغيرا وأيضـا على عدد كبير من الخزائن الضخمـة التى استخدمت كأماكن لحفظ **الأشـياء النادرة** كان أهمهـا :

خزانة الكسـوة التى انشئت زمن الخليفـة المعز ، وكانت تنقسم الى خزانتين احداهما تعرف « بالخزانة الظاهرة » وهى التى تختص بتصنيع الملابس الرسمية للخليفة ورجال الدولة الى جانب استخدامها كمكان لحفظ جميع الملابس الرسمية سـواء التى صنعت بالخزانة الظـاهرة او التى تم تصنيعها فى دور الطراز المختلفة الموجودة بتنيس ودمياط والاسكندرية . وقد خصص لها ديوان عرف باسم ديوان خزانة الكسوة للاشراف على توزيع تلك الكسـاوى على كبـار رجال الدولة فى المناسـبات الرسـمية . اما الخزانة الثانية فهى التى أطلق عليها « الخزانة الباطنة » وهى خاصة بملابس الخليفـة اليومية غير الرسمية ففيها يتم تغيير ملابسـه حيث لا يحتفظ بملابس له عند زوجـاته ، وكان يتم الاشراف عليها بواسطة سيدة تعرف « بزين الخزان » تشرف

على ثلاثين جارية من بينهن ست خزان وعشر وقافات (٦) أقل رتبة فى الخزان .

من الخزائن المهمة ايضا **خزانة الكتب** وهى احدى خزائن القصر وتتكون من أربعين حجرة جميعها مقسمة الى رفوف بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل وقد ذكر أن بها أكثر من مائتين وعشرين الف كتاب من المجلدات وكثيرا من المجردات ففيها كتب الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ الى جانب سير الملوك والكتب الخاصة بالفلك والكيمياء ، وكتب خاصة بالخط ، الى جانب احتوائها على كثير من المصاحف النادرة ، ويذكر أن خزانة الكتب بالقصر كانت من أعظم خزائن الكتب فى العالم الاسلامى على الاطلاق . ويذكر أن أوربا لم تكن تعرف فى ذلك الحين هذا التنظيم والفهرسة الدقيقة للكتب ، ولذا فان الخزانة الفاطمية كانت تنفرد بهذه المسحة الحضارية التى ميزتها عن بقية دول العالم المعروف فى ذلك الوقت .

أما **خزائن الجوهر والطيب والطرائف** فكانت من أهم خزائن القصر الفاطمى واشتملت على عدد من الخزائن أعدت من أجل حفظ الجواهر والأحجار الكريمة الى جانب التحف النادرة . وقد قسمت وصنفت بحيث خصص كل جزء منها لحفظ نوع من التحف فقسم خاص بالبلور وآخر بالصينى وثالث خصص لحفظ الطرائف ، كما أن بها ايضا مكانا خصص لحفظ العطور والروائح.

---

(٦) وقافات يقصد بها الجوارى اللاتى كن يساعدن زين الخزان فى اعداد ملابس الخليفة لكن اقل من حيث المرتبة من الخزان .

اما **خزانة الفرش والأمتعة** فقد أعدت داخل القصر من أجل الاحتفاظ بالقيم من السجاد والأقمشة المطرزة والمذهبة والمفضضة ، والبسط والمراتب الخسرواني وأجلة معمولة للفيلة ، الى جانب الستائر المصنوعة من الحرير والمنسوجة بالذهب والفضة كما كان يحفظ بها بعض المقاطع التى صنعت كخرائط وصور لأقاليم الأرض وجبالها وبحارها فقد عشق الخليفة المعز تلك الخرائط فأمر بصنع مقطع منها وأنفق عليه اثنين وعشرين ألف دينار وفيه صورة وأقاليم الأرض وبحارها ومدنها وأنهارها ومسلكها ، وبها صورة للأماكن المقدسة بمكة والمدينة . كما كان يحفظ بهذه الخزانة كثيرا من الخيم التى صنعت لمناسبات مختلفة .

خزائن السلاح وكانت ضمن خزائن القصر الفاطمى ، وقد أعدت لصنع الأسلحة وتخزينها أيضا لحين تجهيز الجيوش واعدادها للحرب وقد حفظت بها أعداد كبيرة من السيوف الأثرية النادرة مثل ذو الفقار وصمصامة عمرو بن معدى كرب ، وسيف عبد الله بن وهب الراسبى ، وسيف كافور ، وسيف المعز . وسيف أبى المعز . كما كانوا أيضا يحتفظون فيها بدروع قيمة مثل درع المعز وسيف الحسين بن على بن أبى طالب عليهما السلام ودرقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وسيف جعفر الصادق، الى جانب أعداد ضخمة من آلات الحرب المختلفة صنعت من أجل القتال ولكنها تعد من التحف الفنية الجميلة ومعظمها محلى بالذهب والفضة . وقد اعتنى الخلفاء بهذه الخزانة فكان الخليفة يذهب اليها من وقت الى آخر من أجل التفتيش عليها ، وقد عين لها أستاذ محنك للاشراف عليها وهذا يدل على أهمية تلك الخزانة

بالنسبة للخليفة (٧) . أما **خزانة التجميل** فهى جزء من خزائن السلاح ولكنها خصصت لحفظ الآلات الثمينة التى تستخدم فى الاحتفالات والمراكب الرسمية مثل البنود والرايات والرماح والطبل والنقارات والعماريات التى توضع على ظهور الجمال لحمل الأشخاص وكل ما يتعلق بالمواكب والاحتفالات .

اما **خزائن السروج** فهى قاعة متسعة أعدت من أجل حفظ السروج المحلاة بالذهب والفضة الى جانب كل قلائد الأعناق الخاصة بالخيل واللجم المذهبة المفضضة وغيرها من مستلزمات الخيول الى جانب العماريات المصنوعة من الديباج والسقلاطون

---

(٧) البنود والرايات تعتبر من أهم شارات الملك التى ترمز للخليفة والوزير ، والقواد والجيش وحتى بعض الموظفين بل ان بعضها كان يحمل فى مواكب تولية القضاة اذا تولوا الدعوة .

وكانت أعظم تلك الرايات والبنود الخاصة بالخليفة وكان أهمها اللواءان المعروفان (بلواءى الحمد) وكلاهما يشتمل على راية صغيرة من الحرير الأبيض المخطط بالذهب فكان يحملهما فى المواكب أميران من حاشية الخليفة ، ولكن دونهما (رمحان) بروءسهما أصله من ذهب خالص فى كل واحد منهما صورة سبع فى فمه طارة مستديرة ، مرسومة على قطعة من قماش لامع لونه أحمر وأصفر يحملهما فارسان من صبيان الخاصة وخلفهما احدى وعشرون راية من الحرير الموشى بالذهب والفضة بألوان مختلفة يبلغ طول كل واحدة منها ذراعين وعرضها ذراعا ونصف مطرزة بكتابات تخالف لونها حتى تظهر بسهولة للناظر مكتوب عليها (نصر من الله وفتح قريب) وكانت تلك الرايات يحملها واحد وعشرون فارسا من صبيان الخاص يركبون بغالا مسروجة مزينة .

ـ العماريات هى أشبه (بالهودج) التى يحملها الخدم أو الجمال أو حتى البغال لنقل الأشخاص ويطلق على أصحابها (أرباب العماريات) لتميزهم عن غيرهم فى المواكب الرسمية وكانت لها ستائر من الحرير الاحمر والأصفر او القرمزى ، أو من السقلاطون المبطن وبها نقوش جميلة وشرائط لتزينها .

ـ أما النقارات فهى نوع من الطبول حجمها كبير تحدث أصواتا هائلة فى المواكب وتحمل على عشرين بغلا على كل بغلة ثلاثة منها وشكلها نصف دائرى .

بالألوان والنقوش المختلفة . وقد حفظ بهذه الخزانة أيضا ما يخص البغــال من برادع مرصعــة بصفــائح الذهب وبعض الجواهــر ومطرزة باللؤلؤ .

وقد اشتمل القصر أيضا على **خزائن الخيم** وهى الخزائن التى خصصت لحفظ الخيام والمضــارب والمشارع والفساطيط وجميعها مصنوعة من أجود أنواع الأقمشة الديبقية والخسروانى والديباج والأرمنى وغيره من أنواع الأقمشة الفخمة ، وقد زينت بكثير من النقوش الحيوانية والنباتية الى جانب النقوش الآدمية . وقد احتفظ بداخلهــا ببعض الخيام المشهورة مثل القاتول التى صنعت زمن الخليفــة العزيز بالله والتى بلغ طول كل عــامود من أعمدتها سبعين ذراعا ، ودفع فى هذه الأعمدة التى استوردوها من بلاد الروم ألف دينار .

ولم يكتف الخليفة العزيز بالخيمــة المعروفــة بالقاتول بل صنعت له خيمــة أخرى عرفت بدار البطيخ بمصانع تنيس ، كما كان يحفظ بهــا أيضــا خيمة الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله والتى صنعت له بتنيس ومعظم اجزائها من الذهب الخــالص وقائمة على أعمدة من البلور والفضــة ، أنفق عليها اربعة عشر ألف دينار . كمــا كانوا يحتفظون أيضــا داخل هــذه الخزائن بالفسطاط الكبير الذى عرف بالمدورة وقد انفق فى اعداده ثلاثون الف دينار ، وقام بصنعه مائة وخمسون صانعا وحمل على هيئة قطع منفصلة بلغت أربعا وستين قطعة على مائة جمل ، وكانت تقام على عامود واحد طوله خمسة وستون ذراعا ، وتم استيراد هذه الأعمدة من بيزنطة زمن الخليفة المستنصر .

واشتمل القصر أيضا على **خزانة الشراب** وهى بمفهوم العصر الحديث « صيدلية القصر » فكان يتم الاحتفاظ بداخلها بأنواع

مختلفة من الأدوية والمعاجين والزيوت الطبية والعطرية وغيرها من المواد التى تدخل ضمن مكونات الأدوية . وكان يشرف عليها أطباء متخصصون يطلق عليهم أطباء الخاص .

خزانة التوابل وكانت تحتوى على أنواع مختلفة من التوابل والبخور والشمع والحلويات والزيوت المختلفة كزيت الزيتون وزيت السمسم . وكان ينفق على تلك الأشياء خمسون ألف دينار فى السنة . وكانت توزع على القصور طبقا لمقررات معينة تحدد من كل نوع على حدة . وقد أورد المقريزى وصفا مفصلا لهذه الخزانة وموجوداتها وطريقة توزيع تلك التوابل على قصور الخليفة ورجال الدولة .

ومن مظاهر الترف أيضا اشتمال القصر الفاطمى على **دار التعبئة** تمد قصوره المتعددة بالزهور المختلفة ، كما تمد المناظر والمواكب الرسمية والحمامات بهذه الزهور والرياحين كما كانت تشرف على امداد الأسمطة والموائد الخاصة بالخليفة ورجال دولته بتلك الزهور .

ويتم عن طريقها توزيع الفاكهة أيضا طبقا لنظام محدد حيث يتم توزيعها كل سنة على الجهات والأمراء والمستخدمين والحواشي الى جانب دار الضيافة والوزارة .

وقد تجلت مظاهر ازدهار الاقتصاد اكثر وأكثر فى عصر الخليفة العزيز بالله وظهر هذا فيما شيده من قصور جميلة بلغت درجة كبيرة من رقى الهندسة وعظمة المعمار مثل : « القصر الغربى » أو **قصر البحر** ، وكان البعض يطلق عليه القصر الصغير تمييزا له عن القصر الشرقى الكبير الذى سبق ذكره ، وكان الاتصال بين أجزاء القصر بواسطة ميدان فسيح يطلق عليه ميدان بين القصرين ، وكان هذا المكان مجتمع الجند المسافرة للحرب

أو لاستعراض الحرس الخليفى أو طوائف الشعب فى أوقات الأعياد ، كما تستخدم كمكان لاعلان الابتهاج العام زمن الأزمات الاقتصادية .

وقد أصبح هذا القصر مخصصا لاقامة السيدة ست الملك ابنة العزيز بالله بعد وفاته . ولكن المسبحى نقلا عن ابن أبى طى يحاول أن ينسب هذا القصر للخليفة المستنصر بالله فيرجع تشييد هذا القصر الى سنة ٤٥٧ هـ ويقول انه شيده من أجل استضافة الخليفة العباسى القائم بأمر الله صاحب بغداد بعد أن أعلن البساسيرى الخطبة للخليفة المستنصر بالله على منابر بغداد . وأعتقد أن هذا الرأى يخالف الحقيقة لأن هذا القصر كما سبق أن ذكر المقريزى وغيره من مؤرخى مصر الاسلامية قد شيد زمن الخليفة العزيز بالله والدليل على ذلك أن السيدة ست الملك أقامت به هى وحاشيتها وطائفة القصرية التى كانت تقوم على خدمتها . وقد كان من حرم هذا القصر ميدان كبير ، كما كان ملحقا به البستان المعروف بالكافورى (٨) وكان للقصر الغربى عدة أبواب منها باب الساباط ، وباب التبانين ، وباب الزمرد (٩) .

٣ ـ **قصر القرافة** وقد شيد للسيدة تغريد زوجة الخليفة المعز فى سنة ٣٦٦ هـ زمن الخليفة العزيز ، وهو أعظم قصور مصر الفاطمية ، وقد ألحق به بئر وبستان وجامع . واستخدم

---

(٨) أقيم هذا البستان زمن الأمير أبو بكر بن محمد طغج الاخشيد وكان مطلا على الخليج وكان متنزها جميلا طوال عصر الدولة الاخشيدية . وبعد قدوم جوهر أقام سراديب تربط بين القصر الشرقى وهذا البستان وقد استمر البستان الكافورى متنزها للخلفاء الفاطميين طوال العصر الفاطمى .

(٩) باب الساباط كان يخرج منه الخليفة يوم عيد النحر ، باب التبانين موضعه دار العلم أيام الخليفة الحاكم بأمر الله ، باب الزمرد قريب من البستان الكافورى .

هذا القصر زمن خلفاء الفاطميين للنزهة لجمال عمارته واتقان بنايته وشيد له منظرة مرتفعة محمولة على قبو مرتفع يسمح بمرور المارة من تحته ، كما يستظل به المسافرون من أشعة الشمس . كما اقيم تحته حوض لسقى الدواب ، وقد تم تجديده على يد الخليفة الآمر بأحكام الله الذى أضاف تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس فى المنظرة ليشاهد احتفالاتهم تحت هذه المنظرة . واستمر هذا القصر قبلة لكثير من خلفاء الفاطميين حتى زوال الدولة الفاطمية .

٤ ـ **أما قصر اللؤلؤة** أو منظرة اللؤلؤة فكان من أعظم قصور أو مناظر خلفاء الفاطميين على الخليج بالقرب من باب القنطرة ، وقد شيد بحيث يشرف على البستان الكافورى » أما من الناحية الغربية فيطل على الخليج والبساتين العظيمة والبركة التى كانت تعرف ببطن البقر ، فكان الجالس باللؤلؤة يكشف جميع أرض الطبالة (١٠) وجميع أرض ـ باب اللوق الحالية ـ كما يشاهد النيل من وراء البساتين . ويذكر المقريزى أن قصر اللؤلؤة تم بناؤه زمن الخليفة العزيز ، وعلى أيام الخليفة الحاكم كان سكنا للوزير برجوان وزير الخليفة الحاكم بأمر الله حتى سنة ٣٨٠ هـ عندما قتل برجوان بعد غضب الخليفة الحاكم عليه، وقد أمر الحاكم بهدم منظرة اللؤلؤة أو قصر اللؤلؤة ونهب ما به من تحف وأثاث فخم . ولكن أعيد بناؤه من جديد زمن الخليفة الظاهر(٤١١ ـ ٤٢٧هـ) ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥م ثم جددت عمارته زمن الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ) ١١٠١ ـ ١١٢٩ م

---

(١٠) ارض الطبالة موقعها اليوم المنطقة التى تحد من الشمال بشارع الظاهر وما فى امتداده حتى منطقة مهمشة ومن الشرق بشارع الخليج (صلاح سالم حاليا) ومن الغرب بشارع غمرة وميدان باب الشعرية .

حيث كان يخرج الى هــذا القصر فى وقت وفاء النيل مع جهاته وحواشيه متجها الى قصر اللؤلؤة .

وقد ظهر ترف الخلفاء من النفقات التى كانت تنفق فى أيام وفاء النيل على قصر اللؤلؤة ، فيذكر المقريزى أن ما كان ينفق كل يوم من الغنم والحيوان وجميع الأصناف أعداد كبيرة . أما أعداد الخدم فكانت كبيرة جدا .

٥ ــ ومن القصور الفخمة زمن الدولة الفاطميــة أيضــا **قصر الهودج** بالروضة الذى بناه الخليفة الآمر بأحكام الله لمحبوبته البدوية التى عشقها وتزوجها ، وجعله على طراز يقربها من بيئتها البدوية التى عاشت فيها حتى لا تشعر بالغربة داخل المدينــة ، وألحق به بستانا ضخما يطل على النيل . وظل هــذا القصر من القصور المحببة للخليفة الآمر يتردد عليه دائما الى أن اغتاله بعض من طائفة النزارية فى سنة ٥٢٤ هـ . ولم تقم لهذا القصر قائمة بعد مقتل الآمر فقد ترك مهجورا الى أن خرب (١١) .

٦ ــ وفى عهد الخليفــة الآمر أيضــا شيدت منظرة جميلة تعرف **بمنظرة بركة الحبش** (١٢) وجعلها من الخشب المدهون وجعل

---

(١١) يذكر أن الآمر بأحكام الله كان قد بلى بعشق الجوارى البدويات فجعل له عيونا ترشــده عن أفضلهن فأبلغوه عن جارية جميلة بالصعيد أديبة وشاعرة فتحــايل حتى شاهدها فوقعت من نفسه موقعا حسنا فخطبهــا وتزوجها وأحضرها الى القاهرة ، ولأنها لم تعتد حياة المدن بنى لها قصر الهودج على شط النيل بالفسطاط ولكنهــا ظلت متعلقة بالباديــة وبابن عم لها فلم تنعم بحباتها فى هذا القصر الفريد فى طرازه وفخامته .

(١٢) بركة الحبش تقع جنوبى مدينــة مصر فيما بين النيل والجبل كانت تعرف ببركة المغامرة وبركة جمير وباصطبل قرة وباصطبل قامش ، وبركة الأشراف وبركة الحبش وهو الاســم الذى اشتهرت به لانه كان يوجد بجوارها من الجهة الجنوبيــة جنان لطائفة من الرهبان الحبش فنسبت اليها البركة .

فيهـا طاقات تشرف على خضرة البركة وصـور فيهـا عددا من الشعراء وبجوار كل واحد دونت بعض أبيات من شعره ، وصنع رفـا من الذهب بجوار كل صورة من تلك الصور . فلما دخل الآمر الى منظرة بركة الحبش وقرأ الأشعار أمر بأن يوضـع على كل رف من تلك الرفوف صرة من المـال مقدارها خمسون دينارا، وأمر بأن يدخل كل شاعر ليأخذ صرته (١٣) . والحقيقة أن المتأمل لهذه القصة يدرك مدى ما أعطت ثروة مصر وحضارتها للخلفاء الفاطميين من ثراء الى جانب عشق بعضهم للفنون الرفيعة من الأدب والشعر وغيره .

كما أن خلفاء الدولة الفاطمية ووزراءهم تفننوا فى بناء المناظر والبساتين فى أماكن متفرقة من مصر والقـاهرة وقد عددها لنا المقريزى ، وبعضها كانت من أجل احتفالات وأعياد معينة والبعض الآخر كان من أجـل النزهـة والترويح عن النفس ، أو توديع الحملات الحربية عند خروجها ، بل ان بعض هذه القصور تحولت بعد وفاة صاحبها الى منظرة مثل « دار الملك » (١٤) التى بناها الأفضل بن بدر الجمالى فى سنة ٥٠١ هـ وكان الغرض من انشائها

---

(١٣) ولم تكن بركة عميقة فيهـا مـاء راكد بالمعنى المفهوم الآن من لفظ بركة ، وانما كانت تطلق على حوض من الأراضى الزراعيـة التى يغمرها مـاء النيل وقت فيضانه سـنويا بواسطة خليج بنى وائل الذى كان يأخذه ماءه من النيل جنوبى مصر القديمة فكانت الأرض وقت أن يغمرها المـاء تشبه البرك ولهذا سميت بركة تجاوزا .

(١٤) وتقع دار الملك الآن بجوار جامع الشيخ درويش فى آخر شـارع مصر القديمة من الجهة القبلية على النيل ويعتبر قسم شرطة مصر القديمة جزءا من هذه الدار .

أن تكون دار السكنى ، ولذا فقد نقل من دار القباب (١٥) بالقاهرة الى هذا القصر أو هذه المنظرة ونقل اليها الدواوين أيضا فصارت بها الأسمطة ، وقد اتخذ بهذه الدار مجلسا أطلق عليه « مجلس العطايا » حيث كان يكثر من تقديم الاعطيات للشعراء فى هذا المجلس عند سماعه لأشعارهم ـ كان يجلس فيه وكان به بستان عظيم . وقد تحول هذا القصر بعد مقتل الأفضل الى أحد المتنزهات الفاطمية ، ولكنه بعد سقوط الدولة خرب وتحول الى متجر زمن الملك الكامل محمد بن العادل .

٧ ـ أما **منظرة السكرة** فهى احدى مناظر الحاكم بأمر الله التسع وهى عند قنطرة السد فى البر الغربى ، بها بساتين جميلة كان يقصدها الخلفاء الفاطميون وينزلون بها عند كسر السد بعد التخليق بثلاثة أيام ، وكان الخليفة يشرف على كسر السد من احدى شرفات تلك المنظرة ويشرف أحد الخدم من طاقة أخرى ويشير نيابة عن الخليفة بكسر السد .

٨ ـ ومن المناظر الأخرى التى تم تشييدها زمن الفاطميين **منظرة الدكة** وكان لها بستان عظيم وكانت من جملة متنزهات الخلفاء فاذا ركب الخليفة يوم كسر الخليج يمر عليها ، وكان يدخلها منفردا .

٩ ـ أما **منظرة المقس** (١٦) فهى مطلة على النيل ومعدة من أجل نزول الخليفة بها فى وقت تجهيز الاسطول فيحضر رؤساء

---

(١٥) دار القباب هى دار الوزارة بجوار القصر الشرقى بناها الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فكان يقال لها الدار الأفضلية ثم قيل لها زمن الأيوبيين الدار السلطانية ، وكانت قديما تعرف بدار الغياب .

(١٦) والمقس قرية كانت على النيل موقعها اليوم جامع أولاد عنان وشارع الجمهورية وحديقة الأزبكية .

المراكب والشوانى بعد تزيينها واعدادها بالآلات والسلاح ويتم استعراض قطع الاسطول أمام الخليفة .

١٠ ـ اما **منظرة البعل** فهى من جملة مناظر الفاطميين وبها بستان أنيق انشأه الأفضل بن بدر الجمالى وأصبح من ضمن المناظر والبساتين التى يقصدها الخلفاء والوزراء أثناء ذهابهم للنزهة الأسبوعية يومى السبت والثلاثاء وتقع بظاهر القاهرة من جهتها البحرية بجانب الخليج الغربى ، بحرى أرض الطبالة (الفجالة الحالية) .

١١ ـ كما أقام هذا الوزير أيضا **منظرة التاج** وكانت تفرش بأحسن الفرش سواء بالصيف أو الشتاء . كذلك أنشأ أيضا منظرة الخمس وجوه كما جدد بستان الأمير تميم بن المعز (١٧) ببركة الحبش وأنشأ الروضة ، بحرى الجزيرة فكان يمضى اليها كل يوم .

١٥ ـ كما كان لهم منظرة أخرى تعرف **بمنظرة باب الفتوح** ، وكذلك **منظرة الصناعة** .

لم تقتصر حياة الترف على الخلفاء وحدهم بل شاركهم الوزراء أيضا فى تلك الحياة المترفة حيث الثراء والنعمة التى أخذت تتجلى فى القصور الفخمة التى تماثل قصور الخلفاء فمثلا كان للوزير يعقوب بن كلس قصر ينافس قصر الخليفة ويزخر بالكثير من التحف النادرة التى تملأ الخزائن المختلفة

---

(١٧) تميم بن المعز هو ابن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ولد سنة ٣٣٧ هـ بالمغرب وانتقل الى مصر مع أبيه ، وعرف بالفسق وغلب على شعره المجون والغزل والوصف فصرفه أبوه عن ولاية العهد ومنحها لأخيه العزيز بالله ومات سنة ٣٧٤ هـ ويقال ٣٧٥ هـ وترك لنا ديوانا من الشعر غاية فى الرقة والجمال .

بالقصر وقد كان قصره على درجة عالية من الادارة حيث قسمه الى خزائن على نمط قصر الخليفة ، وعين ناظرا يشرف على شئون تلك الخزائن كما استعان بأعداد كبيرة من الحرس قدرها البعض بأكثر من أربعة آلاف من العبيد . وقد كان شديد الولع بالناحية المظهرية حيث اهتم بمظهر الحجاب فألبسهم الحرير والديباج وجعل منهم النواب وأجلسهم على المراتب وقلدهم السيوف وجعل لهم المناطق . وقد عين الأطباء بقصره للكشف على المرضى من اتباعه الكثيرين ، وجعل من قصره قلعة للعلم والعلماء فكان يجتمع بأعداد كبيرة من الكتاب والعلماء والأدباء والمتكلمين وكبار رجال الدولة . وخصص بقصره مكانا يجتمع فيه بعامة الشعب لقضاء مطالبهم ، وآخر لسماع دروس المذهب .

ويذكر المؤرخون أن قصره كان به مكتبة ضخمة ضمت كتب الطب والفقه والأدب ، وأنه عين عددا كبيرا من الكتاب لنسخ القرآن الكريم والمخطوطات النادرة . وكان لديه خزانة للكسوة تضم أفخر أنواع الثياب وخصوصا ما صنع منها للحفلات الرسمية والأعياد وكان يشرف عليها ناظر يختص بشئونها . كما ألحق بقصره مطابخ خاصة بأهل القصر وأخرى لضيوفه وغلمانه وحاشيته ، وكانت موائده حافلة بالطعام لكل طائفة على حدة ، الى جانب اقامة جناح خاص للضيوف معد دائما لاستقبالهم .

اما برجوان وزير الخليفة الحاكم بأمر الله فقد كان شديد الولع بحياة الترف وتشييد القصور ، وكان قصره على نفس مستوى قصور خلفاء عصره ، به الخزائن الكثيرة ، والحواصل والأهراء (١٨) الملحقة بالقصر الخاصة بالغلال وشون الأتبان ، الى جانب مخازن البضائع ومناخات الجمال - حظائر الجمال -

(١٨) الحواصل والأهراء أماكن لحفظ الغلال طوال العام لامداد الجيش والاسطول والجوامع بها الى جانب توزيعها على أرباب الوظائف .

وامتلأ قصره بالخدم والعبيد وكثير من المغنين والمغنيات فقد كان محبا للطرب والغناء وجمع الآلات الموسيقية النادرة .

أما الوزير اليازورى فقد كان شديد الولع ببناء القصور وتأثيثها بأفخم الفرش والأثاث فقد فرشت مجالس قصره بالديباج الأبيض وجعل بها جامات كبار منقوشة ، أما المراتب والبسط فقد كانت فى غاية الرقة والأناقة . ويذكر أن الخليفة المستنصر بالله كان يحضر الى مجالس هذا الوزير كل يوم ثلاثاء فكان اذا دخل المجلس لا يطرف له طرف الا بعد خروجه من شدة اعجابه بما فى الدار من الفرش المصنوعة بطريقة متقنة .

ولم يقتصر بناء القصور على الخلفاء والوزراء وانما تعداه ليشمل أفرادا عدة من طبقات كثيرة من الشعب المصرى عاشت حياة الترف والرفاهية زمن الدولة الفاطمية وتجلت هذه الحياة فى مظاهر الثراء الذى ظهر فى صورة اقامة منازل ضخمة فخمة جميلة ، وجعل بعضهم أسطح تلك المنازل حدائق غناء . وقد وصف لنا ناصر خسرو أحد هذه البيوت التى جعل صاحبها من سطحها حديقة غناء بأن وضع على سطح داره ثلاثمائة جرة من الفضة فى كل منها شجرة مزروعة وكل هذه الأشجار مثمرة محملة وكأنها بستان ، وهذا دليل واضح على أن الشعب المصرى شارك خلفاءه فى بناء القصور والمنازل الفخمة وان هناك طبقات عاشت حياة الازدهار الاقتصادى بكل معانيها .

واذا تركنا جانبا قصور الخلفاء والوزراء وأفراد الطبقة المترفة وألقينا نظرة على الدور العادية أو دور العامة بالفسطاط مثلا فسنجدها تتألف من عدة طوابق وأحيانا خمس أو ست طبقات وتشبه المنابر فى بنيانها وبها طاقات لدخول الضوء والتهوية من الوسط ، وكانت تتخذ الأدوار العليا للسكن ، أما السفلى فكانت تستخدم كمخازن لحفظ المؤن والمواد الغذائية المختلفة .

ويصف ناصر خسرو مساكن القاهرة بأنها عمارات كبيرة فبعضها مكون من أربع عشرة طبقة وبعضها سبع طبقات ، وبعض المساكن بها دور كثيرة للسكن ، وبعضها بها حجرات معدة للايجار مساحتها ثلاثون ذراعا فى ثلاثين ، وبعضها تسع ثلاثمائة وخمسين شخصا . ويصف المبانى بأنها فخمة ومنظمة بينها فراغات بحيث تمكن الساكن من اقامة حديقة بينه وبين جاره . ويذكر أن الخدمات المختلفة من مياه الشرب والانارة وغيرها كانت متوفرة .

وقد بلغ الترف بكثير من سكان مصر الى حد اقامة حدائق وبساتين حول منازلهم بل فوق أسطح منازلهم أيضا ، فيحكى ناصر خسرو أن أحد أفراد الشعب كان لديه فوق سطح منزله حديقة غناء بها الأشجار والثمار وخصوصا أشجار النارنج والترنج والموز وغيرها ، وكانت كلها مثمرة مما شجعه على زراعة كثير من النباتات العطرية والزهور .

ومهما كانت المبالغات فى هذه الأوصاف الا أنها ولا شك لها دلالتها الواضحة التى تؤكد ازدهار الحياة الاقتصادية بالبلاد فى ذلك الحين . وهكذا كان انعكاس حياة الترف والازدهار الاقتصادى التى عاشتها مصر فى ذلك العصر واضحا على حياة عامة الناس .

ثانيا ـ الجوامع والمساجد :

ومن مظاهر ازدهار الاقتصاد المصرى وعظمة الثروة التى يمتلكها خلفاء ووزراء ورجال الدولة الفاطمية ، تلك المجموعة الكبيرة من المساجد والجوامع التى تم انشاؤها زمن هذه الدولة ، ويأتى على رأسها جميعا :

الجـامع الأزهـر :

وهو أول جـامع للدولة الفاطميـة بمصر ، انشأه القائد جوهر الصقلى لمولاه المعز لدين الله بعدما وضع أسـاس مدينـة القاهرة ، ويصفه ابن حوقل بأنه « مسجد نظيف حسن غزير القوم والمؤذنين » (١٩) وقد وضع أساسـه سنة ٣٥٩ هـ واكمل بناؤه سنة ٣٦١ هـ ، وأول جمعة جمعت فيه فى شهر رمضان من نفس السنة ، وقد اراد المعز لدين الله أن يقيم الشعائر للمذهب الشيعى فى هـذا الجامع حتى لا يثير شعور أهـل السـنة وقد استمر الجامع الأزهر موضـع اهتمام كثير من خلفـاء الدولة الفاطمية ، ومن هذا المنطلق فقد كان يتم تجديد مبانيه واضافة الكثير الى أثاثه ومخصصاتـه . فقد اهتم الخليفـة العزيز بالله بتجديده فى سنة ٣٧٨ هـ وزاد فى بنائه ، كما انشأ مسـاكن لطلاب العلم بجوار الجامع وكان أول من اهتم بالفقهاء وأطلق لهم أرزاقا واقام مساكن لاقامتهم بجوار الجـامع ، وخلع عليهم يوم عيـد الفطر ، فقد ورث العزيز عن أبيه الكثير من الثراء والعظمـة ولذا فقد اهتم بأمر هـذا الجامع فأنفق عليه أموالا طائلة خاصـة بعدما تحول فى عهد العزيز الوزير يعقوب بن كلس زمن الخليفـة العزيز بالله الفاطمى الى جامعة تدرس فيها علوم المذهب الشيعى فأصبح جامعا وجامعة ، ومن هـذا المنطلق قرر الخليفة العزيز بالله مخصصات لطلاب العلم ورواتب للعلماء وموظفى وخدام الجامع الأزهر ، كما لم يبخل عليهم بالكثير من المنح العينية والعطايا خلال شهور رجب وشعبان ورمضان فقد امتدت موائد الخليفة طوال تلك الشهور تحمل افخم أنواع الأطعمة ، كما اغدق فى الانفاق على

---

(١٩) اطلق على الجامع الأزهر عند بنائه « جامع القاهرة » واستمر هذا الاسم الى زمن الخليفة العزيز بالله عندما اقترح عليـه وزيره ابن كلس تغيير اسمه الى جامع الأزهر نسبة الى فاطمة الزهراء .

الجامع فى المناسبات المختلفة سـواء الدينية أو العامة ، وجرت العادة أن توزع الحلوى الملوكية بالجامع الأزهر على طلاب العلم والقراء فى أيام ليالى الوقود ، عاشوراء وموكب الرؤيا وغيرها من المناسبات . فيذكر المقريزى أن أرباب الأموال يمدون هذا الجامع بأنواع مختلفة من البر فيقدم له من الذهب والفضـة والفلوس اعانة للمنقطعين لعبادة الله تعـالى فتحمل اليهم أنواع الأطعمـة والخبز والحلوى ولا سيما فى المواسم والأعياد . أما الخليفـة الحاكم بأمر الله فقد اهتم بأمر الجامع الأزهر وزاد فيه وأحدث بعض التعديلات ووقفعليه أوقافا كثيرة حتى يضمن تدبير مورد مالى ثابت للانفـاق عليـه حتى يستمر فى أداء وظيفته كجـامع وجامعـة .

وقد أوقف عليه كثيرا من الأراضى الزراعيـة والعقـارات والمبانى والدور والقياسر .والمخازن والرباع والأسواق وغير ذلك مما أورده المقريزىفى الوقفية التىأصدرها الخليفة الحاكم بأمر الله فى شهر رمضـان سنة أربعمائة والتى تمتع الجامع الأزهر بنصيب الأسد منها . وهنـاك وقفيـة أخرى أوردها المقريزى نقـلا عن المسبحى ، أصدرها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة خمس وأربعمائة بتحبيس عدة ضياعهى اطفيح وطوخ وست ضياع أخرى وعدة قياسر ، وكان نصيب الأزهر من تلك الوقفية كبيرا . وتحمل هذه الوقفية معنى جديدا حيث تعتبر هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها تحبيس الضياع الزراعيـة وهو مبدأ لم يكن معروفا من قبل فى الدولة الفاطمية ، اذ جرت العادة على تحبيس العقـارات فقط . اما الضياع الزراعيـة فلم تكن تحبس الا أن الخليفـة الحاكم قام بذلك لأول مرة فى هذه الوقفية سنة خمس وأربعمائة. ويستدل من هذه الوقفيات على الاهتمام الكبير الذى أولاه الخلفاء الفاطميون للجامع الأزهر .

وقد تم تجديد الجامع فى عهد الخليفة المستنصر أيضا ، ثم جدده الخليفة الحافظ لدين الله وأنشأ فيه مقصورة بجوار الباب الغربى عرفت بمقصورة فاطمة يعنى فاطمة الزهراء . وقد تعاقبت الزيادات على الجامع طوال العصر الفاطمى وتحول الجامع الأزهر من مسجد للصلاة ونشر المذهب الشيعى الى مركز من أهم المراكز العلمية فى العالم الاسلامى فى ذلك الوقت .

ومن الجوامع الفخمة زمن الدولة الفاطمية **جامع القرافة** الذى شيد للسيدة المعزية (٢٠) زوجة المعز لدين الله وأم الخليفة العزيز بالله فى سنة ٣٦٦ هـ واعتمدت فى تنفيذ تشييده على الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب فى ذلك الوقت الذى اهتم بأمر هذا الجامع ليخرج على مستوى الجامع الأزهر ، وقد استقدم المزوقين من البصرة كما استقدم امهر الصناع الذين استخدموا أجود الأصباغ وقد جاء هذا الجامع تحفة فنية تشهد على عظمة البناء فى العصر الفاطمى وأيضا على عظم ثروة زوجات الخلفاء فقد أنفقت على تشييده أموال طائلة فجاء تحفة فنية نادرة ، وألحق به بستان جميل وصهريج للمياه كما ألحق به حمام وبئر ، وقد كان هذا الجامع قبلة لأهل مصر والقاهرة يقصدونه لقضاء أوقات النزهة كما يقصده الفقهاء لعقد حلقات المناقشة ، كما كان مكانا وملاذا للمسافرين واخوان السبيل يقصدونه لقضاء ليلتهم . وفى هذا الصدد يقول الأستاذ الدكتور زكى حسن « جامع القرافة بأنه بنى على نسق الجامع الأزهر وكانت فيه نقوش سماوية اللون وحمراء وخضراء ورسوم ذات

---

(٢٠) السيدة المعزية هى زوجة الخليفة المعز لدين الله وأم الخليفة العزيز بالله ، وهى أم ولد من أم ولد من العرب يقال لها تغريد ، كما تدعى درزان .

الوان أخرى وكانت السقوف مزوقة كلها وكذلك الحنايا وباطن العقود وظاهرها كل ذلك على يد نقاشين أصلهم من البصرة ومعهم بنو المعلم النقاشون المصريون » وقد أطلق عليه جامع القرافة لأنه بنى بمنطقة القرافة وقد لفت بهاء هذا الجامع انظار ابن حوقل حيث وصفه بأنه « من الجوامع الفسيحة الفضاء الرائعة البناء أنيق السقوف بهى المنظر » .

ونتيجة لزيادة الثروة وازدهار الاقتصاد زمن الخليفة الحاكم بأمر الله تزايدت حركة التشييد والبناء وخصوصا للمنشآت الدينية الفخمة ، فمن الجوامع المشهورة التى تم تشييدها زمن هذا الخليفة **جامع راشدة** الذى بدىء فى تشييده سنة ٣٩٣ هـ على أنقاض احدى الكنائس التى كانت قد اندثرت فى الموضع المعروف براشدة ، وكان يحيط بتلك المنطقة مقابر لليهود والنصارى . وقد حاول بعض النصارى اعادة بناء الكنيسة، الا أن المسلمين من أهل المنطقة ثاروا وبلغت شكايتهم الخليفة الذى أمر ببناء مسجد جامع على هذه الأرض فشيد فى وقت قصير . وقد أنفق الحاكم بأمر الله على بناء هذا الجامع وفرشه وتعليق قناديله أموالا طائلة ، وتم الانتهاء من تشييده فى شهر رمضان سنة ٣٩٥ هـ ، وركب الحاكم الى هذا المسجد الجامع فى نفس الشهر للاشراف على تجهيزه للصلاة ، وبدأت صلاة الجمعة فيه فى سنة ٣٩٨ هـ وكان الحاكم يكثر الذهاب اليه . وفى شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ انزل لهذا الجامع عدد كبير من القناديل المصنوعة من الفضة كبيرة الحجم ثقيلة الوزن فعلقت به . ثم أصيب الجامع فى عمارته وهدم سنة ٤٠١ هـ وأعيد بناؤه من جديد واعيدت صلاة الجمعة فيه منذ شهر رمضان سنة ٤٠٣ هـ وكان الحاكم يلتقى بعامة الشعب اثناء ذهابه لصلاة الجمعة ويأخذ شكاواهم . وقد كان لهذا الجامع شأن عظيم خلال العصر

الفاطمى بسبب موقعه داخل منطقة سكنية مزدحمة ولهذا فقد أنفق عليه كثير من خلفاء الدولة الفاطمية أموالا طائلة من أجل تجديد عمارته .

ومن الجوامع المشهورة أيضا فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله **جامع المقس** وهو الجامع الذى شيده الخليفة على شاطىء نيل مصر بمنطقة المقس وأوقف عليه أموالا كثيرة للانفاق على عمارته وفرشه وترميمه ، كما أوقف عليه أيضا مساحات شاسعة من النخيل الى جانب الأموال الضخمة .

أما **جامع الحاكم بأمر الله** فقد شرع فى تشييده الخليفة العزيز بالله الفاطمى سنة ٣٨٠ هـ وتوقف قبل اتمامه فأمر الخليفة باتمامه وأنفق عليه أربعين ألف دينار ثم أمر بامداد بخمسة آلاف دينار أخرى ، كما أوقف عليه أوقافا واحباسا كثيرة من قياسر وأملاك وغيرها . وعندما انتهى تشييده فرشه بأنواع فاخرة من الستائر الديبقية وعلق به أربعة تنانير من الفضة وفرشه بأجود أنواع الحصر كما نصب فيه منبرا . وقد اهتم الخليفة المستنصر بأمر الجامع الحاكمى فزاد فى مساحته كما فعل بعده أمير الجيوش بدر الجمالى .

ومن الجوامع التى بنيت فى العصر الفاطمى **الجامع الأقمر** الذى بناه الخليفة الآمر بأحكام الله ووزيره المأمون البطائحى أمام قصر الخليفة الآمر واكتمل تشييده سنة ٥١٩ هـ وقد أوقف عليه أوقافا فيذكر المقريزى ان الخليفة الآمر ووزيره المأمون البطائحى اشتريا حمام شمول ، ودار النحاس بمصر وحبسهما على سدنته وذلك للانفاق على خدمته وعمارة الجامع ووقود المصابيح ومن يتولى أمره ويؤذن فيه ورغم أن جميع مؤرخى مصر

الاسلامية يطلقون على هـذا المسجد اسم « جامع الأقمر » الا انه لم يكن به خطبة . ولكن المعمار الفريد الذى شيد عليه جعله من الجوامع الكبرى ذات الأهميـة فقد أبدع فنـانو العصر فى جعل واجهته الغربية غنية بأجمل أنواع الزخاف ، كما تفرد باشتماله على طاقات وعقود ومقرنصات تنسب الى الطراز الفارسى ، قائمة على أعمدة من الرخام . أما السقف فيشتمل على عدد كبير من القبوات صغيرة الحجم .

اما **جامع الفيلة** بمنطقـة بركة الحبش والمطل على الجبـل المعروف بسطح الجرف ، فقد شيده الوزير الأفضـل شاهنشاه ابن بدر الجمالى فى شعبان سـنة ٤٧٨ هـ وأنفق على تشييده وتأثيثه ستة آلاف دينار . ومات الوزير الأفضل ولم يكن قد اكتمل بناء هـذا الجامع فأكمله المـأمون البطائحى وأمر أن يجتمع فيه وجوه الدولة والرؤساء فى صـلاة أول جمعـة وذلك عندما تم بناؤه (٢١) .

ومن المساجد التى شيدت زمن الخليفة الظـاهر ، **جـامع الظافر** أو الجامع الأفخر وقد شـيد فى سنة ٥٤٣ هـ ويقع فى وسط سوق القـاهرة وأوقف عليه الخليفـة أوقافا كثيرة من الحوانيت للانفـاق على خدمـه وقرائه . وقد أقيمت به حلقـة للتدريس واجتمع فيه عدد من الفقهاء والمفسرين .

وأما **جامع الصالح** فقد شيده الملك الصالح طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بنصر الله ثم وزير الخليفـة العاضد خارج

---

(٢١) كان لهذا الجامع تسع قباب على قبلته تبدو للناظر من بعيد على هيئـة المدرعين التى توضـع على الفيلة فى الأعيـاد والمواكب الرسـمية ، ولذا سمى بجامع الفيلة .

باب زويلة ، وكان الغرض من تشييده وضـع رأس الحسين بن علي رضي الله عنه فيه بعد نقله من عسقلان بسبب هجمات الفرنج عليها . وبعد الانتهاء من بنائه لم يوافق الخليفة العاضـد على ذلك وأمر أن تدفن رأس الحسين داخل القصور الزاهرة فتم بناء المشهد الحسيني الموجود الى الآن .

وقد شيد جامع الصالح فوق صهريج وجعل عليه سـاقية على الخليج ويمتلىء الصهريج زمن فيضـان النيل ولكن هـذا الجامع لم يستمر أمره بعد الدولة الفاطمية الا مدة وجيزة ، فقد تهدم على أثر الزلزال المدمر سنة ٧٠٢ هـ .

مما تقدم نستطيع أن نحـكم على مدى ازدهار الاقتصـاد المصرى من خلال دراستنا للجوامع والمساجد التى تم تشييدها زمن الدولة الفاطمية وما أنفق عليهـا من أموال طائلة فى تشييدها وتأثيثها والانفاق عليها فهذا فى حد ذاته يعتبر من أهم الأدلة على أن الحياة الاقتصادية كانت مزدهرة والأموال متوفرة لدى الطبقة الحاكمة ورجال دولتهم .

ثالثـا ـ ثروات الخلفاء والوزراء :

يعتبر الثراء الذى تمتع به خلفاء الدولة الفاطمية من أهم مظاهر ازدهار الاقتصـاد المصرى ، فقد تضخمت ثروات هؤلاء الخلفاء الى الحد الذى جعل مؤرخى تلك الفترة يعتبرونهم من أغنى خلفاء العالم الاسلامى على الاطلاق . وقد تجلت مظاهر هذا الثراء فيما رواه المؤرخون عن حياة الترف والرفاهيـة التى عاشـها هؤلاء الخلفاء ، والأموال الطائلة التى كانت تنفق بسخاء على كثير من وسـائل الرفاهية التى كانت من أهم مميزات العصر الفاطمى بمصـر .

فقد كانت اهم مظاهر الثروة فى عهد المعز تلك الأموال الطائلة التى انفقها الخليفة على بناء القصر الشرقى الذى سبق أن تكلمت عنه بالتفصيل ، والايوان الكبير ، وسرير الملك المنصوب به وما يحيط بهذا السرير من فخامة الفرش وجمال الجوهر . كما تتجلى ثروة هذا الخليفة فيما أنفق فى سنة ٣٦٢ هـ من أموال طائلة على اعداد كسوة الكعبة المشرفة التى وصفها لنا ابن ميسر بالتفصيل حيث ذكر « أن سعتها اثنا عشر شبرا فى اثنى عشر شبرا وارضها ديباج أحمر ودورها اثنا عشر هلالا ذهبا فى كل هلال اترجة ذهب مشبك جوف كل اترجة خمسون درة كبارا كبيض الحمام وفيها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وفى دورها كتابة آيات الحج زمرد أخضر ، وحشو الكتابة در كبار لم ير مثله ؛ وحشو الشمسية المسك المسحوق فرآها الناس فى القصر ومن خارج القصر لعلو موضعها ، وانما نصبها عدة فراشين وجروها لثقل وزنها » (٢٢) .

ويذكر المقريزى « أن المعز اجتمع له بمصر ما لم يجتمع لآبائه ، وذلك أنه حصل له بالمغرب أربعة وعشرون بيتا من المال منها أربعة عشر خلفها المهدى ولم يخلف القائم شيئا ، وخلف المنصور بيتا واحدا وكسوة واضاف اليها المعز تسعة فصارت اربعة وعشرين » . والحقيقة أنه رغم ما انفق المعز من تلك الأموال على فتح مصر حتى تحسنت أحوالها ، ونظم اقتصادها ، الا أنه استطاع أن يعوض تلك الانفاقات فى أقصر وقت ممكن ، فقد استطاع بعد دخوله مصر ، كما سبق أن ذكرت ، أن

---

(٢٢) يقال عن : « الشمسية » انها قطعة من الديباج صنعت لتحلى وجه الكعبة ، وكانت تشبه بزخرفتها اشعة الشمس حيث كان لها اثنا عشر ذراعا تمثل شهور السنة ، والأهلة تمثل الشهور القمرية ، وكانت ترسل فى موسم الحج مع قائد خاص ليضعها بنفسه على باب الكعبة نائبا عن الخليفة الفاطمى.

يوظف مواردها المـالية مما ساعده على تعويض ما انفق بل زاد عليه أربعة بيوت أخرى ، ويرجع ذلك لتحسن خراج مصر بحيث استطاع أن يستخرج من خراج مصر ما لم يستخرج بمصر من قبل حتى بلغ استخراج يوم واحد مائة وعشرين الف دينار » .

ولم يكن هـذا نتيجة القهر أو للظـلم وانما لتحسن أحوال النيل والاهتمام بأمور الزراعه وكذلك الاهتمـام بوسـائل الرى والصرف وغيرها من تلك الأمور .

ولم يقتصر هذا على الخليفـة المعز بل ان مظـاهر ازدهار اقتصاديات البلاد ظهرت فى الثروات الضخمة التى كانت فى حوزة الأميرة رشـيدة ابنـة المعز فقد تركت عند موتها « ما قيمتـه الف الف دينار وسبعمائة ألف دينار ، ومن جملته ثلاثون ثوب خز مقطوع ، واثنا عشر الفا من الثياب المصمت الوانا ومائـة قطرميز مملوءة كافورا قيصوريا ، ومما وجد لها معممات بجوارها من أيام المعز ، وبيت هارون الرشـيد الخز الأسـود الذى مات فيه بطوس » .

أما السيدة عبدة وهى الابنة الثانية للخليفة المعز فكانت تمتلك ثروة كبيرة وصفهـا لنا المقريزى بأنهـا كانت تحتوى على اربعمائة قمطرة والف وثلثمائة قطعة مينا فضـية مخرقة زنة كل مينا عشرة آلاف درهم وأربعمائة سيف محـلى بالذهب وثلاثين الف شقة صقلية ، ومن الجوهر الشيء الكثير وما يعادل اردبا من الزمرد ، ومن ضخامة ممتلكاتهـا ختم على خزائنها ومقاصرها وصناديقها بأربعين رطلا من الشمع المصرى ، كما دون متاعهـا فى ثلاثين رزمة ورق .

ومن الأمور الطريفة أن خلفاء الدولة الفاطمية بعد المعز مثل الخليفة العزيز والحـاكم والظاهر كانوا ينتظرون وفـاة هـذه

الأميرة عبدة واختها رشيدة حتى يرثوا تلك الثروة الضخمة التى امتلكتاها الا أن المنية لم توافهما الا فى عهد الخليفة المستنصر سنة ٤٤٢ هـ أى بعد وفاة الخلفاء الثلاثة المذكورين . ولنا ان ندرك بعد ذلك مدى ازدهار أحوال البلاد الاقتصادية حينئذ ، فاذا كانت تلك هى ممتلكات بعض الأميرات فلنا أن نتصور كيف كان عصر الخليفة المعز بعد قدومه الى مصر من حيث الترف والغنى ثم الازدهار الكبير الذى أعقب تنظيم اقتصاد البلاد حتى صار عصر هذا الخليفة من أكثر العصور ازدهارا للاقتصاد المصرى .

اما الخليفة العزيز بالله فقد كان عصره من أزهى عصور الاقتصاد المصرى فقد تضخمت ثروات مصر فى عصر هذا الخليفة وتجلت تلك الثروة فى كثير من مظاهر الترف التى عاشها هذا الخليفة ورجال دولته وكثير من طبقات شعبه . وكان العزيز محبا لاقتناء النادر من الجوهر خبيرا فى أنواع وفنون البلور النادر ، محبا لبناء القصور الفخمة . وقد سبق أن ذكرت عظمة القصر الغربى الذى بناه ، وقاعة الذهب التى أصبحت من أهم مظاهر التقدم المعمارى ودليلا واضحا على ثراء هذا الخليفة ، وقد اورد لنا كثير من مؤرخى العصر وصفا شاملا لكثير من التحف النادرة التى كان يحتفظ بها فى خزائن قصره وما كان ينفقه على جميع تلك التحف من اموال جمة ، كما كان يميل الى الفخامة والتأنق ايضا فابتدع نوعا جديدا من العمائم محلاة بخيوط الذهب وسروجا معطرة بالعنبر ، كما اقتنى الطرائف من جميع انحاء المعمورة ، وانفق على جوارح الطير اموالا كثيرة وكان يستوردها من كثير من بلاد افريقيا . فقد أجمع المؤرخون على حب هذا الخليفة للصيد وقد وصفه البعض بانه « يصيد بالخيل والجوارح من الطير ؛ محبا للصيد مغرما به ويصيد السباع حتى انه كان يلقب

الخليفة الصياد » . وقد زاد اهتمامه بصيد السباع فكان يخرج لصيدها من صحراء منطقة الجيزة ، وكان يحتفظ بهـا ويعتنى بتربيتها داخل قصره ويذكر القلقشندى ان الدولة الفاطميـة كان لها ديوان خاص ينفق على تلك الحيوانات يعرف بديوان « الكارع » وكان من أهم مهـام موظفى هـذا الديوان الاشراف على تربيـة الدواب الخاصـة بالخليفـة بالاضافـة الى الفيلة والزرافـات والوحوش .

بل ان الخليفة العزيز من شدة حبه للحيوانات كلف أحد البيازرة باعداد كتاب عن فن الصيد وتربية الطيور والحيوانات التى يستخدمها الصـائدون فى رحلاتهم وقد قام بهذه المهمـة أبو عبد الله الحسن بن الحسين بازيار الخليفة العزيز بالله الذى الف « كتاب البيزرة » بعدما خدم فى ديوان الكارع أكثر من عشرين سنة وترقى حتى وصل الى رتبـة الوزير وقد وزره الخليفـة العزيز بالله سنة وثلاثة أشهر .

ويحضرنى هنا ما ذكره المقريزى على لسان هـذا الخليفـة عند مخاطبته لعمه حيدرة اذ يقول : « ياعم احب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون كله من عندى » وهذا القول ان دل على شىء فانما يدل على مقدار الترف الذى وصلت اليه البلاد فى عهده ، وانه أراد الا يقتصر الترف والنعم على حياة الطبقة الحاكمة فقط وانما اراد ان تكون تلك الثروة عند شعبه مثلما هى عنده .

أما الخليفة الحاكم بأمر الله فقد ورث ثروات طائلة عن جده وابيه ، هـذا الى جانب استقرار أمور البلاد الاقتصادية نتيجة

للانتهاء من اقامة المنشآت التى كان جده وأبوه قد بدآ فى اقامتها مثل القصــور الفخمة وخزائنهـــا العامرة بالتحف التى عشقها والده الخليفة العزيز وقد أورد لنا أبو المحاسن وصفا يوضح لنا مظاهر ثراء هـــذا الخليفة وذلك عند الحديث عن الاعداد لمراسم استقبال رسول ملك الروم فيذكر أنه « أمر بزينة القصر واخراج أعدال وفرش من الديبـــاج المطرز بالذهب وفرش الايوان المعد لاستقبال هـــذا الرسول كما علق على جدرانه ستائر مذهبــة أما صدر الايوان فقد علق فيه العسجدة وهى ورقة من ذهب مرصعة بالجواهر بحيث تظهر للناظر وكأنها أشعة الشمس تنعكس على الايوان طوال الوقت » .

ومن مظـــاهر الثراء فى عصره تلك الثروة الضخمـــة التى امتلكتها أخته ست الملك فيذكر المؤرخون أنها كانت سيدة ثرية وكريمة فى نفس الوقت فقد أهدت الى أخيها فى سنة ٣٩٠ هـ « ثلاثين فرسا مسرجـــة أحدها مرصـــع ، وستا وعشرين بغلة مسرجة ملجمة ، وخمسين خادما منهم عشرة صقالبة ، وتاجا مرصعا وشاشية مرصعة ، وأسفاطاً كثيرة من طيب ، وبستانا من فضة مزروعا من أنواع الشجيرات المختلفة » (٢٣) . وقد تركت بعد موتها ثروة تقدر بثمانمائة جارية الى جانب كثير من الجرار الممتلئـــة بالمسك ، وكانت تحصـــل على مخصصات سنوية تقدر بخمسين الف دينار . ولم تكن الأميرة ست مصر بنت الخليفة الحـــاكم أقل منها ثراء فقد كانت شديدة الثراء ، تركت بعد موتها ثمانية آلاف

---

(٢٣) السيدة ست الملك من أبرز نساء الدولة الفاطمية ، وهى ابنـــة الخليفة العزيز بالله وأخت الخليفة الحـــاكم بأمر الله . ولدت ببـــلاد المغرب سنة ٣٥٦ هـ وأمها نصرانية من بلاد الشام ، ورثت عن أبيها الكثير من الصفات الحميدة كالعقل الراجح والرأى السديد والحزم وحسن التدبير للأمور .

جارية ونيفـا وثمانين زيرا مملوءة بالمسـك ، وامتلكت الجوهر الثمين فمنها قطعة من الياقوت تزن عشرة مثاقيل .

أما السيدة رصيد أم الخليفـة لاعزاز دين الله فقد كثرت ثروتها ونضخمت وقد استغلتها فى بناء كثير من المنشآت الدينيـة وبعض اعمال الخير ، ومن هـذا ما أنفقته فى بناء بئر كسبيل فى منطقة القرافة وأقامت داخل قصر القرافة حوضـا كبيرا وجعلته ميضـأة .

كذلك تجلت مظاهر الثراء فى الثروة الضخمـة التى امتلكها الخليفة المستنصر بالله فقد ورث هـذا الخليفة الكثير عن آبائه مما لا يقدر بمال على الاطلاق . وقد ذكر المقريزى نقلا عن صاحب كتاب الذخائر وصفا لتلك الكنوز التى خرجت من خزائن القصر فى غضون الشـدة المستنصرية مما يعتبر أكبر دليـل على الثروة الطائلة التى كان يمتلكها هـذا الخليفة . ويذكر ابن ميسر أن كنوز المستنصر التى خرجت من القصر فى غضون الشدة المستنصرية دونت فى نحو عشرين كراسـا ، وقد اشتملت على أشياء عظيمة وتحف نادرة فمنها على سبيل المثال ثلاثون ألف قطعة بلور كبار وخمسة وسبعون ألف قطعة ديباج خسروانى ، ومنها عشرون ألف سيف ، وغيرها من التحف الثمينة التى عدد مؤرخو العصر بعضها عند حديثهم عن أحداث سنة (٤٦١ هـ ـ ١٠٦٨١ م) أحدى وستين وأربعمائة .

ولا يقل العصر الفاطمى الثانى عمـا ذكر آنفـا من تعـداد للثروات ، ولكى نتبين مقدار الثراء الذى تمتع به خلفاء العصر الثانى يكفى أن نتتبع ما أورده المقريزى عنـد ذكره لاسـتيلاء صـلاح الدين الأيوبى على خزائن القصر الفـاطمى ودواوينـه

ونفائسه ، وما أورد وصفه القاضي الفاضل عن بعض محتويات تلك الخزائن فقد ذكر انه عند الكشف على حاصل الخزائن الخاصة بالقصر وجد منه مائة صندوق كسوة فاخرة من موشي ومرصع ، وعقود ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة وغير ذلك من التحف النادرة . كما يقول المقريزى ان ما أخرج من القصر من الأموال والمجوهرات والأدوات النحاسية والفضية والملابس والأثاث والأقمشة والسلاح لا يتصوره أحد من كثرة ما اشتملت عليه تلك الخزائن من كميات ضخمة ذكر أنها لا توجد حتى فى ملك الأكاسرة ولا فى أية دولة من الدول الحاضرة فى ذلك الحين .

أما عن الوزراء فلا شك أن وزراء العصر الفاطمى تمتعوا أيضا بامتلاك ثروات ضخمة وصفها لنا مؤرخو العصر وبالغ بعض هؤلاء فى تقدير تلك الثروات كما سبق وأن بالغوا فى تصوير ثروات الخلفاء ومهما يكن الأمر فلا شك أن ذلك انعكاس حقيقى يظهر مدى ازدهار أحوال البلاد الاقتصادية ، فقد شارك الوزراء خلفاءهم فى حب اقتناء الثروات الضخمة .

ومن أشهر وزراء العصر الأول الذين تمتعوا بتملك الثروات الضخمة يعقوب بن كلس الذى خلف وراءه ثروة كبيرة من الأملاك والضياع والقياسر والرباع والأموال ، الى جانب خزائن قصره التى امتلأت عن آخرها بالتحف النادرة والطرائف والجوهر والطيب . أما خزائن كتبه فقد حوت من الكتب النادرة والمصاحف الشريفة ما لا يقدر بثمن . وقد قدر ما تركه ابن كلس بأربعة آلاف دينار هذا عدا ما انفقه فى اعداد جهاز ابنته ، فقد بلغت النفقة فى اعداد هذا الجهاز مائتى الف الف دينار وترك ضمن ثروته ثمانمائة حظية الى جانب الجوارى الخاصة بالخدمة .

وقد بلغ ثراء ابن كلس الى الحد الذى دفع كثيرا من أعدائه الى السعى لدى الخليفة لاحداث وقيعة بينهما وذلك باتهام الوزير بأنه « يحوز من كل شيء أعلاه ويترك للخليفة ما دون ذلك » وفى هذا الصدد يذكر ابن سعيد أن طير الوزير ابن كلس سبق طير الخليفة العزيز فشق عليه ذلك ووجد أعداؤه سبيلا الى الطعن فيه . وكتبوا الى العزيز أنه اختار من كل صنف أعلاه ولم يبق منه الا أدناه حتى الحمام .

وعندما بلغ الوزير ابن كلس هذه الوشاية كتب الى الخليفة :

قل لأمير المؤمنين الذى
له العلا والنسب الثاقب

طائرك السابق لكنه
جاء فى خدمته الحاجب

فأعجب الخليفة العزيز بتلك الأبيات وأيقن ما كان يقصده البعض لمحاولة الوقيعة بينهما .

وقد حذا الوزراء حذو ابن كلس ، فلم يكن الوزراء الذين أتوا بعده بأقل منه حبا لجمع المال فالكل اتخذ الوزارة وسيلة للحصول على ثروة ضخمة توفر له حياة الترف .

وقد تمتع الوزير أبو عمار وزير الخليفة الحاكم بأمر الله بالسيطرة على أمور الدولة دون الحاكم لصغر سنه فسيطر على اموال البلاد وبسط يده فى الاطلاق والعطاء والصلات والأموال . وقد جمع ابن عمار هذا لنفسه ثروة طائلة قام بانتهابها فى وقت الاضطرابات التى حدثت بين المغاربة والأتراك كما سبق وأن ذكرت عند الكلام عن النزاع بين طوائف الجند .

وكان برجوان وزير الخليفة الحاكم بأمر الله ميالا للهو محبا للغناء يجتمع حوله المغنون والمغنيات محبا لجمع التحف النادرة . وقد ترك بعد مقتله ثروة ضخمة ، فيذكر المقريزى انه وجد عنده مائة عمامة كلها شروب ملونة مصممة على مائة شاشية ، وألف سروال ديبقى بألف تكة حرير أرمنى ، ومن الثياب المخيطة . والصحاح والحلى والمصاغ والطيب والفرش الصياغات الذهب والفضة ما لا يحصى كثرة ، ومن العين ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، ومن الخيل الركابية مائة وخمسون فرسا وخمسون بغلة ومن بغال النقل ودواب الغلمان نحو ثلثمائة رأس ومائة وخمسون سرجا منها عشرون ذهبا ، ومن الكتب شيء كثير ، وحمل لجاريته من مصر الى القاهرة رحل على ثمانين حمارا وهناك نص أورده ابن اياس عن الثروة التى تركها برجوان يذكر فيه « أن برجوان ترك مائتى مليون دينار ذهبا وخمسين اردبا من الدراهم الفضية ، واثنى عشر صندوقا من الجواهر ، هذا عدا الأملاك والضياع والخدم والبقر والأنعام والجاموس والحواصل وأهراء الغلال وشون الأتبان ومخازن البضائع ومناخات الجمال وغير ذلك من الثياب التى قدرت أعدادها بالآلاف من المناديل والقمصان والسراويل والتكات وآلاف قطع القماش من كل صنف » . والحقيقة أن نص المقريزى أقرب الى الدقة والصواب عما أورده هنا ابن اياس . فليس من المعقول أن يترك برجوان هذه المبالغ الضخمة من الذهب والفضة وخصوصا أن الفترة التى قضاها فى الوزارة لم تكن تسمح له بالحصول على كل تلك الثروة الضخمة، وأوضح أن الأمر هنا لا يخلو من المبالغة ، ولكن هذا على كل حال يؤكد أنه ترك ميراثا هائلا .

وقد بلغ الثراء ببعض الوزراء أن غدوا يقرضون الخليفة الأموال للانفاق على الجند فى وقت الأزمات الاقتصادية . فعندما توفى الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ١٥ شعبان سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥ م) كانت الخزانة فى حالة انهيار نتيجة لاسراف هذا الخليفة فعجز ابنه الخليفة المستنصر عن الوفاء بأرزاق الجند مما دفع أبا القاسم على بن أحمد الجرجرائى الوزير الى احضار الأموال من قصره لتوزيعها على الجند حتى يتقى شرهم وهذا فى حد ذاته دليل واضح على مدى ما كان لهذا الوزير من ثروة ضخمة بحيث استطاع أن ينفق على الجند . وعندما توفى هذا الوزير وجد له سبعمائة صينية من ذهب وفضة ، ومائة الف مثقال من العنبر وغير ذلك .

واذا كان هذا هو الحال بالنسبة لوزراء العصر الفاطمى الأول ، فلنا أن نتصور مقدار الثراء الذى تمتع به الوزراء فى العصر الثانى وخصوصا بعدما استقرت الأمور على يد الوزير بدر الجمالى وأخذت مظاهر الازدهار الاقتصادى تطل من جديد على الأجواء المصرية .

ويذكر المؤرخون ان بدرا جمع ثروة طائلة خلال سنوات حكمه بمصر لا يستطيع احد تقديرها ، ولكن البعض يحاول أن يتكهن بعظمة هده الثروة من خلال مظاهر الترف التى عاشها بدر وحاشيته خلال تلك الفترة فيذكر البعض أن احد كتابه اشترى سمكة من عنبر بألف دينار حرقها فى النار فى جلسة واحدة . كما أن احد الشعراء ويدعى علقمة بن عبد الرزاق العليمى مدح بدرا ، واجازه بدر من ماله بعشرة آلاف دينار . ومن مظاهر ثروته أيضا الانفاق ببذخ على مطابخ قصره . كما شغف باقتناء الجواهر الثمينة . وقد خلف بعد وفاته من الجواهر والياقوت

اربعة صناديق ، ومن القصب والفضة والذهب والمراكب والسروج المحــلاة ما يعجز عن وصفه . وخلف ألف قصبة زمرد لأنه كان مغرما بالاحتفاظ بتلك القصبانات وكان يجمعها من جميع بقاع العــالم .

أما ثروة الأفضل بن بدر الجمالى فقد أطنب مؤرخو مصر الفاطمية فى وصفها حتى ان الخليفة الآمر بأحكام الله استمر اربعين يوما بدار الأفضل أو دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وفى غيرها من قصــور الأفضل يشرف بنفسه على تدوين ما تم نقله من الذخائر والتحف النفيسة الى القصر الشرقى . وقد اشتملت ثروة الأفضل كما أوردها ابن ميسر على ستة آلاف ألف دينار عينا وفى بيت الخاصــة ثلاثة آلاف دينار ، وفى البيت البرانى ثلاثــة آلاف ومائتان وخمســون أردبا دراهم ورقــا ، وثلاثون راحلة من الذهب العراقى المغزول برسم الرقم ، وعشرة بيوت فى كل بيت منها عشرة مسامير ذهبا كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليها العمائم المختلفة الألوان (مغطاة بالمناديل المزركشة) وتسعمائة ثوب ديباج وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتنيس برســم كسوة بدنه ، ولعبة عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليهــا من ثيابــه ليكسب الراحــة ومن الطيب والنحــاس والآلات ما لا يحصيه عدد ، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمــال ما بلغ ضمان البانه ألف دينار ، وخمسمائة ألف مجلد من الكتب . هذا الى جانب ما وجد بخزائن قصره من المفروشــات النادرة والآلات الفخمــة ، وثمانمائــة جاريــة منهــا خمســون جارية لكل واحدة منهن حجرة وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات . وقد عثر لديه على سبعمائة طبق من الفضــة والذهب ، ومن الآلات كالأســطال والصحاف والشرابات والأباريق والقــدور والزبادى والقطع من الذهب والفضة المختلفة الأجناس ما لا يستطيع أحد

أن يحصيه . أما البرانى الصينى الكبيرة المملوءة بالجوهر المنظوم على هيئة مسبحة فكانت عديدة .

وقد بلغ من ثراء الأفضل أنه جعل فى مجلس شرابه صورا لثمانى جوار متقابلات ، أربع منهن بيض من كافور ، وأربع سود من عنبر ، ووضع عليهن أفخر الثياب وزينهن بأغلى المجوهرات، فاذا دخل من باب مجلس الشراب انحنت تلك الصور له فاذا جلس استوت قائمات . ومن ضخامة ثروته ما كان ينفق بمجلس العطايا الذى كان يجلس فيه لتسيير شئون الدولة وأحيانا لمقابلة الشعراء . فكان يضع فى هذا المجلس ستة أكياس من الديباج صنعت من كل لون اثنان ووضع فى كل منهما خمسة آلاف دينار كما وضع فى قاعة اللؤلؤة مظروفان آخران فى أحدهما خمسة آلاف دينار وفى الثانى دراهم . وكانت كلها مخصصة لتوزيعها على الشعراء اذا أجادوا . وكان الأفضل يحصى ما انفق بعد انقضاء هذا المجلس ويأمر باعادة المبالغ من جديد بدلا من المنصرفة ، بل انه ضاعف تلك العطايا وزاد فى الانفاق فى الجوامع التى يمر عليها والمتأمل لهذه الثروة الضخمة والحياة المترفة التى عاشها وزراء العصر الفاطمى الثانى يدرك حجم ازدهار الاقتصاد المصرى فى تلك الفترة .

واذا تتبعنا ما ذكره المؤرخون عن ثروات الوزراء فى العصر الفاطمى فاننا يلفت انظارنا أن جميع تلك الثروات كانت تتم مصادرتها بعد موت الوزير أو فى حال الغضب عليه من قبل الخليفة أو فى حالة قتله ، وفى بعض الأحيان كان يتوارثها أهل الوزير ، ولكنها فى جميع الأحوال كانت تحت تصرف الخليفة يستردها فى اى وقت يريد .

واخيرا فمن مظاهر ازدهار الاقتصاد المصرى أيضا تلك الحفلات والأعياد التى اهتم خلفاء ووزراء الدولة باقامتها والانفــاق عليها ببذخ . وقد أورد لنا كثير من مؤرخى العصر ورحالته وصفا شاملا لتلك الحفلات والأعياد ومبلغ الاهتمام بها والانفاق عليها وما كان يتم من اخراج الآلات الضخمة واعداد الجنــد والخيول والآلات وغير ذلك ، مما يعطى صورة واضحة عن مدى العظمة والترف الذى وصلت اليه مصر خــلال العصر الفاطمى ، والذى يقــدم ولا شك الدليل على ازدهار اقتصادها .

الفصل الثانى

مراحل انهيار الاقتصاد المصرى وأسبابه

رغم ما كانت تتمتع به مصر طوال العصر الفاطمى عامة من ازدهار للحياة الاقتصادية وظهور حياة الترف والرفاهية بين طبقات الشعب المختلفة ، وانتشار الرخاء الاقتصادى الذى كان سمة من سمات هذا العصر ، الا أن عوامل الانهيار والاضمحلال كانت تطل برأسها من وقت لآخر معلنة عن وجودها وسط الرخاء والازدهار ، وكانت تحركها وتساعدها على الظهور عوامل كثيرة من صنع الطبيعة ولا دخل للانسان فى تسييرها ، ومثال ذلك ما كان يحدثه النقص فى فيضان النيل من عام الى آخر من قحط واضطراب اقتصادى يؤدى الى المجاعات التى تعصف بالاقتصاد وتهدم قواعد بنيانه ، وغالبا ما كان يتبع تلك المجاعات والقحط ، الأوبئة والأمراض التى تحصد أرواح الشعب المصرى بلا تفرقة بين غنى وفقير ولم تكن تلك هى أهم العوامل ، وانما لعب

العنصر البشرى أيضا دورا كبيرا فى حدوث هـذا الانهيار ، ويتضح هـذا من الدور الخطـير الذى لعبه الصراع بين طوائف الجنـد مما أدى الى انهيار النظـام الأمنى واضطراب الاقتصاد ، مما شد البلاد الى أزمة خطيرة تعتبر من أشهر الأزمات فى التاريخ الاسلامى لمصر ، وهى ما عرفت (بالشدة العظمى) التى كادت أن تقضى على الدولة الفاطمية لولا تدخل القدر واستعانة الخليفة ببعض القوى الخارجية التى ساهمت فى اعادة بناء ما أفسدته تلك الشدة من فوضى سياسية واضطراب أمنى وانهيار اقتصادى .

ولم يخـل العصر الفاطمى التـالى أيضـا من فترات من الاضمحلال التى تخللت الازدهـار ، والتى سـاعد على ظهورها ما اتبعه الخلفاء فى الانفاق ببذخ على الحمـلات الحربية التى كانت تذهب لمحاربة أعداء الدولة وتأتى على ما فى الخزانة من أموال . هـذا الى جـانب الأموال الطائلة التى كانت تذهب فى صـورة معونات ومعدات حربية لمساندة بعض الحركات الانفصالية ضـد الخلافة العباسية مثلما حدث عندما أعلن البساسيرى العصيان على الخليفة العباسى ودعـا على منابر بغداد للخليفـة الفاطمى لمدة من الزمان فذهبت أموال مصر بدون حساب لمساندة هـذه الحركة الانفصالية عن جسم الخـلافة العباسـية مما أدى الى الانهيار فى ميزانية الدولة .

ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل بالغ الخلفاء أيضا فى الانفاق على أتباع المذهب الشيعى فى مختلف أنحـاء المعمورة مما أثر على اقتصاديات البلاد وعجل بالأزمات الاقتصادية التى كانت تقضى على كل مظهر ممن مظاهر الازدهار لمدة من الزمن .

ومن الأسباب التى ساعدت أيضا على انهيـار الاقتصـاد المصرى ذلك الصراع المستمر بين رجـالات الدولة والوزراء فى

العصر الفاطمى الثانى مما أدى الى اهمال اقتصاديات البلاد ، وانعكس بصورة خطيرة على كل أمورها .

واذن فيمكننا بصورة عامة أن نجمل الأسباب التى أدت الى وقوع الأزمات الاقتصادية بالبلاد فيما يلى :

- النقص أو الزيادة فى فيضان النيل .
- الصراع بين طوائف الجند المختلفة .
- اعداد الحملات الحربية .
- مساعدة الحركات الانفصالية .
- الانفاق على أتباع المذهب الشيعى .
- صراع الوزراء العظام .

ونعرض هنا بشىء من التفصيل بعض هذه العوامل لنتبين حقيقة هذه الأزمات الاقتصادية وما أدت اليه من تأثيرات سلبية على المجتمع المصرى فى ذلك الحين فى شتى جوانبه من سياسية واجتماعية وصحية ونفسية وغيرها .

اولا ــ الأزمات الاقتصادية التى اعقبت تذبذب فيضان النيل :

تعرضت مصر منذ الأزل لأزمات اقتصادية متعددة نتيجة لنقص مياه النيل مما أدى الى وقوع المجاعات التى كانت تأتى على الاقتصاد فتهز أركانه ، وقد تعرضت مصر قبيل العصر الفاطمى (فى عصر الدولة الاخشيدية) الى قحط استمر تسع سنوات (من سنة ٣٥٢ هـ وحتى بعد استقرار الدولة الفاطمية بالبلاد) عصف باقتصاد البلاد ونشر الفوضى والخراب بين أرجائها ، وقد كان السبب الأساسى لهذا القحط هو انخفاض ماء النيل من

ناحية حيث توقف منسوبه عند خمسة عشر ذراعا وأربع أصابع مما أدى الى ارتفاع الأسعار وانعدام الأقوات ، واضطراب أحوال البلاد من ناحية أخرى نتيجة للصراع بين الطوائف المختلفة ، وقد زاد الأمر تعقيدا بعد موت كافور الاخشيد حيث أخذ الاضطراب يعم الجند والأمراء فانتشرت الفوضى ونهبت الأسواق ، وشملت الفوضى الحياة بصورة عامة ، وضاعت أموال الناس وتعذرت الأقوات ، الأمر الذى جعل الكثيرين من أهل مصر يطلبون النجدة من الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ببلاد المغرب لانقاذهم من تلك المجاعة التى قضت على كل شيء بالبلاد ، وحصدت الأرواح وقضت على الأموال ، فمنذ اليوم الأول لدخول جوهر الصقلى الى مصر سنة ٣٥٨ هـ بذل قصارى جهده فى الحد من تلك المجاعة وتخفيف آثارها ، وقد ساعده على هذا ما حمله معه من الأموال وما أرسله له الخليفة المعز من سفن محملة بالغلال لتخفيف وطأة تلك المجاعة ، ولم يقتصر الأمر على هذا بل وضع جوهر الصقلى منذ اليوم الأول أمام عينيه ضرورة اعادة بناء الاقتصاد المصرى على أسس سليمة ، لذا اتخذ بعض الاجراءات التى حدت فعلا من استفحال الأزمة ، كان أهمها كتم النداء على مقياس النيل الا بعد أن يوفى الحد الطبيعى فقد أمر المعز سنة ٣٦٢ هـ بمنع النداء بزيادة ماء النيل وألا يكتب بذلك الا اليه والى القائد جوهر حتى يتفادى تكالب الشعب على تخزين الغلال خوفا من حدوث قحط أو مجاعة أو تخزينها حتى يحصلوا على أكبر قدر من الربح فى حالة المجاعة ، كما اهتموا أيضا بنظام الحسبة وتطبيقها فى الأسواق . ولم يغفل المعز الاهتمام بمشروعات الرى والصرف حتى يضمن الحد من الآثار السيئة لتذبذب مياه النيل .

ورغم هذه الاجراءات جميعها الا أن الأزمة الاقتصادية والمجاعة لم يقض عليها نهائيا بل استمرت حتى بعد سنة ٣٦٢ هـ

حيث اشتد الوباء وتفشت الامراض وكثر عدد الموتى حتى عجز الناس عن تكفين موتاهم ودفنهم فكان من يموت يطرح فى النيل . الا ان الأزمة انفرجت بعد ذلك فمنذ سنة ٣٦٣ هـ - ٩٧٣ م وصل ماء الفيضان الى سبعة عشر ذراعا مما دفع المعز الى التفاؤل وخلع على ابن أبى الرداد ومنحه الجائزة والخلع والحملان على عادته .

ولكن الأزمة اخذت تظهر مرة أخرى زمن الخليفة العزيز بالله حيث توقف النيل عن الارتفاع سنة ٣٧٢ ، ٣٧٣ هـ - ٩٨٢ ، ٩٨٣ م مما ساعد على اضطراب احوال البلاد وارتفاع الأسعار حتى بلغ ثمن حمل الدقيق أحد عشر دينارا ، واقترن بهذا الغلاء وباء اتى على كثير من أفراد الشعب ، ولكن الخليفة العزيز استطاع ان يتدبر أحوال البلاد ويسيطر على هذه الأزمة وسرعان ما دارت عجلة الانتاج وازدهر الاقتصاد وعاشت البلاد حياة ترف ورخاء فى ظل حكم هذا الخليفة .

وفى سنة ٣٨٧ هـ - ٩٩٧ م أخذت المجاعة تلوح مرة أخرى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله بسبب قصور ماء النيل وتوقفه عن الارتفاع أكثر من خمسة عشر ذراعا مما أدى الى انعدام الأقوات وارتفاع الأسعار واضطراب الأمن ، وزاد الطلب على القمح باعتباره الغذاء الرئيسى للشعب المصرى ، واشتد خوف الناس ، واخذت النساء من الطرقات (المقصود هنا خطف النساء من الطرقات) ، وزادت أسعار الخبز حتى وصلت أربعة أرطال بدرهم ، واستمر الحال هكذا لفترة .

وفى سنة ٣٩٥ هـ أبى النيل ان يصل لأكثر من خمسة عشر ذراعا وسبع أصابع ثم الى ستة عشر ذراعا بعد ذلك ، وقد نشأ عن ذلك ازمة كبيرة واضطراب الاقتصاد وساءت الأحوال المالية

والنقدية بالبلاد اذ ظهرت ازمة سببها انخفاض سعر الدراهم الفضية فيقول المقريزى : « وقفت الأحوال فى الصرف فان الدارهم المعاملة كانت تسمى يومئذ الدراهم المزايدة والقطع فتعنت الناس فيها وكان صرف الدينار ٢٦ درهما فتزايد سعر الدينار حتى انها وصلت سنة سبع وتسعين وثلاثمائة الى أربعة وثلاثين درهما بدينار » . وقد وصلت الأحوال المالية الى أقصى درجات انهيارها فى تلك الفترة وانتشر الرعب بين فئات الشعب جميعا وخصوصا عندما وصل أتباع الثائر أبو ركوة الى منطقة الفيوم فزاد اضطراب الناس وارتفعت الأسعار مما دفع أهل البلاد الى اللجوء الى الخليفة الحاكم بأمر الله .

والحقيقة ان هذه الأزمة كان السبب الرئيسى لها هو بذل المال فى سبيل القضاء على حركة أبى ركوة واتباعه مما جعل البلاد تصاب باضطراب اقتصادى صحبه ارتفاع فى الأسعار وانعدام وجود السلع الى حد انتشار المجاعة لولا تدارك الخليفة الحاكم بأمر الله هذا الأمر فقضى على هذه المجاعة بحسن تدبيره للأمور واشرافه بنفسه على شئون الحسبة فى الأسواق والقضاء على احتكار الحبوب. ويحكى انه عندما اشتد أمر الأزمة واضطربت أحوال الناس استعانوا بالخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى لينظر فى أحوالهم فقال لهم : « اذا كان الغد أتوجه الى جامع راشدة وأعود فان وجدت فى طريقى مكانا خاليا من الغلة ضربت عنق صاحب ذلك المكان على بابه » . فلما توجه الى جامع راشدة وعاد بعد صلاة العصر فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة الا وحمل ما عنده من الغلال ووضعها فى الطريق التى يمر فيها الخليفة فلما مر من الطريق وجد الغلال قد امتلأت بها الطرقات وشبعت أعين الناس ، ثم جمع خزان الغلال والطحانين والخبازين وهددهم وقبض على مجموعة منهم وأمر الا تباع الغلال

الا للطحانين وحدد سعر تليس القمح بدينار الا قيراطا ، والشعير عشر ويبات بدينار والحطب عشرة أحمال بدينار وسائر الحبوب والمبيعات . كما أمر بمصـــادرة كثير من مخازن الغلال وفرق ما بها على الطحانين بأسعار محددة حتى يقضي على احتكارها .

الا أن المجاعة لم يقض عليها نهائيا حيث أتت سنة ٣٩٨ هـ والنيل لم يصل الى حد الوفـاء فلم يزد عن أربعة عشر ذراعا وأصابع ، فأخذت المجاعة تطل مرة أخرى على البلاد واشتدت الأزمات وضج الناس من الجوع ووصل سعر الحملة من الدقيق ستة دنانير ، وكل تليس قمح بأربعة دنانير ، والأرز كل ويبة بدينار ولحم البقر رطل ونصف بدرهم ولحم الضـأن رطـل بدرهم ، والبصل عشرة ارطال بدرهم ، واشتدت الأزمة أيضا حيث توقفت المواصلات النهرية نتيجة لانخفاض المياه بصـورة كبيرة مما أدى الى توقف نقل السلع التجارية من مدينة تنيس ومن المحـلة وغيرها من المدن التجارية والصناعية الى مدينة مصر والقـاهرة التى تعتمد على هذه المنتجات ، وقد انتشرت المجاعة واعقبهـا الوباء والامراض التى عصفت بالبـلاد وهزت كيان الاقتصـاد المصرى فى تلك الفترة .

ولم يكن انخفـاض النيـل هو السبب الأوحـد للأزمـات والمجاعات ، بل كان أيضا ارتفاعه عن الحد سببا فى حدوث الأزمات الاقتصادية وانتشار المجاعة . ففى سنة ٤٠٨ هـ زاد النيل زيادة كبيرة اغرقت بسببه البلاد والضياع ووصل المـاء الى المنـازل بمدينة مصر والقـاهرة مما ادى الى القضـاء على الزرع وعلى الثروة الحيوانية حيث نفقت البهائم وانتشر الوباء وفر معظم الناس من مساكنهم تاركين وراءهم كل شيء . ولكن سرعان ما عاد الى الانخفاض سنة ٤١٠ هـ فاشتد الغلاء وارتفع سعر الدقيق

حتى وصـــل سعر الرطلين بدرهم واللحم أربع أواق بدرهم ، وقد انتشر الجوع والفوضى بين الناس وماتت أعداد غفيرة من الشعب المصرى بلغت عدة مئات خلال شهور رمضـــان وشـــوال وذى القعدة ، ثم ارتفعت هذه الأعداد فوصلت الى مائتى الف وسبعين ألفا سوى الغرباء وكانت أعدادهم كبيرة ، ولم يخل عصر الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله ٤١١ ـ ٤٢٧هـ ـ ١٠٢٠ ـ ١٠٣٥م من اضطراب لأحوال مصر الاقتصـــادية كاد يودى باقتصاديات البلاد لدرجة ان خزانة الدولة أفلست فلجأ الخليفة للاقتراض من كبار رجال الدولة وكبار التجار ، وكان هـــذا عندما نقص ماء النيل بين سنتى ٤١٤ ، ٤١٥ هـ نقصـــا شديدا واشتد الغلاء وعم القحط واضطربت أحوال البـــلاد الاقتصـــادية ، وقلت بل انعدمت الثروة الحيوانية وكذلك المواد الغذائية ، وتعذر وجود القمح وكان يتم الحصـــول عليه سرا وبيعت حملة الدقيق بدينارين وربع ، وبيع الخبز أربعة أرطال بدرهم وثمن ، وبيع التبن الحمل بعشرين درهما ثم اشتدت الأزمة أكثر وأكثر وارتفع سعر القمح فأصبح يبـــاع التليس منه بثلاثة دنانير والشعير أربع بدينـــار ، والخبز رطلان ونصف بدرهم . وانعدمت الاتبان التى تستخدم كعلف للدواب فاذا وجدت فأثمانها مرتفعـــة مما أدى الى موت كثير من الحيوانات . ولذا فقد ارتفعت أثمان الحيوانات وأصبح رأس البقر بخمسين دينارا ونتيجة لهذه الأزمة الشـــديدة خرج الناس جميعا بما فيهم الأطفال فى مظـــاهرة حاملين المصـــاحف الى الجبل يدعون الله أن ينجيهم من ازمتهم وكانوا يرددون صيحات الاستنكار قائلين : « الجوع الجوع يا أمير المؤمنين . لم يصنع بنا هـــذا أبوك ولا جدك فالله الله فى أمرنا » وعرض الناس أمتعتهم للبيع فلم يوجد من يشتريها ، واضطربت أحوال البلاد الاقتصادية وانتشرت الفوضى وانعدم الأمن حتى ان حجاج بيت الله الحرام

عادوا بعد أن قطعت عليهم الطرق ونهبوا ولم يحج أحد منهم فى هذا العام ٤١٥ هـ ــ ١٠٢٤ م نتيجـة لخطورة الطرق وانتشار السلب والنهب . واشتد الغـلاء أكثر وأكثر وأصبح الناس فى حالة شديدة من المرض والجوع حتى ان سماط عيد النحر بالقصر نهب من قبل العيـد ، فيذكر المقريزى انه فى عيـد النحر ركب الخليفة الظاهر الى المصـلى من باب الفتوح على عادته ، وبعد الانتهاء من مراسيم الاحتفال بعيد الأضحى بسط سماط العيد فنهبه العسكر من شـدة الجوع . وعندما بسط سماط القصر ليجلس عليه أهل الدولة كبس العبيد أيضا على هذا السماط وهم يصيحون « الجوع الجوع ، نحن أحق بسماط مولانا عليه السلام » وأخذت الفوضى تمتد الى أرياف مصر ونهبت البـلاد من قبل العبيد مما جعل الخليفة الظـاهر يصدر مرسوما باباحة قتل أى عبد يتعرض لأحد وخصوصا عندما اشتد خطرهم على البلاد مما دعا كثيرا من أهل البلاد الى اللجوء الى الخنادق خوفا من بأس هؤلاء ، ولكن سرعان ما تدخلت الحكومة بأمر المحتسب لمعاقبـة كثير من التجـار فضربوا بالدرة وصـودرت أموالهم وتجـارتهم .

وحاول المحتسب تتبع الآخرين بالمصادرة تارة وبالتعزير تارة ولم تقتصر المجـاعة زمن الخليفـة الظاهر على اضطراب أحوال النيل سـواء انخفاض منسوبه أو ارتفـاعه عن الحد الضرورى وانما زاد من كارثة المجاعة والقحط انتشار الفئران التى أتت على البقيـة الباقيـة من الحاصـلات الزراعيـة . وفى النهايـة استطاعت الحكومة التغلب على هذه المجاعة بعد جهد كبير باعتبار ان الدولة كانت لاتزال فتية ، فرغم انهيار الاقتصـاد الا انه بمجرد أن أوفى النيـل الى الحد الضرورى استطاعت البـلاد اصـلاح اقتصادها مرة أخرى . الا أن فترات الازدهار لم تستمر مدة

طويلة فكانت مظاهر الانهيار تظهر من وقت لآخر لتعمل من جديد على هدم جزء من الكيان الاقتصادى للبلاد وهـذا عادى فى تاريخ مصر منذ أقدم العصور .

وعادت المجاعات فى ثوبها الجديد زمن الخليفـة المستنصر سنة ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ ـ ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م أكثر قوة وضراوة فى سنوات متفرقة من عهده ، وبدأت مظاهرها منذ عام ٤٤٤ هـ حيث قصر النيل مما أدى الى اضطراب أحوال البلاد الاقتصادية ، وكان الوزير حينئذ اليازورى وقد اشتدت المجاعات والاضطرابات وكان السبب الرئيسى خلو المتجر من الغلال التى غالبا ما كان الخليفة يحتفظ بها كنوع من التجارة أولا ، وكمخزون سلعى تستطيع به البلاد المرور بسلام فى أوقات القحط والأزمات . وكان السبب الرئيسى فى هذا الخلو هو الوزير اليازورى نفسه الذى استبدل المواد الغذائية التى كان القمح أهمها ببعض المواد الأخرى التى لا كلفة فيها ولا خوف من فسادها فى حالة تركها لمدة طويلة مثل الخشب والصـابون والحديد والرصاص والعسـل ، بعد ان كانت تلك المتاجر تمتلىء بالغلال والمواد الغذائية الأخرى كل عام حيث يتم ابتياع كل سنة مائة الف درهم من الغـلال . والحقيقة أن تلك النظرة المحدودة من قبل الوزير اليازورى كانت سببا فى تفاقم سوء حالة البلاد ، فرغم انه كان يسعى للربح الوفير من جراء تغيير تلك النوعية المخزونة فى المتجر للحصول على مبالغ زائـدة لخزانـة الدولة ، الا أنه أخطـأ الحسابات حيث فقدت الدولة مخزونها من السلع الضرورية اللازمة فى حالة الأزمـات ونقص منسوب النيل وعدم زراعة الأراضى الزراعية بصورة طبيعية . كل هـذا زاد من شدة الأزمـة التى أخـذت تتضح مع بدايـة سنة ٤٤٧ ، ٤٤٨ هـ . ورغم أن الوزير شعر بسوء تقديره للأمور واخذ فى معالجة الأزمة بسرعة فقد وقف بالمرصاد لكثير من تجار

الغلال وصادر ممتلكاتهم . الى جانب محـاولة استدراك الموقف باللجوء الى ملك الروم قسطنطين التاسع للحصـول على كميـة من الغلال تكفى للقضاء على المجاعة ، وفعلا تمت الاتصالات بين الخليفة المستنصر بالله والامبراطور قسطنطين لاستيراد أربعمائة الف أردب من القمح الا أن وفاة هـذا الامبراطور وتولى ابنتـه تيودورا أمور البـلاد واشتراطهـا بعض الشروط جعلت تـلك الصفقة تفشل ، ولكن الظروف ساعدت الخليفـة ووزيره حيث وصلت فى هـذا الوقت معونة أرسـلها ملوك الطوائف بالأندلس لنجدة الشعب المصرى ومساعدته على مجابهة الموقف والخروج بسـلام الى حين من تلك المسغبة التى كادت تقضى على الدولة لشدتها وضراوتها (١) ، ورغم ان هذه المؤن حلت جزءا من الأزمة الا أن المجاعـة أخذت تظهر بصورة مرعبة مرة أخرى واستمرت سبع سنوات أكل فيها الناس بعضهم بعضا وارتفع سعر الغلال حتى قيل ان القمح وصل ثمانية دنانير لكل أردب ، وتزايد مع تقدم المجاعة والقحط فبلغ الأردب مائة وعشرين دينارا ، بل ان الأمر اشتد سـوءا حتى وصل سعر الرغيف فى زقاق المدق خمسة عشر دينارا . ولم يقف الأمر عند هـذا الحد بل زاد انخفـاض منسوب النيل وزادت المجاعة والقحط وعدمت الأقوات وقضى على الثروة الحيوانية ، وأكل الناس الحيوانات النافقـة ، وبيعت الكلاب والقطط وأصبح سعر الكلب خمسة دنانير والهر بثلاثة دنانير . وبلغ الحـال بالخليفة انه لم يبق له الا ثلاثة أفرس بعد أن كانت له منها أعداد غفيرة ، بل ان شـدة الجوع جعلت العامة يستولون

---

(١) كانت العلاقات قوية فى عصر الخليفة المستنصر بالله بين ملوك الطوائف بالأندلس والخلافـة الفاطمية وكانت الرسائل متبادلة بينهم وخصوصـا بين المستنصر وبين على بن مجـاهد العامرى صاحب مدينة دانيـة ، مما جعل هؤلاء يسارعون بنجدة المصريين . وفى نفس الوقت فقد رد المصريون سفنهم محملة بالأسلحة المصرية لمساندتهم فى حروبهم ضد مسيحيى أسبانيا .

على بغلة الوزير ويأكلونها خوفا من شبح الموت الذى يطارد الكل ، وقد أعدم هؤلاء نتيجة لفعلتهم ، ولم يتركهم العامـة بل أكلوا لحومهم أيضا . وليس هـذا بالمستغرب فقد صارت طائفة من العوام تجلس على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب فاذا مر بهم احد الناس القوا عليـه تلك الحبال ونشلوه بالكلاليب فى أسرع وقت فاذا صار عندهم ذبحوه فى الحـال وأكلوه بعظامه . وهناك قصة أوردها لنا السيوطى يتهم فيها السـودان بأنهم سبب هذه الأعمال البشعة فيذكر ان السودان كانوا يقفون فى الأزقة يصطادون النسـاء بالكلاليب فيأكلون لحومهن ، واجتـازت امرأة بزقـاق القناديل فعلقها السودان بالكلاليب وقطعوا من عجزها قطعـة وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها فخرجت من الدار واستغاثت فجاء الوالى وكبس الدار فأخرج منهـا الوفا من القتلى ، وزاد الأمر سوءا وانعدمت الأقوات أكثر وأكثر حتى أن الحصول عليها أصبح من ضروب الوهم .

وقد أورد لنا بعض مؤرخى العصر الكثير من الروايات التى تظهر مدى انعدام قيمة الممتلكات أمام رغبة البقـاء لدى الانسان وكفاحه فى الحصـول على الطعام بأى وسيلة فقد ذكر ابن اياس ان احدى الحـارات بيعت فى أثنـاء الشدة العظمى بطبق وكل دار داخل هذه الحـارة التى يبلغ عدد دورها عشرين دارا برغيف، ولذا أطلق عليها حارة الطبق (٢) .

بل تجاوز الأمر الحدود كلها فأصبحت المجوهرات لا قيمـة لها فقد خرجت بعض سيدات الطبقة المترفة لتبيع عقدا من اللؤلؤ

---

(٢) بل ان بعض العامـة كان يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ، وينظر الناس الى هذه الأمور على انها أمور عادية مما أباح للكثيرين ارتكاب الاعمـال المنافية للانسانية .

مقابل الحصول على طعام فلم تجد من يشتريه منها مما جعلها تلقيه على الأرض وتقول : « ان لم تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك » ، بل ان امرأة من الطبقة المترفة أيضا أخذت عقدا من الجوهر الثمين قيمته ألف دينار وعرضته للبيع على جماعة من الناس فى سبيل الحصول على دقيق فلم تجد من يعطيها دقيقا عوضا عن هذا العقد الثمين ، ولكنها بعد جهد جهيد استطاعت أن تحصل على عطف بعض التجار فأخذ منها العقد واعطاها عوضا عنه جوالا من الدقيق ، فاستأجرت حمالا لحمله من الفسطاط الى باب زويلة ، فلما وصلت باب زويلة وعلم الناس أن معها دقيقا تكاثروا عليها ونهبوا ما معها فوجدت نفسها تنهب معهم فلم تحصل الا على ملء يديها ، فلما وصلت الى بيتها عجنت رغيفا وخبزته ثم أخذته على جريدة وتوجهت الى تحت قصر الزمرد ورفعته ونادت بأعلى صوتها وقالت : « يا أهل القاهرة ومصر ادعوا للخليفة المستنصر بالله بالنصر الذى أكلنا الرغيف فى أيامه بألف دينار » . وعندما سمعها المستنصر تأثر كثيرا واستدعى الوزير والحاجب وهددهما بالشنق ان لم يوفرا الأخباز فى البلاد ، مما جعل الوزير يشرف بنفسه على محاربة الاحتكار الذى ساد البلاد فى تلك الفترة ، ويصادر كثيرا من مخازن التجار الجشعين كمحاولة منه للقضاء على هذه الأزمة ، ولذا انفرجت أزمة الخبز فى الأسواق الى حين .

وهذه القصة السابقة ان دلت على شىء فانما تدل على مدى مشاركة المرأة فى العصر الفاطمى فى الأحداث السياسية العامة والخاصة ومحاربتها الغلاء والاعلان عن رأيها فى تلك الأزمات على أعلى مستوى لأن هذه المشاركة تتصل بشئون منزلها . هذا ولم تقتصر هذه الأزمات على عامة الشعب فقط بل امتدت لرجال الدولة أيضا فقد اضطر اعيان البلاد ورجال الدولة الكبار الى تقديم خدمات حقيرة مقابل الحصول على كسرات من الخبز ،

ويرجع هـذا لكونهم باعوا كل ما يملكون فى سبيل الحصول على الغـلال والخبز ، ويذكر أن رواد الحمامات كانوا يستعرضون عظماء القوم لكى يختاروا منهم من يخدمهم داخل الحمام مقابل كسرة من الخبز فكان الرجل يطلب أن يخـدمه سـعد الدولة أو فخر الدولة واضطربت الأحوال اكثر واكثر وخصوصا عندما صحب هـذا انتشار الأوبئـة والامراض ولا سـيما الجـدرى والطاعون فقد كان عدد الموتى فى اليوم الواحد يصـل الى اكثر من عشرة آلاف من البشر ، وزاد فى بعض الأيام فكان يصـل الى ثمانية عشر الفا . وقد عجز الناس عن تكفين موتاهم مما دفع الخليفة المستنصر الى التكفل بتكفين عشرين الفا من الموتى على حسابه . وقد ذكر معظم مؤرخى تلك الفترة ان الفنـاء قضى على اكثر من ثلث سكان مصر ، واستمر الحـال هكذا مدة عشرة أشهر حتى زاد عدد الموتى من الوباء بصـورة كبيرة لدرجة ان ابن اياس يذكر ان الشـوارع كانت خالية تماما من المـارة على غير العادة فى الفترات العادية فيمشى الرجل من جامع ابن طولون الى باب زويلة فلا يقابل أى شخص ، بل ان أعداد الموتى تضاعفت حتى وصلت الى نحو نصف سكان القاهرة .

ويحضرنى فى هـذا الصدد ما ذكره المقريزى عن الخراب الذى حل بالبلاد فى سنين الشـدة المستنصرية فيذكر « انه فى سنة سبع وخمسين الى سنة اربع وستين وأربعمائة زاد الغلاء والوباء فمات من أهل مصر الكثير وخربت ديارهم وتغيرت أحوالهم واستولى الخراب عليها واصبحت خاوية على عروشها خالية من سكانها وانيسها وقد أبادهم الوباء وشتتهم الموت والخراب ولم يبق بمصر الا بقايا من الناس كأنهم أموات قد اصفرت وجوههم وتغيرت سحنهم من غلاء الأسـعار وكثرة الخوف من العسكر وفساد طوائف العبيد الملحية » . ونتيجة لهذا النقص الشديد

فى أعداد البشر استعانت الحكومة ببعض الجند للقيام بأعمال الزراعة فى البلاد فكانت ترسل الفرق كاملة من الجنود لزراعة الأراضى لفناء أعداد كبيرة من الفلاحين . فيذكر المؤرخون انه أعقب الغلاء فناء عظيم حتى فنى من أهل مصر نحو الثلث فكان الجندى يتوجه بنفسه هو ومن بقى من رفقاء سلاحه وينزل بلده فيحرثون ويزرعون وذلك لعدم وجود الفلاحين . وأدى ذلك بالطبع الى نقص فى أعداد القرى عن بداية عصر المستنصر ولم تسلم المدن الكبرى أيضا من هذا الفناء والخراب فقد أصاب الفسطاط خراب شديد فتهدمت منازلها وانعدمت تجارتها التى تغنى بها رحالة العصر قبل تلك الشدة العظمى . ونتيجة لهذا الخراب فى جميع مرافق البلاد سواء التجارية أو الصناعية أو الزراعية وتعطل الحياة كلها بهذه الصورة فقد تعذر على الخليفة المستنصر صرف رواتب الجند بصورة منتظمة وعندما ثاروا عليه أخذ يخرج من خزائن السلاح والأقمشة والتحف النادرة ويعطيهم هذه الأشياء الثمينة . بأبخس الأسعار كبديل عن رواتبهم حتى نفدت كل ثرواته وتحفه ولم يبق له من آثار الترف والنعمة ، التى تمتع بها من قبله آباؤه واجداده الا سجادة رومية يقعد عليها وقبقاب فى رجله ، اذا نزل من قصره يستعير من الوزير بغلته حتى يركبها ويقضى أشغاله ثم يعيدها مرة أخرى . وكانت أخته ترسل اليه كل يوم زبدية فيها طعام حتى يقتات به فى اليوم مرة واحدة ، ولم يبق عنده من الخدم ولا الأتباع أحد ، بل ان زوجته وأولاده فروا من المجاعة وتركوه وحيدا .

وقد كان أهل مصر زمن الشدة العظمى المستنصرية يكفل الغنى منهم الفقير ، وهى من الأمور التى يشاد بها والتى تثبت أصالة هذا الشعب وانسانيته وتمسكه بقيم دينه وأخلاقه ،

فيذكر صاحب الكواكب السيارة ان الأغنياء الميسورين كانوا يكفلون أعدادا كبيرة من الفقراء والمعدمين ممن أصابهم هذا القحط العظيم ، فقد كفل أحد الأثرياء ويسمى سيد الأهل بن حسن المعروف بالقماح خمسمائة بيت زمن الشدة العظمى فكان يقدم لهم الطعام والمساعدات . ولم يقتصر الأمر على هذه الجهود الفردية ، بل ظهر التكافل الاجتماعى بصورة واضحة بين أفراد الشعب بكل فئاته وطبقاته وطوائفه من مسلمين ومسيحيين حيث يورد لنا ساويرس بن المقفع بعض الروايات التى تدل على مدى ما كان يبذله الناس فى مساعدة ذويهم ومن يلجأ اليهم من اخوانهم المصريين بصرف النظر عن ديانته أو طبقته الاجتماعية ، وأن أزمات القحط والوباء جمعت بين جميع عناصر الشعب ووحدت بينهم فى مجابهة الأخطار .

ويتضح هذا بجلاء من النص الذى أورده ساويرس بن المقفع حيث يحكى أن الأسقف باسيلوس أسقف أرمنت « كان فى زمان الغلاء لا يدع فى بيته خبزا لا يتصدق به وانه فى ليلة من الليالى طرقه رجل ميسور فدق باب منزله فقال لولده « مينا » أعطه خبزا ولم يكن بقى عنده الا رغيفان فدفع منهما رغيفا ثم قرع الباب آخر فدفع له بعض الرغيف الآخر وبقى بعضه فلما هم أن يفطر عليه قرع الباب آخر فضجر ولده المذكور كما قال عن نفسه فألزمه أن يدفع بقية الرغيف للذى قرع الباب فدفعه وبقى بلا شىء يفطر عليه فلما كان بعد وقت من الليل قرع الباب فقال لوالده أجب من يدق الباب فقال وهو ضجر مغضب ما بقى عندنا شىء ندفعه لمن يدق الباب فدفع له شخص لا يعرفه ولا أبصر وجهه طعاما فى منديل ومضى ولم يرجع الى الآن ولم يطلب المنديل ... » .

ثم تكررت الأزمات الاقتصادية مرة أخرى زمن الخليفة

المستعلى (٤٨٧ ــ ٤٩٥ هـ ــ ١٠٩٤ ــ ١١٠١ م) فيذكر ابن ميسر أن غلاء وجوعا وقع بمصر واستمر ستة اشهر متواصلة ويرجع هذا الى نقص فيضان ماء النيل بصورة كبيرة سنة ٤٩٠ هـ ــ ١٠٩٦ م حتى ان النيل لم يزد عن خمسة عشر ذراعا وتسع أصابع ثم هبط هبوطا فجائيا فتشرقت الأرض ولم تصل المياه اليها بالصورة الطبيعية مما أدى الى عدم زراعتها فأدى هذا الى القحط ، وقد تبعه وباء عظيم نتيجة للجوع المنتشر فى البلاد . والحقيقة أن منسوب النيل اذا وصل الى سبعة عشر ذراعا أصبح فى أحسن أحواله واذا وصل الى تسعة عشر ذراعا عم الخير البلاد ، أما اذا نقص عن ستة عشر ذراعا أو زاد عن تسعة عشر ذراعا اضطربت أحوال البلاد الاقتصادية .

وتكرر نفس الشىء فى سنة ٤٩٢ هـ ، ٤٩٣ هـ ــ ١٠٩٨ م ، ١٠٩٩ م حيث نقص ماء النيل مما أدى الى القحط وارتفاع أسعار الحاصلات الزراعية واعدام معظمها . وقد انتشر الوباء الذى زاد عن الحد مما دفع الكثير من أهل مصر الى الفرار الى الشام هربا من المجاعة والوباء الذى حصد أرواح كثير من أهل البلاد .

وتكرر نفس الشىء فى سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) حين ازداد نقصان ماء النيل فاشتد الغلاء وعدمت الأقوات ووقع القحط وأعقبه الوباء مما ادى بكثير من أهل البلاد الى أكل الموتى من الآدميين . ولم يفرق الوباء بين غنى وفقير فقد عمل على حصد الأرواح فتكرر الهروب من مصر الى بلاد الشام . وزاد الغلاء فوصل سعر القمح كل مائة أردب بمائة وثلاثين دينارا وكان هذا فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله . ويذكر المقريزى أن الخليفة وقف فى وجه الغلاء الفاحش بأن كلف القائد أبا عبيد الله بن فاتك الملقب بالمأمون البطائحى أن يتتبع التجار والمحتكرين وأن يصادر

ممتلكاتهم فى حالة عدم الالتزام ببيع القمح بالأسعار المحددة ، وبالفعل صادر كثيرا من مخازن هؤلاء التجــار وقرر عدم الافراج عن تلك الغلال الا بعد ان يصــل محصول العام الجديد ، الا اذا التزم التجار وباعوا كل مائة أردب قمح بثلاثين دينارا . واستمر هذا التشديد من قبل الحكومة على التجــار الى أن قضى على الأزمة نهائيــا .

أما فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله ٥٢٥ هـ ــ ٥٤٤ هـ ــ ١١٣٠ م ــ ١١٤٩ م . فقد وقع غلاء شــديد مع بداية شــهر شعبان من سنة ٥٣٦ هـ ــ ١١٤١ م حيث اضطربت أحوال البلاد الاقتصادية وارتفعت الأسعار وانعدمت الغلال وبلغ سعر القمح تسعين درهما للأردب والدقيق مائة وخمسين الحملة والخبز ثلاثة أرطال بدرهم . والويبة من الشعير سبعة دراهم ، والزيت الطيب الرطــل بدرهم ونصف ، والقلقــاس كل رطل بدرهم ، والدجاج والفراريج لا يقدر على شيء منها وكثر الوباء والموت . وامتدت المجاعة والوباء الى أنحــاء مصر وتأزمت أحوال كثير من المدن المصرية مثل الاسكندرية وغيرها من المدن الكبرى . فذكر ابن الأثير أنه « فى عام ٥٣٧ هـ ــ ١٣٤٢ م عم الوباء فهلك فيه أكثر أهل البلاد » .

ولم يكن نقصان ماء النيل هو دائما السبب الأســاسى فى الأزمات الاقتصادية ، بل ان الارتفاع الزائد فى مياهه كان له تأثيره المدمر أيضا على اقتصاديات البلاد فقد بلغ النيل فى سنة٥٤٣ هـ ــ ١١٤٨ م زمن الخليفة الحافظ ، تسعة عشر ذراعــا وأربع أصابع فغرقت معظم البلاد الى حد أن المــاء بلغ البــاب الجديد أول الشارع الأعظم خارج القاهرة (وهى المنطقة المعروفة الآن بمنيل الروضة) فقطعت الطرق وانتشرت الفوضى وتعطلت التجــارة نتيجة لاعاقة المياه لكثير من التنقلات البرية .

وانتشرت الفوضى الاقتصادية أيضا زمن الخليفة الظافر فى بعض مدن مصر الكبرى مثل مدينة دمياط التى انتشر فيها القحط والوباء والفناء ، حيث قضى هذا على كثير من أهل البلاد ما بين سنتى ٥٤٥ ، ٥٤٦ هـ فبلغ من ماتوا فى هذه البلاد اربعة عشر ألفا من البشر . وقد أثر هذا بصورة واضحة على أحوال البلاد الاقتصادية ، وخصوصا التجارة والصناعة ، التى تعتمد عليها اقتصاديات تلك المنطقة ، حيث قلت الأيدى العاملة فى هذا المجال .

ولم يخل عصر الخليفة الفائز ٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ ـ ١١٥٤ ـ ١١٦٠ م من غلاء أثر على الاقتصاد بصورة واضحة ، فنجد الغلاء اشتد بمصر سنة ٥٥١ هـ ـ ١١٦٥ م ثم اشتد بعد ذلك فى سنة ٥٥٤ هـ ـ ١١٥٩ م فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك وأدى قصور النيل الذى بلغ خمسة عشر ذراعا واصبعا الى ارتفاع أسعار الحاصلات الزراعية ، فبلغ اردب القمح خمسة دنانير . ولكن حسن تصرف الوزير طلائع بن رزيك قضى على هذه الأزمة فى المواد الغذائية ، وخصوصا القمح حيث أعطى الطحانين حصصا معينة ، بأسعار مدعمة حتى يقضى على احتكار تجار الغلال . ثم تتبع التجار الجشعين وصادر مخازن الغلال الخاصة بهم وفرقها على جماعة الفقراء والمحتاجين . ولم تمض مدة قصيرة الا وكانت البلاد تحيا حياة طبيعية مرة اخرى .

ولكن لم يمض على هدوء الحال سوى سنين قلائل الا وعادت المجاعة الى الظهور فى عهد الخليفة العاضد نتيجة لارتفاع منسوب النيل سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٣ م) حيث بلغ ثمانية عشر ذراعا وثلاث عشرة اصبعا مما أدى الى خراب مناطق كثيرة من البلاد ، وهدم اقتصادياتها حيث امتدت مياه النيل

لتهدم المنازل وتقضى على الثروة الحيوانيــة وتغرق المحاصــيل الزراعيــة .

مما سبق فى هذا العرض التفصيلى ، يتضح لنا أن تذبذب ماء النيل بين النقصان والزيادة ، وظهور القحط والوباء كنتيجة حتمية لهذا التذبذب وانتشار المجاعات مما كان يشــكل عامــلا رئيسيا ساعد على فقدان الاقتصاد المصرى لكثير من عناصر قوته خــلال العصر الفاطمى . ورغم أن تلك الفترات من الاضطراب الاقتصادى كانت تعالج من قبل الدولة التى ضربت دائما بيد من حديد على هــذه الفوضى الاقتصادية ، الا أن الكوارث الطبيعية لا سلطان للانسان عليها ولذا نجدها تتكرر من وقت لآخر تاركة وراءها بصمات واضحة فى كيان الاقتصاد المصرى ساعدت مع الوقت على هدم هــذا الكيان وانهياره .

ثانيــا ـ صراع الجند وأثره على الاقتصاد المصرى :

لم يكن قصور فيضان ماء النيل وانتشار الغــلاء وتفشى الأوبئة هو السبب الأســاسى فى انهيار اقتصــاديات البــلاد فى فترات متفرقــة من العصر الفاطمى ، وانما لعب الاختــلاف بين طوائف الجند دورا كبيرا فى هــذا الشأن فقد شاعت الفوضى فى البلاد وتعطلت اقتصادياتها بسبب اختلاف كلمة طوائف الجند المتعددة التى اعتمدت عليها الدولة الفاطمية . فمنذ اليوم الأول والخلفاء الفاطميون يعتمدون على عناصر مختلفة فى تأليف قوتهم الحربية ، وكان الغرض من هذا فى أول الأمر هو احداث تنافس بين تلك العناصر تستطيع الدولة به أن تحكم سيطرتها على الجند وتضمن ولاءهم وتقضى به على أى عنصر مناوىء ، ولم يكن هذا من مستحدثات العصر الفــاطمى وانما عرف بمصر منذ عصر الولاة وعصر الدولة الطولونيــة والاخشيدية فقد تعددت الجنسيات

داخل الجيش المصرى . ومنذ قيام الدولة الفاطمية وهى تعتمد على العنصر البربرى فى تكوين جيشها ، وقد اتى هؤلاء مع المعز عند دخوله مصر وكونوا الفرقة الأساسية فى الجيش المصرى ، وخصوصا المنتسبين منهم الى قبيلة كتامة وزويلة وغيرها من قبائل البربر المعروفة .

ويذكر ناصر خسرو ان الكتاميين وهم من القيروان بلغ عددهم عشرين ألف فارس ، كما اعتمد الفاطميون أيضا على فرقة تسمى الباتليين وهم من أهل المغرب أيضا ولكنهم دخلوا مصر قبيل مجىء المعز لدين الله ، وكان عددهم يبلغ خمسة عشر الف فارس . وهناك فرقة أخرى عرفت بالمصامدة ، وهم سود أفارقة ينتسبون الى قبيلة مصمودة ، وقيل ان عددهم كان عشرين الف رجل وقد اعتمد عليهم الخليفة المستنصر بالله ٤٢٣ ــ ٤٨٧ هـ ٣٥٠ج ــ ١٩٠٤ م كما كان لهم شأن عظيم زمن الخليفة الآمر بأحكام الله ٤٩٥ ــ ٥٢٤ هـ ــ ١١٠١ ــ ١١٢٠م.

وقد تمركزت تلك الطوائف من الجند المغاربة فى حارات ومعسكرات خاصة بهم عرفت بأسمائهم يمارسون فيها عاداتهم وتقاليدهم . وقد ميز الخليفة المعز طائفة كتامة وشيوخها على جميع الطوائف الأخرى مما أوجد نوعا من الغيرة والحسد بينهم وبين الطوائف الأخرى من البربر وقد حمل هؤلاء خلافاتهم معهم من بلاد المغرب الى مصر ، ولذا نجدهم دائما فى حالة حسد وتربص بعضهم ببعض رغم انهم جميعا من المغاربة .

ولكن بعد استقرار الفاطميين بمصر اخذوا فى الاعتماد على عناصر جديدة ليستخدموها فى الحد من تطاول البربر وخصوصا الكتاميين الذين استبدوا بشئون الجيش ، فلجأ الفاطميون الى

تكوين فرقة أطلقوا عليها « المشارقة » وهم من الترك والديلم . وقد بلغ عددهم عشرة آلاف رجل وغالبا ما كانت تلك الطائفة تعمل فى الجيوش الاسلامية المختلفة كجند مرتزقة . ويعتبر الخليفة العزيز بالله أول من كون تلك الفرقة فى الجيش الفاطمى. واذا كان الخليفة المعز قد اعتمد على المغاربة (البربر) وخصوصا الكتاميين ، فان ابنه العزيز اعتمد اعتمادا كليا على طائفة المشارقة وأقام لهم الحارات الخاصة بهم وجعلهم خاصته ، ولذا بدأت الخلافات الخفية تظهر بين هاتين الطائفتين منذ عهد الخليفة العزيز خاصة حين فقدت طائفة المغاربة مكانتها السابقة ، الا أن هذه المكانة قد عادت اليهم مرة اخرى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الذى أجبره شيوخ كتامة على ابعاد المشارقة من الوساطة والاعتماد على أحد شيوخهم وهو محمد بن عمار فى شئونها ، وكان هذا الشيخ كبير الدهاء والحنكة الحربية والسياسية فاستطاع أن يقرب الكتاميين ويخصهم بالمناصب المهمة فى البلاد فأعاد لهم مجدهم الذى فقد نسبيا خلال عصر الخليفة العزيز ، ولم يكتف بهذا بل أساء معاملة المشارقة وابعدهم عن تولى المناصب المهمة وأوقف صرف أرزاقهم مما جعلهم يفرون الى بلاد الشام هربا من اضطهاد ابن عمار ، الا أن الأمور لم تستقم على هذا الحال ، وخصوصا عندما ظهر لابن عمار هذا منافس جديد من الصقالبة هو برجوان الذى اعتمد على المشارقة فى الوصول الى الوساطة فأغدق عليهم الأرزاق والأموال وقلدهم مناصب الدولة المهمة . وظهر التنافس واضحا بين كل من الفريقين الا ان الحاكم حسم تلك الطائفة بعد ثورة ابى ركوة ببلاد المغرب واحساسه بأن تلك هذا الصراع بأن كسر شوكة كل من ابن عمار وبرجوان بأن تخلص منهما ثم تخلص من شيوخ كتامة وخصوصا بعد أن شعر بخطورة الطائفة ساعدته فى الوصول الى غرب البلاد ولذا ضاعف غضبه على

المغاربة مما زاد فى سيطرة المشارقة على شئون البلاد الى حد كبير .

واعتمد الفاطميون أيضا على فرقة من السود ولم يكن هذا بجديد فقد سبقهم فى هذا أحمد بن طولون الذى اعتمد عليهم فى جيشه بأعداد غفيرة ، أما الفاطميون فقد استخدموا السود الزنوج وغالبا ما كانوا يحصلون عليهم طبقا لمعاهدة البقط أو عن طريق الشراء ، ويطلق عليهم عبيد الشراء وقد بلغ عددهم ثلاثين ألف رجل (٣) ، وقد زادت أعدادهم بصورة واضحة زمن الخليفة الحاكم بأمر الله كما قويت شوكتهم فى عهد الخليفة الظاهر ، ويتضح هذا من المرسوم الذى أصدره الظاهر باباحة قتلهم فى حالة تعرضهم للشعب أو قيامهم بالأعمال المنافية للأخلاق وخصوصا فى فترات الأزمات وانتشار المجاعات والأوبئة .

أما فى عهد الخليفة المستنصر فقد اختلفت أوضاعهم واصبحوا قوى لا يستهان بها فى تسيير أمور البلاد وخصوصا عندما زادت أم المستنصر من أعدادهم واعتمدت عليهم فى السيطرة على أمور البلاد فبلغت أعدادهم زمن هذا الخليفة خمسين الف جندى ، نصفهم من عبيد الشراء والنصف الآخر من الزنوج . وذكر ناصر خسرو أن الزنوج كانوا من الفرق القوية فى الجيش الفاطمى وتفوقوا فى استخدام السيف ويذكر ان عددهم وصل الى ثلاثين ألف جندى .

---

(٣) عقدت معاهدة البقط زمن الفتوح الأولى بين عبد الله بن سعد بن ابى السرح والى مصر حينئذ وبين ملك النوبة سنة ٣١ هـ وكان ضمن بنودها أن يسلم ملك النوبة الى ولاة مصر عددا من السود كل سنة ، ويبلغ ثلاثمائة وستين رجلا مقابل أن يمده والى مصر بالغلال ، وقد استخدم المصريون هؤلاء السود فى أعمال عديدة أهمها استخدامهم بكثرة فى الجيش المصرى .

ومن الفرق المهمة فى الجيش الفاطمى فرقة « البدو » وهم من أهل الحجاز الذين هاجروا الى مصر واستقروا بمناطق كثيرة بنواحى الاسكندرية والبحيرة ، وكانوا من العناصر التى تثير الشغب دائما بين صفوف الجيش حيث كان أغلبهم فرقا غير نظامية تستعين بها الدولة فى فترات الحروب وأغلبهم من قبيلة بنى قرة وهم عدة بطون من قيس وبنى هلال (أو عرب الشمال) واستقروا بالمناطق الخصبة ، وقاموا بالزراعة ، فتذكر الاستاذة الدكتورة سيدة كاشف « ان استيلاء العرب على مصر كان فاتحة لهجرات عربية متوالية دامت زمنا طويلا وكانت أضخم هذه الهجرات . . هجرات العرب أو الجند الذين أتوا مع عمرو بن العاص عند فتح مصر ، وكان معظمهم من اليمنية ، على أن أغلب الولاة الذين حكموا مصر كانوا يصحبون معهم جيوشا عربية حتى نهاية العهد الأموى أتوا معهم بشعوب أخرى غير العرب كالخرسانيين والأتراك فى العصر العباسى وفى خلافة هشام بن عبد الملك عام ١٠٥ ــ ١٢٥ هـ حدث تطور فى تاريخ القبائل العربية ، ذلك أن عبيد الله بن الحبحاب عامل خراج مصر وفد على الخليفة فى سنة ١٠٩ هـ وسأله أن ينقل بيوتا من قيس أو عرب الشمال .. فاذن له الخليفة بذلك .. فجاء منهم ثلاثة آلاف وأنزلهم ابن الحبحاب فى الحوف الشرقى فى شرق الدلتا وأمرهم بالاشتغال بالزراعة ... » وغالبا ما كانوا يعلنون عصيانهم فى فترات متفرقة ، وقد ظهرت خطورتهم زمن الخليفة الحاكم عندما تعاونوا مع الثائر أبى ركوة ، وبلغ عدد فرقة البدو داخل الجيش الفاطمى خمسين ألف فارس .

ومن الفرق المهمة أيضا فرقة السرائيين وهم مشاة الجيش الفاطمى وقد تم تجنيدهم من جميع ولايات مصر ، ولكل ولاية قائد خاص بفرقتها يتولى أمورها ، ويتخصص كل فريق فى

استخدام السلاح الخاص بولايته ، وقد بلغ عددهم عشرة آلاف رجل ، وربما حاولت الحكومة الفاطمية الاعتماد على هؤلاء الجند لشعورها بخيبة الأمل فى الاعتماد على الطوائف الأخرى التى كانت كثيرة النزاع فيما بينها .

ومن الفرق المهمة فى الجيش الفاطمى الفرقة التى كونها الخليفة المعز لدين الله عندما استقر به الحال فى مصر ، وكانت من أبناء الشعب المصرى أو من أبناء المماليك الذين يتم شراؤهم أو من سبى الفرنجة ، ويتم اعدادهم حربيا والتكفل بتربيتهم واسكانهم والانفاق عليهم ، وكان يتم اسكانهم فى ثكنات خاصة بهم فى قصر الخليفة عرفت بالحجر ، ومن هنا أطلق عليهم صبيان الحجر ، وكذلك « أولاد الناس » ، وقد زاد الاهتمام بالصبيان الحجرية زمن الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى فقد أنشأ سبعة حجر واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف رجل وقسمهم فى الحجر وجعل لكل مائة زماما ونقيبا وزم الكل بأمير يقال له الموفق وأطلق لكل منهم ما يحتاج اليه من خيل وسلاح وغيره ، وعنى بهؤلاء الأجناد فكان اذا دهمه أمر مهم جهزهم اليه مع الزمام الأكبر ، وقد قسموا الى درجات فمنهم الزمام الأكبر أو الحجرية الكبار ، وبعضهم الحجرية الصغار واعتقد أن هذا التمييز يعود الى سن المجند فى هذا الحجر او الى التفوق فى الجندية أو التمييز فى سلاح معين ، وقد تميز معظمهم باجادة فنون الفروسية وركوب الخيل مما دفع خلفاء الفاطميين الى اقامة اصطبلات خاصة بخيولهم عرف بعضها باصطبل الحجرية .

وقد ذكر لنا ناصر خسرو فرقة أخرى من فرق الجيش الفاطمى تكونت من أبناء الملوك والأمراء جاءوا الى مصر من أطراف العالم فبعضهم من المغرب واليمن وبلاد الصقالبة والنوبة

والحبشة ، بل ان بعضهم جاء من بلاد فارس والبعض الآخر من أبناء ملوك الديلم ، الا أنه يضيف أن هؤلاء لا يعتمد عليهم الجيش كقوة نظامية تنضــوى تحت السلاح ، واعتقد أن هؤلاء انما جاءوا الى مصر لتعلم فنون القتــال والعودة الى بلادهم لتطبيــق تلك الفنون المختلفــة وهى طريقة ما زالت متبعــة فى كل الكليــات العســكرية الموجودة بمصر الى الآن حيث يأتى بعض الوافــدين الأجانب للتعليم والعودة الى بلادهم بعد الحصول على الدرجــة العلميــة .

وبعد ان استعرضنا فرق الجنــد التى كان يتكون منهــا الجيش الفــاطمى ، والتى تتعارض بعضــها مع بعض من حيث الجنس واللون والعادات والتقاليد والأهواء والأهداف ، ومحاولة كل منها السيطرة على كل شىء فى البلاد بل وعلى الخليفة نفسه لتحقيق أغراضهم الشخصية والحصــول على أكبر المكاسب ، لنا أن نتصــور مقدار الخلاف الناجم عن هــذا التنافر فى كل شىء ، ولذا نجد أن هــذه الطوائف المختلفة كانت من أهم أسباب الفوضى والاضطراب داخل البلاد ، وبالتالى من أهم أسباب انهيار الاقتصاد المصرى فى العصر الفاطمى .

كانت القلاقل تظهر فى فترات الاضمحلال الســياسى التى كانت تنتاب البلاد من وقت لآخر فمثلا نجد الصراع يشتد بين طوائف الجند من المغاربة والأتراك زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الذى تولى امور البلاد وهو مازال صبيا صغيرا مما دفع طوائف الجند من المغاربة الى محاولة السيطرة عليه واعادة نفوذهم المفقود زمن الخليفة العزيز بالله الذى سبق واعتمد على المشارقة دونهم ولذا فقد تكتل المغاربة متمثلين فى شيوخ كتامة وهددوا الحاكم واجبروه على الاعتماد على شيخهم أبو محمد بن عمار فى شــئون

الحكم وتوليته رتبة الوساطة وهى أشبه بالوزارة (٤) ، وصرف عيسى بن نسطورس النصرانى عن هـذه الرتبـة ، وقد أبطل ابن عمار أعطيات الأتراك وأجزل العطاء للمغاربة وحدهم ، وأخذ الكتاميون يستعيدون وضعهم بعد أن كان الوزير ابن كلس قد أضعفه بعض الشيء زمن المعز ثم ضعف أكثر زمن الخليفـة العزيز فعمل ابن عمار على اعـادة سلطتهم بصـورة أقوى مما كانت واستغل فرصة صغر سن الحاكم بأمر الله « حيث كانت سـنه عندما تولى الخلافة احدى عشرة سنة وخمسة أشهر » وانفرد بالسلطة دونه ، ولذا نجده يعين أبا عبد الله الموصلى فى الكتابـة ويستخلفه على أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم ، ولكى يكسب ابن نسطورس الى صفه عينه على ديوانه الخاص ، وأخذ يظهر بمظهر الطاغية ويتصرف مع الحاكم وكأنه طفل لا حول ولا قوة ، ومنع الاتصال المباشر بين الحاكم والرعية وكذا بينه وبين أكابر البلاد ، وأغدق الأموال والعطايا على المغاربة وخصوصا الكتاميين لانهم أهله وعشيرته وقرب كتـامة أكثر الى السـلطة بأن ولى شيوخها الوظائف الرئيسية فى الدواوين المهمة الى جانب بثهم فى الولايات المختلفـة حتى يضمن سيطرته من خلالهم على أمور البلاد ويعود مجد المغاربة الى البلاد مثلما كان عند بداية الدولة الفاطمية بمصر ، ولم يكتف بهذا بل قضى على كثير من الشخصيات

---

(٤) ابن عمار هذا هو أبو محمد الحسن بن عمار بن على بن أبي الحسن الكلبى من بنى أبى الحسـن أحد أمراء صقليـة وأحد شيوخ كتامة ، وتولى الوساطة للخليفة الحاكم بأمر الله فى ثالث شـوال سنة خمس وسبعين وثلثمائة هـ وقلد سيف من سيوف الخليفة العزيز وحمل على فرس بسرج ذهب ولقب بأمين الدولة ، وهو أول من لقب بهذا اللقب فى الدولة الفاطمية ، ويعنى هـذا أن عمار سيطر على السلطة الزمنية ، دون السلطة الدينية التى بقيت للحـاكم بحكم انه الامام .

المهمة فى الدولة ، حتى تخلو له الساحة وينفرد بالحكم فقد أوعز للخليفة الحاكم بقتل عيسى بن نسطورس فقتل فى سنة ٣٨٧ هـ وقد زاد فى اضطهاد المشارقة مما دفعهم الى الفرار الى بلاد الشام ، وكان من نتيجة هذا كله أن تعاظم أمر المغاربة وقويت شوكتهم ، وقد أثاروا الشغب والاضطراب داخل المجتمع المصرى وخصوصا فيما يتعلق بالناحية المذهبية ، وقد أخذ الجند المغاربة فى الانتشار داخل البلاد وبث الفوضى والاضطراب بين أفراد الشعب والتحرش بالسكان والسلب والنهب وأحيانا بالاستيلاء على ممتلكات الشعب بدون وجه حق مما دفع كثيرا من التجار الى اغلاق حوانيتهم فتوقفت الحياة الاقتصادية فى بعض المناطق نتيجة لهذا الشغب من قبل المغاربة ، بل ان الطريقة التى اتبعها المغاربة كانت تثير الشعب المصرى حيث كانوا يتعاملون معهم بتعال واضح عليهم باعتبارهم الفئة المدللة لدى الدولة .

ولكن لم يمض سوى وقت قصير الا وظهر على الساحة رجل قوى آخر ينافس ابن عمار وهو أبو الفتوح برجوان فى سنة ٣٨٧ هـ ــ ٩٩٧ م ، ففكر فى القضاء على ابن عمار بأية وسيلة فقام بتأليب الجيش ضده وخصوصا الجند الأتراك فلم يمض الا عام واحد وكان ابن عمار فى موقف حرج مما اضطره للفرار وترك الميدان لبرجوان فى سنة ٣٨٨ هـ ــ ٩٩٨ م ، الا أن برجوان طغى وزاد طغيانه وسيطر على الحكم دون الحاكم مما جعل الحاكم يفكر فى التخلص من برجوان ورجاله كما تخلص أيضا من ابن عمار ورجاله حتى يقضى على الاضطراب والفوضى السياسية التى أعقبتها فوضى فى مرافق البلاد المختلفة وانهيار للحياة الاقتصادية وخصوصا عندما عاث الجند سواء المغاربة أو الترك الفساد فى شئون البلاد جميعا مما دفع الناس الى التزام بيوتهم وعدم الخروج للسعى وراء أرزاقهم فقطعت سبل

الحياة الاقتصادية وتعطلت كثير من موارد البلاد ، وأخذ الصراع يشتد بين الطائفتين : المغاربة وعلى راسهم ابن عمار ، والأتراك وعلى راسهم برجوان ، وامتدت أيدى كل فريق منهم الى أقوات الشعب كما اشتد القتال بينهم وأثاروا الرعب فى نفوس الناس .

وهكذا اضطر الخليفة للقضاء على كل من الزعيمين ثم أعلن الأمان لجميع فئات الشعب وعادت الأمور الى نصابها من جديد واستطاع أن يسيطر على مجريات الأحداث وخضعت له طوائف الجند من جديد واستطاع السيطرة عليها .

وكان الخليفة يلجأ أحيانا الى ضرب طوائف الجند بعضها ببعض مثلما فعل حين قرب اليه كلا من السودان والأتراك وضرب بهم المغاربة ، الا ان تلك الصراعات كانت من الأسـباب الرئيسية التى قوضت صرح الاقتصاد وأدت الى خراب المدن التجاريـة واضطراب أمور الزراعة اذ كان النيل يفيض ولا تجد الأرض من يقوم على زراعتها نتيجة للصراع بين طوائف الجند ويذكر ابن ميسر فى هـذا الصدد « أن الغلاء لم يكن من قصـور ماء النيل وانما كان من اختـلاف الكلمة ومحاربة الأجنـاد مع بعضهم البعض ، وكانت طوائف عدة فتغلبت لواته والمغاربة على الوجه البحرى ، وتغلب السـودان على الصعيد ، والملحيـة والأتراك بمصر والقاهرة » واضطراب الأمن فى البر ، البحر وفقدان الأمان بالطرقات مما أدى الى توقف التجارة الداخلية والخارجيـة ، أما الصناعة فعدمت الأيدى العاملة نتيجة لانتشار الوباء الذى تبع الغـلاء المتفشى بالبلاد فى تلك الفترة ، وكل هـذا أدى الى تخريب الاقتصـاد المصـرى .

ولم يقتصر الأمر على المغاربة والأتراك فى اشاعة الفوضى ،

بل لعب (السودان) دورا خطيرا فى هذا الأمر فقد خرجوا فى ذى الحجة سنة ٤١٤ هـ زمن الخليفة الظاهر الى جبل المقطم فى نحو الف رجل الى جانب من انضم اليهم من قطاع الطرق واللصوص وقرروا النزول الى مصر للنهب والسرقة ، الا أن الخليفة أصدر قرارا بضرورة مكافحة هؤلاء العبيد وقتل كل من يتعرض للأهالى منهم ، وقد أحدثوا خرابا شديدا فى التجارة لنهبهم البضائع التى كانت معدة للتصدير للخارج والتى وضعت على ساحل مصر ، كما أشعلوا النيران بمجموعة من الدور الموجودة على الساحل وبثوا الفوضى بالمناطق التجارية ونهبوا المساكن وقضوا على كل مظهر للحياة مما دفع الشعب الى التكتل ضدهم ومحاربتهم بكل ضراوة حتى استطاعوا أن يقضوا عليهم ولكن بعد أن اضطربت أحوال البلاد وأغلقت الحوانيت وتوقفت حركة التجارة الداخلية نتيجة لسكون الناس داخل بيوتهم ، بل ان البعض اقام بالخنادق .

وقد جهز لهم الخليفة فرقة من الصقالبة خرجت من القصر لطردهم خارج البلد حتى يضمن الاستقرار ، بل ان معضاد الدولة عاقب الكثير منهم ، ونتيجة لهذه الفوضى التى أثاروها فقد تعذر وجود الخبز والدقيق فبيع الخبز رطلا بدرهم وانعدم وجوده بالأسواق ، ولم تستقر الأمور الا بعد أن قضى عليهم واخرجوا من البلد وهدد الخليفة عرفاءهم بالعقاب الشديد . ولكن الصراع بين طوائف الجند اخذ يتزايد بصورة واضحة زمن الخليفة المستنصر بالله ٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ ـ ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م ويرجع هذا الى ضعف الادارة الفاطمية وكثرة تغيير الوزراء والقضاة وعدم استقرارهم فى مناصبهم مددا كافية تجعلهم يمارسون سلطاتهم على ادارة الدولة بصورة طبيعية مما أدى الى اضطراب الأمور وانتشار الخلل بالجهاز الادارى للدولة ،

وفى هـذا الصدد يذكر المقريزى معلقا على كثرة د رف الوزراء والقضاة بقوله انه « فى سنة ثلاث وخمسين واربعمائة كثر صرف الوزراء والقضاة وولايتهم لكثرة مخالطـة الرعاع للخليفة وتقدم الأراذل بحيث كان يصل اليه ـ يقصد الخليفـة ـ فى كل يوم ثمانمائة رقعة ـ المرافعات والسعامات فاشتبهت عليـه الأمور وتناقضت الأحوال ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم وخربت الأعمـال وقـل ارتفاعها وتغلب الرجال على معظمها من كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وطغيان الأكابر الى ان أدى الأمر الى حدوث الشـدة العظمى ... » .

وكان ضعف الوزراء وعدم قدرتهم على تدبير أمور الدولة عاملا من العوامل التى ساعدت على ظهور سطوة أم الخليفـة المستنصر بالله وسيطرتها على أمور البـلاد دون ابنها الخليفـة المستنصر ، وكانت تقضى على اية وزارة تستشعر أن وزيرهـا سينفرد بالأمور دونها مما أضعف الادارة أكثر وأكثر ، وكانت تعتمد فى تدبير أمور دولتها على طائفـة العبيد الذين استكثرتهم البلاد باعتبارهم من نفس جنسها ، فبلغ عددهم أكثر من خمسين الف عبد اسـود فكانت تحـكم الأمور وتسير معتمدة عليهم فى مساعـدتها على تنفيذ مخططاتهـا ، ولذا عنـدما مات الوزيـر صفى الدين الجرجرائى سـنة ٤٣٦ هـ اسـتوزرت سـيدها أبو سعيد التسترى وولته شئونها ـ فقد كانت أم المستنصر قبل زواجها بالخليفة الظاهر أمة فى بيت التسـترى ـ كما وزر المستنصر الوزير الفـلاحى وسـلمه ادارة الدولة ، وكان الفـلاحى قوى الشخصية فلم تستقم الأمور بينه وبين التسترى وخصـوصا بعد ما استمال الأخير طائفة الأتراك وحاول أن يسيطر على أمور الدولة دون الملكة أم الخليفة وذلك بتأليب الأتراك على السودان

فأنقص عطـاء الأتراك وأوعز لهم ان ذلك من فعل أم المستنصر مما أوغر صدورهم ضدها وفى نفس الوقت تودد لهم ولم تمر هذه الأزمة الا وكان الأتراك قد قتلوا التسترى كنوع من الانتقام من أم المستنصر التى سارعت وقضت على الفلاحى وتولى الوزارة بعده أبو البركات « الحسين بن محمد بن أحمد الجرجرائى » وحاولت أم المستنصر أن تجعله أداة فى يدها لتسيطر على الأمور ويساعدها هو فى القضاء على الأتراك واضعافهم وتقوية شـوكة العبيد الا أن الوزير لم يستطع أن يسيطر على مجريات الأمور كمـا تريدهـا أم المستنصر ولذا أغضبت عليـه . واستخدمت اليازورى وأمرته بالقضاء على الأتراك الا أن اليازورى كان قوى الشخصية ، فاستطاع الحفاظ على التوازن بين العبيد والأتراك مما أصلح الأمور بين الطائفتين طوال مدة حكمـه . ولكن بعد موت اليازورى عادت الأمور أكثر تعقيدا بين الطائفتين خصوصا وان الوزراء بعد اليازورى كانوا ضعفـاء فاسـتطاعت أم المستنصر السـيطرة عليهم وتوجيههم الوجهـة التى تريدها فعنـدما تولى الوزارة الوزير أبو الحسن البابلى (المحرم ٤٥٠ ــ ربيع‌الأول ٤٥٠، يعنى شهرين و ١٤ يوما) أمرته باضعاف شـوكة الأتراك واغراء العبيد بهم وقـد نفذ ما طلب منه فوقعت الفرقـة بين الأتراك والسودان مرة أخرى وأصبحت كل طائفة تتربص بالأخرى وتنتظر الفرصة للقضـاء عليها . وقد حدث هـذا فى عام ٤٥٤ هـ أثناء احدى نزهات الخليفـة . ورغم أن البداية كانت مجرد حادث شخصى يمكن أن يحدث دائما ، اذ لم يتعد مجرد اشتباك بين أحد الأتراك الذى جرد سيفه وهو سـكران على أحد عبيد الشراء فاجتمع عليه كثير من العبيد وقتلوه فاستنكر الأتراك هـذه الفعلة فاجتمعوا وساروا الى المستنصر وقالوا له « ان كان هـذا عن رضاك فالسمع والطاعة ، وان كان من غير رضا أمير المؤمنين فلا نرضى بذلك» فتبرأ المستنصر ممـا جرى وانكره وندد بـه

مما شجع الأتراك على محاربة العبيد ، وكان بداية خراب البلاد وانهيار لاقتصادها . وقد بدأت حرب شرسة بين الطائفتين بناحية كوم شريك المجاور للاسكندرية قتل فيها أعداد غفيرة من العبيد بلغت أكثر من أربعين ألفا .

وقد لعبت أم المستنصر دورا خطيرا فى اشعال الصراع بين الطائفتين فقد كانت تمد العبيد بالأموال والأسلحة سرا نكاية فى الأتراك الذين كانت تبغضهم بغضا شديدا ، وزادت فى امدادهم بعد موقعة كوم شريك حتى تضمن وقوفهم مرة أخرى فى وجه الأتراك . وقد وقعت بعض الامدادات التى أرسلتها أم المستنصر للسودان فى يد الأتراك الذين استشاطوا غضبا وتطاولوا على الخليفة واتهموه بمساعدة العبيد ، وازدادت حدة الصراع مما جعل المستنصر يسارع بندب الوزير أبى الفرج بن المغربى (٥) لتسوية الخلافات بين العبيد والأتراك ، وبالفعل تم الصلح بينهم ظاهريا وخرج العبيد الى شبرا دمنهور (٦) وزاد البغض بين طوائف الأتراك والعبيد ، وكان الأتراك فى تلك الفترة أى سنة ٤٥٩ هـ ــ ١٠٦٦ م قد قويت شوكتهم واستبدوا بالخليفة ومنعوا عن العبيد اعطياتهم وأرزاقهم مما دفع العبيد الى التجمع مرة أخرى بالجيزة وأعلنوا حالة الحرب من جديد واشتدت الصراعات مما جعل الأتراك وعلى رأسهم زعيمهم ناصر الدولة الحسين بن حمدان يجتمعون على حرب السودان مما جعلهم يتقهقرون الى

---

(٥) هو محمد بن جعفر أبو الفرج المغربى ، أول من تولى كتابة السر بديار مصر .

(٦) من نواحى القاهرة ، وعرفت منذ العهد الأيوبى باسم شبرا الخيمة وهى شبرا الخيمة حاليا ، وسميت شبرا دمنهور نسبة الى قرية منها تحمل اسم دمنهور .

صعيد مصر ، وعاد ابن حمدان الى القـاهرة وقد قويت شوكته وتطاول على الخليفة وطلب زيادة أعطيات الأتراك .

ولكن أم المستنصر لم تترك الأمر هـكذا بل أمدت العبيـد بالمؤن من جديد مما جعلهم يحـاولون محاربة الأتراك مرة ثالثة وذلك فى سنة ٤٥٠ هـ ، بعد أن جمعوا خمسة عشر ألفا ما بين فارس وراجل . مما جعل الأتراك يقلقون قلقا شـديدا وحضر مقدموهم الى المستنصر بشكوى السيدة الوالدة التى كانت تكثر من العطايا للسودان . وقد وقع القتال بين الطرفين واستمر عدة أيام قتل فيها أعداد غفيرة من الجانبين مما جعل ابن حمدان يقسم الا ينزل من على فرسه حتى يفصل اما له أو عليه .

وقد حاربهم حربا شرسة بالاسكندرية وحـاصرهم وقضى على كثير منهم مما جعلهم يطلبون الأمان ويسلمون له الاسكندرية . ولم يمض الا وقت قصير وكان قد أعد العدة من أجل القضـاء على العبيد المعسكرين ببلاد الصعيد وخصوصا بعدما أخذت شرورهم وفسادهم ينتشر مما عطل حياة أهل البلاد فتوقفت التجـارة خوفا من الطرق غير الآمنة ، كمـا لم تجد الأرض من يزرعهـا ، أما الصناعة فقد توقفت تماما . كل هـذا أدى الى انهيار البنيان الاقتصادى لبلاد الصعيد مما دفع ابن حمدان الى ضرورة القضاء عليهم وكسرهم ببلاد الصعيد كسرة لا يقومون بعدها فقتل منهم أعدادا كبيرة فذهبت هيبتهم وانقضت قوتهم ، خاصـة وانه سبق هزيمتهم بمصر والقاهرة . وكان ذلك فى سنة ٤٦١ هـ ـــ ١٠٦٨ م. لم تستقر الأوضـاع بعد هذه المعارك الضارية بل زاد عـدم الاستقرار بالبلاد وخصوصا بعد ما قويت شـوكة الأتراك وطمعوا فى المستنصر فطـالبوا بزيادة مقرراتهم حتى بلغت فى كل شـهر أربعمائة الف دينار بعد ما كانت ثمانية وعشرين الفا ، وكثرت

ثوراتهم للمطالبة بمزيد من الأرزاق ، وانتهزوا فرصة ضعف الخليفة وانهيار الكيان الادارى للدولة نتيجة للحروب واستحلوا لأنفسهم القتل والنهب ومهاجمة بيوت الناس للحصول على ما فيها ، وبلغ بهم الحال أن استولوا على ما فى قبور الخلفاء بالقرافة من مصابيح ومباخر ومداخن مصنوعة من الذهب والفضة والنحاس .

ولم يكتفوا بهذا بل طالبوا بالمزيد مما جعل المستنصر يخرج ذخائر قصره فكان الجند بل والوزراء ورجالات الدولة يأخذون بدلا من رواتبهم تحف ونفائس القصر بعد أن تقيم بأبخس الأثمان ونتيجة لهذه الأحداث قويت شوكة ناصر الدولة وانفرد بالأمر دون بقية الأتراك من أتباعه ، بل وصل به الأمر ان فكر بصورة جدية فى اسقاط دولة الفاطميين وفعلا أعلن الخطبة لأحد الأشراف كنوع من الانتقام من الدولة الفاطمية متمثلة فى شخص المستنصر ، وفى هذا كتب المستنصر اليه قائلا : « انك قدمت علينا زائرا وجئتنا ضيفا فقابلناك بالاحسان وأكرمناك فقابلتنا بما لا نستحقه منك ونحن عليك صابرون وعنك مفضون وقد انتهت بك الحال الى محالفة العسكر علينا والسعى فى اتلافنا ؛ وما ذاك مما يهمك ونحب أن تنصرف عنا موفورا فى نفسك ومالك والا قابلناك على قبيح أفعالك » .

ولم يرحب شيوخ الأتراك بأسلوب ابن حمدان فى التصرف الذى اتبعه قبل الخليفة والخلافة ولذا نجدهم يلتفون حول أحد شيوخهم المعروفين وهو الدكز (٧) الذى جمع حوله كثيرا من الأتراك

---

(٧) الدكز : أحد القواد الاتراك وكان يطلق عليه أيضا لقب أسد الدولة وقد قام بالقضاء على ناصر الدولة اس حمدان واستبد بالسلطة وسيطر على القاهرة بل على الخليفة المستنصر بالله نفسه بان ضيق عليه الخناق واستولى على كنوز القصر الفاطمى ولكنه قتل بعد قدوم بدر الجمالى من بلاد الشام .

الخارجين على ابن حمدان فناصروا الخليفة المستنصر وانضم اليهم بعض المغاربة وخرجوا جميعا لمحاربة ابن حمدان الذي حاول أن يعيد حساباته من جديد وأن يكون لنفسه سندا من العرب من بنى الجراح وبنى سنبس وهى القبائل العربية التى هاجرت الى مصر مع الفتح واستقرت وكانوا يكنون العداء للدولة الفاطمية ولذا فقد ساندوا جميع الحركات التى ناهضت تلك الدولة .

ولم ينس أن يضم اليه أيضا بعض طوائف الأكراد التى كانت ضمن الجيش الفاطمى وقد بلغت عدتهم خمسة آلاف رجل. وقد تأزم الموقف وانقسمت البلاد الى عصابات مسلحة تقضى على الأخضر واليابس وتحرق وتنهب ، وقد قطع ابن حمدان الخطبة للمستنصر وأعلن الولاء للخليفة العباسى القائم كما ارسل رسولا من قبله الى الب ارسلان السلجوقى يسأله المعونة فى سبيل أن يكون له بمصر نصيب . ومن الطبيعى أن يرحب الب ارسلان بهذا ، ولكن ظروف بلاده لم تمكنه من أن يفى بوعده لابن حمدان الذى زاد انتشاره بالبلاد وهاجم القاهرة ومصر وخرب البلاد وهتك الاعراض ، واستولى اتباعه على كل ما يقابلهم فى طريقهم من ممتلكات الشعب ، بل ان بعض الجند من اللواتيين استولوا على أسفل الأرض دون أصحابها واستقر اكثر من أربعين الف فارس منهم يتحكمون فى الثروة الزراعية ، ولم يهتموا بأمور الزراعة من أعمال الرى والصرف كما لم يلتفتوا الى عمارة الجسور مما زاد سوء الأحوال الاقتصادية ، بل انهم نهبوا الأديرة واستولوا على ممتلكاتها وقتلوا الرهبان وخربوا الضياع الخاصة بها ، وكانت النتيجة الحتمية لهذه الفوضى أن توقفت الزراعة بالبلاد وانتشر الخراب مما قضى على سبل التجارة سواء الداخلية أو الخارجية نتيجة لانعدام الأمن ، أما الصناعة فقد

توقفت نتيجة لاحراق الكثير من المدن الصناعية وهرب الصناع من تلك المدن خوفا من بطش الجند .

واستمر الحال هكذا الى أن تحالف بعض شيوخ الأتراك وعلى رأسهم الدكز مع المستنصر وخرجوا جميعا لمحاربة ابن حمدان وتمكنوا من هزيمته . وقد لعب الشعب المصرى دورا كبيرا فى هذا الصراع منذ وقف الى جوار الخليفة المستنصر وهرب ناصر الدولة الى الدلتا بعد أن هزم واحتمى بقبيلة بنى سنبس وأقام عندهم وصاهرهم ؛ ولكن اصرار شيوخ الأتراك من ناحية وعزيمة الشعب المصري ومساندته للمستنصر من ناحية اخرى جعلتهم جميعا يستمرون فى الوقوف فى وجه ابن حمدان الىأن استطاعوا أن يقضوا عليه ويخلصوا البلاد من الفوضى التى انتشرت بسبب تلك الحروب والمنازعات . وكان هذا فى سنة ٤٦٥ هـ ـــ ١٠٧٢ م ، « فيذكر ابن ميسر انه فى سنة ٤٦٥ هـ قتل ناصر الدولة ابن حمدان التغلبي وذلك انه لما دخل القاهرة وبالغ فى اهانة الخليفة المستنصر ومرق عنه عاقه أصحابه فكان يولى من يختاره من أصحاب المستنصر عملا من أعمال مصر ويسيره فلا يتمكن من الولاية حتى يأمره بالعودة واخذ فى اقامة الدعوة العباسية بمصر وازالة خلافة الفاطميين فلم يتمكن من ذلك لكثرة أتباعهم ففطن له الدكز (أحد قواد الأتراك) وبلدكوز أيضا من أمراء الأتراك فاجتمعا بالأتراك وأعلماهم بأنه ان تم لناصر الدولة ما يريد لم يبق منهم احد فاتفقوا على قتله . وكان ناصر الدولة قد أمن لقوته وذهاب أعدائه فتواعد الأتراك على ذلك فى ليلة رجب فلما كان السحر ركبوا الى داره بمصر ، وهو الموضع المعروف بمنازل العز وهجموا عليه بغير استئذان فتلقاهم ناصر الدولة في صحن الدار وعليه رداء فضربوه بالسيوف وبدره الدكز فقطع رأسه ، وبعثوا كوكب الدولة الى فخر الدولة أخي ناصر

الدولة فصار اليه وتمكن منه فقطع راسه واخذ سيفه وجارية من جواريه وقتل أيضا أخوهما تاج المعالى وجماعة من بنى حمدان وانقطع ذكرهم من مصر ... » .

ولم يكن مقتل ابن حمدان هو النهاية لهذه الصراعات بل ان شيوخ الأتراك وعلى رأسهم الدكز احتلوا نفس مكان ابن حمدان وكانوا قد استبدوا بالمستنصر وأخذوا يطالبونه بالمزيد من الأموال بل انهم سيطروا على البلاد دونه ، وتطاول الدكز والأتراك والوزير ابن أبى كدينة على المستنصر فضاق ذرعه وعظم روعه فبعث الى امير الجيوش بدر الجمالى يطلب منه المعونة ضد ثورات الأتراك المتلاحقة فأجابه بدر وحضر الى مصر ومعه جيشه وأتباعه واستطاع فى فترة وجيزة أن يقضى على الفوضى المنتشرة بعد أن قضى على طوائف الأتراك المتنافسة ونشر الأمن والأمان بالبلاد وكسر شوكة كثير من الخارجين على الخلافة ، وأعاد للخليفة هيبته المفقودة ، كما بدأ أيضا فى علاج الأوضاع الاقتصادية المتردية التى ترتبت على كل ما وقع من احداث ، ولم يكن هذا باليسير بطبيعة الحال فقد تغلغلت آثار الشدة العظمى واستقرت فى وجدان الشعب مدة طويلة ، بل ان مظاهرها لم تمح بسهولة فارتفاع الأسعار وانعدام الأقوات وانتشار القحط والمجاعة وموت أعداد كبيرة من الناس نتيجة للجوع والأوبئة وتعطل الاقتصاد واشاعة الفوضى فى المدن والقرى ، والأساليب غير الانسانية التى كانت تتبع للسلب والنهب وانتشار قطاع الطرق مما دعا الى توقف التجارة الداخلية وتعثر التجارة الخارجية وتخريب المدن الكبرى بما فيها المراكز التجارية والصناعية كل هذا لم يكن باليسير اعادته الى الحياة الا بعد جهد جهيد استطاع أن يبذله بدر الجمالى . فيذكر ابن ميسر « ان الخليفة المستنصر بالله بعث الى أمير الجيوش بدر الجمالى مكاتبة يحسن له أن يكون

المتولى فأجابه بشرط أن يستخدم معه عسكرا ولا يبقى على أحد من عساكر مصر ، فأجابه المستنصر الى ذلك فاستخدم العساكر وركب البحر الملح من عكا ــ وكان مقيما بها ــ فسار فى أول كانون فى مائة مركب فقيل له لم تجر العادة بركوب البحر فى الشتاء فأبى عليهم وسار الى دمياط فذكروا البحارة انهم لم يروا صحوة تمادت أربعين يوما الا فى هذا الوقت فكان ذلك أول سعادته ، فأقام فى دمياط واقترض من تجار تنيس مالا واضافه سليم اللواتى وحمل له الغلال فترك قليوب وبعث الى المستنصر بانى لا ادخل مصر حتى تقبض على بلدكوز (بلدكوش) فبادر المستنصر وقبض عليه ودخل أمير الجيوش بدر عشية الأربعاء سنة ٤٦٦ هـ لليلتين بقيتا من جمادى الأولى ثم ما لبث ان سير كل أمير من أمرائه الى قائد من قواد الدولة ليلا وامره ان يأتيه براسه فأصبح وقد حضره من رؤوس أمراء الدولة شىء كثير ، وقبض على الأتراك فقويت شوكته وعظم امره وتتبع المفسدين فلم يبق أحد منهم بمصر والقاهرة حتى قتله وفر ابن بلدكوز الى الشام » وقد ساعد على اعادة بناء الاقتصاد المصرى التفويض الذى منحه الخليفة المستنصر لبدر مما ساعده على القضاء أولا على مثيرى الشغب والخارجين على الدولة ، ثم أخذ يحارب الفساد بجميع صوره ، وأعاد تنظيم جميع مجالات الاقتصاد وبدأ بالزراعة التى توقفت تماما زمن الأزمة فأطلق خراج البلاد لمدة ثلاث سنوات للفلاحين حتى تتحسن أحوالهم ، واعاد تنظيم ميزانية الدولة وجهازها المالى والادارى ، كما أعاد للتجارة ازدهارها من جديد فأمن الطرق وقضى على مثيرى الشغب . ومن حسن الحظ ان فاض النيل فى هذا الوقت فزرعت الأرض وانتجت محاصيل قضت على أزمة الغذاء ، وانزاح كابوس الغلاء وأخذت البلاد تستعيد ازدهارها الاقتصادى الذى كانت تتمتع به فى عصر المستنصر . ولكن هناك جانبا سياسيا مهما بدأ فى

هذا الوقت فمع بداية قدوم بدر الجمالى (٤٦٦ هـ ــ ١٠٧٤ م) بدات استراتيجية الحكم فى الدولة الفاطمية فى التغير وبدأ عصر حكم « الوزراء العظام » (٤٦٧ هـ ــ ١٠٧٤ م) دون الخلفاء فأصبح الوزير يمثل السلطة الفعلية فى البلاد ، وأما الخليفة فقد تراجعت سلطته وهيبته وسلطانه فأصبح مجرد رمز من الرموز السياسية ، ليس له سوى السلطة الاسمية فقط ، ولا حول له ولا قوة ، وبدأ العصر الفاطمى الثانى وبدأ الصراع يتجه وجهة جديدة .

ثالثا ــ صراع الوزراء ورجالات الدولة :

اذا كان صراع الجند هو سمة من سمات العصر الفاطمى الأول وسببا رئيسيا من أسباب انهيار اقتصاديات البلاد ، فان صراع الوزراء وكبار رجال الدولة كان هو طابع العصر الفاطمى الثانى (٤٦٦ ــ ٥٦٧ هـ/١٠٧٣ ــ ١١٧ م) وقد ساعد هذا الصراع على انهيار الاقتصاد المصرى بل على انهيار الدولة الفاطمية نفسها .

كان أول هذه الصراعات هو ما حدث بعد موت الخليفة المستنصر بالله ؛ واخذ البيعة لابنه أبو القاسم أحمد الملقب بالمستعلى بالله دون اخيه نزار . وكان هذا بتخطيط من الوزير الأفضل بن بدر الجمالى الذى بغض نزار فى حياة أبيه فعاقبه بعد موته بأن أبعده عن الخلافة واخذ البيعة دونه واجبر رجال القصر على اعلان البيعة للمستعلى مما اثار نزار فرفض هذه البيعة لشعوره بأحقيته فى الخلافة ويذكر ابن ميسر فى هذا الصدد « أن المستنصر أجلس بعده ابنه أبا منصور نزار اكبر اولاده وجعل اليه ولاية العهد . فلما كان قبل أن مات أراد اخذ

البيعة له فتقاعد الأفضل ودافع حتى مات لكراهته فى نزار وذلك ان نزار خرج ذات يوم فاذا الأفضـــل راكب وقد دخل من احد ابواب القصر فصاح به نزار يا أرمنى الجنس ، فحقدها عليـــه وصار كل منهما يكره الآخر ، فاجتمع الأفضل بالأمراء والخواص وخوفهم من نزار وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير ابى القاســم أحمد فرضوا بذلك » وهرب الى الاسكندرية ومعه أخوه عبد الله واحد رجاله المخصـــلين الملقب بابن مصال ، وقد ساعده أفتكين والى الاسكندرية على الاستقرار بها ومحاربة الأفضل منها ، ولذا فقد دارت معارك شرســـة بين كل من الأفضل ونزار عملت على اشاعة الفوضى والاضطراب داخل البلاد وخصوصا بمنطقة الدلتا والاسكندرية حيث اثرت على أحوال البـــلاد بصورة واضحـــة فتوقفت الزراعة فى تلك الأنحـــاء نتيجة لنهب جند نزار منطقة الدلتا وخوف الفلاحين وفرارهم خشية بطش عساكر نزار الى جانب اضطراب التجارة الداخليـــة حيث تعطلت الطرق وانعدم الأمن وكسدت التجارة الخارجية أيضا ـ أما الصناعة فقد تأثرت بتلك الحروب وخصوصا بمدينة الاسكندرية التى كانت تعـــانى من هجوم متكرر من قبل الأفضل من وقت لآخر ، واستمر الحال هكذا حتى انتهت تلك الأزمة بالقبض على نزار وسجنه والقضـــاء على اتباعه وهروب ابن مصال ، ولكن بعد أن عانت البلاد لفترة طويلة من هذه الحمـــلات الحربيـــة ونهب الجند ويتضح هـــذا بجلاء فى النص الذى أورده ابن ميسر حيث يذكر « انه فى آخر المحرم سنة ثمان وثمانين وأربعمائة خرج الأفضل بعساكر الى الاسكندرية لقتال نزار وافتكين وابن مصـــال وكانت بينهم حروب شديدة بظاهر الاسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه الى القاهرة فنهب نزار بمن معه من العرب أكثر البـــلاد بالوجـــه البحرى ، وأخذ الأفضل فى التجهيز الى قتال نزار ودس الى من معه من الفرسان واستمالهم عنه ثم خرج الى قتاله ثانيـــا

فكانت بينهما وقعة بظاهر الاسكندرية انهزم فيها نزار بمن معه الى داخل البلاد ، فحاصرهم الأفضل حصارا شديدا ، فلما كان فى ذى القعدة وقد اشتد الحصار جمع ابن مصال ماله وفر الى بلاد الشام ، ولما فر ابن مصال ضعفت قوى نزار وأفتكين وخافا وطلبا من الأفضل الأمان ، ودخل البلد وقبض على نزار وعلى افتكين وبعث بهما الى مصر فكان آخر العهد بنزار » .

اما الصراع التالى فكان بين أبناء الخليفة الحافظ (٥٢٥ ـ ٥٤٤ هـ ١١٣٠ ـ ١١٤٩ م) (٨) وقد لعب دورا خطيرا فى التأثير على اقتصاديات البلاد فقد توقفت الحياة الاقتصادية بالقاهرة وانقسم الجند الى فريقين فريق مع حيدرة والآخر مع حسن ، وهما الريحانية والجيوشية وقامت بينهما حروب شرسة اتخذت من بين القصرين بالقاهرة مسرحا لهذا الصراع ، وقد قتل منهم أعداد غفيرة بلغت أكثر من عشرة آلاف نفس ، وكان من نتيجة هذا أن هرب حيدرة من أخيه حسن ولجأ الى قصر أبيه مما دفع حسن الى محاصرة القصر حصارا شديدا ، ولم يجد الخليفة الحافظ بدا من امتصاص غضب ابنه حسن فأعاد ولايته للخلافة وأقصى عنها حيدرة حتى يحتوى الموقف الذى تفاقم ، وكتب بذلك سجلا قرىء على الملأ وذلك فى سنة ٥٢٨ هـ ولم ينس حسن تفضيل أبيه لحيدرة عليه فاستبد بالدولة دون ابيه حتى لم يبق لأبيه معه حكم البتة ، بل زاد الأمور تعقيدا بأن استحوذ

---

(٨) كان للخليفة الحافظ عدة أبناء أكرمهم وأقربهم الى قلبه ابنه سليمان فولاه العهد سنة ٥٢٨ هـ الا ان سليمان توفى بعد شهرين من هذه التولية فعهد الحافظ بولاية عهده لابنه حسن وكان يلى سليمان فى الترتيب ، الا أن حسن تصرف بغير تعقل مما دعا أباه الى تغيير رأيه فأعلن ولاية العهد لابنه الآخر أبو تراب حيدرة وأسند اليه النظر فى المظالم مما أوغر صدر حسن فأعلن العصيان على أخيه وابيه .

على ثقة الأجناد والأمراء فحسده أخوه حيدرة فجمع جنده واشتد الصراع من جديد بينهما وزادت أعداد القتلى من الفريقين فى الوقت الذى اشتدت فيه سيطرة حسن على أبيه ورجال الدولة ، بل انه قضى على كثير من امراء أبيه حتى يستبد بالأمور .

ولكن تصرفاته أخافت رجال الدولة وأمراءها وخصوصا ان الخليفة لم يتدخل للحد من تلك التصرفات ، فاتفق الجميع على القضاء على الحافظ وابنه معا . وعندما علم الحافظ بهذه المؤامرة سارع باحتواء الأزمة بأن قبض على حسن كرغبة الأمراء وقتله بالسم ولكن بعد أن كانت الأجناد قد أشاعت الفساد والاضطراب بمدينة القاهرة ونهبت الأسواق وتوقفت كثير من مرافق البلاد الحيوية نتيجة لهذا الصراع ، هذا الى جانب الأموال التى خرجت من خزانة الدولة لتساعد فى القضاء على هذا الصراع ، وحتى بعد مقتل حسن اضطر الخليفة الحافظ ان يزيد فى أرزاق الجند وأعطياتهم ليضمن ولاءهم مما أثر على ميزانية الدولة .

من الصراعات التى أثرت على أحوال البلاد الاقتصادية أيضا زمن الخليفة الحافظ الصراع الذى نشب بين بهرام ، ورضوان بن الولخشى ، وكان بهرام وزير الخليفة الحافظ أرمينيا نصرانيا وقد ترقى فى الخدمة حتى ولى ولاية المحلة ثم الغربية ، وقد أثبت رجاحة عقل وحسن تدبير أثناء خدمته لولاية الغربية ولذا فقد فضله الخليفة الحافظ واستوزره عندما شعر برجاحة عقله وشجاعته فى الحرب وحسن تدبيره للأمور وخصوصا بعد موت مقدم الأرمن ، وكان بهرام أحق بهذا المنصب ولكنه لم يكن مرغوبا فيه من الكثير من رجال الدولة خاصة وانه نصرانى وكانت العادة جارية منذ عهد الوزير بدر الجمالى أن يكون الوزير

مسلما فهو يرقى المنبر مع الامام ليزر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس ، كما أن القضـاة كانوا نواب الوزراء من زمن أمير الجيوش ، ويذكرون بالنيابة عنهم فى الكتب الحكمية النافذة الى الآفاق (أى الوثائق الرسمية) وكتب الأنكحة ، لكن الخليفـة الحافظ لم يلتفت الى كل تلك الأمور لاقتناعه بكفاءة بهرام كوزير.

وكان بهرام يمثل احدى القوى الكبرى التى لها وزنها فى البلاد وخصوصا بعد ما استخدم أهله من تل مباشر ومن بلاد الأرمن وكون لنفسه عزوة كبيرة بلغت حوالى ثلاثين الف شخص استطاع من خلالهم أن يسيطر على شئون البلاد واطلق أيديهم فى كل شىء ، وقد تطـاول هؤلاء على أهل البـلاد وخصوصـا المسـلمين وزادت أعـداد أتباعه واستكثروا من بناء الكنـائس والأديرة حتى صـار لكل رئيس من أهله كنيسة ، على حد قول ابن ميسر الذى ذكر انه « بنيت كنائس واديرة حتى صـار كل رئيس من أهله يبنى له كنيسـة » وخاف أهل مصر منهم أن يغيروا ملة الاسلام وكثرت الشكايات فيه وفى أهله ، وخصوصا عندما اخذ بهرام هـذا يولى المناصب الرئيسية للبلاد فقد ولى اخـاه المعروف بالباساك مدينة قوص ، وقد استبد هذا بأهل البـلاد واستباح أموالهم ونهب ممتلكاتهم وظلم الكثير منهم مما دعـا أهل البلاد وأمراء المصريين الى طلب النجدة والمساعدة من رضـوان ابن الولخشى والى الغربية الذى كان يراقب الأمور من بعيد منتظرا الفرصة للتدخل ليحتوى الموقف ويصـل الى الوزارة التى سلبها بهرام واتباعه ، هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن العداوة بينه وبين بهرام كانت قديمة اذ كان فيما مضى أحد الأمراء الذين يتولون حجابة باب ابن الخليفـة الحافظ وكان مشهورا بشجاعته واقدامه وعندما استقر بهرام بالوزارة أبعده وولاه ولاية عسقلان فى شهر رجب سنة ٥٢٩ هـ ولكنـه اصطدم ببعض الأرمن الذين

حاولوا القدوم الى مصر مما أوغر صــدر بهرام عليه فأعاده الى مصر وولاه ولاية الغربية فى صفر سنة ٥٣١ هـ/١١٣٦ م لهـذا عندما استنجد به الأمراء المصريون ضـد بهرام سارع الى نجدتهم للانتقام من بهرام من ناحيـة ولشعوره بأنه واصل الى الوزارة لا محالة وقد بدأ فعلا فى حشـد أعداد كبيرة من أتباعـه بلغوا ثلاثين الف فارس من العربان واتجه بهم من منطقة سخا بالدلتا لمحاربة بهرام والقضـاء عليه ومنع تطاول النصـارى من الأرمن على المسلمين من أهل البلاد ، وقد اشتد الصراع بين الفريقين وخصوصا عندما تقابلا على مشارف القاهرة وانضم أتبـاع بهرام لرضوان بعد أن رفع أتباعه المصـاحف على أسنة الرماح ، ولكن الخليفة الحافظ الذى كان يساند بهرام سهل له الهروب الى قوص ليحتمى بأخيه هناك الا أن ثورة الجند وأهل البلاد سبقته الى قوص فقبضـوا على أخيه وقتلوه قبل أن يصل بهرام الى المدينة ولكن بهرام كان قد خرج فعلا بعد أن استولى على كثير من خزائن الدولة ، وقد اشتدت الأمور داخل البلاد بعد خروج بهرام منها حيث نهب العامة من أهل البلاد سائر ديار الأرمن وخصوصا منطقة الحسينية وظاهر باب الفتوح التى تمركز بها الأرمن منذ قدومهم الى مصر ، بل ان غضب أهل البلاد امتد الى الكنـائس الخاصة بالأرمن أيضا .

ولكن أوضاع مدينـة قوص بعد مقتل الباساك كانت غير مواتية لاقامة بهرام ، ولذا نجده يفر الى أسـوان فنزل فى أحد الأديرة الحصينة غرب مدينة اخميم ، ولكنه كان منفردا فقد تفرق جنده وتركوه وحيدا . أما رضوان فقد دخل القاهرة ووقف بين القصرين واستأذن الخليفة فأشار عليه بالنزول فى دار الوزارة وخلع عليه ونعته « بالأفضل » وذلك فى سنة ٥٣١ هـ ، ولنا أن نتصور أحوال البلاد بعد هـذا الصراع الدامى بين فريقين كبيرين

من الجند بدأ بالقاهرة واتخذ من منطقة بين القصرين مسرحا للقتال وانتشر ببقية القطر حيث وصل الى مدينة قوص ولذا فمن نافلة القول ان الحياة الاقتصادية قد توقفت نهائيا أثناء هذا الصراع داخل مدينة القاهرة حيث معارك الجند على أشدها والفوضى التى أحدثها العامة بعد خروج بهرام ونهب ممتلكات الأرمن كل هذا كفيل بأن تقف بسببه الحياة الاقتصادية وتتدهور .

أما ما حدث بمدينة قوص فمن المؤكد أن تلك المدينة قد خرجت بعد مقتل الباساك وهى منهارة اقتصاديا فطرقها التجارية الشهيرة أصبحت تفتقد الأمن نتيجة لوجود الجند بها ، الى جانب الفوضى التى أعقبت القضاء على واليها ، ومن المؤكد ان النشاط الصناعى بالبلاد قد تعطل ايضا وكان من أهم نتائج هذا الصراع على مستوى مصر كلها ان الغلاء انتشر بالبلاد وكذا عمت المجاعة وذلك سنة ٥٣٦ هـ ، ففى شهر شعبان من هذا العام عدم القمح والشعير وبلغ سعر القمح تسعين درهما للأردب ، والدقيق مائة وخمسين الحملة والخبز ثلاثة أرطال بدرهم والويبة الشعير سبعة دراهم ، والزيت الطيب الرطل بثلاثة دراهم والجبن كل رطل بدرهم والدجاج والفراريج لا يقدر على شىء منها ، وكثر الوباء والموت ، وانتشر بديار مصر فهلك فى سنة ٥٣٧ هـ أعداد كبيرة .

ومن الكوارث التى حلت بالبلاد واثرت على كيانها الاقتصادى بسبب صراعات الوزراء ، ذلك النزاع الذى نشأ فى أواخر عهد الدولة الفاطمية زمن الخليفة العاضد لدين الله بين شاور بن مجير السعدى وبين ضرغام بن سوار ، وذلك فى شهر صفر سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢ م ، حيث انقسمت البلاد الى معسكرين وخصوصا بعد ما استبد شاور بالوزارة واستولى على أموال

بنى رزيك مما ادى فى النهاية الى صراع مسلح استطاع فيه ضرغام أن يسيطر على نواصى الأمور فهزم شاور وقتل ابنه طى مما دعا شاور الى الخروج من القاهرة متجها الى الشام .

واستقل ضرغام بالوزارة ، ومن الأمور المضحكة فى تلك الفترة ان البلاد كانت تحكم من خلال ثلاث وزارات فى وقت واحد فشاور بن مجير يترأس احدى تلك الوزارات وضرغام يترأس الأخر ، كما كان العادل بن رزيك الذى تولى الوزارة بعد أبيه ولقب بالناصر على رأس الوزارة الثالثة وكان ذلك فى سنة ٥٥٨ هـ ١١٦٢ م ، وهذا يمثل منتهى الفوضى السياسية التى كانت تحياها الخلافة الفاطمية فى أخريات أيامها ، فاذا كان هذا هو وضع الحياة السياسية فلنا أن نتصور تبعا لذلك مدى الفساد الاقتصادى الذى ساد البلاد وأدى الى انهيار اقتصادياتها فى أواخر عهد تلك الدولة . ومما زاد الطين بلة استنجاد الوزير شاور بن مجير السعدى بعد فراره الى بلاد الشام بالسلطان نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام فبعث معه جيشا كبيرا فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٣ م على رأسه أسد الدين شيركوه على أن يكون لنور الدين اذا عاد شاور للوزارة ثلث خراج مصر بعد اقطاعات الجند ، كما تكون له أيضا الكلمة الأولى والأخيرة فى تصريف أمور الجند بمصر فلا تصرف الا من خلاله ، وفى تلك الأثناء كان ضرغام قد استأثر بالسلطة وأساء التصرف فقضى على كثير من رجال الدولة وأمرائها بأن قتلهم مما أضعف من شأن الدولة وأصابها بالانهيار السياسى وفى تلك الأثناء ايضا أخذت الفرنج تغير على ديار مصر فخرج اليها همام اخو الوزير ضرغام ، ولكنه هزم وقتل من جنوده أعداد كبيرة واستقر الفرنج بحصن بلبيس واستولوا على جزء من سور الحصن ، وقد تكررت الهزيمة مرة أخرى ، وطلب رسل الفرنج

الهدنة والمال من ضرغام ومقداره ثلاثة وثلاثون ألف دينار . وفى تلك الأثناء وصل جيش شاور يسانده أسد الدين شيركوه على رأس طائفة الغز فى جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٣ م وقد خشى أهل البلاد من بطش الغز فانضموا الى الوزير ضرغام لمحاربة شاور ومن معه من جند الشام ، كما انضم اليه أيضا طائفة الريحانية وطائفة الجيوشية . واشتد الصراع داخل القاهرة وتحول الى حرب أهلية قضت فى طريقها على كثير من الرقى والحضارة وخصوصا عندما اشتد أمر شاور وأخذ يحارب أهل القاهرة بكل ضراوة سواء بأرض الطبالة أو عندما نزل الى المقس أو الى بركة الحبش واستولى على الرصد ثم استولى على مدينة مصر بعد أن زاد فى القتل والحصار مما دفع كثيرا من الأهالى الى الانضمام اليه خوفا من اشتداد بطشه ، كما انحرف كثير من أتباع ضرغام عنه وانضموا الى شاور أيضا وخصوصا عندما امتدت يد ضرغام لأموال اليتامى التى كانت بمودع الحكم ، للاستعانة بها فى حربه ضد شاور مما زاد من غضب أهل البلاد وانضمامهم الى شاور ضد ضرغام كما زاد نفور الناس من ضرغام بعد ان اشتدت عقوباته على من حوله من اتباعه مما جعل الكثيرين ينفضون من حوله ويلتفون حول شاور فزادت قوته ونزل بأرض اللوق خارج باب زويلة وطارد البقية الباقية من رجال ضرغام . وزحف شاور الى باب سعاده وباب القنطرة واشعل النيران فى « منظرة اللؤلؤ » وما يجاورها من قصور كبار رجال الدولة . واشتدت الحرب وهلكت أعداد كبيرة من الطرفين، بل ان معظم الطائفة الريحانية فنيت فى هذا الصراع الدامى مما جعلهم يراسلون شاور وينضمون اليه خاصة بعد أن زاد الحصار على أهل القاهرة . وبعد أن أصدر الخليفة العاضد أوامره الى الجند من الرماة بوقف القتال ، فانفض الجميع من

حول ضرغام ولم يبق له الا خمسمائة فارس اخذوا فى التناقص بعد أن تخلى عنه الخليفة فلم يبق معه الا ثلاثون فارسا فقط .

وقتل ضرغام فى آخر جمادى الآخرة سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٣ م وتحول الصراع الى الجانب الآخر فبعد أن كان بين الوزير شاور ونظيره ضرغام أخذ يتجه وجهه أخرى فقد أخلف شيركوه ما وعد به السلطان نور الدين فأمره بالخروج عن مصر فرفض فاقتتلا ، ويذكر المقريزى في هذا الصدد « أن شاور بن مجير السعدى استنجد بالسلطان نور الدين محمود زنكى صاحب الشام لنجدته ضد ضرغام ـ فأنجده وبعث معه عسكرا كثيرا فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة وقدم عليه أسد الدين شيركوه على أن يكون لنور الدين اذا عاد شاور الى منصب الوزارة ثلث خراج مصر بعد اقطاعات العساكر وأن يكون شيركوه عنده بعساكره فى مصر ولا يتصرف الا بأمر نور الدين » . وكان شيركوه قد بعث بابن أخيه صلاح الدين الأيوبى الى منطقة بلبيس ليجمع له الأموال والغلال فاستنكر شاور هذا الأمر وحارب الشاميين لتدخلهم بصورة سافرة فى شئون البلاد السياسية والاقتصادية مما دمر البلاد تدميرا شديدا فاحترق وجه الخليج خارج القاهرة واشتدت أمور السلب والنهب داخل البلاد ، واضطربت الأحوال الاقتصادية وانتشر الخراب فى كل مكان مما دعا شاور الى الاستنجاد بالفرنج الذين كانوا ينتظرون نتيجة هذا الصراع ويخططون للاستيلاء على مصر فسارع ملكهم عمورى بجمع جنوده والخروج من عسقلان متجها الى القاهرة ولكن شيركوه ترك القاهرة التي دمرها حصاره لها مدة طويلة ونزل بلبيس وحارب منها كلا من شاور وملك الفرنج اللذين حاصراه ببلبيس مدة ثلاثة أشهر .

وكان نور الدين فى ذلك الوقت يغير على ممتلكات الفرنجة القريبة منه وقد استولى على بعضها مما دعا ملك الفرنجة الى عقد هدنة بينهما ، ولكن لم تأت سنة ٥٦٢ هـ/١١٦٦ م الا وكان نور الدين يعد العدة من جديد بجيش قوى ليستولى على مصر مما دعا شاور الى طلب النجدة من جديد من ملك الفرنج الذى سارع لنجدته ونزل بلبيس ودارت حروب دامية بين كل من شيركوه وعمورى ملك الفرنجة مما دفع شيركوه الى التوجه الى الصعيد من ناحية بحر القلزم (خليج السويس) وملك بلاد الصعيد فاشتدت الحرب بين الجانبين الى أن انهزم شيركوه عند الأشمونين فسار الى الاسكندرية فملكها وأقر عليها ابن أخيه صلاح الدين ، ولكنه عاد الى بلاد الصعيد فخرج خلفه شاور وجنود الفرنج وحصرت الاسكندرية حصارا شديدا حتى كادت أن تلفظ أنفاسها مما دفع شيركوه الى ترك قوص والتوجه الى القاهرة واعداد العدة لنجدة ابن اخيه صلاح الدين بالاسكندرية ، ولكن شاور ترك الاسكندرية وتوجه الى شيركوه بالقاهرة ، ولكن ملك الفرنجة مال الى الصلح مما دفع شيركوه الى ترك مصر بعد هذا الصراع الدامى والتوجه الى الشام .

واصبحت الساحة خالية أمام ملك الفرنج الذى ترك (٩) شحنة من جيشه الى جانب انه سبق أن استولى على أسوار المدينة وأخذ يملى شروطه على شاور وخصوصا بعدما اصبحت مقدرات الأمور بيده فطلب مائة الف دينار فى السنة ثم رحل الى بلاده خلف جنوده وعلى رأسهم بعض قادته الموثوق بهم ، فتحكم الفرنج بالقاهرة وانتشروا يفسدون مرافقها ويقتلون أهلها ويتفنون فى القضاء على كيان البلاد ، ولم يستطع احد ان يقف فى

---

(٩) المقصود بالشحنة : فرقة عسكرية والشحنة حمولة سفينة .

وجه هذا البلاء وخصوصا أن شاور كان قد ضعفت قواه وعجز عن الوقـوف فى وجـه هـذا البـلاء الذى زرعـه بيده ، ولم تأت سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م الا وكان ملك الفرنج يعد العدة من جديد للاستيلاء على مصر فى حملة ثالثة وأقطع البلاد لكثير من اتباعـه وأخذ يتعلل بقدومه بأنه مغلوب على أمره من قبل الفرنج حيث انهم يطلبون منه ألفى ألف دينار كنوع من التعويض عما أصابهم عندما حاربوا مع شاور . ولذا فقد حاصر بلبيس واستولى عليها عنوة وأفسد فى الأرض وقضى على كل ما يقابله من الأخضر واليابس وأخذ فى اعداد العدة للاسـتيلاء على القاهرة الأمر الذى جعل الخليفة العاضد يستنجد بنور الدين ويرسل كتبه التى تحمل شعور نساء القصر يسأله نصرة المسلمين ضد الفرنجة . وخصوصا أن الخليفة العاضـد كان مغلوبا على أمره امام وزيره شـاور فلا حول ولا قوة له وكان ملك الفرنج قد نزل بركة الحبش وأخذت الأمور تشتد مما دفع شاور ، الى اجلاء الناس عن مدينة مصر ، فخرج منهـا أهلهـا تاركين وراءهم ممتلكاتهم وأموالهم ناجـين بأنفسـهم ، وتحولوا الى مهاجرين يفترشـون الأرض ويلتحفون السماء بطرقات القـاهرة وجوامعها ، واشتدت وطـأة الغـلاء وانتشرت الفوضى وخرب اقتصاد البلاد .

وقد بعث شاور الى مدينة مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار وأحرقت مدينة مصر عن آخرها وانتهت عظمة الفسطاط لمدة اربعة وخمسين يوما .

كما نهبت المدينة واصبحت خرابا . وقد رحل ملك الفرنج بعد الحريق واستقر ببركة الحبش ونزل بظاهر القاهرة ، واشتدت رحى الحرب بينه وبين أهلها الذين خرجوا وساندوا شاورا . وقتل فى هذه الحروب أعداد غفيرة من الشعب المصرى وخربت

البلاد وزلزلت أركانها وانهار اقتصادها . ولكن عناية الله ادركت أهل مصر فقد اضطر الفرنج للعودة الى ديارهم بعد علمهم بقدوم أسد الدين شيركوه مرة أخرى بعد أن استنجد به الخليفة العاضد ، فرحلوا الى بلادهم ، ووصل أسد الدين ونزل المقس خارج القاهرة وقتل شاور واستولى على مصر . ومنذ ذلك الحين تحولت الفسطاط الى منطقة خربة لا تحتوى الا على كيمان ، وفر أهلها عنها وذهبت عظمتها التجارية والصناعية . وانتشرت الأوبئة الفتاكة بالبلاد مما أضاع ثروتها . وقد كانت هذه المحنة من أشد المحن التى أصابت الاقتصاد المصرى فى مقتل ؛ وساهمت فى التعجيل بنهاية عظمة الامبراطورية الفاطمية .

وهناك نص أورده لنا عمارة اليمنى يعتبر من أبلغ النصوص التى تدل فعلا على حالة مصر بعد هذا الصراع الدامى ، اذ يقول : « لم يرب أحد من الوزراء المصريين رجال الدولة مثلما رباهم الصالح بن رزيك ، ولا افنى اعيانهم مثل ضرغام ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور ، هو الذى أطمع الفرنجة والغز فى الدولة حتى انتقلت عن أهلها » . وعندما استولى أسد الدين شيركوه على البلاد بعد مقتل شاور (النصف من جمادى الأولى سنة أربع وستين وخمسمائة) وسيطرته على الخليفة العاضد أراد أن يعيد للفسطاط عظمتها من جديد ولذا فقد ناشد أعيان الفسطاط المهاجرين منها العودة اليها وتعميرها ، ولم يكن هذا بالأمر اليسير فقد تحولت الى كيمان وخرائب ، الى جانب أن الفقر والفاقة سيطرا على البلاد ولكن شيركوه ساعدهم على العودة ، واخذت الحياة تدب من جديد فى الفسطاط بعض الشىء . وقد أتى وصف ابن جبير لمدينة الفسطاط ليؤكد حالتها فى هذا الوقت فقد ذكر أن « بمدينة مصر آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيديين

وذلك سنة ٥٦٤ هـ وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل . وهى مدينة كبيرة والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف » .

رابعا ـ الانفاق على الحملات الحربية ، ومساندة الحركات الانفصالية ضد الدولة العباسية :

من الأسباب المهمة أيضا التى عملت على انهيار الاقتصاد المصرى تلك الأموال الطائلة التى كانت تخرج من الخزانة الفاطمية من اجل اعداد الحملات الحربية الضخمة للوقوف ضد الأخطار التى كانت تهدد الدولة ، وكذا لمساندة الحركات الانفصالية التى كانت تقوم بين الحين والحين ضد الدولة العباسية مما ساعد على استنزاف خزانة وموارد البلاد وادى فى النهاية الى تخريب الميزانية .

وكانت أولى الحركات الانفصالية التى استنزفت كثيرا من ميزانية الدولة فى سبيل اعداد جيش ضخم للقضاء عليها زمن الخليفة الحاكم بأمر الله ، هى الحركة التى قام بها أبو ركوة (١٠) فى برقة . فقد استطاع هذا الرجل أن يجمع حوله قبيلة لواته وجموعا من البربر السنية وعددا من القبائل العربية المقيمة

---

(١٠) أبو ركوة : ينتسب الى بنى أمية من بنى مروان ، فهو الوليد بن هاشم بن عبد الملك بن عبد الرحمن الداخل هرب من الأندلس زمن الوزير المعروف المنصور بن أبى عامر ، وزير وحاجب الخليفة هشام المؤيد الأموى بالأندلس ، وجاء الى مصر لسماع الحديث ثم انتقل الى مكة ثم اليمن ثم عاد الى مصر ثم القيروان ومنها الى برقة ، وعرف بأبى ركوة لأنه كان يظهر النسك ويحتفظ معه بركوة على عادة أهل الصوفية . ويرجع البعض هذه التسمية الى أهل مصر كنوع من السخرية .

ببرقة ، الى جانب قبائل زنانة من البتر (١١) ، وكانوا جميعـا على عداء مع الدولة الفاطمية الشيعية .

بدأ أبو ركوة حركته من برقة واستطاع أن يستولى على مدن كثيرة بعد قتال عنيف مع أهل تلك المدن قتل فيها أعـدادا غفيرة من أهـل المناطق مما دفع الخليفـة الحـاكم بأمر الله الى تجهيز جيش من المشارقة والمغاربة بقيـادة ينـال أحد القواد الترك . وقد ساعدت الظروف على فشـل هـذه الحملة فالقائد تركى ، والمغاربة لا تتحمس للقتال تحت قيادة قائد ليس منها . الى جانب أن المغـاربة تجنبوا الوقوف فى وجه أبنـاء جنسهم مما جعل الفتور يسيطر على تصرفاتهم ، وهـذا ساعد على سرعة انهزام الجيش الفاطمى — ولا ننسى أن ينال هـذا كان لا يعرف طبيعة البلاد التى يحارب فيها ولذا فقد استطاع جند أبى ركوة الانتصار عليه بسهولة ، ووقع ينال هـذا أسيرا وفر جنوده من الميـدان . ونتيجـة لهـذا النصر الذى أحرزه أبو ركوة فقد استسلم أهل برقة فى سنة ٣٩٥ هـ وخرج منها الوالى الفاطمى الملقب صندل ، وأعلن أبو ركوة المذهب السنى وقضى على المذهب الشيعى ولقب بأمير المؤمنين الناصر للدين كذلك سـك العمـلة باسـمه .

وعندما اشتد البطش بالشيعة فى برقة استنجدوا بالخليفة

---

(١١) أما قبـائل البربر فينقسمون الى البربر البرانس والبربر البتر ، والبربر البرانس هم أهل الشمال الذين يعيشون فى المنطقة الساحلية ويختلطون بالاجانب ولذا فهم أكثر تفتحا وانفتاحا على العالم الخـارجى ولذا فقد كانوا اكثر مدنيـة وحضارة . أما البربر البتر فهم سكان الجنوب فى المناطق الصحراوية وهم أهل بداوة واشـهرت منهم مجموعة من القبائل من لواتة وزنانة ونفوسـة وجراوة وهم يشبهون العرب فى نظامهم وعصبيتهم القبلية .

الحاكم فأعد حملة ثانية ولكنه فى هذه المرة اعتمد فيها على المشارقة دون المغاربة حتى يتلافى ما حدث فى الحملة الأولى واعطى قيادتها للأمير فاتك الذى اشتبك مع أبى ركوة بمنطقة الحمام وهزم فيها هزيمة منكرة .

وقد ساعد هذا النصر الذى أحرزه أبو ركوة على جيش الحاكم بقيادة فاتك هذا على التوغل داخل مصر فى رمضان سنة ٣٩٦ هـ (١١٠٥ م) بجيش جرار كونه من القبائل المغربية والبربرية التى كانت تعيش تحت خط الفقر ووجدت فى غزو مصر فرصة للحصول على الغنائم التى وعدهم بها أبو ركوة فقد اعتبر مصر دار حرب للكفار واعطى جيشه حق سلب ونهب كل ما يقابله .

وقد ساعد ابو ركوة فى هذا الغزو قبائل عربية كثيرة من مصر مثل بنى قرة وبنى سليم وبنى هلال (١٢) وقد أغرى أبو ركوة تلك القبائل بأن منحها الكثير من الاقطاعات وكتب لهم بها سجلات . وقد وجد العرب فى هذه الحركة فرصة مواتية للقضاء على أعدائهم الفاطميين والحصول على نصيبهم من ممتلكاتهم فى حالة انتصار أبى ركوة وتقسيمه مصر بين المغاربة ،

---

(١٢) « بنى قرة » قبائل عربية استقرت بمنطقة البحيرة منذ الفتح العربى ، ومنذ دخول الفاطميين مصر والعداء مستحكم بينهم وبين هذه القبائل ، وفى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله استفحل الخلاف فحاربهم وقتل بعضهم وحبس البعض الآخر كنوع من الانتقام على تطاولهم على الخلافة . وقد كانت تلك القبائل مصدر ازعاج للحكومة الفاطمية ، وغالبا ما كانت تنضم لأى حركة مناهضة للدولة الفاطمية .

أما « بنى سليم ، وبنى هلال » فهى قبائل عربية أيضا ، ولكنها دخلت مصر مع القرامطة وكانت كثيرة الشغب مما دعا الخليفة العزيز بالله الفاطمى الى نقلهم الى بلاد الصعيد فاستقروا هناك وأصبحت لهم قوة تخشاها الدولة الفاطمية وغالبا ما كانوا يساعدون أى حركة ضد الدولة الفاطمية .

وكانوا يطمعون فى الحصول على بلاد الشـــام . ولكن الخليفـــة الحاكم بأمر الله تشدد هذه المرة وكون جيشا ضخما من البربر والأتراك والديلم الى جانب السودان وانضم اليه كثير من المصريين الذين هبوا ليدافعوا عن بلادهم ضد هـــذا الغزو الخـــارجى ، وخصوصا عندما أخذ أتباع أبى ركوة ينهبون خيرات البلاد ويخربون فى طريقهم كل ما يمرون عليـــه . وقد وقف الشعب المصرى كله مع الحاكم فقدم الأثرياء الكثير من الأموال لاعداد الجيش كمـــا تكاتف التجار بأن قضـــوا على ارتفاع الأسعار فساعد هذا على توقف الاضطراب الاقتصادى . وقد بذل الخليفة الحـــاكم بأمر الله الكثير من الأموال التى خرجت من خزانة الدولة للانفاق على هذا الجيش الجرار الذى خرج للقاء أبى ركوة . وقد ساعد أهل الفيوم الخليفة الحـــاكم ووقفوا جميعا معه ضد أبى ركوة مما ســـاعد الخليفة على الانتصار عليه ، وانسحب أبو ركوة الى الجيزة . ولكن أهل البلاد وقفوا فى وجهـــه فعاد الى الصعيد على أمـــل الحصول على امدادات تأتيه من القبائل العربية من بلاد الصعيد ، ولكن جيش الحاكم منع وصـــول تلك الامدادات اليه مما أضعف من قواه ، وعندما اشتبك مع الجيش الفـــاطمى هزم بمنطقـــة راس البركة وقتل كثير من جنده ، وفر الى بلاد النوبة ولكن ملك النوبة سلمهم الى الخليفة الحاكم بناء على المعاهدة التى كانت قائمة بين مصر وبلاد النوبة وهى المعروفة بمعاهدة البقط والتى عقدت زمن عمرو بن العاص .

وقـــد اعتبر الحـــاكم هـــذا الحدث نصرا عظيمـــا فشهر بأبى ركوة وحمل على جمل والبس طرطورا طويلا وخلفه قرد وبيده درة يضربـــه بها ، وقـــد استمر الحـــال هـــكذا الى أن مـــات سنة ٣٩٧ هـ = ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ م ثم صلب ليكون عبرة لمن يخرج على الدولة .

ولنا ان نتصور مقدار الأموال التى خرجت من خزانة الدولة للانفاق علي تلك الحملات المتكررة التى أرسلها الخليفة الحاكم بأمر الله للوقوف فى وجه هذا الثائر على الخلافة . فقد ذكر المقريزى ان الانفاق على تلك الحملات بلغ ألف ألف دينار ذهبا ، هذا الى جانب السلب والنهب الذى أحدثته القوات المرافقة لأبى ركوة سواء بمنطقة الفيوم او الجيزة أو ببلاد الصعيد حيث استمر السلب والنهب طوال فترة الغزو مما عطل الحياة الاقتصادية سنة ٣٩٥ هـ ـ ٣٩٧ هـ اذ توقفت الزراعة وتعطلت الطرق التجارية نتيجة لانتشار الفوضى ، وانتهكت حرمات الطرق مما عمل على اضطراب الاقتصاد وارتفعت الأسعار وعدمت الأقوات فبيعت الويبة من الشعير بخمسة دراهم ، والخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم . ونتيجة لهذا الاضطراب كانت الحركة التجارية تتوقف فى كثير من الأحيان ولكن تماسك الشعب ووقوفه خلف الحاكم للقضاء على حركة أبى ركوة والحفاظ على كيان البلاد جعل التجار يقفون فى وجه هذا الغلاء حتى يجنبوا البلاد المجاعة والقحط ، فتوقف ارتفاع الأسعار وخرجت البلاد من تلك الأزمة بسلام .

اما الحركة الانفصالية الثانية فكانت هى التى قام بها البساسيرى (١٣) ضد الدولة العباسية واقامة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى بغداد .

---

(١٣) البساسيرى هو ابن الحارث ارسلان ، الملقب بالمظفر البساسيرى . كان مولى لابى على الفارسى النحوى وتنقلت به الأحوال حتى ملكه بهاء الدولة ابن عضد الدولة بن بويه ، فقد تقبلت به الأحوال وترقى حتى صار من كبار قواد الاتراك فى المنيا بالاسفهسلارية وهم كبار الأتراك ببغداد . وقد عرف بالبساسيرى نسبة الى بلده بفارس يقال لها « بسا » وتقع على اربع مراحل من شيراز وبها جمع كبير من الديلم .

فمنذ استقر الفاطميون بمصر وهم يبذلون أقصى ما فى وسعهم لتوطيد دعائم دعوتهم ببلاد العراق ، ومن هذا المنطلق اهتموا بارسال دعاتهم الى حاضرة الامبراطورية العباسية وأمدوهم بالأموال الطائلة (١٤) . وقد نجح هؤلاء الدعاه فى جذب كثير من أهالى العراق الى اعتناق المذهب الاسماعيلى ولم يقتصر الحال على العراق فقط بل شمل بلاد فارس وخصوصا منطقة شيراز والأهواز أيضا حتى ان كثيرا من جند بنى بويه كانوا من الديلم والأتراك . وقد كان من بنى بويه الأتراك فى ذلك الوقت أبو الحارث ارسلان البساسيرى الذى سيطر على الأمور فى بغداد وخصوصا بعد تعيينه من قبل الخليفة القائم بأمر الله رئيسا للأتراك فاستبد بالسلطة حتى أصبح الخليفة العباسى « لا يقطع امرا دونه ولا يحل ويعقد الا على رايه » . بل هابه أمراء العرب والعجم ، ودعا له على كثير من منابر بلاد العراق والأهواز ونواحيها ، بل أصبح هو المتصرف فى بيت المال العباسى . وزاد نفوذه فى البلاد حتى أصبح الخليفة العباسى والسلطان البويهى معه ضعيفى الجانب وقد ساعد تشيع البساسيرى وبغضه لتصرفات بعض رجال الدولة الى الانقلاب على الخلافة العباسية وخصوصا عندما اشتد الصراع بينه وبين الوزير ابن المسلمة (أبو القاسم على بن الحسن بن المسلمة) من ناحية والجفوة التى وقعت بينه وبين الخليفة القائم العباسى من ناحية أخرى بسبب الوقيعة

---

(١٤) يعتبر المؤيد فى دين الله الشيرازى من أهم الدعاة الذين لعبوا دورا كبيرا فى نشر الدعوة الفاطمية ببلاد الفرس والعراق ، واستطاع بسياسته ان يجذب الملك أبا كاليجار البويهى الى هذه الدعوة . وقد ولد المؤيد فى دين الله هبة الله فى شيراز سنة ٣٠٩ هـ وأخذ عن والده موسى بن داود علوم الدعوة الفاطمية . وكان له دور بارز فى حركة البساسيرى وقد اعتمد عليه الخليفة الفاطمى فى أن ينتدب فى حمل المؤن والذخيرة والأموال الى البساسيرى فى بغداد .

التى أحدثها الوزير ابن المسلمة بين الخليفة القائم والبساسيرى فقد صار ينسب كل تمرد من الأتراك ببغداد الى البساسيرى مما أوجد هذه الجفوة بينه وبين الخليفة من ناحية ، وبينه وبين بقية الأمراء الأتراك من ناحية أخرى ، حيث أثار الأتراك فى بغداد ضده واتهمه بانه تسبب فى انقاص مرتباتهم فثاروا عليه ونهبوا أملاكه ببغداد . وذلك بعدما أبعده الخليفة عنها عندما علم بانه كاتب اليازورى وزير الخلافة الفاطمية فكانت هذه الحادثة هى نهاية العلاقة بين الخليفة القائم العباسى والبساسيرى ، وبداية الانجراف فى ركب الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وتوطيد علاقته بالدولة الفاطمية ، وذلك عندما خرج من بغداد مغضوبا عليه واستقر بمنطقة الرحبة ، فقد راسل الخليفة المستنصر بالله وأعلن دخوله فى طاعة الدولة الفاطمية ، كما كاتب الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى الذى كان يراقب الموقف الصعب الذى يمر به البساسيرى فرد على مكاتباته بأنه سيكون عونا له ولجنوده البغداديين ، فرد البساسيرى على هذه الرسالة بالشكر وطلب النجدة . وقد تضمنت رسالته للمؤيد فى الدين الشيرازى قوله : « فان أخذتم بأيدينا أخذنا لكم البلاد ، وان قلدتمونا نجاد نصركم وانجادكم فتحنا من جهتكم الأغوار والانجاد » .

وقد سارع الخليفة الفاطمى بامداد أبى الحارس البساسيرى بالأموال والخيل والسلاح ، وكلف بحمل تلك الامدادات الداعى المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى ، واقنعه الوزير أبو الحسن اليازورى بالقيام بهذه المهمة باعتباره سفيرا من قبل الخليفة الى البساسيرى ، وقد قبل المؤيد هذه المهمة واصطحب الامدادات وسار الى نجدة البساسيرى تصحبه فئة من الرجال تحمل الأموال والخلع والسلاح التى اشتملت على الف الف وثلثمائة الف دينار

والعين ألف ألف وتسعمائة ألف دينار ، والعروض أربعمائة ألف دينار . وتعتبر هــذه الامدادات كبيرة جدا بالنســبة لامكانــات الدولة فى تلك الفترة اى فى سنة ٤٤٨ هـ حيث كانت مصر تواجه ازمة اقتصادية طاحنة وغلاء يكاد يفتك بالبلاد ولذا فقد ذكر كثير من مؤرخى تلك الفترة ان هذه الامدادات التى أرسلها الخليفــة الفاطمى الى البساسيرى كانت سببا رئيسا فى خراب اقتصاديات مصر وانهيار ميزانيتها وقد ساعد المجهود الضخم الذى قــام به المؤيد فى الدين لاستمالة أمراء العرب لصف الدعوة الفاطمية الى جانب الامدادات التى حملها معه من مصر على نجاح البساسيرى فى دخول بغداد فى سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م واقامة الدعوة للخليفة الفاطمى على منابر بغداد ، وضرب العملة باسمه والقبض على الوزير العباسى ابن المسلمة وقتله أما الخليفة العبــاسى فقد فر الى منطقة تعرف بحداثة عانة هو واهله وحاشيته ، وهى منطقة قريبة من الانبار .

وقد قام البساسيرى بارسال ثياب الخليفة القائم مثل بردته وعمامته ومنبره وشباكه الذى يجلس عليه ، الى القاهرة مع كثير من التحف والأموال مما أبهج الخليفة المستنصر الذى أمر باقامة الاحتفالات بمصر والقاهرة بمناسبة وصــول متعلقات الخليفــة العباسى وقيام الدعوة الفاطمية على منابر بغداد .

وقد انشدت احدى المغنيات وتدعى نسب الطبالة هــذين البيتين :

يا بنى العباس صدوا ملك الأمــر معــد
ملككم مــلك معــار والعــوارى تسترد

الا ان الخليفة المستنصر لم يستطع مواصلة امداداته للبساسيرى بسبب ضعف امكانات مصر المالية حينئذ من ناحية، وبسبب عداء الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر المغربى (١٥) للبساسيرى من ناحية أخرى . ورغم ذلك فقد استمر البساسيرى على اخلاصه للخليفة الفاطمى وأقام له الخطبة فى بلاد واسط والبصرة . أما بغداد فقد استمرت الخطبة للمستنصر على منابرها أربعين جمعة . الا أن الأمور لم تستقم للبساسيرى ففى سنة ٤٥١ هـ قدم طغرل بك الى بغداد وأعاد الخليفة القائم العباسى، وقتل البساسيرى .

وتعتبر هذه الحادثة كما ذكر ابن ميسر : « آخر سعادة الدولة المصرية » . وبذلك فهو يرى أن الأموال التى خرجت من مصر لمساندة البساسيرى ضد الدولة العباسية كانت سببا فى خراب اقتصاد البلاد وضعفها مما جعلها تقف مكتوفة الأيدى أمام الحركات الانفصالية التى أخذت تنتشر منذ عهد المستنصر ، فقد خرج الشام من أيدى الدولة الفاطمية ، وقطعت الخطبة للخليفة الفاطمى فى حلب ولم يستطع بنو حمدان اعادة تلك المدينة الى

---

(١٥) من المعروف ان أبى الفرج المغربى هذا كان قد فر مع عائلته من مصر زمن الخليفة الحاكم بأمر الله بعد أن نكل بهم الحاكم واستمر ببلاد العراق ثم عاد الى مصر زمن الخليفة المستنصر بالله ووصل الى كرسى الوزارة بعد أن تولى ديوان الجيش زمن الوزير اليازورى ثم خدم فى ديوان السيدة أم المستنصر . وكان زمن وجوده ببغداد قد انضم الى البساسيرى ، ولكن حدث بينهما خلاف فر بسببه الى مصر وحذر الخليفة من البساسيرى فشعر المستنصر بخوف تجاهه مما جعله لا يلبى مطالبه .

حظيرة الدولة الفاطمية . اذ انكسر جيشه وعاد الى مصر منهزما. وقد وقفت الامكانات المالية فى وجه اعادة المدن التى كانت تنفصل عن جسم الدولة الفاطمية .

وقد شهد العصر الفاطمى الثانى الكثير من الحملات الحربية الأخرى التى استنزفت أموال البلاد وقضت على ما فى خزانتها من مدخرات ، وقد عددها لنا كل من ابن ميسر والمقريزى وابو المحاسن وابن الأثير ، وغيرهم من مؤرخى مصر الفاطمية .

الخاتمـــة

بعد ان استعرضـــنا فى الأبواب والفصـــول السابقـــة كل ما يتصل بالأحوال المـــالية والاقتصـــادية لمصر فى العصر الفاطمى ورؤية الرحالة المسلمين وتقييمهم فى هذا الخصوص لابد وأن نشير الى أهم النتائج التى توصلنا اليها من خلال هذا البحث والتى نجملها فيما يلى :

أولا ــ اتضح لنا أن النظام المـــالى الذى كان مطبقا فى مصر فى هـــذا العهد هو اســـتمرار للنظـــام المـــالى والادارى فى مصر الاســـلامية بعد الفتح والذى يعتمد على تقسيم الادارة المـــالية الى دواوين يختص كل منها بناحية معينة فى الاشراف على الموارد المـــالية المتعددة فى الدولة الاسلامية من خراج وزكاة ومكوس ... الخ . ليس فقط فى جمع وتنظيم هـــذه الموارد ، ولكن أيضـــا فى الاشراف على وجوه الانفاق المتعددة فى الدولة ، فكان هذا التنظيم الدقيق يطبق تعاليم الشريعة الاسلامية ، وبذا كانت معظم فترات حكم الدولة الفاطمية هى فترات ازدهار اقتصادى .

ثانيــا ــ اهتمت الدولة منذ البداية بتنمية ثروة مصر التى حباها الله بأرض زراعيــة خصــبة ، وجو معتدل متوســط فى اعتداله على مدار السنة ووفرة فى المياه العذبة من نهر النيــل الذى هو هبة الله لمصر فعملت الدولة الفاطمية على الاســتفادة من هذا كله بتشجيع وتنمية الثروة الزراعيــة وما يتصل بها من انتاج حيوانى وصناعى واستفادت من هذا كله فى تقدم الصناعات المختلفة التى كانت موجودة من قبل وعملت على ازدهارها لتغطى السوق المحلية ثم تقوم بتصــدير الفائض الى دول العالم المختلفة، فاوجدت بذلك رواجا تجاريا عظيما تمثل فى قيام مدن تجاريــة شهيرة وأسواق عامرة ومنشآت تجارية تدر أرباحا طائلة للدولة والتى اقامت بفضل ذلك علاقات خارجية متميزة مع كافة دول العــالم فكان لمصر اســمها وشهرتها لدى هــذه الدول جميعــا واستفادت الدولة الفاطميــة الشيعيــة المذهب من هــذا الغنى والازدهار لتعمل من خــلاله على نشر مذهبها ســواء فى داخل مصر أو فى خارجها .

ثالثــا ــ ابرزت هــذه الدراسة من خــلال تقييمنا لكتابات الرحــالة ورؤيتهم للأحوال المــالية والاقتصــادية لمصر فى العصر الفاطمى مراحل ازدهار الاقتصــاد المصرى فبينت اسباب ذلك وكيفيته ثم اثر ذلك على سياســة مصر وعلاقــاتها الخارجيــة بدول العالم خاصة الدول المحيطة بها والمتعاملة معها فى مجــال التجــارة والصناعة بل والسياســة ايضا . كذلك أبرزت هــذه الدراسة أيضا بعض المراحل التى عانت فيها البلاد من القحط وانتشار الأوبئة فبينت كيف انهار الاقتصاد المصرى خلال هذه المراحل القصيرة وخاصة ما عرف منها باسم « الشدة العظمى » فوضحت أسباب هذه الشدة ونتائجها وآثارها المدمرة على كافة

المستويات سواء فى داخل البلاد أو فى انعكاس هـذا على سياستها الخارجية وكساد أسواقها وتجارتها .

رابعـا ــ من خلال كل ما تقدم فقد قدمت هـذه الدراسة أقوال وآراء ونقد الرحالة المسلمين لمـا شاهدوه وعايشوه من أحداث وظواهر ومدى مطابقة أقوالهم للأحوال السائدة آنذاك حسب كتابات المؤرخين والكتاب المصريين وغير المصريين . فقد قدمت نقدا وايضاحا للكثير من النقاط التى قد تكون فاتت هؤلاء الرحالة باعتبار أن الرحالة عادة ما هو الا عابر سبيل ينتقد بعينه ما يراه ظاهرا واضحا أمامه دون أن يتعمق فى البحث عن أسبابه أو ما يكشف عن ظواهره ، فأوضحنا هـذا من خلال غوصنا فى أعماق تاريخ مصر منذ الفتح الاسـلامى وحتى قبيل هذا الفتح لنتفهم هذه الظواهر على أسس تاريخية عميقة .

خامسا ــ حرصنا خلال هذه الدراسة أن تقوم فى كثير من المواضع على أساس الدراسة المقارنة وذلك بأن نستعرض تاريخ مصر القـديم ثم الفتح الاسـلامى ثم ما استحدث أيـام الدولة الفاطمية مع بيان تطور هـذا كله لنتبين الفرق بين ما كان سائدا من قبل وما قامت به الدولة الفاطميـة من تطور أو استحداث بعض الأمور المهمة .

ونرجو بهدا أن نكون قـد وفقنـا فى استجـلاء الكثير من الموضوعات ذات الأثر المهم على تاريخ مصر الاسلامية فى هـذه الحقبة المهمة من تاريخها أيام الدولة الفاطميـة . والله من وراء القصد فعليه سبحانه الاعتماد ، وبه التوفيق والسداد .

صدر فى هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان

٢ ـ علـى ماهـر
اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشـواطىء المصرية فى العصـور الوسـطى
عليه عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ١
لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات

٥٢٨

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد انيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ـ اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسنى الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نور فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. احمد محمود صابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى
د. محمد أنيس

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيـق الطويـل

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر
جمـال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيـق الطويـل

٢٤ ـ الصحافـة الوفـدية
د. نجـوى كامـل

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى والغرب
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد ابو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ـ مصر فى عهد الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د. حلمى احمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شـكرى القـاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ج ٢
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خـالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ج ٢.
ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

٣٧ ـ الشيخ على يوسـف
تاليف : د. سليمان صالح

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصـادى والاجتمـاعى فى العصر العثمـانى
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان
د. جميـل عبيـد

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب ١٩٤٨
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى

٤١ ـ محمد فريد الموقف والمـأساة
رفعت السـعيد

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصــور
محمد شفيق غربال

٤٣ ـ رحـلة فى عقـول مصريـة
ابراهيم عبد العزيز

٤٤ ـ الأوقـاف والحيـاة الاقتصـادية فى مصر فى العصر العثمـانى
د. محمـد عفيفى

٤٥ ـ الحـروبالصليبيـة جـ ١
ترجمة : أ.د. حسن حبشى

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ١٩٣٦ : ١٩٥٧
ترجمة : د. عبد الرؤوف احمد عمر

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث
تأليف : أ.د. لطيفة محمد سالم

٤٨ ـ الفـلاح المصـرى
تأليف : د. زبيدة عطـا

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية
تأليف : د. عبد العظيم رمضان

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية
تأليف : د. سـهير اسكندر

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية
اعداد : د. عبد العظيم رمضان

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحـالة والقناصـل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر
تأليف : د. الهام محمد على ذهنى

٥٣ ـ اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك
د. محمد كمال الدين عز الدين على

٥٤ ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى
تأليف : الدكتور محمد عفيفى

٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ ٢
ترحمة وتحقيق : د. حسن حبشى

٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على
د. حلمى احمد شلبى

٥٧ ـ مصر الاسلامية وأهل الذمة
د. سيدة اسماعيل كاشف

٥٨ ـ أحمدحلمى سجين الحرية والصحافة
د.ا براهيم عبد الله المسلمى

٥٩ ـ الراسمالية الصناعية فى مصر
د. عبد السلام عبد الحليم عامر

٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية
عبد الحميد توفيق زكى

٦١ ـ تـاريخ الاسـكندرية
أ.د. عبد العظيم رمضان

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ج ٣
لمـعى المطيعى

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبد العصور
اعداد : د. عبد العظيم رمضان

٦٤ ـ مصر وحقوق الانسـان
د. محمد نعمان جلال

٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية
د. سـهام نصـار

٦٦ ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى
د. نريمان عبد الكريم احمد

٦٧ ـ الأصول التاريخية لمساعى السلام العربية الاسرائيلية
أ. د. عبد العظيم رمضان

٦٨ ـ الحروب الصليبية ج ٣
ترجمة وتحقيق : أ. د. حسن حبشى

٦٩ ـ نبوية موسى ودورها فى الحياة
د. محمد أبو الأسـعاد

٧٠ ـ اهـل الذمـة
أ. د. حسن حبشى

٧١ ـ مذكرات اللورد كليرين
ترجمة : د. عبد الرؤوف احمد عمر

الفهـــرس

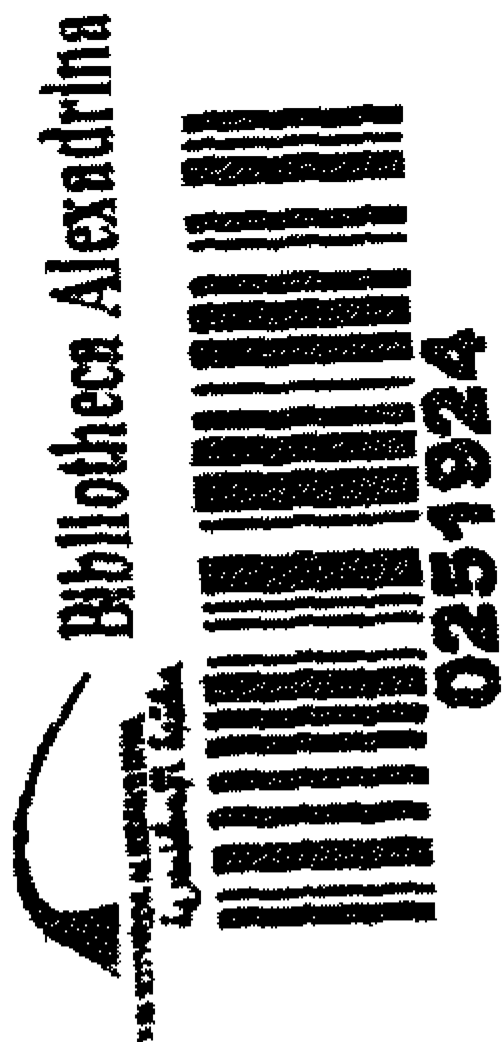
الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ٥٨٧٢/١٩٩٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977—01—4011—2

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الكتاب يعالج عدة موضوعات على جانب كبير من الأهمية عن الرحالة المسلمين فى العصور الوسطى وكتاباتهم، والنظم المالية التى كانت مطبقة بمصر، وملاحظات الرحالة عليها، ودواوين الإدارة المالية فى الدولة الفاطمية، والموارد المالية، والمصادرات، ووجوه الإنفاق الرئيسية للدولة، ونظام النقد الفاطمى، وأوضاع مصر الاقتصادية فى العصر الفاطمى، وثرواتها، ونظام الرى، والصناعات المصرية الرئيسية فى ذلك العصر، وصناعة السفن، وصناعة الخمور.



مطابع الهيئة المصرية العامة

٤٥٠ قرشا